فاروق مردم بك / ممدوح عزّام / صالح الحاج صالح / كوليت بهنا
سلام كواكبي / روزا ياسين حسن / رستم محمود

صفحات من دفتر قديم

سبعة كُتّاب سوريّين يروون سيرهم المدرسيّة

إعداد: رستم محمود / تقديم: أحمد بيضون

المتوسط

والحقّ أن البغية العامّة لهذه المعاملة كلّها إنما هي الإذلال. وهي، أي المعاملة، تطلّ من باب الإذلال هذا على النظام الاجتماعي السياسي برمّته، أي على سوريا الأسدية. فيكاد يصحّ أن تُوصَف سوريا الأسدية هذه بأنها هَرَم إذلال. فَمَنْ كان له قسطٌ من سلطة، أو من فتات سلطة، بالَغ في جعل علاقته بمَنْ هو دونه نكالاً لهذا الأخير عالِماً أو غير عالم بأن دافعه إلى هذا السلوك إنما هو ما يلقاه من ذلّ على أيدي مَنْ هم فوقه في الهَرَم، وهو أيضاً مبالغته في الرضوخ لهذا الذلّ مبالغةً لا يُدرى إن كانت فرضاً أم تطوّعاً. فإذا نحن انتبهنا إلى إشارات، تُظهر مُدرِّبي «الفتوّة» العسكريّيْن على أنهم مصدرٌ لأشدّ العنف، وأكثره اعتباطاً، وإذا قرنّا هذه الإشارات بأخرى، تفيد أن هؤلاء العتاة قادمون من شرائح اجتماعية مُستضعَفَة، لا أمل لها في بلوغ ما هو أرفع موقعاً، وقفْنا على المنطق النفسي الاجتماعي لتماسك النظام عموماً (وعلى منطق بنيته العسكرية خصوصاً): منطق هَرَم الذلّ.

من مقدمة: أحمد بيضون

المتوسط

صفحات
من دفتر قديم

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٩ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجَّهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Safahat Men Daftar Qadim *by:*
"Farouk Mardam Bey / Mamdoh Azzam / Saleh Alhaj Saleh / Colette Bahna
Salam Kawakibi / Rosa Yassin Hassan / Rustum Mahmoud"

Copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: فاروق مردم بك / ممدوح عزّام / صالح الحاج صالح / كوليت بهنا / سلام كواكبي / روزا ياسين حسن / رستم محمود
عنوان الكتاب: صفحات من دفتر قديم
الطبعة الأولى: ٢٠١٩.
صورة الغلاف: سلافة حجازي / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-69-7

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

فاروق مردم بك
ممدوح عزّام
صالح الحاج صالح
كوليت بهنا
سلام كواكبي
روزا ياسين حسن
رستم محمود

صفحات من دفتر قديم

سبعة كُتّاب سوريّين يروون سيرهم المدرسيّة

إعداد: رستم محمود
تقديم: أحمد بيضون

المتوسط

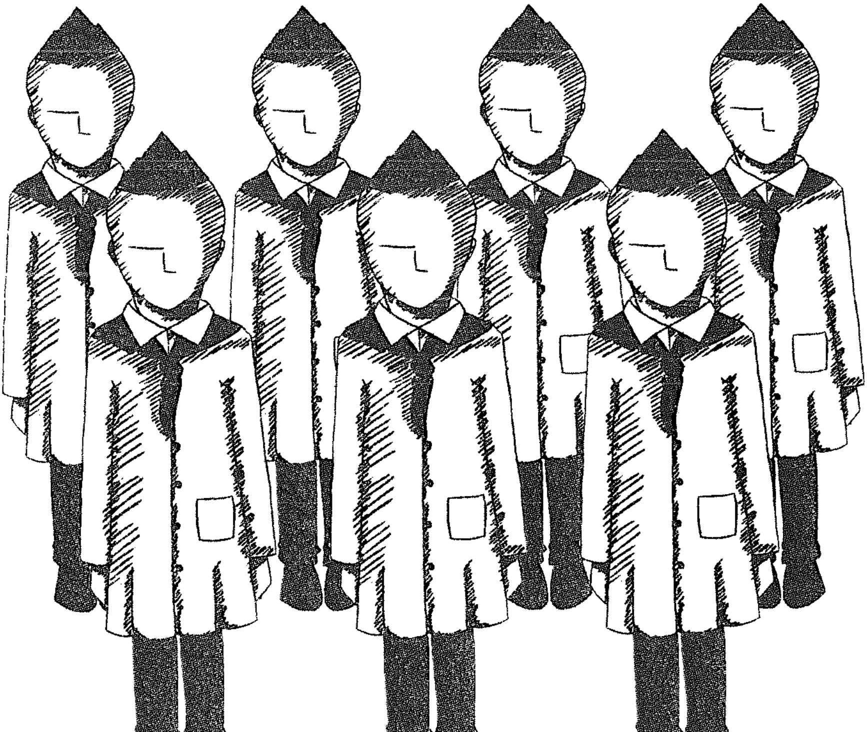

تقديم

أحمد بيضون

لا أُقبِل على تقديم هذا الكتاب الجميل لعلْمٍ اختُصصتُ به بأحوال المُجتمع السوري، قريبِها والبعيد، أو لخبرةٍ بالمدارس السورية، على الخصوص، وبالنظام التربوي المعتمد فيها على اختلاف عهوده. فالحقّ أن نصيبي من ذلك كلّه جدٌّ ضئيل. ولعلّي أقرب إلى الاعتداد بما أنا عليه من جهل، وإلى البناء عليه في القيام بهذه المُهِمَّة، منّي إلى التعويل على معرفةٍ أو خبرة.

وحتّى لا أقع في تمسْكُنٍ لا طائل تحته، أجْهَر بترجيحي أن يكون هذا الجهل الإجمالي بما هي سوريا (أو بما كانت) مشتركاً، ولو تباينت الأقدار والنِّسَب، بيني وبين عموم السوريّيْن. ذاك، في كلّ حال، ما يشهد به أمران. الأمر الأوّل ضعف حركة البحث المتعلّق بالمُجتمع السوري في نصف قرن انقضى من اللَّجْم والقَهْر، وهو ما تشي به لائحة المراجع الملحقة بأيّ عمل جادّ، ينتمي إلى هذا المضمار. والأمر الثاني شعورنا في سنوات الثورة والحرب الجارية أننا نكتشف سوريا كلّ يوم مُتبيِّنين منها أوضاعاً وعلاقاتٍ وتوجُّهات، كنّا نجهلها، وأن هذه هي حال مَنْ نعرفهم من السوريّيْن أيضاً. تعلّمنا، وما نزال نتعلّم، أموراً كثيرة، بينها أسماء قُرى وبلدات متناثرة في طول سوريا وعرضها، وبينها تقاسيم بشرية لأحياءٍ تتوزّع هذه المدينة أو تلك أو تتوزّع محيطها، إلخ.

ولقد علِمنا، ونحن نتعلّم، أنه لا يمكن أن يكون بلا تبعاتٍ ثقيلة نصفُ قرنٍ تبْقى فيه بلادٌ كبيرة، هي سوريا، بلا صحافةٍ من أيّ نوعٍ، تستحقّ هذا الاسم، وتبقى حركة البحث والنشر فيها خاضعةً لتوجيه مباشر أو غير مباشر، ينحو نحو استبعاد ما فيه نقد أو إحراج لأهل الحكم. فلا يُستثنى من المقصّ الموضوعي أو الذاتي إلا ما كان مُجلبَباً بالرمز أو سالكاً سبيل "الثقافة العامّة"، فيكاد لا يُسمّي شيئاً باسمه من الأثقال الرازحة على صدور السوريّيْن. تلك هوّة لا تني تنشر غشاوةً على أبصار المحدِّقين فيها، ولا تني هذه الغشاوة تزداد صفاقةً، كلّما ابتعد الجيل عن عهدٍ، كانت فيه الحال، على علاّتها، غير هذه الحال. هذا ولا يَردم إلا اليسيرَ من هذه الهوّة ما يُوفَّق إلى إنتاجه سوريون مقيمون في خارج بلادهم أو أجانبُ معتنون بشؤون سوريا. وقد يكون الأدب، أي الرواية خصوصاً بما عرفتْه من ازدهار في العقود الأخيرة، وبما لها من اقتدار في العرض المحسوس للخبرة الشخصية، وفي التعمّق فيها، أقدرَ الأنواع على الكشف بعض الشيء عمّا يحجبه الحدّ المضروب على حُرِّيَّة البحث الاجتماعي، وعلى نشر الأبحاث.

ذاك ما زَيّن لي ذاتَ مرَّة أن أتوسّم في إضبارات أجهزة الاستخبارات، القابعة في مواقع كثيرة، نتخيّلها "أقبية"، أضخمَ قاعدةٍ للمعطيات متخصّصة في المُجتمع السوري، أفراداً وجماعات. ولكنها قاعدة محجوبة عن غير مَنْ أُعدّت لهم، ولا يُنتفع بها في معرفةٍ ما، لم يكن هَمّ هذه المعرفة مراقبةً أو معاقبة. وهو ما لم يمنعني أن أرى في الحالة السورية حالةً "تستوي فيها الوشاية مصدراً للدِّراية".

يمثّل الكتاب الذي بين يَدَيّ خرقاً لهذا المنطق. هو مُكوَّن من أوراق، قد يصحّ، إن نحن تجاوزنا ما فيها من لطفٍ وألَق، أن نعدّها "تقارير". ولكن هذه "التقارير" لم يعدّها أهل الاستخبارات، ولا هي أُعدَّت لهم.

وإنما أعدّها ذوو دربة في العرض والصياغة كانوا، من وجوهٍ شتّى، هم أو بعض أُسرهم في الأقلّ، بين ضحايا الأجهزة المشار إليها. هي، بهذه المثابة، تقارير مضادّة، كرّسها أصحابها لموضوع واحد، بالغ الأهمّيّة. هي مضادّة بالنَّفَس وبالتّوجّه وبالمضمون. ويكثر فيها، إلى ذلك، ما يجوز أن نُسمِّيه الوشاية بالوشاة! وأمّا موضوعها، فهو المدرسة السورية، ودورُها في التكوين الشخصي لكلّ من المؤلّفين، وما يشير إليه هذا الدَّور من موقعٍ عامّ لها، في المُجتمع أو في موضعٍ وعهدٍ من مواضع هذا الأخير وأزمنته. لهذه الجهة، تُساوق هذه الأوراق بعض صحافة السنوات الأخيرة، سنوات العصيان في سوريا، وبعض الأبحاث السورية الجديدة التي لا يزال يحتاج بلوغها سويّةً مُرضية إلى أعوامٍ كثيرة، وتساوق أيضاً بعض الأدب السوري الجديد الذي ندين بعناوينَ منه، في مضمار الرواية على الخصوص، لبعض كُتّاب هذه الأوراق أنفسهم.

***

وأوّل ما ينبغي التنويه به - لا ريب - هو تنوُّع هؤلاء الكُتّاب. هم جميعاً كُتّاب، أي أصحابُ أقلامٍ، لجهة الحِرْفَة. ولكنهم، فضلاً عن توزُّعهم بين مضامير كتابية مختلفة، مُوزّعون - وإن بغير تساوٍ - بين الجنسَيْن، ومُوزّعون بين جيلَيْن مدرسيَّيْن أو ثلاثة ... فتغطّي خبرتهم المدرسية ما قد يربو عن ثلاثة عقود من عمر المدرسة المعاصرة في سوريا، ومن عمر نظام البعث وعشاياه القريبة. هم أخيراً مُوزّعون بين المناطق السورية، مُوزّعون أيضاً أو مُوزّعة مدارسهم بين حواضر وأرياف في تلك المناطق، وهذا على اختلاف جسيم في هذه وتلك. فلا دمشق وحلب هي الرّقّة، ولا الرّقّة هي القامشلي، ولا اللاذقية هي السويداء، إلخ ... وهذا حين لا تتنزّه مواقع الدراسة، في حالة صبيّ واحد منهم، ما بين جبل الأكراد والحسكة، وما

بين القامشلي والسويداء، إلخ. هذا كلّه يُوقِفنا ونحن نقلّب صفحات الكتاب، ونعبر فصلاً إلى آخر على باقة غزيرة الألوان، من أنماط العيش وأُطُره، ومن المدارس، ومن نُظُم العلاقات ما بين هذه وتلك ... وهذا كلّه من غير أن يغادر الكاتب إلاّ استثناءً ما شهِد بنفسه، وخَبِر.

ثاني ما ينبغي التنويه به أن هذه الفصول تتبسّط ما شاء لها التّبسّط في عرض أحوال الوسط الذي وُجدت فيه المدرسة. بل إنها، أي الفصول، لا تفْرد، على الإجمال، سوى أنصبة محدودة من متونها لعمليّة التدريس، بما هو نَقْلٌ للمعارف، وبما هو - افتراضاً - هَمّ المدرسة الأوّل. هي لا تُهمل الإشارة إلى وقائع، تتعلّق بتعليم اللغة أو التاريخ أو الدِّين: لا مُتعمّدةً الإحاطة، بل مسوقةً، في الأغلب، بداعي الطرافة أو، أيضاً، بالدلالة التربوية للواقعة. وذاك أن "التربية"، بمعنىً بعينه، لا "التعليم"، بمعناه المدرسي، هي ما يراه كُتّابنا أجدر بالصدارة في عرضهم لذكرياتهم المدرسية، وفي تأمّلهم فيها. لذا نراهم يجعلون الصلة دائمة الظهور ما بين المدرسة وأوساط التنشئة الأخرى. أوّل هذه الأوساط العائلةُ، بطبيعة الحال. ولكن العائلة حين تكون في قرية، تشهد حصول نوعٍ من الاستغراق للمدرسة في هذه الأخيرة. فتبقى ماثلةً في الصّفّ أصواتُ القرية ومناظرها وروائحها، وتستوي الأعمال المدرسية وجهاً من وجوه الحياة القروية، يكاد لا يُسفر عن تعديل يُعتدّ به لاندراج يوميات التلامذة في حياة القرية ...

مع ذلك، يبقى الوتر المشدود بين العائلة والمدرسة بارزاً جدّاً في صفحات كثيرة. لا لأنه جدير بالبروز بحدّ ذاته وحسب، بل لأنه ينتهي إلى مسائل جمّةٍ أخرى: مسائلَ تتعلّق بموازين القوى الاجتماعية أو بالفرص المتاحة للتلامذة أو بالنوازع الطائفية وأطوارها، إلخ. العائلة أوّلاً خطّ دفاعٍ للتلميذ، يتحصّن بها الصغار خصوصاً عند تعرّضهم لمظالم في المدرسة

يدركون طبيعتها بما يشبه الفطرة. ولكن هذا الملجأ قد يبدو بابه مُقفَلاً أمام الولد من الداخل والخارج. فحين يتلقّى الولد العنفَ من ذي صفة ... حين يسلكُ إليه العنف مجرىً معتاداً، معترفاً بشرعيّته، لا ينفعه الملجأ العائلي. وحين يكون هذا الملجأ هزيلاً أصلاً، يتهاوى أمام سطوة المعتدي، وقد تُنكره المدرسة نفسها، وتستبعده. وليس بعيداً أن يزيد عنفُ المرجع العائلي، إذا استُدعي إلى المدرسة، عن عنف المرجع المدرسي، وأن يزيد عليه ... فيؤكّد كلّ منهما "حقّ" الآخر في التنكيل بالصغير. فلا يبدو ذا حظٍّ في النجاة من هذا التنكيل إلا من تشفع له بُنُوّته للدركي أو لكبير العشيرة، إلخ.

ذاك يُسوِّغ التّلبّث قليلاً عند القمع بغية الإخضاع والترويض، بما هو وظيفة أولى للمدرسة في معظم هذه الأوراق: وظيفةٌ لا تنحو إلى التّخفّي في صيغ غير مباشرة (وفي أخرى ودودةٍ أيضاً) إلا في مدرسَتَيْن أو ثلاث من المدارس الكثيرة التي تَقلّب بينها كُتّابنا السبعة. في الحالات الأخرى، يبقى القمع، بصوره العنيفة أوّلاً، أظهَرَ ما ثبت في ذاكرة هؤلاء التلامذة السابقين. على التلامذة أن يجلبوا العصا التي سيُضربون بها ... وهم يتبارون في التلبية. والضرب بالعصا فنّ تتدرّج شدّته بين وجه العصا العريض وحدّها الدقيق، ثمّ بين باطن الكفّ وظاهرها ... وهذا حين لا ينتقل المسؤول - إذا استشاط! - إلى الصفع، وإلى ما هو أدهى. حتّى إن الضرب يمكن أن يكون أقرب إلى الثأر الشخصي منه إلى العقوبة المدرسية. فتظهر في أسلوبه، وعلى وجه مَنْ يزاوله البغضاء. يبغض المدرّس أو الموجّه التلميذ، لأنه يبغض مهنةً، باتت رثّةً مع الأيّام أو لأنه يُظهر على هذا النحو سلطةً، تفتقر إلى مَنْفذ آخر أو ينفث بهذا العنف شكواه لعيبٍ أو نقص ابتُلي به. على الإجمال، يأتي العنف فائضاً بمصادره عن ذنوب الأولاد.

بل إنه قد يفيض إلى حدّ، يستغني معه عن كلّ ذريعةٍ حاصلة من جانب المضروب. الموجّه أو المُدرِّب قد يضرب ولداً، بلا سبب راهن. هذا ضربٌ استباقي: عقوبةٌ لذنب قد يحصل ... فتدرأ العقوبة الاحتياطية حصوله. أو هو ترويض عامّ، لا يحتاج إلى مسوّغ مباشر. ولعلّ أدهى ما في أمر الضرب "تفويض صلاحية" العقاب لواحد من التلامذة. وهو ما يُثمر، إلى الخراب النفسي الذي ينذَر له هذا "العريف"، خراباً متسلسلاً لعلاقته برفاقه، وبمحيطه كلّه.

والحقّ أن البغية العامّة لهذه المعاملة كلّها إنما هي الإذلال. وهي، أي المعاملة، تطلّ من باب الإذلال هذا على النظام الاجتماعي السياسي برمّته، أي على سوريا الأسدية. فيكاد يصحّ أن تُوصَف سوريا الأسدية هذه بأنها هَرَم إذلال. فَمَنْ كان له قسطٌ من سلطة، أو من فتات سلطة، بالَغ في جعل علاقته بمَنْ هو دونه نكالاً لهذا الأخير عالِماً أو غير عالم بأن دافعه إلى هذا السلوك إنما هو ما يلقاه من ذلّ على أيدي مَنْ هم فوقه في الهَرَم، وهو أيضاً مبالغته في الرضوخ لهذا الذلّ مبالغةً لا يُدرى إن كانت فرضاً أم تطوّعاً. فإذا نحن انتبهنا إلى إشارات، تُظهر مُدرِّبي "الفتوّة" العسكريّيْن على أنهم مصدرٌ لأشدّ العنف، وأكثره اعتباطاً، وإذا قرنّا هذه الإشارات بأخرى، تفيد أن هؤلاء العتاة قادمون من شرائح اجتماعية مُستضعَفَة، لا أمل لها في بلوغ ما هو أرفع موقعاً، وقفْنا على المنطق النفسي الاجتماعي لتماسك النظام عموماً (وعلى منطق بنيته العسكرية خصوصاً): منطق هَرَم الذّلّ.

على أن الضرب ليس الصيغة الوحيدة للعنف المادّيّ. "مشية البطّة" تدخل تحت هذا الباب، وكذلك الوقوف طويلاً على قَدَمٍ واحدة، والوجهُ إلى الحائط، واليدان مرفوعتان، إلخ. ثمّ إن العنف المادّيّ ليس السبيل الوحيد إلى تطويع الناشئة في المدارس. وإن يكن هو السبيل المَلَكِيّ إلى

الإذلال وكَسْر الشكيمة، خصوصاً متى صحبه التحقير اللفظي والبذاءة إمعاناً في استئصال الشعور بالكرامة. ولكن العقوبات، إلى ذلك، فنون. حجز الحُرِّيَّة في وقت الاستراحة مثال. وقد يتمثّل الحجز تمثّلاً دائماً في سور المدرسة أو في طراز عمارتها "السوفياتية" ...

هذا ومضامين بعض الموادّ جديرة بما يخصّها بها كُتّابنا من اهتمام، وبما هو أكثر منه. تأسيس تاريخ المشرق والمغرب على انهيار سدّ مأربٍ، وتفرُّقِ بني سبأٍ أيدي سبأ لا بدّ أن يُشعِرَ صاحبَنا الكردي أن قومه قد يكونون هبطوا في "سفينة حنان" من القمر. والمثال المُعطَى للكتابة تكرار هزليّ في نظر قرية، تملأ فيها الزهور الحقول، وتأكلها السوائم. أهمّ من هذا، في خبرة غير العرب من التلاميذ، نوع من الفصام، تدخله في نفوسهم عروبة المدرسة: ذاك هو الفصل بين عالم وجداني، يتعرّفونه، ويعبّرون عنه بلغتهم القومية، وعالمٍ معرفي، يتلقّون مضامينه بالعربية في المدرسة.

هذا ويبني تدريس الدِّين، في قول واحدٍ من كُتّابنا، "قبيلة الإسلام"، إذ يأتي الدِّين ومُدرِّسوه خلواً من كلّ روحانية. وتحفّ بالتلامذة جواذب إلى الطبعات المتشدّدة من الدِّين، إذ ينطوي الانتماء إليها، بما يتيحه من شعور بالاستعلاء، قوامه الاقتناع باحتكار الدِّين الحقّ ومفاتيح الجنّة، على إمكانٍ لتعويض مهانةٍ مُتنوّعة المصادر، أظهرُ مصادرها ما يحمله البعث وأجهزته من ضغينة لكلّ بادرة للتّديّن السياسي. على أن بعض الفرص العارضة لمعرفة الدِّين الآخر، في مدارس، تنتسب إليه أو في غيرها، يتبيّن لنا أنها تُلطِّف العلاقة بالدِّين كلّها. وذاك أن الدِّين الآخر يستوي دِيناً اختبارياً أو اختيارياً، لا يُشترط الإيمان به، ولكنْ، يسعه أن يُدخِل جرعة حُرِّيَّة إلى الإيمان بالدِّين الموروث. تحيل ضروب القمع والإخضاع هذه كُتّابنا، أو بعضهم، بلا عناءٍ، إلى هزيمة ١٩٦٧ الصريحة، وإلى التطبيل لحصيلة

حرب ١٩٧٣ الملتبسة، ثمّ إلى مذبحة حماه، وما حفّ بها من مقدّماتٍ وعواقب ... إلى أن يحطّ بهم الاستبصار رحاله عند ما هو جارٍ في سوريا ولها في أيّامنا هذه ...

***

أيّ مهربٍ يبقى متاحاً، من بَعدُ، من الحشر المدرسي هذا؟ تبقى مدارس برمّتها يحفظ لها بعض كُتّابنا ممّنْ كانوا فيها مودّة صريحة، ويعلنون "حُبّهم" لمَنْ كانوه هم أنفسهم فيها. تلك مدارس لا تقدّم العنف البدني والإهانة في نظامها على التعلّم واللعب (وهذا مع الالتفات إلى قسوة الراهبات، مثلاً ... ثمّ إلى إجهاشهنّ، وهنّ يُودّعنَ التلميذات في مدرستهنّ المؤمّمة). تلك كانت مدارس، تفتح نوافذها لثقافةٍ أخرى. فتُنشئ هذه الثقافة، وهي منسوبة إلى الاستعمار في المبدإ، علاقة توتّر بالتنشئة العربية. ولكنْ، لا تلبث أن تتكشّف عن تعدّد في المشارب يتقبّل، بين ما يتقبّل، معاداة الاستعمار. ذاك لا يُبطل التّوتّر الذي تبقى له مواردُ أبعد غوراً من المواقف الصريحة. غير أنه يُتيح سياسةً حُرَّة لتكوين الذات هي مسؤولية الفرد وهي، على وجه التعميم، امتيازٌ طبقي، ما دام أن هذا النوع من المدارس مُشرَّعٌ أصلاً للطَّبَقَتَيْن الوسطى والعليا، وإن يكن الاعتبار الطائفي وما جرى مجراه قد يُفرد فيه أمكنةً لقلّة من رقيقي الحال.

في المدارس "الوطنية" أيضاً، وقع كُتّابنا، استثناءً، على مُدرِّسين، يجمعون الطِّيبة إلى الكفاءة. وجدوا كثيراً من المتعة أو قليلاً في تعلُّم مادَّة من الموادِّ. ولا حاجة إلى القول إن الإجادة في مادّة أو موادّ باب إلى تعزيز الثقة بالنفس في مناخ الهوان المحيط. ولكن توكيد المكانة الشخصية كان يوجَد سبيل سهلٌ إليه، هو سبيل المنظّمات الرديفة للبعث من "الطلائع" إلى "الشبيبة". عمليّاً تحتكر هذه المنظّمات منافذ التلاميذ إلى الساحة

العامّة. فإذا أقبلوا عليها، لم يخلُ الأمر من تسهيلٍ لإفضاءٍ ما إلى الساحة المذكورة. وهذا مع العلم أن للأمر ثمناً، قد يتعدّى مُجرّد دخول المنظّمة، إذ المناخ الاستخباري مُخيّم ههنا أيضاً، وإذ للتلميذ مَنبت، قد تكون معرفة ما يجري فيه مطلوبة، فضلاً عن معرفة ما يدور بين أعضاء الوحدة التنظيمية نفسها. لقاء ذلك، تُقدِّم المنظّمة فرص انتساب إلى فِرَقٍ فنِّيَّةٍ، مثلاً، وفرص ظهور أمام جمهور، ومغرياتٍ أخرى، من بينها اختلاط الجنسَيْن في الوحدات. بعد استنفاد المنظّمة أغراضها، يُعرَض على التلميذ الذي يكون قد بلغ سنّاً مناسبة الانتساب إلى الحزب ... وهو ما "نجا" منه كُتّابنا سَلَفاً، باستثناء واحدٍ منهم "أنقذ" نفسه بعد شوطٍ حزبيّ قصير.

ما خلا السهو والغَلَط، وما بدا لنا استثناءً للتّوّ من إقبال على التحصيل، واستمتاعٍ به، يتناول ما يمكن عدّه "ذكرياتٍ إيجابية"، حفظها كُتّاب هذه الفصول من سنيّهم المدرسية أموراً، حصلت في خارج المدرسة أو حصلت ضدّ نظامها: عناءَ الأمّهات، على اختلاف وجوهه، طرافةَ أب أو جدّ أو امرأة من المحيط، برعوا في رواية الحكايات، السينما بِعَجَرِهَا وبَجَرِهَا، المركزَ الثقافي ومكتبتَهُ، بعضَ الدروس الخاصّة، وخصوصاً ما خُتم منها بقُبل، بعضَ العطل في بيروت وجبل لبنان، مخالفةً للنظام، ينجو بها الفاعل بجِلْده، استكشافَ المدينة، أشجاراً تتسلّقها البنات بلا سراويل، وغنماً يسرح به الفتيان، وجنِّيّاً مُتفرِّغاً لخدمة المُفتي، سهراتٍ راقصةً في البيوت لذوي النعمة، والمبغى الرسمي للكبار منهم، وصوراً مثيرة، يستأجرها ذوو الدَّخْل المتهافت أو وقفةً تُعاد عند باب مُوظّفة حسناء ... أو – أيضاً – "لزّاً" تأذن به تلميذة لجارها على المقعد، أو مُجرّد التّفكّه بالنظر إلى بغايا قادمات للفحص الطّبّي، إلخ ... وأمّا الغرام، فقد تظهر له تباشير، ولكنها، في حالَتي الصِّبْيَة والصبايا، لا تلبث أن تغور بانتظار أوساطٍ أخرى، وسنّ أخرى، على الأرجح. ومهما يكن من شيء، تبدو الحسرة على اختلاط

الجنسَيْن باقيةً إلى الآن في الحالات التي لم يكن فيها الاختلاط حاصلاً ...

شيءٌ آخر يظهر في أكثر من منزل من منازل مُؤلّفينا مشيراً إلى مناهضةٍ منتشرة للمهانة العامّة. كُتُبٌ حمراء، وآلة سرّيّةٌ لتصوير الكُتُب والنشرات، رواحٌ وغدوٌّ غير مألوفَيْن إلى المنزل ومنه، واختفاء معارف، إلخ. هذا يشي برغبة غير راكدة في مناوأة الطغيان. ولكن هلع الأهل، حين تبدر من التلميذ بادرةٌ تجري في المجرى نفسه أو تعرّضهم لتحقيق أو مراقبة، يدلّ، بين ما يدلّ عليه، على غلبة الخوف على النفس، وعلى الأولاد، وعلى جعل الأهل سلامة هؤلاء، خصوصاً، فوق كلّ اعتبار.

توجد شقوقٌ في قلعة الهوان هذه، إذنْ. توجد كسورٌ في المُجتمع، تصل أصداء تَقَلْقُلِهَا إلى المدارس. فلا يُقتصَر أمر السلطة في المدرسة على المواجهة بين معسكر التلامذة وأهاليهم ومعسكر المُدرِّسين والإدارة. وهو ما دلّت عليه مصائر متضادّة لتلامذة دخلوا سنوات النار والدمار الجارية بعد أن أمسوا كباراً. دلّت هذه المصائر أيضاً على أن ما تعد به الكسور ليس بالضرورة عَوْداً إلى تماسُك صحّيّ. وكانت شقوق المُجتمع بأسره فاغرةً في المدرسة الواحدة وبين مدارس ومدارس. في المدارس، كانت الشقوق الطبقية فاغرة، وكان مَسلك القيِّمين على المدارس يُعزِّز خريطتها الجديدة. وهي خريطة قضت بتنسيب المسؤولين عن أجهزة النظام إلى الطبقة المسيطرة، وبتسليم كبارهم قيادتها. فكان لذلك كلّه ترجمته في المدارس.

يبدأ الأمر بتلميذات، يصلنَ إلى المدرسة، ويغادرنَها بسيَّارات رسمية، وأخريات يلجأنَ إلى الحافلة أو يُعوِّلنَ على أقدامهنّ. ولكنْ، يصل الأمر إلى سلب طالبةً طالبةً أخرى مكانها في بعثة أو إلى وضع طالب في موضعٍ آخر مُستحِقّ، اختار وجهة لغوية بعينها، إلخ. وقد يَسوغ عدّ هذه الامتيازات

التي حظي بها أولاد الذوات الجدد أفدح إضراراً بعملية التعليم من سيطرة طبقة وسطى تقليدية، بقيت تقيم وزناً لمِهَنٍ حُرَّة، يشترط للتبريز فيها تعليم ذو جودة. ولم يكن أمراً ذا خطر أن يُنادَى الشاوي في الرّقّة بـ "يا شاوي!". كان يُزيَّن له أن اللقب يشبه ما يُطلَق من ألقاب على كلّ ولد من أولاد القرية حالما يُولَد، وكان يهضم اللقب، ويمضي في سبيله. وأمّا اجتياح أولاد "الجهازيّينْ" للمدارس، فكانت كثرتهم وتصرّفاتهم واعتداد أهلهم بسيف السلطان تجعل له وقعاً أشدّ بكثير من وقع التفاوت القديم، وأشمل.

في هذا الكتاب قطبان معماريان، اعتمدتْهما المدرسة السورية: السجون السوفياتية وقصرٌ لآل العظم في دمشق! على أن قصر آل العظم فريد بين المدارس، وإن يكن له أشباهٌ بين القصور. وأمّا السجن السوفياتي، فبدا أيسر النماذج اتّباعاً وتكاثراً تحت ظلال البعث. وما يرويه هذا الكتاب عن مدارس، يعدُّها مؤلّفوه أشباه سجون مثيرٌ للرعب، وإن نكن تعلّمنا أن نتوقّع الأسوأ في كلّ صددٍ من هذا القبيل. على أن بعض المؤلّفين يسَرّون عنّا مشكورين بوصف القصر أو مدارس أخرى أنيسة. ويغلب القمع على صورة النظام المدرسي، وتغلب العلاقة المعقّدة بين المدرسة والمحيط وبينها وأجهزة النظام، وتكاد تغور في هذا كلّه ذكريات التّعلّم.

***

وقد فاتني أن أقول إن لي أصدقاء بين هذه الكوكبة من المؤلّفين، إلى معرفتي ما لآخرين منهم، لا أعرف أشخاصهم من مكانة في الأدب السوري المعاصر. لهذا كلّه، أثارت مُهمَّة التقديم هذه حماستي. وهي حماسة زاد فيها ما تعلّمتُهُ من قراءة هذا الكتاب. أراه لا ينتمي، من حيث المنهج والمقاربة، إلى أيٍّ من علوم المُجتمع. ولكنني استفدتُ منه معرفةً لا تعِد بمعادلٍ لها، بالضرورة، أبحاثٌ تنتمي إلى تلك العلوم. استفدتُ

حتّى بات في وسعي أن أفيد المؤلّفين بما قد قد يكون أشكَل عليهم من تعليلٍ لمرويّاتهم. يذكر صاحب الفصل الثاني، مثلاً، أنه لا يدري لِمَ باع أبوه حصانَه الأصيل بعد تقاعده من سِلْك الدَّرَك. قد أُفصحُ له عن السبب في مناسبةٍ أخرى ...

بيروت في أواسط تمّوز ٢٠١٧

مُقدّمة الرُّواة

عبر نقاشات مُطوّلة، عن سير الجماعات الأهلية والأحداث التاريخيّة في منطقتنا، مع الكاتب اللبناني الراحل بشير هلال، فإنه كان دائم الإصرار على أن هذه السَّرْدِيَّات خاضعة لهيمنة تأثيرَيْن جوهريَّيْن: الأوّل كامنٌ في كونها سَرْدِيَّات شخصيّة، لا جمعيّة، حتّى المؤسّساتيّة منها خاضعة لرغبة ورؤية شخصٍ أو ذاتٍ بعينه. فالسَّرْدِيَّات التأريخيّة في منطقتنا لم تخضع لشروط البحث العلمي والروايات المُركّبة إلا بالحدّ الأدنى جدَّاً، وطبعاً نادراً ما كانت سَرْدِيَّات تحليليّة للأسباب والدوافع التي أدَّت لحدوث ما حدث. التأثير الثاني كونها سَرْدِيَّات سُلطوية، لا يكتبها الأقوياء فحسب، بل فقط المركزيون المهيمنون على الحياة العامّة.

كانت مُلاحظات الصديق الراحل بشير هلال مُفتاحاً للتفكير بما يُمكن سَرْدُهُ عن سوريا المُعاصرة وتاريخها، التي باتت كياناً شخصياً جدَّاً للذات الأسدية وسُلطويّتها المُطلقة. وعبر نقاشات صباحيّة موازية مع الصديق الكاتب والناشر فاروق مردم بك، استقرّت مُخيّلتنا المُشتركة على أن المدرسة هي من أكثر مؤسّسات السُلطوية والمُجتمعية تعبيراً عن الحياة العامّة، بكلّ تفاصيلها وتحوّلاتها، خصوصاً فيما لو كان السَّرْد عنها يُغطّي حُقبة زمنيّة مُطوّلة، من بداية الخمسينيّات وحتّى نهاية التسعينيّات. حيث، بناء على ذلك، ومراعاة للتّوزّع الجغرافي والأهلي السوري، حاولنا في هذا

الكِتاب أن نُعطي محاولة لطرح سَرْدِيَّة عامَّة سوريّة، غير سُلطوية حينما يكتبها مُهمّشون من الحياة العامّة، وغير شخصية حينما يكتبها طيف مُتنوّعٌ من الرُّواة، ودون قصدٍ مُسبَّق.

***

يسعى الكِتاب لأن يسأل نفسه عن التّحوّلات التي طالت سوريا، مُجتمعاً ومؤسّسات وحياة عامّة، طَوالَ هذه السنوات. ولا يسعى لأن يُعطي إجابة ما عن ذلك، إنما مُجرّد مؤشّراتٍ على تلك التّحوّلات. فحكايات الرُّواة تُشابه ملايين الروايات الأخرى التي تخصّ الطَّلَبَة السوريّيْن في سنواتهم المدرسية. ففي النهاية، كان ثمّة غمامة عامّة كُبرى غطّت حياة السوريّيْن في مُختلف أشكال حياة السوريّيْن، وشكّلت ديناميكية مهولة، أطّرت سيرة السوريّيْن كلّهم، لم يستطع أن منهم الفِكاك منها إلا بصعوبة بالغة.

بمعنى ما أيضاً، فإن مجموع نصوص الكِتاب إنما تُشكّل رواية واحدة، عابرة لخمسة عقود من حياة سوريا والسوريّيْن.

يفتتح الكاتب والناشر السوري فاروق مردم بك رواية سورية الحديثة بسَرْد حكايات مُركّبة عن مدرسته التي كانت تشبه سوريا وقتئذ. تلك المدرسة التي كانت تُؤمّن لطَلَبَتها أحدث المجلات الفرنسية، ويتّفق طَلَبَتُها للذهاب إلى حفلات السينما، ويخرجون في مظاهرات مُناهضة للتجارب النووية الفرنسية، ويسعى أحد الطَّلَبَة لأن يكتب قصيدة في مجلّة "شِعْر" الأدبية الأكثر رصانة في ذلك الزمان، وتسعى المجلّة لأن تُراسِل الطالب عبر عنوانه المدرسيّ!!.

يروي مردم بك أشياء تكاد أن لا تُصدَّق عن سوريا التي كانت. دولة ومُجتمع كان يجمع الحيوية السياسية مع الحُرِّيَّات العامّة والمَدَنية، وفوقها

رقّة المشاعر الدِّينية وهامشية الطائفية والمذهبية. سوريا "الغريبة" تلك تشبه سيرة مردم بك نفسه، الناشر والكاتب العابر للثقافات والحضارات، لكنه المَنفي عن بِلاده لقُرابة نصف قرن.

على أن راوياً واحداً، كانت له حصّة السَّرْد عن "سوريا الغريبة" تلك، فَلِحَظِّ السوريّيْنَ العاثر، كان عُمرها قصيراً. وحيث، من دونِ قصدٍ، ندخل مرحلة "سوريا الريفية"، التي فاضت مُنذ بداية السّتّينيّات على كلّ شيء. فالروائي السوري الشهير ممدوح عزّام يسرد حكاياتٍ وطبائعَ عجائبيةً عن ريف الخمسينيّات والسّتّينيّات، من قُرى التُركمان إلى الجبال الغربية، وحتّى أقصى الشمال الشرقي في منطقة الجزيرة في القُرى الآشورية على نهر الخابور، وليس انتهاء بقُرى العشائر العربية الكُردية وسهول حوران.

من حيث لا يدري الروائي ممدوح عزّام، فإنه أيضاً يسرد عن حيوات، باتت غريبة عن سوريا الراهنة، حتّى في الطبيعة نفسها. فنهر الخابور الذي يقول عنه" يمرّ صاخباً وهائجاً طَوالَ الوقت" لم يعد موجوداً بالأساس، جفّ النهر تماماً، وجفّت البساتين التي كان العابرون يأكلون منها بِلا حساب. سوريا التي كان الدَّركي - والد ممدوح عزّام - بالغ الوفاء والولاء لمهنته وفروضها ومناقبها، حيث كان يستطيع دعوة عائلته لتناول العشاء في أحد مطاعم المدينة، وأن يبني بيتاً في قريته البعيدة من راتبه فحسب. سوريا التي لم يكن البعث قد استنشق خيراتها بثورته "الاشتراكية".

يُكمِل الكاتب صالح الحاجّ صالح سيرة الريف السوري في سبعينيّات القرن المُنصرم، عن بيئة بالغة الهامشية، دوراً ومكانة" عن السُّلطَتَيْنْ المركزيَّتَيْنْ، السياسية والرمزية. عن أفعال هذه السُّلطة بذلك المكان المُهمَل، عن التأسيس الأوّل لإزاحة المدرسة ومنطقها وشخوصها للعالم القديم، للجَدّ والزعيم المحليّ، للعقل والمنطق الأهلي. صراعٌ مُصغّرٌ عن

المكانة والجدارة والاستحواذ، كان صورة عمّا فشل فيه ذلك الريف القَصِيّ في صراعه مع المركز، المُحتكِر لهذه السُّلطات كلّها.

يروي الحاجّ صالح صورة، تكاد أن تكون مُختصَرَة ومُعبِّرة عن حالة الريف السوري القَصِيّ تجاه مُدُنه المُهيمنة: (في يومي الأوّل بثانوية الرشيد، تهتُ بزحمةِ ما يزيد عن ستّمائة طالب، بحثتُ عن أخي كثيراً، ولمّا وجدتُهُ، التصقتُ به، أذهب حيثما يذهب، أخشى مفارقته رغم تأفُّفه منّي، وعندما مَلَّ منّي، أوقفني حيث لمّةِ طلاب الصّفّ السابع. قال: هذا مكانكم، وسيأتي المُوجِّه أو أمين السّرّ، يقرأ أسماءكم حسب الشُّعَب، وبعدها اذهبْ حيث يذهب الطلاب. نلتقي نهاية الدوام عند الباب الرئيس. رغم أنّ ما قاله أخي كلام واضح وبسيط، لكنْ، انتابني قلق جروِ صغير في بداية تدريبه، لا يستطيع الثبات في المكان، ولا يجرؤ على المغادرة، وشعرتُ أن الدنيا أطبقتْ عليَّ، وكدتُ أصرخ به، أريد العودة إلى البيت، إلى أُمّي).

في رواية القاصّة والسيناريست كوليت بهنا، يُمكن للمتابع أن يستشعر مدى الاهتراء الذي أصاب "العالم السوري". فالطفلة التي تلقّت علومها الأولى في المدارس الكَنَسية الخاصّة، وحينما تُجبَر على المُتابعة في المدارس المؤُمّمة، تصف فاجعة مُعبّرة عن تلك التّحوّلات: (في اليوم الأوّل لانضمامي لهذه المدرسة الممتعة، دخلتُ إلى الصّفّ، وقلتُ للمُعلّمة: "بونجور مدموزيل". أجابتْني بصفعة قوية، وهي ترتجف من غضبها: "بتقولي صباح الخير، يا آنستي. فهمتي وليه؟؟ إنتو المايعين اللي جايين من المدراس الأجنبية بدي فِكْ حنككم هون!!).

هذه الفجاعة التي أصابت الطفلة، لم تكن إلا صورة عن الصورة الأعمّ، الفجاعة التي أصابت المدرسة المؤُمّمة نفسها. فبناء المدرسة الذي كان بيتاً مُؤمّماً:

- *أين أصحاب هذا القصر، أيّتها الفئران؟*
- *(راحوا وتركونا). أجابت الفئران.*
- *مَنْ هم؟ سألت الفئران مُجدّداً.*
- *(من آل العظم ..).*
- *ماذا حلّ بهم؟؟*

لم تجب الفئران. ولم تُخبرني لِمَ تمّ تحويل قصر آل العظم إلى مدرسة حكومية خاصّة بالبنات اللاتي كنّ يرتعدنَ كالفئران لدى رؤية الفئران.

يُكمِلُ الكاتب والباحث سلام كواكبي سيرة أشياء مؤسّسات الدولة حينما تجذّر التأميم الذي طال كلّ شيء، حتّى الطبقات الاجتماعية الأكثر وعياً لموقعها ودورها أُصيبت بذلك الداء: (كان من الذين يعرفون من أين "تُؤكَل الكتف"، فقد كان بعثياً حتّى النخاع (...) وعندما وقعت أحداث نهاية السبعينيّات، قام، وبسرعة مدهشة، برفع صورة الرئيس القائد، ومَدّ في أرض مكتبه سجّادة صلاة، ولم ينسَ ركعةً ولا ثنيةً ولا طعجةً إلا وأدّاها طَوالَ شهور، وسرعان ما تبدّلت الأحوال، فعادت صورة القائد لمكانها، واختفت السّجّادة في عمق بئر النسيان).

من خِلال السيرة الثلاثية الجهاز التعليمي والسياسية وباص المدرسة، يدخل كواكبي في الرواية المُتخَمَة بالحُزن عن أحوال سوريا. ففيما خضع الأوّل لهيمنة الثاني وجبروته، فإن الثالث "باص المدرسة" بات خالياً من أيّة بهجة وطفولة، بات أشبه بحكاية وأحوال السائق الأرمني، المُقتلَع المُحطَّم. وحيث أكمل ذاك الباص البائس من دورة سوء حظّه العاثر، والذي ربّما بات مُجرّد جدار يحمي العابرين من قنّاص ما في مدينة حلب.

تتم الكاتبة والروائية السورية روزا ياسين الحسن سيرة "الاهتراء العامّ"،

وتفضّ الأوهام الكبيرة حول إمكانية ولو سلامة منطقة سورية واحدة من الطوفان السوري الذي طال كلّ شيء: "صور "حافظ الأسد" كانت في الشوارع، على النواصي، في الساحات، على الجدران والأسوار، في المدرسة، في المؤسّسات الحكومية، في المشافي، في التلفاز، وعلى صفحات الجرائد .. في كلّ مكان! حتّى في الأغاني المدرسية والوطنية، كانت صورته تخرج من نغمات الأُغنيّة".

مَرويّات روزا ياسين الحسن تكشف مُحصّلة انتصار الأقوياء على الطبقات الهشّة من المُجتمع السوري، وكيف أن المُجتمع بات يستبطن ذلك بدون شعورٍ وآلية مراقبة واضحة: "لشتاءات مدينتي البَحْرية رائحة مصباح الكاز وقشور البرتقال، التماع البرق، وهدير الرعد الذي يرجّ أنحاء البيت، العَتَمَة والأحلام التي لم تغفُ يوماً، وضحكات مكبوتة من تحت أغطيتنا الصوفية السميكة! ولنا تلك الذاكرة كلّها!".

يُنهي كاتب هذه السطور الرواية المُطوّلة عن البلاد عبر النافذة المدرسية بنصّ، يكاد السَّرْد عن "العُنف المدرسي" يغطّي أغلب أجزائه، عنفٌ جسدي وروحي ولفظي ووجداني. من منطقة هي الأقصى من البِلاد في كلّ شيء، هي الأفقر والأبعد والأكثر ريفية وتهميشها واستشعاراً بالخطر من قِبَل ذوي السُّلطان: (لم يكُن من شيء يُعزّز من ذلك الشعور سوى شكل المدرسة نفسه، فككلّ باحات المدارس وفضاءات الصفوف الداخلية، كانت مدرستنا الابتدائية أشبه بسجنٍ سوفياتي مُقفَل، لم يكُن بها شجرة واحدة، وكانت الألوان الداخلية والخارجية للمدرسة مزيجاً باهتاً من اللونَيْن البُنّيِّ والرماديّ، ألوان لا علاقة لها بأيّة طفولة. أمّا التشييّد الهندسي، فقد كان بالغ "السذاجة"، فالمدرسة كانت كغيرها من مدارس المدينة، مُجرد مُربّعٍ إسمنتي طابقي، تتقابل فيه الصفوف بشكلٍ متوازٍ،

دون أيّة شُرفات أو حدائق أو ملاعب، كانت ببساطة مؤلّفة من ذلك البناء المُربّع المُغلَق العالي، ومعه باحة إسمنتية وسور مُغلَق. في عموم مدينة القامشلي، كانت مدرستي التي درستُ فيها المرحلة الإعدادية مُخالفة لتلك الرؤية الهندسية الشمولية، وبالمصادفة، فقد كانت المدرسة الوحيدة التي شُيِّدت في المدينة قبل انقلاب حزب البعث الشهير عام ١٩٦٣).

***

حكايات الرُّواة هُنا متباينة ومنوّعة، من جهات وبيئات سورية مُختلفة، لكنها، في النهاية، تبدو وكأنها حكاية واحدة. يجمع بينها ذلك المزيج المريع من العنف الانضباطي والخضوع للتأنيب، للتجارب الأولى للحُبّ، وتحوّلات العلاقة بين سُلطة العائلة وسُلطة المدرسة والسُلطة العامّة، مفعَمة في تفاصيلها بروح التّمرّد، ودائما بحسٍّ واعٍ لدَور ومكانة المدرسة في حياة كلّ واحدٍ منّا، حيث الأشياء العامّة كلّها تنعكس بشكلٍ شرطي على حياة الطَّلَبَة، وبأشدّ وكامل التفاصيل. ليكشفوا، في النهاية، بأن السوريّيْن ليسوا كما يظهرون الآن، بل أصبحوا كذلك، بفعل ما جرى لهم، وبحقّهم. وبذا فإن تغيير سوريا يحتاج إلى محاولة التغيير في تفاصيلها كلّها، وأوّلها المؤسّسة التربوية/التعليمية، أكثر مؤسّسات الحياة العامّة حساسية ودوراً.

رستم محمود ٢٠١٧/٠٧/٢٢

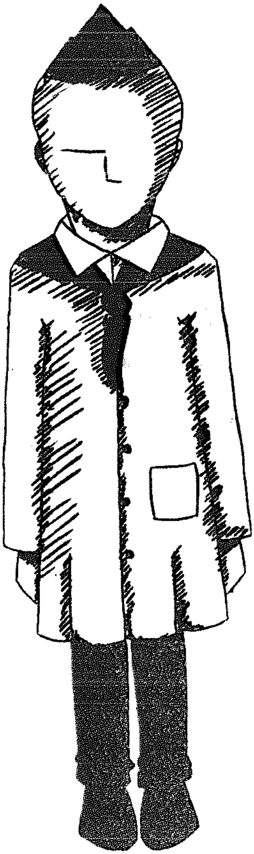

أيّام المدرسة

فاروق مردم بك

كنّا نُقيم في حيّ عين الكرش، على مقربةٍ من المعهد الفرنسيّ العربيّ (اللاييك)، وكان مبناه الضخم، بواجهته الواسعة وبوّابته العالية وسطحه القرميدي يُحيِّرني كلّما أبصرتُهُ من الرصيف المُواجه لأنّه لا يُشبه أيّ مبنىً يُجاوره في شارع بغداد. حين قادتْني إليه أُمّي أوّل مرَّة بعد أن أتممتُ دراستي الابتدائية في صيف ١٩٥٤، لتسجيلي في الصّفّ السادس، بادرني الناظر العامّ الفرنسيّ، عابسَ الوجه، بأسئلة بسيطةٍ عن اسمي وعنواني، فانكمشتُ على نفسي هلعاً، وتلعثمتُ في الإجابة. تأفّف بنزقٍ عرفتُ فيما بعد أنّه من طبائع قومه المتُأصّلة، وقال إنّ ما تعلّمتُهُ من اللغة الفرنسيّة في المدرسة الابتدائيّة أدنى من المستوى المطلوب في الشعبة التي تُعدّ التلاميذ للحصول على الشهادَتَيْن الفرنسيّة والسوريّة معاً، ولكنّ أُمّي أجابتْهُ بفرنسيّةٍ ركيكة أنّ ابنها فريد عصره، وأنّه قادرٌ بفضل بعض الدروس الخصوصيّة على تعلّم ما ينقصه. وفي مساء ذلك اليوم المشهود، اعترض أبي على انفرادها وتسرُّعها في تقرير مصيري، مُتعلِّلاً بأنّي شارد الذهن، هزيل البُنية، أكاد لا أقوى على حمل حقيبتي إلى المدرسة، فتحاجّا، وعلا صياحهما، هي تُعْلي من شأني، وهو يحطّ منه، وأنا جالسٌ أمامهما لا أنبس بكلمة، وانتهت المشادّة بانتصارها. وهكذا كُتبَ عليّ، وكُتبَ لي، طَوالَ سبع سنوات (ستّ في الحقيقة، حتّى نهاية الصّفّ الحادي عشر)، أن أدرس موادّ البرنامَجَيْن، السوري والفرنسي، مع ما يستلزمه ذلك من

قضاء نحو أربعين ساعة في المدرسة كلّ أسبوع، وما يستتبعه من عناء في البيت ساعاتٍ وساعات.

كنتُ آنذاك في السنة العاشرة من عمري، أمضيتُ خمسة أعوامٍ قبل بلوغها في مدرسة صغيرةٍ وأنيقة، اسمها "روضة الأحداث"، تقع في حيّ (أبو رمّانة) ويرتادها أبناء الذوات من الجنسَيْن. لا أعرف حتّى الآن شيئاً عن أصلها وفصلها غير أنّها أُسِّست في العام ١٩٤٧. وكانت تُديرها في أيّامي بكفاءة وإخلاص سيّدةٌ فلسطينيّة مسيحيّة، أعتقد أنّها عملت في سِلْك التعليم الدِّيني في فلسطين قبل نزوحها إلى سورية. وعلى الرغم من تديُّنها الشديد، ومن أنّ أغلب مُدرِّساتنا كنّ مسيحيّاتٍ مُؤمناتٍ قانتاتٍ مثلها، يُعلِّقنَ في أعناقهنّ أيقوناتٍ ذهبيّةً أو فضِّيَّة، لا أذكر منها أو منهنّ أيَّ شكلٍ من أشكال التمييز الدِّيني بين التلاميذ. وكان التدريس يلتزم برنامج وزارة المعارف بحذافيره، مع تخصيص خمس ساعات في كلّ أسبوع للّغة الفرنسيّة، وحرصٍ يوميٍّ على تلقيننا مبادئ السلوك الاجتماعي القويم. وحين أسترجع اليوم ذكرياتي البعيدة عن "روضة الأحداث"، أعترف لها بفضلٍ عليّ في تحصيل المعارف الأوّليّة في الحساب واللغة العربيّة بيُسرٍ ومتعة، وفي تشجيعي على المطالعة. وكانت أُمّي تشتري لي بانتظامٍ مجلّة "سندباد" التي بدأت دار المعارف في مصر بإصدارها في ١٩٥٢، وتميّزت بلغتها العربيّة المُشرقة وتصميمها المُتقَن وتصويرها الجذّاب بريشة الرّسّام الكبير حسين بيكار، ومعها الكثير من كُتُب كامل الكيلاني للأطفال والناشئة، من "قصص من ألف ليلة وليلة" إلى "قصص شكسبير". إلّا أنّ مناخ المدرسة الرهيف والعناية المُشدّدة في البيت حَرَماني خلال سنوات خمس من الاختلاط بأطفالٍ ينتمون إلى البيئة الاجتماعيّة "المستورة"، كما يُقال نفاقاً عن الفقراء، ومن "الشيطنة" التي كنتُ أتوق إليها، وأنا أراهم يلعبون في الحارة بصخب ويتبادلون اللكمات والشتائم – ومَنَعاني حتّى

من التّعرّف إلى معالم المدينة، إذ كان باص المدرسة يُقلّني إليها ومنها مرّتَيْن كلّ يوم.

وكانت "روضة الأحداث" قد اختارت دَيْر الراعي الصالح في حمّانا مُنتجعاً صيفيّاً لتلاميذها (أو بالأحرى لبعض تلاميذها، إذا رغب أهلهم) حتّى تُبعدَهم عن حَرِّ دمشق اللاهب في شهرَيْ تمّوز وآب، وتُثبّت في أذهانهم ما تعلّموه في غضون السنة الدراسيّة. وكانت حُجّة أُمّي في أوّل كلّ صيف لإقناعي بفوائد الإقامة في الدَّيْر أنّ لبنان جنّة الله في أرضه، وأنّ استنشاق هوائه العليل المُشبع برائحة الصنوبر خير وقايةٍ من الأمراض المزمنة التي كنتُ أعاني منها في فصل الشتاء. ثمّ هل من وسيلةٍ أنجع لتعلّم الفرنسيّة على أصولها من معاشرة اللبنانيّيْن؟ ولم يُثنها عن قرارها السنويّ ما كان يُقال عن سعي الرهبان إلى تنصير الأولاد المسلمين، فابنُها لا يُخشى على إيمانه بالله الواحد الأحد، تولّى جَدّه تربيته الإسلاميّة، فعلّمه الصلاة، وحفّظه بعض قِصَار السُّور، واصطحبه إلى المسجد في أيّام العُطل. وواقع الحال أنّي عشتُ خلال أربعة فصول صيفيّة في جوٍّ مسيحيّ خالص، وأنّ أصداء الصلوات المسيحيّة كانت تتردّد في أرجاء الدَّيْر صباح مساء، وكان التلاميذ جميعهم، ما عدا المسلمين، يُجبَرون على الصلاة في الكنيسة، وقد رافقتُهم أحياناً، وحفظت "أبانا الذي في السموات" و"السلام عليكِ، يا مريم"، ولكنّي كنتُ، احترازاً من العدوى، أقرأ الفاتحة في سرّي قبل النوم، وأتبعها بسورة الإخلاص وبالمعوَّذَتَيْن!

كان كلّ ما في المعهد الفرنسي العربي، على النقيض من ذلك، علمانيّاً صرفاً، لا رهبان فيه ولا صلبان، ولا يحقّ لأحدٍ من المُدرِّسين أو من التلاميذ إبراز هويّته الدِّينيّة، وإن كنّا نعرف بطبيعة الحال مَنْ منّا المسلم ومَن المسيحي. أنشأتِ المعهد في ١٩٢٥ مؤسّسةٌ شبه رسميّة (أو، بتعبيرٍ

قانونيٍّ أدقّ، جمعيّة خاصّة للمنفعة العامّة) من مؤسّسات الجُمهوريّة الثالثة، هي "البعثة العلمانيّة الفرنسيّة" التي كان أوّل أهدافها منذ تأسيسها في ١٩٠٢، في سياق الصراع المرير بين الكنيسة والدولة، منافسة مدارس الإرساليّات الكاثوليكيّة المُنتشرة في القارّات الخمس، وثانيها تعميم ما كانت تعدّه "رسالة فرنسا الحضاريّة". أيّ رسالة؟ "الحُرِّيَّة والمساواة والإخاء"، أي القِيَم الإنسانيّة العليا التي يفخر الفرنسيّون بأنّهم جمعوها في شعارٍ واحد، وكان يُكذّبها واقع الانتداب الفرنسي، وتُبرزُها في وجهه أغلبُ النُّخبِ الاستقلاليّة المَدينيّة. ولم يخفَ ذلك على مُديري المعهد الأوائل، فكانوا يحرصون في نشراتهم وتصريحاتهم على تمييز أنفسهم، بقَدْر المستطاع عن السلطات الانتدابيّة، ويسعون إلى إقناع الأهالي بأنّ برنامجهم التعليمي لا يخدش الحسّ الوطنيّ، بل يشحذه – وكذلك بأنّ علمانيّة المعهد المُعلَنة لا تُضمر أيّ عداءٍ للإسلام. وجديرٌ بأن يُذكَر في هذا الصدد أنّ كثيراً من الأُسر المسلمة الميسورة في دمشق وحلب كانت تُفضِّل تسجيل أولادها في مدارس الإرساليّات، لأنها تتجنّب الاختلاط بين الذكور والإناث، وبدعوى أنّ الرهبان والراهبات أتقياء أنقياء، "يخافون الله" ويحضّون على مكارم الأخلاق ...

***

سرعانَ ما اقتنعتُ بأنّ أبي كان مُحقّاً في حُكمه على "مواهبي" الفِطريّة، فقد استصعبتُ البرنامج الدراسيّ الفرنسيّ منذ يومي الأوّل في الصّفّ السادس. سبعة كُتُب أو ثمانية، ثلاثةٌ منها للُّغة الفرنسيّة وحدها، ومعها مسرحيّةٌ من الأدب الكلاسيكي ("المتُخاصمون" لجان راسين، وتبعتْها في السنوات التالية مسرحيّاتٌ لكورنيي وموليير)، والبقيّة للتاريخ والجغرافيا والعلوم والثقافة العامّة، وكلّها تختلف اختلافاً بيِّناً في مضمونها عن كُتُب

المنهاج السوري. ومُدرِّسون فرنسيّون أقحاح، لا يتكلّمون إلّا الفرنسيّة، ويلثغون بحرف الراء، ويفترضون أنّي أفهم تماماً ما يقولون كما يفهمه زملائي، ومن هؤلاء بعض أبناء الجالية الفرنسيّة في دمشق. كابدتُ مُتطلّبات البرنامجَيْن الثقيلة طَوالَ النصف الأوّل من السنة، وتعثّرتُ حتّى في مادّة الرياضيّات التي كنتُ مُتفوّقاً فيها من قبلُ، وأخفيتُ ما استطعتُ عن أهلي دفتر علاماتي بعد الامتحان النصفيّ، حتّى لا يُفجَعُوا بها، وبملاحظات المُدرِّسين اللئيمة، وبمرتبتي المُتدنّية بين التلاميذ - وكانت السادسة والعشرين من أصل ثمانية وعشرين. واقتضى إصلاح الحال، منذ بداية النصف الثاني من السنة الدراسيّة وخلال العطلة الصيفيّة وطَوالَ السنة التي تلتْها، عشرات الدروس الخصوصيّة على يد أستاذٍ قدير لبنانيّ الأصل، مهيب الطلعة وطويل الأناة، جعلتْني فيما بعد، حتّى آخر المرحلة الثانويّة، أحد التلاميذ المُبرِّزين في لغة موليير وفولتير.

كان أساتذتنا، من فرنسيّيْن وسوريّيْن، يتمتّعون إجمالاً بكفاءةٍ عالية، ويحرصون على أن نفهم موادّ البرنامجَيْن حقّ الفَهْم، لا أن نحفظها فقط ابتغاء النجاح في الامتحانات. انتُدب الفرنسيّون من قِبَل وزارة التعليم في بلدهم بعد أن درَّسوا في مدارسها الحكوميّة أو في مدارس "البعثة العلمانيّة" في شتّى بلدان العالم، وحاولوا منذ وصولهم إلى سورية التّعرّف إلى شيءٍ من تاريخها، والتّأقلم ما أمكنهم مع تحوّلاتها السياسيّة وعاداتها الاجتماعيّة، وإلى التّكيّف أيضاً مع أوضاع المعهد الإداريّة التي تغيّرت مرّتَيْن في تلك السنوات (١٩٥٤ – ١٩٦١) – وهو ما سأُفصِّله لاحقاً. لم يكونوا من طينةٍ واحدة، ولا من مَشربٍ فكريّ أو سياسيّ واحد، كما تبيّن لي من تعاملهم فيما بينهم، ومن تلميحاتهم الشخصيّة وهم يشرحون دروس المنهاج الرسميّ في الأدب والتاريخ والجغرافيا، ولكنّي لم أسمع يوماً من أحدٍ منهم، صادقين أو مُرائين، كلمةً مسيئةً بحقّ سورية والسوريّيْن. أمّا

أساتذتنا السوريّون، فكانت تختارهم إدارة المعهد في أوّل عهده بحُرِّيّة مطلقة، ثمّ صاروا يُعيّنون وفق اتّفاقٍ لا أعرف تفاصيله بين الإدارة ووزارة المعارف. ولعلّ اطّلاعهم على ما كنّا نتعلّمه لنيل البكالوريا الفرنسيّة دَفَعَهُم إلى منافسة الأساتذة الفرنسيّيْن في أمرَيْن: الأوّل تطعيم البرنامج باستطرادات مُتنوّعة تُحبّبه إلى نفوسنا، والثاني حضّنا بإصرارٍ على القراءة باللغة العربيّة. وقد احتفظتُ طويلاً ببعض الكُتُب التي نصحوني بشرائها في المرحلَتَيْن الإعداديّة والثانويّة، منها، على سبيل المثال، عشرة كُتيّبات أو أكثر عن الشعراء العرب القدماء من سلسلة "الروائع" التي كان يُحرِّرها فؤاد أفرام البستاني، وبعض مؤلّفاتٌ طه حسين والعقّاد ومارون عبّود، وثلاثة أجزاء من "تاريخ الحضارة" لويل ديورانت.

وكان زملائي في الصّفّ من مَنابت اجتماعيّة ودِينيّة وإثنيّة مُختلفة، أغلبهم من أبناء الطبقات الوسطى المُنفتحة بدرجاتٍ مُتفاوتة على الثقافة الغربيّة، يُمارس آباؤهم الطّبّ أو الهندسة أو التجارة أو التعليم الجامعي. توطّدت صداقاتنا شيئاً فشيئاً على أساسٍ "علمانيّ" محض، على صورة مدرستنا، أعني أنّ ميولنا الشخصيّة وتآلف أمزجتنا كانت السبب الوحيد لانتمائنا إلى "شلّة" دون أُخرى، وأحياناً إلى "شلَّتَيْن" في وقتٍ واحد. ولكنّ زميلاتنا، لأنّهنّ كنّ أرجح منّا عقلاً، قلّما اختلطنَ بنا خارج جدران المدرسة في السنين الأولى، أي في المرحلة الإعداديّة، ومُنعَتْ أو تمنَّعتْ بعضهنّ فيما بعد، حين صرن "المُنى والطلب"، حتّى عن ملاقاتنا في موعدنا الأسبوعيّ، يوم الأحد، في الساعة الثالثة، على باب إحدى صالات السينما. وقد استمرّت الأُلفة بيني وبين رفاقي الأُوَّل سنةً بعد سنة، ولم يتفرَّق شملنا إلى أن تخرّجنا من اللاييك، وغادر أكثرهم دمشق لمتابعة دراستهم، إمّا في بيروت، في إحدى الجامعتَيْن اليسوعيّة أو الأميركيّة، وإمّا في فرنسا أو بلجيكا، ولم يعدْ منهم إلّا الذين

اضطرّتهم ظروفٌ عائليّة إلى العودة. وسأذكر ما حييتُ فرحتنا الغامرة يومَ اجتمعنا في باريس بعد أربعين سنةً، في أيّار ٢٠٠٠، بمبادرةٍ من زميلتنا اليونانيّة العذبة التي بحثتْ عنّا واحداً واحداً على الإنترنت، وكيف أنسانا لقاؤنا أنّنا شبْنا وتغضّنت وجوهنا وترهّلت أجسامنا ... وصار لصديقاتنا الجميلات أحفادٌ وحفيدات.

كانت هؤلاء "الجميلات" أقلّ عدداً في صفّي من الذكور، وكنّ يتجمّعنَ في بداية السنة الدراسيّة في الطرف الأيمن أو الأيسر من القاعة، وينتظرنَ ذوبان الثلج وانقشاع الضباب قبل اتّخاذ قرارٍ بمَنْ منّا يستحقّ نظرةً يتكرّمنَ بها عليه لتفوُّقه في الدراسة أو قدرته على إضحاكهنّ- على أن يكون أيضاً وسيماً أنيقاً. ولمّا لم أكنْ في السَّنَتَيْن الأُلَيَيْن (على الأقلّ!) أتمتّع بأيٍّ من هذه المؤهّلات، فقد كنتُ أختار مقعدي بعيداً عنهنّ، إلى جانب تلميذٍ نجيبٍ قليل الكلام، وأتصنّع الانشغال بأُمورٍ لا يرقى إليها فَهْمُهُنّ القاصر! ولكنّ الهرمونات تفعل فعلها كما تشاء في الأجسام والأرواح، فما إن انتقلتُ إلى الصّفّ التاسع أو العاشر حتّى اعتدتُ حضور السهرات الراقصة التي كان بعض الزملاء يُقيمونها بمناسبة أعياد ميلادهم، وكنتُ ألتقي فيها بصبايا في مثل سنّي أو أكبر قليلاً، من مدرستي أو من مدارس خاصّة أُخرى، فنرقص، ونتنادم، ولكنْ تحت رقابةٍ مُشدّدة من أهل الزميل الداعي. ولذلك كان ما يتعدّى "الحديث والنظر"، كاختطاف قبلةٍ مثلاً في زاويةٍ مُعتمة من زوايا البيت، يُعدّ فتحاً مُبيناً. هذا، إلى أن علا صراخُ الشرايّيْن والأوردة في السَّنَتَيْن الأخيرَتَيْن، فاتّسعتْ في أثناء الرقص مساحاتُ التماسّ بين الأجساد، وربّما انتهى الأمر، في الحالات القصوى، ببعض المُلامسات اللطيفة الخفيفة. ولا بأس من الاعتراف في هذا المقام بأنّ "أولاد اللايك" الكبار كانوا، كغيرهم من الأولاد الكبار، يُفرِّغون فائض فتوّتهم في المبغى "النظاميّ"، بالقرب من موقع كُلّيّة الهندسة.

وكانت "شلّتنا"، غير لقاء يوم الأحد في السينما، تلتئم يوم الجمعة بعد الظهر في منزل أحدنا، فنستمع إلى آخر ما وصلَنا من بيروت من أسطوانات الروك و"المنوّعات" الغنائيّة الفرنسيّة، أو نلعب "بوكر كذّابي"، أو نتلصّص من شرفة زميلٍ في حيّ الشعلان على بنات مدرسة الفرنسيسكان وهنّ يُمارسنَ الرياضة البَدَنيّة في باحة المدرسة بشورتاتهنّ القصيرة. ولكنّا كنّا أيضاً، وهذا من فضائل برنامج الأدب الفرنسيّ، خصوصاً في الصّفّ الحادي عشر، نُطعِّم جلساتنا الأسبوعيّة اللاهية، ونحنُ في غمرة نزوات المُراهقة، بمناقشاتٍ عن آخر ما قرأنا، فنُفاضِل مثلاً بين "غثيان" سارتر و"غريب" كامو، ونتحزّب لأحدهما ضدّ الآخر. ومن العجيب أنّ زملائي، ما عدا واحداً أو اثنَيْن منهم، كانوا يتحاشون الخوض في الأمور السياسيّة التي كانت تستهويني، وكأنّهم غير مَعنيّيْن على الإطلاق بالأحداث الجارية، من الثورة الجزائريّة إلى الوحدة السوريّة المصريّة. وكان الكلام على الدِّين مُحرّماً أيضاً، وفقَ اتّفاقٍ ضمنيّ بيننا، وأُخمّن أنّ السبب كان خشيتنا من أن يُفسَّر أيّ رأيٍ، أو حتّى أيّ مزحةٍ بريئة، تفسيراً طائفيّاً. كانت علاقاتنا الدِّينيّة تقتصر على تبادُل الزيارات بمناسبة الأعياد الإسلاميّة والمسيحيّة، وكنّا نُتقنُ ما ينبغي أن نقول من باب المُجاملة الاجتماعيّة – وهذا على الرغم من قناعتي الثابتة بأنّنا، نحنُ المسلمين، كنّا نتفوّق في الأعياد على زملائنا المسيحيّيْن بحلوَياتنا، وكانوا يتفوّقون علينا بمشروباتهم الكحوليّة...

أحاول أن أتمثّل بدقّة خارطة المعهد (لم تطأه قَدَمَاي منذ العام ١٩٦١)، ولا تُسعفني الذاكرة. لا تحضرني، باستثناء صورة المبنى المركزيّ الفخم المُطلّ على شارع بغداد وجَنَاحَيْه الشرقيّ والغربيّ، إلّا بعض الصور الغائمة: مرآب باص المعهد في مدخل الجناح الشرقيّ، بهو الطابق الأرضيّ، وعلى جانبَيْه مكاتب الموظّفين واستراحة المُدرِّسين والنُّظّار، الأدراج الحجريّة العريضة، الأروقة المؤدّية إلى قاعات الدرس، القاعات

بمقاعدها الخشبيّة المزدوجة التي نقش فيها الأسبقون ما تيسَّر لهم من كلماتٍ ورسوم، جُدرانِها العالية العارية إلّا من صورةٍ بالأبيض والأسود لإحدى المُدُن الفرنسيّة، مُدرَّج دروس الكيمياء والفيزياء، المكتبة التي لم أعدْ أتبيّن - يا للعار! - حتّى موقعها، المسرح الذي اشتُهر منذ أن غنّت فيه أمّ كلثوم في ١٩٥٥ رباعيّات الخيّام وقصيدة أحمد شوقي "وُلد الهُدى"، فِناء اللعب والراحة (والتهام السندويشات والحلويات) في فُسحَتَي الساعة العاشرة والساعة الرابعة، الباحة الخلفيّة، وفيها من جهة اليمين، ملعبٌ لكرة السّلّة، وخلفه مساحةٌ مُستطيلةٌ رمليّة للتّدرّب على القفز وتسلّق الحبل، وفي أقصى الشمال، ملعبٌ آخر لكرة المضرب، يُمنع الطَّلَبَة من دخوله وتحجبه عن الأعين أشجارٌ باسقة ... ثمّ صالاتٌ واسعة مُخصّصة للراحة والرياضة في أيّام الشتاء، وصالة للدراسة المسائيّة - وكان عقاب الطَّلَبَة المُشاغبين أو الثرثارين أن يقضوا فيها ساعة أو ساعَتَيْن بعد الظهر يوم العُطلة الأسبوعيّة. صورٌ غائمةٌ كما قلتُ، انفصل فيها المكان عن الزمان، كأنّي لم أُمضِ فيه سبع سنوات طويلة، ولم تتشكّلْ فيه ميولي الفكريّة والسياسيّة، وتترسّخ هواياتي ووساوسي، وكأنّي لم أذقْ فيه مرارة الحُبّ العقيم الأوّل.

***

حين بدأنا الدراسة في تشرين الأوّل ١٩٥٤، لم يكن لطفلٍ مثلي أن يُدرِك مداخل السياسة الفرنسيّة في سورية ومخارجها. عرفتُ فيما بعد أنّ فرنسا، بسبب التنافس الاستعماري بينها وبين بريطانيا، كانت تقترب من سورية إذا ابتعدت عن المحور الهاشمي العراقي- الأردني، وتبتعد عنها إذا اقتربت منه. ولذلك كانت تخشى، بعد الانقلاب على أديب الشيشكلي في شباط ١٩٥٤، أن تنضمّ سورية إلى هذا المحور، ممّا أدّى إلى بعض

الفتور في العلاقات الدبلوماسيّة بين البَلَدَيْن. بيد أنّ ما كان لا يُمكن أن يخفى على أحدٍ آنذاك، حتّى على الأطفال، هو تصاعد العداء لفرنسا في الشارع والإذاعات والصحف تضامناً مع الحركات الاستقلاليّة في المغرب العربي، خصوصاً بعد اندلاع الثورة الجزائريّة في تشرين الثاني من السنة نفسها. ذكّرتْ أحداثُ المغرب عامّة السوريّين بثورة ١٩٢٥ على الانتداب، بالإضراب السّتّينيّ في ١٩٣٦، بوعود "فرنسا الحُرَّة" المعسولة في ١٩٤١ غداة طرد قوّات فيشي، بمجزرة البرلمان في أيّار ١٩٤٥. وكنتُ أسمع نُتفاً ممّا يُقال في الإذاعة عن مثالب فرنسا، وأنا تلميذٌ في مدرسةٍ فرنسيّة، فينتابني شعورٌ بالذنب، لعلّه كان السبب الحاسم في تسيّسي المبكّر، وحماستي القوميّة التي بلغت ذروتها إبّان الإعلان عن استقلال المغرب الأقصى، ثمّ تونس، وفاضت على مَنْ حولي يوم تأميم قناة السويس.

كانت سورية في تلك الأيّام، وما تبعها حتّى١٩٥٨، تتمتّع بقسطٍ وافر من الحُرِّيّات العامّة والخاصّة، في ظلّ نظامها السياسيّ البرلمانيّ، فإلى جانب حزبَي الأعيان، حزب الشعب والحزب الوطني، كانت التّيّارات العقائديّة كلّها، باستثناء الحزب السوري القومي بعد اغتيال عدنان المالكي، مُمثَّلةٌ في البرلمان، من الإخوان المسلمين إلى الشيوعيّيْن، ولكلٍّ منها صحافةٌ تنطق باسمها أو تُدافع عن مواقفها. وكان حديث الناس في دمشق، الناس كلّهم، يدور على الصراع بين المحوَرَيْن العربيَّيْن، وعلى حلف بغداد، ومن بعده مذهب أيزنهاور، وعلى المؤامرات الفاشلة لضَمّ سورية إلى المحور الهاشميّ، وكنتُ أُنصت إلى ما يُقال في الإذاعات وأقرأ عناوين الصحف، ثمّ أتشدّق بالكلام في البيت وفي المدرسة عن المُخطّطات الاستعماريّة والمؤامرات الرجعيّة، وأتفصّح في تمجيد مصر وعبد الناصر، ولا يزيدني غضب بعض أقاربي أو سخريّتهم إلّا حماسةً واندفاعاً. ولا أنسى في هذا الصدد حادثةً جرت في ١٩٥٧، كنتُ "بطلها"

وضحيّتها، حين احتدمتْ في دمشق معركةٌ انتخابيّة فرعيّة بين مرشَّحَيْن، رياض المالكي ومصطفى السباعي، يُناصر كلّاً منهما تحالفٌ عريض، يضمّ أحزاباً وهيئاتٍ مِهَنيّة وشخصيّاتٍ بارزة، فقد تحمّستُ للمالكي حتّى تجاوزتُ حدود اللياقة المرعيّة بين الجيران، فألصقتُ على باب كلّ شقّة في العمارة والعمارات المُجاورة منشوراً يُندّد بالسباعي، مهرتُه باسمي. وكانت حصيلة مُغامرتي السياسيّة الأولى هذه، غير التقريع والتسفيه من قِبَل الوالدَيْن، أنْ حُرِمتُ شهراً من مصروفي الأسبوعيّ، وأُفردتُ في الحَيّ "إفراد البعير المُعبّد"!

قطعت سورية علاقاتها مع فرنسا على أثر العدوان الثلاثي على مصر في أواخر تشرين الأوّل من العام ١٩٥٦، أي بعد أيّامٍ قليلة من بدء السنة الدراسيّة الجديدة، وقلق الأهالي على مصير أولادهم: هل سيُسمَح للمعهد بأن يبقى على حاله؟ هل سيستمرّ فيه التدريس بالفرنسيّة؟ كيف سيتدبّرون أمر أولادهم إذا تقرّر إغلاقه أو إذا أُجبر المدرّسون الفرنسيّون على مغادرة البلاد؟ وزاد من قلقهم أنّ مُتظاهرين غاضبين أشعلوا النار في مبنى المعهد الفرنسيّ في حلب. لم تشغلني هذه الأسئلة، بقدر ما كنت مُنشغلاً بمتابعة الأخبار، مُهلّلاً للبيانات العسكريّة المصريّة، واثقاً من أنّ مصر، بقيادة بطلي المُفدّى، جمال عبد الناصر، ستسحق المُعتدين. كنتُ في الصفّ الثامن (الرابع بحسب الترتيب الفرنسيّ العكسيّ)، ولا أتذكّر البتّة كيف أكملنا سنتنا الدراسيّة إلى آخرها، ومَنْ درّسنا، وعلى أيّ أُسسٍ تمّ الاتّفاق بين الحكومة السورية وإدارة "البعثة العلمانيّة الفرنسيّة" على مواصلة التدريس في معهدها. ما فهمته فحسب، شأني شأن زملائي، أنّ مديره الفرنسيّ لن يتغيّر رسميّاً حتّى إذا عيّنت وزارة المعارف مُديراً سوريّاً مؤقّتاً بديلاً عنه. ثمّ عُقد اتّفاق ثانٍ عادت إلى المعهد بموجبه إدارتُه الفرنسيّة، ثمّ اتّفاقٌ ثالث بدأ تنفيذه في أواخر ١٩٦٠، يقضي بأن يشغل

المنصب من تاريخه فصاعداً مُديرٌ سوريّ. وكانت حصيلة هذه الاتّفاقات أنّنا تابعنا دراسة المنهاج الفرنسي، على أن نتقدّم إلى امتحانات البكالوريا الفرنسيّة الأُولى في بيروت، وهذا ما كان، وحُرمنا من دراسة موادّ البكالوريا الثانية، في الفرعَيْن الأدبيّ والعلميّ – وهذا ما أحزنني، لأنّ الفلسفة هي المادّة الأهمّ في الفرع الأدبي، وكنتُ، كما كان يُعيّرني أهلي، أحبّ أن "أتفلسف"...

لن أستفيض في رواية هذه الأحداث، ولكنْ، لا بدّ لي في سياقها من الكلام على مواقف الأساتذة الفرنسيّيْن، لما كان لها من أثرٍ عميق في توعيتي الفكريّة والسياسيّة. ولعلّ السنة الدراسيّة ١٩٥٩ – ١٩٦٠ (ما زلتُ أعدّها، من مُختلف الأوجه، أجمل سنواتي في المعهد) هي التي استطعتُ فيها معرفة ما يُكنّون من مشاعر إزاء الحرب الاستعماريّة الفرنسيّة في الجزائر، على الرغم من تحفّظهم الشديد، وتعهّدهم التزام الحياد في القضايا الشائكة. امتعض الناظر العامّ، على سبيل المثال، لأنّي أنشدتُ في حفلٍ مدرسيّ قصيدةً ساذجة، قيل له إنّي مدحتُ فيها جميلة بوحيرد. واكتشفتُ أنّ أُستاذ التاريخ كان يقرأ بانتظام الجريدة الأُسبوعيّة الساخرة "البطّة المُقيّدة" ومجلّتَي "الإكسبرس" و"فرانس أوبسرفاتور"، وحين سألتُهُ عنها، عرض عليّ أن أستعيرها منه، كلّما وصله من بيروت عددٌ جديد، وحسناً فعل. ذلك أنّي دُهشتُ وأنا أُقلّب الصفحات من جُرأة "البطّة" في نهش الجنرال ديغول، وهو مَنْ هو مكانةً في التاريخ الفرنسيّ المُعاصر، وهزئها من أكاذيب قادة الجيش، واعتراضها الصريح على الحرب. وازدادت دهشتي عند مُطالعة المجلّتَيْن: ثمّة، إذاً، في فرنسا رجالٌ ونساء يأخذون مأخذ الجِدّ مبادئ الجمهوريّة، "الحُرِّيَّة والمساواة والإخاء"، ويشعرون بالمهانة ممّا يُرتكَب باسم فرنسا من جرائم. ثمّة، إذاً، أكثر من فرنسا واحدة، ومن حقّي أن أُحبّ إحداها،

وأكره الأُخريات، أن أُحبّ سان جوست ورامبو وسارتر وأراغون وبراسنس وليو فيري، وأن أكره نابوليون والجنرال غورو وبيتان وغي موليه ... والناظر العامّ. وإذا صحّ هذا القول في الحالة الفرنسيّة، فهو صحيحٌ أيضاً في حالَتي الولايات المتّحدة وبريطانيا، وليخسأ الذين يدّعون أنّ العروبة والإسلام يقتضيان تدنيس الغرب وثقافته جملةً وتفصيلاً.

تيقّنتُ من صواب موقفي عندما قرأتُ البيان المشهور الذي وقّعه ١٢١ كاتباً وفنّاناً مرموقاً، وفي مقدّمتهم جان بول سارتر، ونُشر في أيلول ١٩٦٠، مؤكّداً حقّ الجزائر في الاستقلال وتعاطُفَ الموقّعين مع الفرنسيّيْن الذين يرفضون القتال ضدّ الشعب الجزائري. وصرتُ أتتبّع أخبار المُناهضين للحرب، وأستفسر من زميلٍ جزائريّ قبائلي - كان قد استقرّ في دمشق للدراسة بعد إصابته بجروح - عن قادة الثورة واتّجاهاتهم، وعن تعرّجات مسلك الحكومة الفرنسيّة إزاء المستوطنين، وعن مواقف مُختلف الأحزاب الفرنسيّة، فيسترسل في الإجابة، ويُنهي حديثه بقوله إنّنا، نحن السوريّين، "خير الناس"، ولكّنّه لا يفهم هَوَسَنا بالوحدة العربيّة! ومن أطرف ذكرياتي عن سنتي الدراسيّة الأخيرة في المعهد أنّي كنتُ من المُحرّضين على التظاهر في أواخر نيسان ١٩٦١، احتجاجاً على التجربة النوويّة الفرنسيّة الثانية في الصحراء الجزائريّة. وبعد أن نجحْنا في إقناع نحو ثلاثين أو أربعين طالباً بأنّ هذه التجربة عدوانٌ غاشم على السيادة الجزائريّة، تجمّعْنا في الشارع بلا ترخيصٍ من أحد، وكان المارّة على جانبَي الطريق لا يُصدِّقون ما تراه أعينهم: طلّابٌ في مدرسةٍ فرنسيّة يتظاهرون ضدّ السياسة الفرنسيّة، وهذا في زمن الوحدة السوريّة المصريّة حين كان المواطنون لا يجرؤون على التعبير عن رأيهم بحُرِّيَّة في صغيرةٍ أو كبيرة. وبلغ بنا التّهوّر والغرور يومذاك أنْ عزمْنا على التوجّه إلى ثانويّة جودة الهاشمي، كُبرى ثانويّات دمشق

الحكوميّة، لدعوة طلّابها إلى الانضمام إلينا، ولكنّ الشرطة فرّقتْنا ما إن عبرنا "السبع بحرات" باتّجاه البرلمان.

***

سأعود الآن أدراجي لاستدراك ما فاتني ذِكْره عن مضمون البرنامجَيْن الرسميَّيْن السوري والفرنسي. لم نكن مُطالَبَيْن بدراسة الموادّ العلميّة (الرياضيّات والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي) إلّا في كُتُبنا الفرنسيّة، والحُجّة في ذلك كما قيل لنا عن حقّ أنّها أشمل وأكمل من الكُتُب السوريّة، وأفضل شرحاً وتبويباً. وكنّا، في هذه الموادّ، بموافقة وزارة المعارف، نُجيب باللغة الفرنسيّة عن الأسئلة المطروحة في امتحانات الشهادَتَيْن الإعدادية والثانويّة، ولذلك اقتصر تدريس البرنامج السوري على اللغة العربيّة والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنيّة أو الأخلاق (وأُضيفت التربية الدِّينيّة في فيما بعد). وكانت "البعثة العلمانيّة" تُحسن اختيار الكُتُب المدرسيّة الفرنسيّة التي تفرضُ على الطلّاب اقتناءَها، بحيث يتشوّقون إلى الغوص فيها، بفضل أُسلوبها السلس وإخراجها الأنيق، وبحيث لا تشوبها بقدر الإمكان شائبةٌ دِينيّة أو سياسيّة تُؤاخَذ عليها في مُختلف البلدان الني أنشأت فيها معاهدها. إلّا أنّ هذه الكُتُب كانت تتوجّه أساساً إلى جمهور الطَّلَبَة الفرنسيّيْن، وتهدف بالدرجة الأولى، في موادّ التاريخ والجغرافيا والتربية المَدَنيّة، إلى تلقينهم تاريخ بلادهم وجغرافيّتها الطبيعيّة والبشريّة ونظامها السياسيّ، وما ينبغي لهم معرفته عن أوروبا، فلا غرابة، إذاً، في أن يكون ما تعلّمناه خلال السنوات السّتّ في هذه الموادّ عن فرنسا ومُحيطها الأوروبي يُضاهي، بل يفوق دقّةً وعُمقاً، مجموع المعارف المُقرّرة في المنهاج السوري، وليس ما يختصّ منها بسورية والبلاد العربيّة فحسب.

أتساءل وأنا أكتب هذه السطور: لماذا شُغفتُ بالرياضيّات، بالجبر خصوصاً، بين الموادّ العلميّة جميعها؟ وأعجبُ من قدرتي آنذاك، بلا جهدٍ كبير، على حلّ أعقد المسائل والتمارين. لماذا تهيّبتُ الفيزياء والكيمياء، ودرستُهما على مضض، وأقصى طموحي أن أحصل على مُعدّل ١٠ من ٢٠ في الامتحان؟ ولماذا كرهتُ التاريخ الطبيعي كراهية التحريم، وكان الصفر نصيبي منه على الدوام، مُرفقاً بتعليقاتٍ غاضبة من الأُستاذ؟ (كنتُ، والحقّ يُقال، أُسلّمه ورقة الامتحان بيضاءَ ناصعة أو بعد أن أكتبَ عليها بعض الأبيات الشِّعْريّة بالعربيّة أو بالفرنسيّة!) أيرجع السبب إلى ميولٍ نفسيّةٍ دفينة أم إلى منهاج التعليم أم إلى شخصيّة الأستاذ؟ إلى كلماتِ الأُغنيَّة ولحنها، أم إلى أداء المُغنّي؟ مهما يكن الأمر، أولعتُ منذ البداية حتّى الهوس بالأدب والتاريخ، وكان من حظّي أن جاءنا أُستاذٌ قدير للّغة العربيّة في الصّفّ التاسع شجّعني على قراءة الشِّعْر العربي القديم، واستكشاف أسرار العروض، وأستاذٌ آخر للتاريخ في الصّفّ العاشر (ربطتْني به فيما بعد مودّةٌ عميقة، سآتي على ذِكْر أسبابها) كان يُغني المعلومات الواردة في الكتاب المدرسيّ المُقرّر بتفاصيل عن الحياة الاجتماعيّة والإنتاج الأدبي والفنّي. وشاء الحظّ أيضاً أنْ وُفِّقْنا في السنه التالية، في الصّفّ الحادي عشر (الأوّل بحسب الترتيب الفرنسيّ)، بأستاذَيْن فرنسيَّيْن، قلتُ في فقرةٍ سابقة إنّ أحدهما، أستاذ التاريخ، كان مُعارضاً للحرب الاستعماريّة في الجزائر، وأمّا الثاني، أستاذ اللغة والأدب، فكان مُربّياً من الطراز الرفيع، رسّخ في ذهني ما تعلّمتُهُ من قبلُ عن الأدب الفرنسيّ، من رابليه ومونتين ورونسار إلى القرن العشرين، وأدينُ له فوق ذلك بمُحاولاتي المُتعثّرة الأولى لاستخدام بعض الأدوات النقديّة الحديثة في مُقاربة الشِّعْر والرواية - ولم يكن هذا مُتاحاً في أيّامنا في دروس اللغة العربيّة.

لا أذكر بدقّة متى صارت التربية الدِّينيّة مادّةً إلزاميّة، تُدرَّس في

المدارس الحكوميّة والخاصّة جميعها، وهل كان ذلك حين كنتُ في الصّفّ التاسع؟ أم في الصّفّ العاشر؟ نشأتُ في أسرةٍ مسلمة، مؤمنة، غير مُتزمّتة، تلقّنتُ فيها، وفي وسطها الاجتماعيّ، إسلاماً بريئاً من التّعصّب الدِّيني أو المذهبيّ، يتلخّص بالشهادَتَيْن، وبأنّ الله "كتب على نفسه الرحمة"، ويُريد بعباده اليُسر، ولا يُريد بهم العُسر. غير أنّي، أُسوةً بكثيرين من أبناء جيلي، تردّدتُ مراراً في سنوات المُراهقة، قبل هاتَيْن السَّنتَيْن، بين الشّكّ واليقين. صمتُ شهر رمضان أحياناً، وصلّيتُ الصلوات الخمس، وجهرتُ أحياناً بالإلحاد أمام أصدقائي المُقرّبين، وانتهيتُ مُبكّراً إلى القناعة بأنّ الأخلاق النبيلة لا علاقة لها بالإيمان والإلحاد، ولا تختصّ بدِينٍ دون دِين، أو مذهبٍ دون مذهب، مع شعورٍ عميقٍ بالانتماء إلى أُمّةٍ (أو حضارةٍ أو ثقافةٍ) أسّسها رجلٌ عظيمٌ، اسمه مُحمّد بن عبد الله. ولذا كان أُستاذ الديانة حائراً في أمري، يُثني عليّ حين أستظهر أمامه الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة بلا خطأ أو غمغمة، ويتعوّذ من الشيطان الرجيم حين أُغيظه ببيتٍ لأبي العلاء المعرّي أو أطرح عليه أسئلةً مُحرجة عن الجنّة والنار، أو عن القضاء والقَدَر. وفي يومٍ من الأيّام، ناداني بعد انتهاء الدرس، وصافحني، وقال مُتهلّلاً: "لماذا لم تقلْ لي إنّك تُحبّ سيّدنا مُحمّداً، صلّى الله عليه وسلّم، هذا الحبّ كلّه؟" فتصنّعتُ الدهشة: "ولماذا تسألني هذا السؤال؟"، فقال: "كنتُ ماراً في شارع (أبو رمّانة)، بالقرب من المركز الثقافيّ العربيّ، فوجدتُ في اللوحة المُثبتة في المدخل قصيدةً في مدح النبيّ من نَظْم فاروق مردم". فأجبتُهُ ضاحكاً: "ومَنْ قال لك إنّه ليس في أسرة مردم إلّا فاروق واحد؟" وهكذا تصالحْنا وتصافَيْنا وأخزيْنا إبليس اللعين! أمّا قصيدتي العصماء، فلا أذكر منها إلّا أنّها كانت همزيّة على البحر الخفيف.

***

يُعيدني هذا الاستطراد إلى وَلَعي المُبكّر باللغة العربيّة، وأنا منصرفٌ إلى الدراسة باللغة الفرنسيّة في مدرسةٍ فرنسيّة. هل جاءني، كما ظنّ أهلي، من رغبةٍ طفوليّة ساذجة في استئناف سيرة أحد كبيري أسرتنا، خليل مردم بك، رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق؟ هل كان مظهراً من مظاهر حماستي القوميّة المُتوقّدة؟ هل كان شكلاً من أشكال الدفاع عن هويّةٍ ثقافيّة مُركّبة في طور التكوين؟ لا أُرجّح احتمالاً على آخر، ولكنّي واثقٌ من أنّي كنتُ في الصّفّ التاسع حين عثرتُ في بيت جَدّي على صندوقٍ أثار فضولي، يحتوي على دواوين شِعْريّة ودراساتٍ أدبيّة من مطبوعات الثلاثينيّات والأربعينيّات في سورية، فامتلكتُهُ وامتلكني، وبدأتُ بالتّدرّب على نَظْم أبياتٍ على بحور الخليل أغلب مُقلّداً ما كنتُ أقرؤه، ونشرتُ أولى "قصائدي" في العدد الأوّل والوحيد من المجلّة التي أصدرها بجهدٍ جهيد اثنان من زملائي في المعهد. وكنتُ أُطلع أستاذ اللغة العربيّة على ما أكتب، فيُصحّح أخطائي اللغويّة والعروضيّة، ويحثّني على حفظ المُعلّقات وأشعار الطبقة الأولى من الأُمويّيْن والعبّاسيّيْن وإنشادها في البيت بصوتٍ عالٍ حتّى يستقيم لساني وأتمكّن من الأوزان. ولم يخلُ الأمر من إشكالاتٍ مُربِكَة، فشِعْرنا القديم حافلٌ بالغزل الحسّيّ والهجاء المُقذع. سألتُهُ مرَّة عن معنى بيتٍ لجرير في قصيدته الدامغة، لم يأتِ ذِكْره في الكتاب المدرسيّ، وهو الذي يقول فيه: "بها بَرَصٌ بجانبِ إسْكَتيها/ كعَنفقةِ الفرزدقِ حين شابا"، فتنحنح، وقال: "انتظر انتهاء الدرس"، وبعد أنْ خرج الطلّاب من القاعة، تنحنح ثانيةً، ونظر إلى السقف وقال هامساً: "هذا البيت رذيل، رذيل جدّاً، هل تُريد حقّاً أن تعرف معناه؟ الإسْكَتان هما ... هما شفْرَا فرج المرأة، نعم، شفْرَا فرج المرأة، هل فهمتَ ما أقول؟ والعَنْفَقَة هو شَعْر الرجل تحت الشَّفَة السُّفلى. أحرجتَني اليوم، كيف أُجيب عن سؤالٍ مثل سؤالكَ أمام الطلّاب ... والطالبات؟".

أدمنتُ، منذ تلك الأيّام، على قراءة الشِّعْر، قديمه وحديثه، وأهملت الدراسة إلّا بالقَدْر الذي يُؤهِّلني للنجاح في الامتحان، وكتبتُ قصائد حماسيّة عن الجزائر وفلسطين، وعن زميلتي ذات العينَيْن الخضراوَيْن التي كنتُ أعشقها وهي لا تدري - أو تدري، ولا يُهمّها أمري. وفي بداية ١٩٦٠، تقدّمتُ إلى المسابقة التي أعلن عنها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في الجمهوريّة العربيّة المتُّحدة للشعراء الذين لم يبلغوا الثلاثين، فإذا بي أفوز بالجائزة الثانية، وأُدعى إلى قراءة قصيدتي في مهرجان الشِّعْر العربي الثاني الذي سيُقام في أيلول في مسرح معرض دمشق الدوليّ. وللقارئ أن يتخيّل المكانة العالية التي تبوّأتها بين زملائي منذ أنْ ذاع الخبر، واعتزاز الإدارة بأنّ الفائز السوري في المُسابقة (كان الفائزان الآخران مصريَّيْن) من "أولاد اللاييك"، وسعادتي العارمة في أثناء المهرجان بالتّعرّف شخصيّاً إلى شعراء من الرعيل الأوّل، مثل أمين نخلة والشاعر القرويّ وأحمد رامي، أو من الشعراء المُجدِّدين، مثل صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المُعطي حجازي، وإلى كبير شعراء العامّيّة المصريّة صلاح جاهين. أنشدتُ القصيدة في المهرجان بعد أن نقَّحتُها وصدّقتُ أنّي "شاعرٌ واعد"، بحسب العبارة التي تُقال للمُبتدئين للتّهرّب من المُجازفة بحُكْمٍ قَطْعيّ. وكان لا بدّ، بعد نيلي الجائزة، للوفاء بهذا الوعد، من أن أنهمكَ في نَظْم ما ظننتُهُ شِعْراً، ممّا جعل أهلي، وبعض أساتذتي الذين أخذوا عليّ تقصيري في الدراسة، "يَعِدُونني" بالرسوب في البكالوريا! ولا أشكّ في أنّي لم أكن لأحصلَ عليها، بمُعدّلٍ غير مُشرّف لا يتجاوز ٦٣ من ١٠٠، لولا حصولي على أعلى العلامات المُمكنة في الرياضيّات واللغتَيْن العربيّة والأجنبيّة (الفرنسيّة).

كان الشعراء الشّبّان جميعهم آنذاك يعتقدون أنّ نشر قصائدهم في "الآداب" أو في "شِعْر" شهادةٌ لا تُردّ بقبولهم أعضاءَ كاملي العضويّة في

نادي الشعراء. حذوتُ حذوهم، فأرسلتُ إلى أدونيس قصيدةً طويلةً مُثقَلةً بالرموز والإحالات، وإلى سهيل إدريس قصيدةً لا تقلّ عن صاحبتها حذلقةً. ولم يمضِ شهرٌ أو شهران حتّى سلَّمني أحد نُظّار المعهد رسالةً من أدونيس، خَطّها بالحبر الأخضر، مُوجَّهةً "إلى التلميذ فاروق مردم، مدرسة اللاييك، دمشق، سوريا"، يقول لي فيها ما معناه إنّ قصيدتي بحاجةٍ إلى تكثيفٍ وصقل، إلّا أنّ مجلّة "شِعْر" ستنشر مقطعاً منها في عددٍ قادم تقديراً لموهبتي "الواعدة" وتشجيعاً لي على المُثابرة. وبعد بضعة أيّام، فرحتُ فيها وزهوتُ كأنّي، على قول المُتنبّي، "جالستُ رَسْطاليسَ والإسْكَنْدرا"، وصلني العدد الجديد من "الآداب" - عدد نيسان ١٩٦١- فإذا بقصيدتي الثانية تتصدّره على صفحَتَيْن (ليت سهيل إدريس رماها في سلّة المهملات لأنّها تُخزي صاحبها إلى أبد الآبدين حتّى لو اقترفها وهو في السنة السادسة عشرة من عمره!)، فأُحرجتُ إحراجاً شديداً، وكتمتُ الخبر عن أصدقائي في المعهد، إذ إنّ مدرّس اللغة العربيّة في صفّ البكالوريا، وكنّا نُحبّه ونحترمه، كان يسعى إلى نشر شِعْره في المجلّات الأدبيّة الكبرى، ولم يُفلح مرّة واحدة. ولعلّ السبب إصراره، في الزمن الذي راج فيه شِعْر التفعيلة، واستسهلَهُ الهواة من أمثالي، كما يستسهلون في أيّامنا هذه "قصيدة النثر"، على أنّ الشِّعْر كلامٌ موزونٌ مُقفّى، وله عمودٌ لا يستقيمُ بدونه.

***

أمّا التاريخ، فله قصّةٌ، نسج خيوطها أستاذان، فرنسيٌّ وسوريّ. درَّسَنا الأوّل تاريخ فرنسا منذ الثورة الكُبرى، وفيه ما فيه من الصراعات السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة التي تردّدت أصداؤها في العالم بأسره. وكان مُتحيّزاً للجمهوريّيْن الأصفياء، فتحيّزتُ لهم وقرأتُ سيرتهم، وما زلتُ أُكبر روبسبيير

وسان جوست، على الرغم من الصورة البشعة، المُجحفة في أكثر ملامحها، التي رسمها لهما رجال الثورة المُضادّة بعد الانقلاب عليهما، وصارت من ثوابت التاريخ الرسميّ. وفي بداية السنة الدراسيّة ١٩٥٨ - ١٩٥٩، عُيّن لنا أستاذٌ للتاريخ، يختلف في منهجه التربوي عن المُدرِّسين السوريّيْن الذين عرفناهم من قبل. كان واسع الثقافة، مُتفانياً في أداء مُهِمَّته، يستعين بمراجع تتعدّى الكتاب المُقرّر، وينصحنا لمعرفة المزيد بقراءة الروايات التاريخيّة، مثل "الحرب والسلام" لتولستوي و"المواطن توم بين" لهوارد فاست. وكان يُعيد ويُكرّر أنّ التاريخ علمٌ يستعصي على من يكتفي بمعرفة تسلسل الأحداث، ولا يبحث عن أسبابها، ولا يُلمّ بالإنتاجَ العلميّ والأدبي والفنّيّ في عصرها. أذكر أنّه وزّع علينا يوماً كُتيّباتٍ باللغة الفرنسيّة، مُزدانةً بالصور، عن كبار فنّاني عصر النهضة، وطلب منّا تلخيصها باللغة العربيّة (وكان نصيبي منها الكُتيّب عن الرسّام الألماني ألبرخت دورر). عرف وَلَعي بالشِّعْر، فقال لي على حدة: " يجب أن تقرأ أشعار ناظم حكمت، وهو تُركيّ، وبابلو نيرودا، وهو شاعر كبير من التشيلي، يكتب بالإسبانيّة، ولكنّك ستجد مُختاراتٍ من أعمالهما مُترجمةً إلى العربيّة أو إلى الفرنسيّة"، وكانت هذه أوّل مرَّة أسمع فيها باسمَيْهما.

عدْنا إلى المدرسة في بداية ١٩٥٩، بعد عطلة الميلاد ورأس السنة، وفوجئْنا بغياب أستاذَي التاريخ والجغرافيا. مضى أسبوعان على استئناف التدريس ولم يرجعا، ولم ندرِ عنهما شيئاً، وفي أوّل الأسبوع الثالث، أعلمَنا الناظر العامّ بأنّ مُدرِّسَيْن آخرَيْن سيحلّان محلّهما، ولم يُفصِح عن السبب. ثمّ فهمْنا أنّهما اعتُقِلا بتُهمة الانتساب إلى الحزب الشيوعي المحظور، فصُدمتُ صدمةً نفسيّة عنيفة، وبكيتُ، وتحوّل حُبّي عبد الناصر إلى كراهيةٍ، دامت طويلاً، ومزَّقتُ صورته التي كنتُ قد أطَّرتُها، وعلّقتُها على جدار غرفتي، وندمتُ على وقوفي ساعاتٍ تحت شرفة قصر الضيافة، في

أوّل زيارةٍ له لدمشق، بانتظار إطلالته الكريمة على الجماهير التي احتشدت لرؤيته وسماعه وهو يقول: "أيّها الإخوة المواطنون". أيُّ أُخوّةٍ، وأيّ مواطنين، وأُستاذي الذي أُجلّه مَرميٌّ في السجن؟ إذا كان هذا الإنسان النبيل شيوعيّاً، فما أعظم الشيوعيّة! ومن غريب المُصادفات، أنّي عثرتُ في تلك السنة، في دكّان أحد باعة الكُتُب المُستعمَلَة، بالقرب من البرلمان، على نسخةٍ بالفرنسيّة من "البيان الشيوعي" لماركس وأنغلز، ولم يكن البائع يعرف ما هو هذا الكتاب، ولا أنّه ممنوعٌ من التداول، فاشتريتُهُ وقرأتُهُ وكأنّي أكتشف قارّةً مجهولةً ساحرة – وسيُكتَب عليّ في مستقبل الأيّام أن أتسلّق بحماسةٍ جبالها الشاهقة، وأن تزلّ بي قَدَمي أحياناً، فأسقط إلى أوهد وديانها.

حصلتُ على البكالوريا السوريّة في تمّوز ١٩٦١ بالقليل من الجهد بعد أن انزاح عن كاهلنا، على الرغم منّا، عبْءُ البرنامج الفرنسي. وبينما كنتُ أعدّ العدّة لسنتي الدراسيّة الأولى في كُلّيّة الحقوق، في أواخر أيلول ١٩٦١، وقع انقلاب الانفصال، وظهرتُ من جديدٍ إلى العلن الأحزاب التي كانت قد اضطرّت إلى حلّ نفسها إثرَ الوحدة السوريّة المصريّة، أو التي واصلت نشاطها سرّاً، وعادت الصحف المحتجبة إلى الصدور، فتعرّفتُ إلى أغلب الكُتّاب والصحفيّيْن الشيوعيّيْن الذين سُجنوا في عهد الوحدة أو لجؤوا إلى لبنان، واستطعتُ العثور على عنوان أستاذي المحبوب. زُرتُهُ، فلم يعرفني للوهلة الأولى، ثمّ رحّب بي بلباقةٍ، ودعاني إلى فنجان قهوة، وتحدّثنا قرابة ساعةٍ، لم يبدُ لي خلالها أنّه قادرٌ على تصوّر ما فعلتْهُ بي دروسه، والكُتُب التي نصحني بقراءتها، ولا كيف صعقني خبرُ اعتقاله، وكيف أنزل عبد الناصر في نظري من علّيّيْن إلى أسفل سافلين، وكيف حرَّضني على مُصادقة الشيوعيّيْن. قابلتُهُ مراراً بعد زيارتي هذه، وكنتُ أتساءلُ عقب كلّ لقاءٍ عمّا جعلني أكثر زملائي إعجاباً بمنهجه في التدريس، وأكثرهم استجابةً للرسالة السياسيّة التي كانت ظاهرةً مخفيّةً في أقواله، ولماذا

آلمني اعتقاله أكثر ممّا آلمهم، ولماذا جدّدتُ صلتي به بعد إخلاء سبيله، ولم أسعَ إلى الاتّصال برفيقه، أستاذ الجغرافيا، الذي سُجن مثله وعُذّب في سجن المزّة.

***

لعلّ أكثر ما شغلني طَوالَ فترة الدراسة الثانويّة (١٩٥٩-١٩٦١)، غير ما جئتُ على ذِكْره من هَوَسٍ بالسياسة والتاريخ والشِّعْر، وغير غرامي الرومانتيكي البائس، كان سعيي الحثيث إلى اكتشاف دمشق من أقصاها إلى أقصاها - وهو ما ثابرتُ عليه في أيّام الجامعة، وما منعتْني هجرتي إلى فرنسا في أواخر ١٩٦٥ من متابعته كما كنتُ أتمنّى. أُرجّح اليوم أنّ أوّل ما أثار هذه الرغبة في نفسي كان حَيْرتي كلّما سمعتُ أسماء بعض الأمكنة، مثل مادنة الشحم والبحصة وجوزة الحدبا وزقاق الجنّ وحارة القرد وسوق تفضّلي يا ستّ، يُردّدها أبي بين الحين والحين، فيشطح بي الخيال، وأتمنّى أن أجدَ لها تفسيراً. أحسب أيضاً أنّي بُهرتُ (في ربيع أو خريف ١٩٥٩؟) بمنظر دمشق، من أعلى قاسيون، بمآذنها وقبابها وحزامها الأخضر، يوم قصدتُ مع صديقَيْن، بدافع الفضول، مغارة الدم التي تُروى عنها الأساطير، وأخجلني عجزي عن تسمية أيّ حَيٍّ من أحياء المدينة. والحقّ أنّي لم أكن أعرف، معرفةً سطحيّة، إلّا القليلَ من معالمها الأثريّة التي كنتُ قد زرتُها على عجل في نُزهةٍ مدرسيّةٍ مُملّة، والأقلّ من محالّها وضواحيها: عين الكرش، ثمّ العبّاسيّين، حيث أقمتُ، جادّة من جادّات المُهاجرين، بالقرب من المصطبة، حيث كان يُقيم جَدِّي، خمسة شوارع رئيسة، لا بدّ من عبورها لزيارة الأقارب أو الذهاب إلى دكّان الخيّاط أو صالون الحلّاق، وبعض الأسواق القديمة التي كان يجرّني إليها أهلي عُنوةً، موعوداً بصحن بوظة في سوق الحميديّة قبل العودة إلى البيت.

لم تكن دمشق في مُنتصف الخمسينيّات قد التَهَمَتْ بعدُ غوطتها القريبة، وكانت البساتين تحفّ بها من جهاتٍ ثلاث، وتتداخل في نسيجها، وتطبع بطابعها جغرافيّتها البشريّة. أتذكّر البساتين المُتاخمة لمدرسة اللاييك، من جهة الشمال، في موازاة شارع بغداد، قبل اكتمال بناء المصرف المركزي، وشقّ شارعي جول جمال ومُرشد خاطر (أتذكّرها بدقّة، لأنّي دخّنت مُتخفّياً تحت شجرةٍ من أشجارها أوّل سيجارة "ينيجه" سرقتُها من صالون الضيوف!). وأتذكّر البستان الذي كنتُ أُطلّ عليه من شرفة غرفتي، في العبّاسيّيْن، والساقية الفقيرة التي تفصل بينه وبين العمارة، وكان يكفيني ان أقفز من فوقها، لأتريّض بين أشجار التوت والمشمش، أو أجلب لأُمّي حاجتها من الحليب والخضار. وأتذكّر تراماواي دوما، الآتي من المرجة عبر القصّاع، وعلى متنه عشرات الرّكّاب مُحمّلين في أيّام الجُمع الربيعيّة بلوازم السيران تحت الأشجار المُزهرة، في جوبر وعربين وحرستا. وأتذكّر البستان في غربيّ (أبو رمّانة)، حيث كنّا نُسمّن خروف العيد، وكنتُ أُشفق عليه، وأتوسّل إلى أهلي أن يحقنوا دمه. عاينتُ، إذاً، مرحلةً من مراحل التّوسّع السَّكَنيّ في دمشق، وتحوّلاتها الاجتماعيّة بعينَي مُتلهّفٍ إلى الكشف عمّا وراء جدران بيته ومدرسته، ولكنْ، لم يكن في وُسعي آنذاك، خوفاً أو حياءً، أنْ أتجوّل في أعماق الحارات الشعبيّة في المدينة القديمة، داخل السور وخارجه، واكتفيتُ بما يقع عليه نظر المارّة في مُحيط الجامع الأُمويّ، وفي سوق ساروجا، وعلى طول خطوط التراماواي والباص.

كان التراماواي أنجع وسيلةٍ وأمتعها، للتّعرّف إلى الأحياء التي تتعدّى "مجالي الحيويّ". لولاه لما كان لي أنْ أجتاز الطريق (أن أجتازه فحسب) من الدرويشيّة إلى الميدان، ولا من المرجة إلى العمارة فالقصّاع، ولا من الجسر الأبيض إلى الشيخ محيي الدِّين. ولولاه لما أطلَلْتُ من آخر خطّ المُهاجرين على حواكير الصّبّار، ولا تسلّقتُ أدراجَ "الطلعات"، من السّكّة

في شارع ناظم باشا حتّى الجادّة السادسة. أمّا الباص، فكانت مُهمّته الوحيدة أنْ يُقلّني ذهاباً وإياباً من البيت إلى المدرسة - وفي أيّام العُطل، من البيت إلى بوّابة الصالحيّة، مرجعي الطبوغرافي المُعتمَد. أنطلقُ منها دائماً لقضاء حاجةٍ ما أو للتّسكّع، في أحد اتّجاهَينْ: إمّا إلى الجنوب حتّى جسر فكتوريا، ماراً بكشك التنبكجي في شارع بور سعيد، أو مُنعطِفاً قبله في شارع الفردوس لمشاهدة فيلمٍ في سينما دنيا، أو مُعرِّجاً بعده في شارع المتنبّي على مكتبة دار اليقظة العربيّة، وإمّا إلى الشمال في شارع الصالحيّة، على رصيف سينما أمير، حيث ألتقي بزملائي، أو أُواصل السير، فأتوقّف عند بائع هريسة اللوز الأشهى والأشهر في دمشق، ثمّ أمام بسطة الروماني للكُتُب المُستعملة، بإزاء تمثال يوسف العظمة (حين كان شاهراً سيفه في نادي الضبّاط)، ثمّ أحثّ الخُطى في شارع البرلمان حتّى الشعلان وساحة النجمة، وأحياناً حتّى أبو رمّانة.

عشقتُ دمشق، وكنتُ كالمَنفيّ حين أُضطرّ في كلّ صيفٍ إلى مُغادرتها للإقامة مع أهلي في مضايا أو بلودان، فأُلفِّق أسباباً للعودة إليها يوماً أو يومَيْن، من عيد ميلاد صديقٍ عزيز إلى مباراةٍ في كرة السّلّة إلى موعدٍ مع طبيب الأسنان. عشقتُها، ولمْ يُكدِّرْ صفوَ علاقتنا الحميمة أنّها تغيّرت، في غضون غربتي الطوعيّة، ثمّ القسريّة، وأنّي تغيّرتُ، فلكلّ غريبٍ، مهما اندمج في مُجتمعه الجديد، جغرافيا عاطفيّة أولى، لا يُشاركه فيها أحد، لها حدودها وتضاريسها ومسالكها. عشتُ في دمشقي العاطفيّة هذه حياتَيْن مُنفصلَتَيْن، وسعدتُ بالجَمْع بينهما حيناً، وشقيتُ أحياناً: إحداهما غربيّةٌ فرنسيّةٌ إلى حدٍّ بعيد، في عاداتها الاجتماعيّة وثقافتها الأدبيّة والموسيقيّة، كان إطارها مُجتمعي المدرسيّ، والثانية عربيّةٌ إسلاميّةٌ اندرجتْ في مُجتمع المدينة المُتديّن من غير غُلُوّ، الحائر في تحديد هويّته الوطنيّة وسُلّم أوّلويّاته السياسيّة، المُتطلّع بحذرٍ شديد إلى شيءٍ

من الحداثة الغربيّة، المُولَع بتغريد أمّ كلثوم وتجويد مصطفى إسماعيل وعبد الباسط عبد الصمد. لمْ يطلْ أمد هاتَيْن الحياتَيْن، وانقضى معهما شبابي الأوّل، واختفت في ثنايا ذاكرتي وقائع ربّما أردتُ لها أن تختفي. إلّا أنّ أمكنتي الأثيرة لم تبرح مكانها في زاويةٍ من زوايا القلب، وبقي لكلّ مكانٍ منها صورةٌ ورائحةٌ وصوتٌ.

***

قد يصعبُ، بل يصعبُ حتماً، على كثيرٍ من مواليد السّتّينيّات فما بعد تصديقُ ما رويتُهُ من سيرتي المدرسيّة، بسبب مُصادفاتها المتعاقبة في زمنٍ غير زمنهم، ولتعارضها مع الفكرة النمطيّة عن تلاميذ المدارس الأجنبيّة – ولكلٍّ منهم قصّتُهُ التي لو رُويت، لقيل إنّها تخرجُ عن المألوف. هي سيرةُ ولدٍ نشأ في أسرةٍ ميسورةٍ (غير فاحشة الثراء)، ودرس في مدرسةٍ فرنسيّة، في فترةٍ كانت فيها سُمعة فرنسا في الحضيض، ولم يمنعْهُ ذلك من التّشبّع بثقافتها. أُغرم وحده، من دون الآخرين في مدرسته، باللغة العربيّة وآدابها، ودوّن مشاعره نَظْماً حتّى ظُنَّ وظَنَّ أنّه شاعر. تقلّب في الدِّين بين الإيمان والإلحاد، وخلص إلى أنّ إيمانه أو شكّه أو إلحاده مسألةٌ شخصيّة بحتة لا تعني أحداً غيره. تحمّس للقوميّة العربيّة، ثمّ للشيوعيّة، وأحبّ عبد الناصر ثمّ كرهه، وفرح يوم إعلان الوحدة السوريّة المصريّة، بقدر ما سعد يوم الانقلاب عليها. هذا كلّه وهو في سنيّ المُراهقة، يُجاري زملاءَه في جِدّهم وهزلهم، ولا تفوتهُ مباراةٌ من مباريات كرة السّلّة، ويتحيّل في أغلب الأحيان بدماثةٍ وحياءٍ في تصريف أموره. أنظرُ إليه من بعيد، إلى هذا الولد، تفصلني عنه خمسٌ وخمسون سنة، وأحاول أن أتبيّن في شخصه ما ورثه وما اكتسبه، ما خلّفتهُ في نفسه أحداث الخمسينيّات، وما تعلّمه في المدرسة، وما أخذه من الكُتب - الكُتُب التي صارت "وسواسه

القهريّ"، كما يقول علماء النفس، وخطّت طريقه المُتعرّج في الحياة حتّى بلوغه أرذل العُمر.

ولا أخفي، من قبل ومن بعد، أنيّ أُحبّه، هذا الولد ...

سنواتُ الترحال

ممدوح عزّام

الصوت الوحيد الذي ظلّ يرافقني من تلك السنوات التي شهدت أوّل دخول لي إلى المدرسة، هو صوت الخنازير البرّيّة. لم أعد أذكر إذا كنتُ رأيتُ الخنازير، أو خُيِّل لي أنني رأيتُها، وشهدتُ كيف تندفع من عمق الغابة في الجبل، مُتّجهة نحو أعدائها من البشر الذين يُحتمَل أن يكونوا قد خرّبوا طمأنينتها الهادئة وسط أشجار السنديان، أو الخرّوب، وهي تُطلِق ذلك الصوت الجريح الغاضب المعترض على الانتهاكات الفظّة القاتلة للبشر الذين كانوا يصطادونها. هذه هي الفرجة المحلّيّة التي تتضمّن قَدْراً كافياً من الإدهاش المنشود من قِبَل أطفال قرية قسطل المعاف في جبل الأكراد شمال غرب سورية، لابن الدَّركي الغريب الذي بدأ يشاركهم مقاعد الدراسة.

حينئذ لم أكن في سنٍّ نظامية، أذكر أن الكلمة التي كانت ترافق سنتي الأولى في المدرسة هي: قشق. الظاهر أنها تعني تهريب، أو مخالفة، في اللغة التركمانية التي يتحدّث بها سكّان البلدة. والقشق يعني أيضاً أنه كان بوُسع الدَّركي الذي هو أبي أن يطلب قبول ابنه في الصّفّ الأوّل دون أن يقدّم الأوراق اللازمة للتسجيل. ويبدو أن التلاميذ الصغار، أو المُعلّمين لم يتسامحوا تماماً مع دخولي المخالف للأنظمة، وهم الذين ما كان بوُسعهم فعل ذلك، فقبلوا وجودي الماديّ بينهم، وأطلقوا عليّ تلك التسمية المناهضة للسلوك السلطوي.

لم أتأثّر البتّة بذلك، كما أنني لا أذكر أن أحداً من التلاميذ في المدرسة قد عيّرني بها، والدليل الذي أستعين به الآن هو أن عدداً منهم كان يأتي لزيارتي في المنزل، وأننا كنّا نلعب معاً. وأن عدداً كبيراً من الأولاد الكبار ساعدونا في بناء ذلك العرزال الذي كنّا ننام بداخله في الصيف.

ينهض العرزال على أربع دعائم من الخشب. الأرجح أنها جذوع أشجار ضخمة مقطوعة، ومُثبّتة بالأرض جيّداً، ثمّ تُثبّتُ بها أربعة جذوع أخرى عرضانياً، تصل بينها بطُرُق متقاطعة جذوع أخرى في الوسط والأطراف، كي تُشكّل الأرضية التي سوف يُبنى فوقها العرزال الشبيه ببيت. وهو مُؤلَّف، في الغالب، من أغصان شجر متشابكة، تُرفَع من الجهات الأربع على شكل جدران، ثمّ تُسقَف بأغصان مماثلة. لا أعرف لمَ بُني ذلك العرزال الذي كنّا نصعد إليه عبر سُلّم في الليل أنا وأخوتي لننام؟ هل كان السبب وجود البعوض الذي قد يفرّ من رائحة الشجر، أو الحَرّ؟ أم مُجرّد هواية فانتازية، يبنيها دَرَكي، يمتلك سلطة؟.

أذكر أن الأولاد شاركوا في فزعة جَرّ الأغصان إلى جوار البيت، حيث كان رجال متخصّصون يقيمون العرزال النباتي المُطلّ على الوادي الأخضر الجميل. وقد كافأتْهم أُمّي حينئذ بقِطَع من "الحلاوة المفتّتة" وهي حلويات منزلية، تعدّها من خليط الدبس (الذي كان يأتينا من السويداء، على الأرجح) والطحين. حين تمزج الخليط، وتعجنه على نار هادئة، تُحمّصه، ليصبح بلون النبيذ. ثمّ تتركه حتّى يبرد، وتعدّ منه كراتٍ أو قطَعاً مسطّحة. كانت الحلاوة تتفتّت بين أسنان الأولاد، وهم يقضمونها متلذّذين بالدبس الذي يكسر الطحينُ زخمَ حلاوته الدبقة.

كان أبي قد تطوّع في سِلك الدَّرَك، في بداية عهد الاستقلال عن فرنسا، ولم يكن يحمل أيّ شهادة، فقد أمضى بضع سنوات في المدارس

السورية التي كان يعلّم فيها مُعلّمون يعملون في المخابرات الفرنسية، وكان دأبهم، كما روى لنا، أن يرسّخوا لدى التلاميذ لغة المستعمر، وثقافته. بواسطة عصا السينيال التي كان يستلمها التلميذ الذي قد يتحدّث، أو ينطق بالعربية بأيّ شكل في الباحة. وسوف يكون في انتظاره عقاب رادع، يحطّم فيه المُعلّم أصابع التلميذ الخائن. الحقيقة هي أنني تفهّمتُ، منذ أن كان والدي يروي لنا قصَّة المدرسة الفرنسية، أكثر من أمر. منها أن من الطبيعي أن يغادر التلاميذ مثل تلك المدارس التي تشبه المعتقلات، وألا تجد في الجيل الذي سبقَنا، جيل آبائنا، سوى بضعة متعلّمين من بين الأُسر الميسورة التي تمكّنت من وضع أبنائها في المدارس الخاصّة، وكانت الفرنسية لغتها في البيت أيضاً، ومنها أن ما كنتُ أراه من طبيعة المُعلّمين القاسية، التي تنعدم فيها الرحمة والشفقة، إنما كانت إرثاً استعمارياً في أحد وجوهها، بقَدْر ما كانت إرثاً بطريركياً محلّيّاً ناجماً عن عقلية التّسلّط القبلية. أمّا الأمر المحيّر لي، فهو ذلك السؤال الذي لم يُتَحْ لي أن أسأل والدي عنه قبل أن يرحل: ما الذي جعله يحبّ القراءة طَوالَ عمره؟. وما الذي دفعه لتشجيعي على هذا الأمر؟. أذكر أنه كان يتباهى أمامنا أنه أكمل الدراسة الابتدائية بعد أن تطوّع في سِلك الدَّرَك. كان الدَّرَك هم الشرطة الخيّالة الذين يؤدّون مهامّهم في ضبط الأمن، والسيطرة على أوضاع البلاد، في الأرياف، باستخدام الخيل، (سوف يكون للحصان الذي رافق حياتنا في الخمسينيّات والسّتّينيّات حضور بهي في حياتي). وكان لديه إنجازان، يفخر بهما أمامنا فيما بعد: الأوّل هو أنه نال شهادة السرتفيكا، وهو في سِلْك الدَّرَك (كانت كلمة "السِّلْك" تُوجز الكيان الذي تطوّع فيه كاملاً). وقد أهّله هذا لدخول مدرسة الرتباء (هذا هو الاسم المعروف لمدرسة ضبّاط صفّ الدَّرَك في ذلك الوقت). والانتقال إلى رتبة العريف، ومن ثمّ الرقيب، إلى أن أنهى خدمته برتبة مساعد أوّل. والثاني هو ركوب

الخيل. كان خيّالاً، يتباهى بفروسيّته الماهرة، وبالصداقة المتينة التي توثّقت بينه وبين حصانه العربي الأصيل طَوالَ عمر خدمته في سِلْك الدَّرَك الخيّالة. لم أعد أذكر من أين اشترى الحصان، غير أنني أذكر جيِّداً مدى عنايته به. إذ لم يكن يترك لساسة الخيل (وهم عاملون مَدَنيون في الدَّرَك كانت مُهمّتهم العناية بالخيل) أمر الإشراف الكُلّيّ على حصانه. لا لأنه لا يثق بهم، فهم، في الغالب، كانوا مُدرِّبين، أو أصحاب خبرة في هذا الاختصاص الفريد. بل لأنه لم يكن قادراً على ترك رفيقه الأثير، وقد كان يعرف كلّ شيء عن الخيل، أنواعها وسلالاتها والسلالات الهجينة من بينها، وقد استعنتُ بمعارفه عن الخيل فيما بعد، حين كتبتُ عن الفَرَس "فرحة" التي يملكها صايل الفضل، إحدى شخصيّات روايتي "قصر المطر".

وكان يصطحبني أحياناً في طلاته على إسطبل الخيل مساء. هناك يجب أن يتأكّد من نظافة الحصان، ومن نوعية الطعام المُقدَّم له، ومن فرش الزِّبل والتبن الذي يُخصَّص لنومه. ثمّ يُربِّت على عنقه وناصيته، أو يُمسِّد كفله، أو يسرح شَعْر عُرفه الأحمر الطويل، بينما يحفّ الحصان أنفه وخدّه بجنب أبي، ويُحمحم بحُبّ. وكان أحيانا يطلب منّي أن أُدلّل الحصان أيضاً، ويضع كفّي على المسافة القصيرة الواصلة بين الصهوة والعُرف. يعرف كلّ مَنْ لمس الخيل أن رجفة ناعمة لذيذة، تنتقل من جسد الحصان إلى أجسادهم من تلك اللمسة الخاصّة على تلك المنطقة من أجساد الخيل. في المرَّة الأولى خفتُ، ذعرتُ في الحقيقة من الهزّة الشبيهة برعدة الكهرباء، غير أني كنتُ أطلب من والدي أن يساعدَني على لمس الحصان مرَّة أخرى كلّما اصطحبني إلى هناك، فيما بعد. ذلك أن تلك الهزّة الغريبة كانت لذيذة، ولا تُنسى. وفيما بعد أيضاً عرفتُ أنها تشبه، إلى حدّ بعيد، ارتجاف الجسد عند الذروة في المضاجعة مع المرأة. أخذ والدي يحملني ويجعلني أعتلي الصهوة الباذخة، وأتلمّس الجسد الحارّ، الذي يرتعش بين لحظة وأخرى، براحتي.

كان الدَّركي سيِّد الأرياف السورية بلا منازع، بفضل تلك الخيل. ففي ذلك العهد، لم تكن لدى قوى الدَّرَك تلك السَّيَّارات التي يمكن أن تُقصِّر المسافة بين السلطة والرعايا. وكانت خدمة الهواتف في شكلها البدائي، والمرجّح أن الدَّرَك في المناطق النائية كانوا يستخدمون النظام البرقي. كنتُ أسمع أحياناً تلك التكتكات التي تصدر عن آلة البرق التي يشتغل عليها شابّ ثلاثيني، حين يرسل أبي رسائل مخفره إلى رؤسائه، في أمكنة ما، لا أعرفها. ولهذا فإن وجود الخيل كان حلاً مناسباً في آليات التّنقّل السريع بين القُرى والبلدات، لإنجاز السيطرة المطلوبة، على أيّ نشاط، أو شجار مُحتمَل. ولستُ متأكّداً فيما إذا كان الدَّرَك يتابعون الأنشطة السياسية أيضاً، ويقمعونها. الأمر الثالث الذي ظلّ يفخر به طَوالَ حياته، هو تلك الشهادة المقدَّمة له من قائد الدَّرَك العامّ (هل كان اسمه هرانت؟. كان أبي يردّد اسم هرانت بك باحترام. وقد علمتُ فيما بعد أنه كان قائداً عامّاً للدَّرَك في سورية في الفترة بين ١٩٤٦و ١٩٥٠) في ذلك الحين، تقديراً لمساهمته في اكتشاف جريمة قتل غامضة، في قرية من قُرى جبال العلويّيْن، اسمها: قصقص. راح ضحيّتها تاجر جوّال، وابنه الشّابّ، وحمارهما. اختفت بضائعهما أيضاً، وتلاشى وجودهما، ووجود حمارهما تماماً. كان يروي لنا تفاصيل الجريمة، بتكنيك بوليسيّ نادر، ثمّ يفصل في التحقيق المستقلّ الذي أجراه وحيداً، معتمداً على حدوسه، للتّوصّل إلى القَتَلَة.

المرجّح أنه اكتشف تلك الجريمة قبل الخمسينيّات من القرن العشرين، وأنني كنتُ أرويها لأقراني في المدرسة بعد ذلك بسنوات. ولأني كنتُ أحفظ التفاصيل من جهة، وطريقة الحكي، فقد استطعتُ أن أجذب انتباه رفاقي إلى حكاياتي، أو إلى طريقتي في الحكي. وهو ما سوف يظهر فيما بعد، في موضوعات الإنشاء التي أكتبها في الصّفّ. يرجع الفضل في ذلك

إلى أبي، وليس إلى النظام التعليمي، أو إلى أيّ مُعلّم. كان النظام يقيم أُسُسه على الموضوعات المُسبَّقة، لا على الطريقة، أو التِّقْنِيّة، أو حُرِّيَّة الكتابة. يمكن أن نقول إنهم ساندوا ما سمّوه الأسلوب. غير أنه يختلف تماماً عمّا سيعرف فيما بعد بتِقْنِيّات الحكي. فيما كان المُعلّمون في المراحل المدرسية كلّها، لا يأبهون لتلك الطرائق. وبالعكس، فقد كانت موضوعات الإنشاء تُقرَّر من قِبَل المُعلّم، وتمنح الدرجة لها بناء على الالتزام بالعناصر المقرّرة سلفاً، ويحرم المخالف الذي يمكن أن ينسى أحد تلك العناصر، أو يتراخى في معالجته، من الدرجات العالية. وقد ظلّ هذا النهج متبعاً على الدوام في المدرسة السورية، إذ لا تمنح الدرجة الجيِّدة للمستوى الإبداعي، بل لمدى الالتزام بالعناصر المقرّرة مُسبَّقاً. كنتُ أكتب الموضوع بطريقة مختلفة، ولم أعرفْ في أيّ يوم، حسبما أذكر كيف استخدم العناصر التي يضعها المُعلّم. والطريف أن المُعلّمين كانوا بلا خيال، ربّما لأنهم هم أيضاً يرزحون تحت وطأة الخوف من مخالفة تقليد الكتابة، أو يخشون من تسلّل الممنوع الغامض إلى موضوعات الإنشاء، إذا ما تركوا التلاميذ يختارون موضوعات حُرَّة. ولهذا فقد كتب معظم التلاميذ في سورية موضوعات الإنشاء. التي صار اسمها فيما بعد " التعبير". دون أن يتغيّر مضمونها. نفسها، من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق.

كان أبي حكواتياً من طراز فريد، لا يُهمِل أيّ تفصيل في الطرفة، أو القصَّة، أو الحادثة التي يرويها، عشرات المرَّات. غير أنه كان قادراً على ملْئِها بالتّوتّر الغامض الذي يجعل مستمعيه، الذين يمكن أن يكونوا قد سمعوا تلك الأحاديث من قبل، يتلقّونها، كلّ مرَّة، بطريقة جديدة وحَيّة. وبفضل عمله في الدَّرَك، وتجواله الطويل الذي دام عشرين عاماً في أرجاء سورية، فقد اغتنى بذخيرة هائلة من الحكايات والطرائف والقصص التي لا تنتهي.

وحين كان يعود إلى البيت، كنتُ أراه يقرأ في كتاب ما. حين كبرتُ عرفتُ أنه يهوى التاريخ. وقد ظلّت تلك هي هوايته في القراءة دائماً. وحين تقاعد من عمله، أحضرتُ له المجموعة الكاملة من روايات جرجي زيدان التاريخية، كتاباً بعد آخر. وكنتُ أراه يحكي نتفاً من تلك الروايات لزوّاره من أهل قريتنا، فيما بعد، وهو جالس على شرفة بيتنا الذي بنيناه بعد عودتنا من ذلك التجوال الطويل في الأرجاء السورية الممتدّة. أو يستشهد بحادثة ما مُستمَدَّة من تاريخ جرجي زيدان الروائي. قرأ تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن أيضاً. ورأيتُ بعض الملاحظات التي كتبها على دفتر صغير، بخطّه الجميل المنمنم.

أُمّي كانت أُمّيّة تماماً. ولم تكن تعرف من عالم الكتابة والقراءة غير أحرف الأبجدية العربية التي تحفظها غيباً. ألّف بي تي جيم حي خي ... إلى آخر السلسلة دون أيّ تحريف. لكنها كانت تنوء منذ أن وعيتُ على الدنيا تحت وطأة مرض نادر فظيع، لم يُشخَّص جيِّداً إلا في نهاية السّتّينيّات من القرن العشرين، حين كان قد فات الأوان. اسم المرض: تصلُّب الجِلْد. كان يسلب عافيتها ببطء سلحفاة. تضمحلّ شيئاً فشيئاً أمام أعيننا الحائرة، وإراداتنا العاجزة الكليلة أمام الوحش الخفي الغامض الذي لا يعرفه الأطبّاء. وقد استحوذ على جسدها كلّه فيما بعد. وحين كتبتُ قصّة الشراع، ونشرتُها في مجموعتي الصادرة عن وزارة الثقافة السورية، بهذا الاسم، كنتُ أريد أن أحكي فيها عن هذه المرأة التي لم يستطع المرض المريع أن يهزمها.

بلى. ظلّت قادرة على إنجاز شؤون البيت، والعناية بنا، ورعاية معظم شؤوننا. عدا الشؤون المدرسية، بالطبع. وفي المزيرعة التي نُقل أبي إليها، استعانت بامرأة من هناك لمساعدتها. لا يمكنني تذكّر المدرسة دون أن أزجي التّحيّة لأُمّي الثانية "سارة". كانت واحدة من أكثر النساء اللواتي

أحببتهنّ، بعد أُمّي. كانت تأتي في الصباح الباكر جدّاً إلى بيتنا، وتُحضّر إفطارنا، حين تكون أُمّي عاجزة عن النهوض من الفراش، بسبب المرض أو البرد، ثمّ تُلبِسُنا ثيابنا، تمشِّط شَعْري، وشَعْر أخي، وأختي الصغيرة، وتعدّ محافظنا، وتُذكِّرنا بالوظائف والكُتُب والدفاتر. كان بيتنا في أحد التلال التي تُشكّل البلدة الكبيرة، وكنّا ننزل من هناك أنا وأخي مُتَّجِهَيْن نحو المدرسة التي كانت قد بُنيت حديثاً في طرف البلدة. لا أذكر لماذا نُقل أبي من القسطل إلى المزيرعة، غير أن بقاءنا هناك طال قليلاً، إلى الحدّ الطّيّب الذي أتاح لي أن أعيش تلك اللحظات السعيدة لطفل له أُمّان. أُمّي فدوة وأُمّي سارة. كانت المرأتان مُتَّفِقَتَيْن في كلّ شيء، كما يبدو لي الآن، أعتقد أن سارة كانت تشبه فدوة في أمر ما، جعلها قريبة منّا، منّي، إلى حدود الأمومة. أحتفظ بصورة مؤرّخة في الشهر الثالث من عام ١٩٥٨ أظهر فيها واقفاً قرب أخي الذي يكبرني، وأختي التي تصغرني، ومعنا أخ صغير مات بعد التقاط الصورة بعام. أعرف جيِّداً أن تلك الثياب النظيفة المَكوِيّة جيِّداً كانت ثمرة ذلك التعاون الجميل بين أُمّي وسارة.

لا أذكر من المُعلّمين هناك أيّ واحد، سوى ذاك الذي كان مُغرَماً بعقوبات الكتابة. كنتُ في الصّفّ الثالث، وقد عُوقبتُ بكتابة بيت من الشِّعْر مائة مرَّة. وحين وصلتُ إلى البيت سارعتُ إلى الدفتر، لأُنجز العمل الصعب قبل أن يأتي أبي، من المخفر، أو قبل أن تبدأ جولات اللعب المسائي. لم أُنجز الكثير. راح التكرار يهبط على رأسي ثقيلاً مريراً مملاً رطباً باعثاً على القَرَف. لا بد أن أُمّي وسارة قد رأتا عذابي الذي بدأ يظهر في الخطوط العوجاء التي صارت تنحدر في الصفحة خارج السطر. فانتزعت سارة الدفتر من يدي، وقالت إنها سوف تذهب في الغد لتأنيب ذلك المُعلّم، كانت أُمّي قد وافقت على الفكرة بعد أن شرحتُ لها تفاصيل ذلك التعذيب. غير أن كلا المرأتَيْن تعرَّضتا للتأنيب من الرقيب الأوّل

الدَّركي بادي عزّام حين جاء من المخفر. لاااا!. كان يقول بصوته الرجولي المجرَّح ببُحّة صغيرة ناتئة، أورثَنا إيّاها جميعاً، أنا وأخوتي.ثمّ أحضر الدفتر، ووضعه أمامي، وقال بودّ: اكتب البيت مثلما طلب الأستاذ. كتبتُ بالطبع. لم يكن بحاجة للقسوة أو الغضب أو الشّدّة. كانت لهجته الحازمة كافية وحدها للإعلان عن حضوره الآمر. ولم يكن يسمح بأيّ توانٍ أو رخاوة في تنفيذ الأعمال، فيراقب التنفيذ بعينَي خبير مُدقّق، حتّى لو كانَ تعلّق بكتابة بيت تافه من الشِّعر مئة مرَّة.

لا أذكر أنني تعرّضتُ لأيّ إهانة في المدرسة الابتدائية، دون أن ينفي هذا أن الآخرين كانوا معرّضين على الدوام لمثل تلك الإهانات. المرجّح أن موقع الدَّركي له الفضل في ذلك، ففي تلك الأيّام، كان الناس يهابون الدَّرَك أكثر ممّا يحترمون المُعلّم، لم يكن للعِلْم نفسه أيّ قيمة مستقلّة، فهو مُجرّد وسيلة للحصول على الوظيفة، هذا ما تدرّب عليه السوريون منذ عهد الاستقلال. فما بالكَ بوظيفة الدَّركي صاحب السلطة المحلّيّة، وممثّل السلطة المركزية في المكان. وفيما بعد، سمعتُ تلك النكتة التي كان السوريون يتداولونها: قيل للمُعلّم: أستاذ، متى ستُصبح دَرَكيّاً؟.

أهمّ وأبرز حلفاء الدَّرَك في الأرياف السورية هم المُعلّمون. ففي الغالب، يكون الاثنان غريبَيْن عن البلدة، فالدَّرَك يتنقّلون من مخفر إلى آخر، وفق أوامر (وأمزجة أحياناً) قادتهم الميدانيّيْن من أمراء الفصائل، والمُعلّمون يأتون من المحافظات الأخرى وفق النظام التعليمي الذي كان يُحتّم على خرّيجي مدارس المُعلّمين أن يخدموا بضع سنوات فيما سُمّي: المناطق النائية.

كان الحلف يتضمّن حضور الأنشطة العامّة، حيث يظهر الدَّركي وإلى يمينه، أو يساره، الممثّل المشرق من مستقبل البلاد مُجسَّداً في شخصية

المُعلّم. أو يتشاركان لعب طاولة النرد، أو الورق في السهرات الليلية. رأيتُ المُعلّم فيما بعد يحضر إحدى سهرات الحَجِّيّات الراقصة، حين انتقل أبي إلى أرياف القامشلي فيما بعد. ما أريد قوله هو أن هذا الحلف قد أنقذني في الأوقات كلّها من دراستي الابتدائية، من العقوبات الجسدية التي كان يُنفّذها المُعلّمون بلا رحمة بحقّ التلاميذ الذين يخالفون الأنظمة المقرّرة، أو يُقصّرون في أداء الواجبات المدرسية. افتح إيدَكْ. كانت مفتاح العلاقة بين المُعلّمين والتلاميذ. وهي أمر يقتضي بالضرورة الطاعة، والرضوخ، وقبول الضرب من قِبَل التلميذ، دون أيّ اعتراضات. كما كان يعني ممارسة السلطة، وادّعاء ممارسة التربية والتعليم عبر العقاب المُوجِع من قِبَل المُعلّمين، دون أيّ مواجع أخلاقية. كنتُ أرى كيف كان أيّ اعتراض، أو تلكُّؤ، في تنفيذ الأمر يعني هياج المُعلّم، الناجم عن استغرابه وتعجّبه من أن يكون بوسع التلميذ رفض الأوامر أو التّمرّد على سلطة العصا.

لم يكن المُعلّم يستمدّ سلطته من الدَّركي، بالطبع، بل من السلطة المركزية التي تحميه بالواسطة، وفي عهد الوحدة السورية المصرية، شهدنا تدفُّق المُعلّمين المصريّيْن إلى المدرسة السورية. لم يختلف الأمر علينا في أيّ أمر تنفيذي، يتعلّق بأساليب التعامل، أو بطرائق التعليم. كان المُعلّم المصري يأتي حاملاً العصا التي كانت، وما زالت بالطبع، السِّمَة المميّزة لحضور السلطة العربية كافّة. وكان المُعلّم المصري يضيف إلى سلطة العصا القَمْعية، سلطة أخرى مُستمدّة من العلاقة المرتزّة المَبنيّة على القليل من التّفوّق، بين مصر وسوريا.

(الغريب أنني لم أرَ هذا المُعلّم في أيّ رواية سوريّة قرأتُها، وليس لديّ عِلْم فيما إذا كانت الرواية السورية قد قاربت هذا الموضوع).

في الصّفّ الرابع، انتقلنا إلى عين البيضا، في جبال الساحل ذاتها.

صار أبي رئيساً للمخفر هناك. والظاهر أن انتقاله كان نوعاً من الترقية، بعد أن نال رتبة المساعد في الدَّرك. كان المخفر في أوّل البلدة الجبلية، وقد مُنحنا منزلاً مخصّصاً لرئيس المخفر مُلحقاً بالمخفر من جهة الشرق، وكانت المدرسة بعيدة، في الطرف الآخر المُطلّ على الوديان المشجّرة من البلدة. حيث كان يظهر البحر من بعيد.

وكما في كلّ انتقال جديد، سيكون عليّ أن أتسلّل إلى صفوف التلاميذ أبناء الضيعة خطوة خطوة. يقترب الناس من الغريب في العادة ببطء، عدا الأطفال الذين لا يحملون مخاوف الكبار، وتحفّظاتهم المُعدّة مُسبّقاً. ولهذا فقد استطعتُ أن أندمج في المجموعة، وأن أبنيَ صداقاتٍ عديدةً، ذكّرني بها واحد منهم بعد مرور أكثر من أربعين عاماً على مغادرتنا للبلدة.

ومن بين التلاميذ، كان معنا طفل نحيل، تفترس أمعاءَهُ دودة شريطية متوحّشة. لم يكن الطّبّ قادراً على معالجة تلك الطفيلية القاتلة التي تسرق من الصغير معظم ما يقتات به. كان رفيعاً طويلاً شاحباً كالطباشير. وكان يعجز، في معظم الأحيان، عن مجاراتنا في الركض أو اللعب. غير أننا كنّا نصطحبه في نزهاتنا الجبلية بين بساتين التين، وكنّا نغنّي معاً نشيد الجزائر الذي فُتنّا بلحنه: قسماً بالنازلات الماحقات ... وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر. وكنّا نحتفي بما سُمّي آنذاك "معونة الشتاء" التي كانت تستمرّ أيّاماً. وفيها كانت جهات ما تتولّى جمع التّبرّعات للجزائريّيْن أيّام ثورتهم ضدّ الاستعمار الفرنسي. كانت اللجان تجمع أيّ شيء، وكل شيء. من البطّانيّات إلى المؤُن، وكنّا نتبارى في استعطاف أمّهاتنا، لتعطينا زجاجات زيت زيتون، أو قمصاناً بيضاء، أو أكياس برغل وعدس وحمّص. ويبدو أنني أُعجبت بطريقة ما، لم أعد أذكرها، ببنت في صفّي اسمها خضرا. وقد نشأت بيننا صداقة وصحبة طيّبة، جعلتْني أذكر اسمها في

البيت بمحبّة. كانت المدارس في أكثر مناطق الريف السوري مختلطة في المرحلة الابتدائية، بسبب نقص أعداد التلاميذ، ولهذا فقد كانت البنات يشاركننا غرف الدرس، دون أن نجلس في مقاعد مشتركة، كما أذكر.

المرجّح أن أبي هو الذي حدَّث دَرَكَ المخفر عن قصَّة العلاقة بين خضرا وبيني. لا أدري لماذا؟! فتسلّط واحد منهم، أو أكثر، عليّ. وراحوا يشيدون أمامي كلّما حضرتُ إلى المخفر باللون الأخضر. يا لجمال هذه الشجرة، لونها الأخضر يُحيي العظام! أو يرتدي أحدهم لفاعاً أخضر، ويشيد الباقون به. كان هذا تعريضاً مريعاً، جعلني أذعر من فكرة أن يصل مثل هذا المزاح المُغرِض إلى أسماع صديقتي العزيزة، من جهة، أو أن يكون في كلامهم إشارة ما إلى علاقة حُبّ بيني وبينها مثلاً.

شكوتُ الأمر لطفل الدودة الشريطية، لا أعرف لماذا اخترتُ الفتى من بين الآخرين. لكنه كان اختياراً صائباً. قال لي: الأمر بسيط. أعلنْ أيضاً أنكَ تحبّ اللون الأخضر. جَارِهِم في كلّ ما يقولون، ردِّد الكلام الذي يقولونه عن جمال اللون الأخضر. وهذا ما فعلتُهُ. بهتَ رجال الدَّرَك تماماً، فيما راح أبي ينظر إليّ بعينَيْن ضاحكَتَيْن معجباً بردّي المُفحم، حتّى لو كان متأخّراً.

كنّا في أعوام الوحدة السورية المصرية، وقد بدأتُ أشعر شعوراً غامضاً خفياً بتراخي حضور الدَّرَكي. كانت المباحث قد أخذت تحتلّ يوماً بعد آخر محلّ أيّ جهاز أمني من أجهزة السلطة، مستعيرة في الوقت نفسه أدوات القمع كلّها التي تكدّست في أيدي تلك الأجهزة، ومستولية على صلاحياتها كافّة، بل إنها استطاعت أن تبثّ الرعب في نفوس المنتسبين إليها، بحيث إن المباحث تسلّلت إلى بيتنا نفسه، وجعلت أبي يمتنع عن أيّ كلام في السياسة، وينتزع أخي الأكبر الذي كان قد انتسب إلى حزب البعث في الخمسينيّات، وهو فتى، من بيت جَدَّيْه والدَي أبي في

قريتنا. كي يُبعدَه عن خطر التّعرّض للاعتقال، أو يردعه فيما إذا تجاوز الخطوط الحمراء.

كان اسم المباحث يتردّد في بيتنا، وفي المحيط كلّه، مشفوعاً بالرعب. لا ينفعنا أننا في بيت الدَّركي. بدت المباحث مثل عنكبوت يتغلغل في الجدار واللون والفرش وأَسِرَّة النوم وهمس العاشقين. في تلك الأيّام، صرتُ أسمع العبارة العربية الأشهر تتردّد في بيتنا: للجدران آذان. التعويض الوحيد الذي حصل عليه الناس من تلك الوحدة العجيبة بين النظامَيْن السوري والمصري، هو شخصية جمال عبد الناصر. كان الناس يهتفون له بحُبّ، ويخشون مباحثه حتّى الموت. ولم أقرأ حتّى اليوم رواية، أو كتاباً في السياسة يُحلّل، أو يدرس، أو يروي قصَّة تلك العلاقة العجيبة بين الرجل الزعيم وبين الشعب، وفق هذه المعادلة. كان المُعلّمون يأخذوننا إلى مسيرات مؤيّدة، نهتف فيها لعبد الناصر، ونشتم أعداءه. لم أعد أذكر كيف كان بوسع المُعلّمين إخراج التلاميذ الصغار في المدرسة للهتاف في الأزقّة القروية الصغيرة النائية. يبدو الأمر سريالياً إلى حدّ بعيد. قد تستطيع السينما أن تنقل هذه الفانتازيا التي كنّا نمشي فيها صغاراً للهتاف والمطالبة بدفن الاستعمار، وهم يسوقوننا كالخراف إلى التّجمّعات المُعدّة لإلقاء الكلمات. ماذا كانوا يقولون؟ لا أعرف. ولكننا كنّا سعداء بالخروج من المدرسة، والمشي في الشوارع سعادة الحملان التي لا تدري شيئاً، يزيد عن أن النهار قد مضى بلا دروس، وأننا كسبنا عطلة جديدة إضافية.

لم نبقَ طويلاً في عين البيضا، فقد نُقل أبي إلى الحسكة. وفي الحسكة، أُبلغ بتعيينه رئيساً لمخفر قرية، اسمها "تلّ الخريطة". كنّا ننتظره في سيَّارة الشحن الكبيرة التي تضمّ أغراض بيتنا، مُرتّبة في الداخل، ومحزومة بحبال قوية، وحصاننا الذي تخصّص له مساحة كافية في آخر صندوق الشحن. لا

أنسى تلك اللحظات. حين نظلّ في قمرة السائق، نأكل الطعام الذي يُؤمّنه لنا الوالد، قبل أن يذهب إلى قيادة الدَّرَك، ليعرف مقرّ عمله الجديد: من هناك، كنّا نأكل، ونتتبّع حركة المرور في الشارع، وننتظر.

تُجاوِر تلّ الخريطة نهر الخابور. لم أكن قد رأيتُ نهراً من قبل. غير أن نهر الخابور لا يُنسَى، قياساً بالأنهار جميعها التي رأيتُها من بعد. ففي ذلك المكان، كان النهر يمرّ صاخباً وهائجاً طَوالَ الوقت، في سرير صخري منحدر، ربّما هذا هو السبب الذي يجعل مياهه صافية، ونظيفة، على الرغم من ذلك الجريان الطائش الذي لا يهدأ. ومن الطبيعي أن تكون الحكايات عنه، تلك التي سمعتُها من التلاميذ في المدرسة، مُستمَدَّة من عنفه الكاسح الذي لم يكن بوسعهم أن يكبحوه، أو يتحدّوه. حكايات عن أولئك الذين حاولوا مراراً عبور النهر، أو السباحة في مياهه، فأخذهم إلى أعماقه، واختفوا تماماً. أو حكايات عن الذين انزلقوا من غير قَصْد، فغابوا في مياهه. ولهذا فإن أفضل ما يمكن فعله هو التّودّد للنهر، وفَهْم مطالبه، وطريقته في الحياة. وهو ما وجدتُهُ في طريقة عبوره من جهة إلى أخرى. فإذا لم يكن بوسع أيّ قارب أن يسير في مياه النهر بسلام، بسبب ذلك السَّيْل المنحدر الهائج. فقد نصبوا كابلاً من الحديد المجدول بين الشاطئَيْن إلى أعمدة ضخمة، وربطوا إليه قارباً من الحديد، يقف على رأسه بحّار مفتول العضلات، يقود القارب عبر تمرير قبضَتَيْه بالتناوب على الكبل المشدود. أو هو ما وجدتُهُ في طرائق استفادتهم من مياهه. كانت القرية تعجّ ببساتين الخوخ والأجاص والمشمش. وكان من بين الشروط التي لقّنني إيّاها رفاقي في المدرسة أن بوسع أيّ شخص أن يدخل إلى أيّ بستان، فيأكل ما يشاء حتّى الشَّبَع، ولكنْ، شرط أن لا يأخذ شيئاً من هناك. لا أعرف إذا كانت الشروط خُرافية، أو هي جزء من تقاليد سكّان القرية الآشوريّيْن.

كنتُ في الصّفّ الخامس، وكانت المدرسة مَبنية من الطين، وليس فيها سوى غرفَتَيْن، تضمّان التلاميذ في المراحل جميعها. الأوّل والثاني والثالث في غرفة، والرابع والخامس والسادس في غرفة، وفيها مُعلّمان فقط. أذكر هذا فيما يشبه الحلم، غير أنني لا أذكر المُعلّمَيْن قطّ، لا وجهَيْهما، ولا حضورهما في غرفة الصّفّ، ولا فيما إذا كانت لهما صلات ما، أو صداقات مع الدَّرَكي. كأنني تعلّمتُ هناك على أيدي أشباح، وهذا غريب تماماً. مَنْ هما؟ لمَ لا يترك المُعلّم أثراً ما وراءه؟ لا اسمه ولا طريقته ولا شخصيّته. المرجّح عندي، أن أحد الأسباب هو القطيعة الناجمة عن القسوة والعجز عن بناء العلاقات الإنسانية، أو هو ضعف تلك الشخصيات العابرة، الركيكة من المُعلّمين الذين لم يكونوا مُؤهّلين للقيام بالعمل التربوي. كان نظام التوكيل هو أحد الحلول التي وضعتْها وزارة التربية والتعليم لسدّ الفراغ في نقص الكوادر. كان بوسع أيّ شابّ، حاز على الشهادة الإعدادية أن يتقدّم بطلب للوزارة، ويتمّ تعيينه مُعلّماً، إذا ما توفّرت له واسطة قوية. وهو أمر يعني، أن الصغار في المدرسة الابتدائية أوّلاً، ثمّ التربية والتعليم سيكونون ضحايا عجزه وانعدام خبرته في هذا المجال. وبسبب اضطرابه وقلّة معارفه ستكون العصا وسيلته الأقوى في فرض الصمت والهيمنة: تكتّفوا، هذا هو الصوت الآمر الذي ظلّ راسخاً في ذاكرتي من تلك السنوات. تكتّفوا: أي أن نضع أذراعنا حول صدورنا، في وضع، يشي بالطاعة والاستسلام، ليرضى عنّا المُعلّم، ويضمن الهدوء.

تلك الأيّام كانت ترافقنا بنت، لها بطن بارزة كبيرة، تُثقل حركتها، أو تشلّها في الحقيقة. المؤكّد أن أبي رآها في مكان ما، ربمّا في بيت والدَيْها، فسأل عن الأمر مستغرباً أن تكون بنتاً صغيرة في هذا العمر متزوّجة مثلاً (كانت تبدو مثل المرأة الحامل). وعرف أنه نوع من الاستسقاء الذي لا **علاج له، لدى الأطبّاء. حسناً!. كان يعرف من خبرته في التجوال، ومن**

احتكاكه بالناس، أن في إحدى القُرى الجبلية في محافظة اللاذقية نبات له مزايا علاجية لمثل هذا المرض. فزوّد أخي الكبير، الذي كان سيذهب إلى اللاذقية، للتّقدّم إلى امتحانات الشهادة الإعدادية، حسب القانون الذي يُجبر الطالب على إجراء الامتحان في الجهة التي تقدّم إليها بطلباته، برسالة إلى صديقه مختار تلك القرية.

وهكذا أحضر أخي معه، بعد أن أنهى امتحاناته، كيسَيْن مملوءَيْن بجذور النبتة المُسمّاة: شرش الحَزَنْبَل، مُرفَقَيْن بطريقة الإعداد: اغْلِ الجذورَ جيِّداً بعد تنظيفها وغسلها، ثمّ عَبِّئ شراب تلك الجذور في زجاجات، ودَعِ الطفلةَ تشرب منه ثلاث كؤوس في اليوم.

هذا ما كان. شُفيت البنت بعد أن شربت في ذلك الصيف تلك الزجاجات المُرَّة، ولم يعد في بطنها سوى أثر طفيف من انتفاخ الجِلْد المريض الذي ترهّل قليلاً. لم أرَها بعد ذلك، لأننا كنّا في عطلة الصيف، ولكن أبي كان يبدو سعيداً بشفائها. وكان يطمئنّ عن حال البنت من أسرة آشورية، صارت من أصدقائنا في تلّ الخريطة. كنّا نمضي لزيارتهم أو يأتون لزيارتنا دائماً. الأخ وشقيقَتَيْه هم الذين أذكرهم. كان لذلك الشّابّ الآشوري الأشقر شاربان كثّان، يملآن وجهه، لا ترى سواهما حين تلتقي به، في حين أنه كان يكسر هذا الحضور بابتسامته المطرية الجميلة. أمّا شقيقتاه، فكانت إحداهما سمراء فاتنة، وكانت الثانية شقراء طويلة القامة. كانوا جميعاً من طينة الضاحكين، يُقهقهون بلا حرج للطرائف والنكات، ويروونها بأصوات عالية دون أن تقف أيّ كلمة عثرة في الطريق. سواء أكانت النُّكتة من الزّنّار فأعلى، أو من الزّنّار فنازل. وحين كنّا نسهر في بيتهم، كان الثلاثة يخرجون لوداعنا، ويقفون أمام بوّابة بيتهم الكبير، كي يروا ذلك المشهد الذي يَفتِنُهم: يحمل أبي أُمّي، وهي التي باتت بلا وزن تقريباً، بين ذراعَيْه، ويعود بها إلى البيت.

وفي الخابور، تعلّمتُ السباحة. كان الأهالي قد اخترقوا المَسيل الهادر بحاجز من الحجارة، وضمنوا لأنفسهم مساحة هادئة من الماء في خليج صغير مجاور للشاطئ. وقد أوصى أبي أحد أبناء البلدة من السّبّاحين المَهَرَة بأن يُعلّمني السباحة. كان مُعلّماً في التدريب، وقد تمكّنتُ من تعلّم السباحة في زمن قياسي. صرنا نذهب معاً، أنا ورفاقي للسباحة في ذلك الركن المحجوز، بجوار تلك المياه الهادرة التي تعبر قربنا في الطرف الآخر من سَدّ الحجارة. لم أسبح في أيّ نهر بعد ذلك أبداً. وهناك ودّعْنا آخر مَنْ أنجبتْهُ أُمّي من أخوتي، واسمه: جمال. وهو الاسم الذي كان شائعاً أيّام الوحدة بين سورية ومصر. تقديراً ومحبّة لجمال عبد الناصر. وكان عمره يقارب السَّنَتَيْن. أكثر ما أذكره، من ذلك الموت، أن أُمّي كانت تؤمن أن "تابعة". وهي جنِّيَّة تأتي إلى المنام هي التي أخذتْهُ منها. سمعتُها تقول في مكان ما، إن التابعة هدّدتْها منذ أن أنجبتْ شقيقتي، التي تصغرني، أنها لن تترك لها ولداً حَيّاً بعد ذلك.

نُقل والدي عقب ذلك إلى سهول الجزيرة التابعة لمدينة القامشلي. عيّنوه في قرية "تلّ الطويل" التي تقطنها قبيلة طَي، بالقرب من البلدة الكبيرة التي كان اسمها حينئذ: قبور البيض. لم تكن في القرية مدرسة إعدادية أو ثانوية. ولهذا فقد اختار والدي أن نسكن في مدينة القامشلي، حيث يمكن لأَخَوَي أن يتعلّما. وكان أوّل منزل استأجرناه في حَيّ الهلالية غربي المدينة.

مدرستي الابتدائية في القامشلي كان اسمها "حاتم الطائي". وكانت تُجاوِر مشفى المدينة. وهناك درستُ الصَّفَيْن الخامس والسادس. ذكرياتي في ذلك المكان ترتبط بفتى كردي، اسمه شيخموس. كنّا نأتي من الهلالية، حيث يقطن أيضاً، إلى المدرسة، ونعود معاً. وفي المساء،

نلتقي مرَّة ثانية، ونلعب في الساحات أو الشوارع المجاورة. أمّا مُعلّمنا في الصّفّ الخامس، فهو الوحيد الذي أذكره جيِّداً، وأذكر اسمه من بين المُعلّمين جميعهم الذين مرّوا على المدارس التي تعلّمتُ فيها. حسن حلاق. أذكر اسمه هنا، كي أُوجِّه له التّحيّة. كانت له ابتسامة عاشق. أظنّ ذلك. وكان وجوده في الصّفّ يُبهجنا، وقد قُمنا بثورة صغيرة حين علمنا مرَّة، أنه يمكن أن ينتقل لتعليم صفّ آخر في المدرسة ذاتها.

أذكر الآن سعادة المُعلّم، وهو يرانا مُجتمعين أمام إدارة المدرسة، نلتمس أن يبقى الأستاذ حسن في صفِّنا. كان يقف خلف المدير مبتسماً، ومضيئاً، تحت نور الشمس القادمة من وسط السماء. في تلك السنة، أحببتُ المدرسة، ولا أذكر أن واحداً من رفاقي تعرّض للضرب، أو الإهانة، من قِبَل الأستاذ الجميل. إذ كانت شخصيّته القوية المُحبّبة كافية لطَيّ الزعران المشاغبين داخل صمت الصّفّ، وجذب انتباه الشاردين المُحتمَلين، وإيصال الدروس بهذا العقد المبني على المحبّة المتبادلة.

وفي أثناء الاستراحات، كان شيخموس يقودني إلى بوّابة المدرسة أحياناً، كي نتفرّج على العاهرات. كنّ يأتينَ في واسطة النقل الداخلي الشهيرة في المدينة ذلك الحين: الحنطور، وهي عربات تقودها الخيول (حصان واحد على الأغلب، أو حصانان) مسقوفة بغطاء أسود من جِلْد سميك مُبطّن بأقمشة ملوّنة، تُخيّم على مقعد سميك ذي نوابض، تضمن له الراحة في أثناء سير الحصان الذي يجرّ الحنطور، ومُقمَّش بأردية فخمة من المخمل النبيذي، أو الأحمر الناري، وفي كلا جانبَي الحنطور، بجانب السائق، فانوس من الحديد، كان يُضاء ليلاً.

كانت واحدة من أكثر المباهج في حياتنا هي حين يأتي والدي يوم الخميس، ليأخذنا في نزهة مسائية، في الحنطور. نجلس معاً في المقعد

الوثير، ونُنصتُ لوَقْع الحوافر الرتيب على إسفلت الشارع المستقيم الذي كان يقطع المدينة. طِق طَق طِق طَق. وقد نتناول العشاء في مكان ما، من أحد المطاعم.

المرجّح أن العاهرات كنّ يأتينَ لإجراء الفحوص الطِّبّيّة، وكنّ يبقينَ داخل حناطيرهنّ، في انتظار أدوارهنّ، أمام المستشفى. وهناك كنّا نتلصّص عليهنّ، ونحن مشدوهين من عظم أفخاذهنّ، أو بريق طلاء وجوههنّ، أو صخب أصواتهنّ المطالبة بالعجلة. لكن الاستراحة القصيرة سرعان ما تحرمنا من تلك الفرجة المجّانية. يقرع الجرس، ونركض للاصطفاف في أرتال الصفوف، عائدين إلى قاعات الدرس، ووقار العلم.

غير أنني لا أزال أحمل من ذلك الجوار ذكرى أليمة لا تُنسى: تلك هي حريق عامودا الشهير. أي حين شبّت النار في دار للسينما، كان أطفال إحدى المدارس يشاهدون فيها فيلماً. أحضروا عدداً منهم إلى مستشفى القامشلي، في سيَّارات الإسعاف، أو في سيَّارات خاصّة. رأيتُ واحداً، أو أكثر، من أولئك التعساء الذين حاصرتهم النيران هناك في عامودا. وهربتُ أنا وشيخموس مذعورَيْن من المشهد الحزين المريع هناك. فيما بعد، كانت الهلالية تضجّ بالحكايات، أو بمجالس العزاء، أو بالغضب والحنق والسخط والعذاب ممّا حدث هناك في السينما.

لا أعرف لماذا تركنا بيتنا في الهلالية، ونقلنا السَّكَنَ إلى حَيّ السريان وسط المدينة! كان المنزل الجديد مؤلّفاً من ثلاث غرف، وباحة صغيرة مُشجّرة. وابتداء من تلك السنة، عشقتُ السينما والقراءة، وافتقدتُ اللعب مع شيخموس وأقراني الآخرين في الهلالية .. كانت في المدينة أكثر من دار لعرض الأفلام، اسم إحداها سينما فؤاد، وكانت إحدى تلك الدور صيفية، واسمها حدّاد، لو لم تخنّي الذاكرة، بلا سقف. كانت دور

السينما تعرض فيلماً جديداً كلّ يوم، وكان البطل الشهير الذي يجذب المتفرّجين، هو: ماشيستي، أو هرقل، الذي كان يمثّل دوره ممثّل أمريكي ذو عضلات ضخمة، ووجه جميل، ملتح، اسمه: ستيف ريفز. وكان ذلك التبديل اليومي يُرهق مصروفي الشهري، فيما امتنعتْ أُمّي عن تمويل تلك الزيارات اليومية، باعتبار أنها خازن المال. عندئذ قمتُ بتنفيذ غارات يومية، سوف أظلّ أندم عليها طَوالَ عمري، على مطمورة أُمّي. كانت قد صنعت من إحدى علب حليب النستلة (التي كانت تأتي أسطوانية مُحزّزة)، مطمورة، أو قجّة، كما في باقي اللهجات السورية، وكانت تضع فيها ما توفّره من مصاريف البيت. أخذتُ أسرق ليرة، كلّما احتجتُ أن أذهب إلى السينما. أتسلّل إلى الخزانة، وأسحب المطمورة، وأعالج الفتحة الصغيرة، إلى أن تسقط الليرة في يدي. وفيما بعد، صارت الحركات أكثر يُسراً وسهولة، وأخذت الليرة تنسلّ وحدها تقريباً إلى يدي. آخذها وأمضي راكضاً إلى السينما، كي أرى أحد أفلامي المُفضّلة من ماشيستي أو هرقل أو أبطال الغرب الأمريكي المُدجّجين بالأسلحة والموت.

لا يمكنني تصوّر ذلك العار الذي شعرتُ به حين اكتشفتْ أُمّي سرقاتي. لم تقمْ بأيّ فعل عنيف، ولم تُوبّخني، ولا أعرف إن كانت قد أخبرت أبي أم لم تخبره. ولكنْ، كان يكفيني طَوالَ عمري أنها قالت لي: هيك، يا ممدوح؟. هذا سؤال يتضمّن شعوراً بالخيبة، والخواء، والحزن من الولد الذي تحبّه، جعلني أغرق في عَرَق مريع خرج من مسامّ جسدي كلّه. خرستُ، لم أقلْ كلمة واحدة. ولم أكرّر ذلك فيما بعد أبداً. فيما حلّت أُمّي المشكلة بزيادة مصروفي اليومي، دون أن تضيف كلمة واحدة.

كانت أُمّي مؤمنة إيماناً عميقاً بالله على طريقتها في المذهب الدّرزي. ومن بين تفاصيل المذهب ذلك الإيمان اليقيني بالتّقمّص، حيث تنتقل

الأرواح بين الأجساد البشرية من جيل إلى آخر. وفي عمق هذا اليقين يؤمن الدّرزي أن حساباً ما يمكن أن يتمّ في الحياة الدنيا الحالية، تكفيراً، أو عقاباً، أو مكافأة عن ذنوب، أو فضائل الجيل الماضي، أو الأجيال الماضية. كانت أُمّي تردّد أمامنا وهي تحاول أن تتحمّل آلام نكبتها الجسدية: "معلش. يمكن الله ع بيحاسبني على ذنوب عملتها بجيلي الماضي". كانت هذه القَدَريّة تضمن لها الصبر والرضا. لم أكن حتّى ذلك الوقت على صلة بالدّروز أو عقائد الدّروز، بسبب ترحال أبي الدائم من مكان إلى آخر. ولذلك بدت لي كلماتها التبريرية، أو التفسيرية، ألغازاً تضعني على عتبة أسئلة غامضة عن العقاب والثواب الأرضيَّيْن. كما أنها كانت تثير في نفسي الرعب والهلع من هذه الطريقة الرّبّانية العجيبة في الانتقام، أو المحاسبة المؤلمة. وكثيراً ما كنتُ أسأل نفسي: ما الذنوب الفظيعة التي ارتكبتْها أُمّي في جيلها الماضي؟.

تلك الأيّام أحضر لي أبي أوّل رواية. كانت بائعة الخبز. قرأتُها بشَغَف. كنتُ أمضي حاملاً الكتاب، من ركن إلى آخر في البيت، بحثاً عن أمكنة خالية من العائلة، كي أقرأ. ومنذ تلك اللحظة، حتّى اليوم، لم يتوقّف هذا الشَّغَف بالقراءة.

وحين رأى أبي كيف اندفعتُ إلى القراءة، أو إلى نهم القراءة، واظبَ على إحضار الكُتُب لي. كان قد صار تلك الأيّام رئيساً لمخفر المدينة، أي مدينة القامشلي، وربّما كان يستعير الكُتُب لي من مركزها الثقافي. هذا مُحتمَل، إذ كان من فضائل حكومة الوحدة تشجيع بناء المكتبات العامّة، واقتناء الكُتُب. كنتُ في الصّفّ السادس، ولا أذكر أنني زرتُ المكتبة في المرحلة الابتدائية، والمكتبات فيها لا معنى لها في الواقع كما اكتشفتُ فيما بعد، وإنما هي مُجرّد خزانة تافهة، تضمّ كُتُباً، جُمعت دون أيّ عناية

أو خطّة. ولهذا فقد ظلّت علاقتي بالمدرسة باهتة، وتقتصر على التّلقّي السلبي. والطريف أنني لا أذكر مَنْ هو مُعلّمي في الصّفّ السادس. وقد اختفى الأستاذ حسن منذ ذلك الزمن، ولم أعد أعرف عنه أيّ شيء. ومنذ ذلك الزمن أيضاً، حدث انفصال تامّ بين قراءاتي وبين المدرسة، فما يُقرأ في البيت، سوف يظلّ في البيت مُخزّناً داخل جمجمتي، لا يخرج إلى المُجتمع الصغير المُؤلّف من رفاقي في المدرسة. والسبب، كما أتصوّر، هو غياب أصداء القراءة في تلك المُجتمعات المدرسية. لم يكن أبناء جيلي، أو رفاقي في صفوف المدرسة يقرؤون، ولا كانت الكُتُب تهمّهم، وقد تركني هذا الأمر وحيداً بينهم، ولأن شَغَفي بالقراءة بدأ يزداد، فقد بدأتُ أميل إلى الانطواء والعزلة. صار الكتاب بديلاً عن الصداقات، ولم أعد أخرج إلى اللعب إلا نادراً، في الحَيّ الجديد الذي لم أجد فيه رفاقاً للّعب، فضلاً عن افتقاره لفضاء الساحات الذي كان متوفّراً في حَيّ الهلالية الذي كان أكثر قُرباً من أجواء الريف.

وفي ذلك الوقت، بدأتُ ألاحظ التّحرّكات السّرّيّة التي كانت تتمّ في بيتنا. وسوف أعرف فيما بعد أنها نشاطات أخي الكبير الذي كان حينئذ في المرحلة الثانوية، وكان ينشط في حزب البعث. كانت الوحدة قد انفصلت، ولم يكن العهد الجديد قد استطاع أن يؤسّس أيّ جهاز أمني بديل لجهاز المباحث الناصري المتوحّش. وبدا كأن البلاد تعيش أجواء جديدة من حُرِّيَّة ما. قد يستطيع الدارسون أن ينسبوها إلى طبيعة رجال الحُكْم الجدد الذي جاؤوا من خلفيات بورجوازية. ربمّا. إذ لم يتح لهم الوقت لإثبات أيّ شيء عن شكل الحكم الذي كانوا سيمارسونه بعد التّخلّص من جمال عبد الناصر.

كنتُ قد تقدّمتُ لامتحان الشهادة الابتدائية. كانت له طقوس

الامتحانات التي لا تزال تجري في الشهادَتَيْن الإعدادية والثانوية: قاعة امتحانات، ومراقبون، وتشدّد في تعليمات الجلوس، وصراخ أو غضب. ومنذ أن رأيتُ ما الذي فعلوه بتلميذ صغير، وجدوا بحوزته قصاصة صغيرة، أقسمتُ ألا أعرّض كرامتي لأيّ عرض مهما كانت النتائج، إذا كان الحلّ هو الغشّ. ضربوا الولد على مَرأى منّا جميعاً، وشدّوه من أذنه، وهم يقودونه إلى مكان ما، سيكون الحساب فيه أكثر عنفاً. عمّ صمت مذعور، ولم نعدْ لمتابعة الإجابات إلا حين صرخ بنا مراقب ضخم ذو صوت أجشّ أجرش: "كَمِّلْ وْلَكْ إِنْتِهْ وهُوّه".

أظنّ أن أبي كان راضياً عن التّحرّكات الحزبية التي ينشط فيها ابنه الكبير. وربّما كانت تلك النشاطات هي السبب الذي جعل قيادة الدَّرَك تأمر بنقله من القامشلي إلى (تشل آغا) وهي قرية على الطريق الواصل بين القامشلي وبين المالكية (المالكية: هو الاسم الرسمي المعرّب لمدينة ديريك). كان الوقت صيفاً، وقد مضينا كلّنا مع أبي إلى تشل آغا التي سُمّيت فيما بعد، أي بعد أن تركناها: الجوادية. في الطريق التي سارت فيها أنظمة الحكم في سورية، من أجل "تعريب" الأسماء الكردية. هناك درستُ القرآن على يد شيخ كُتّاب، كان يعلّم أبناء القرية التي كان يتزعّمها زعيم من قبيلة شمّر. كان الشيخ لطيفاً وطيّباً، وقد جعلنا نحفظ جزء "عمّ" كاملاً من القرآن. لم أتابع دراسة القرآن فيما بعد إلا في الجامعة، حين درستُ في قسم اللغة العربية، وحفظْنا حينئذ جزء "تبارك" من القرآن.

لكننا لم نبقَ طويلاً هناك، سرعان ما نُقل أبي إلى المالكية (ديريك). وصار رئيساً للمخفر هناك. كان يزهو حينئذ برتبة المساعد في الدَّرَك التي نالها حديثاً، وقد أخذنا صورة تذكارية وداعية أخيرة في القامشلي عند استوديو عبّود، وفيها يجلس والدانا وشقيقتي على مقعد، ونقف نحن

أولادهما الثلاثة في الخلف. وقد اشترى أبي لي جاكيتاً برتقالياً من المخمل أو الشاموا، وكافأتني العائلة على نجاحي في الابتدائية، بصورة مستقلّة عند السَّيِّد عبود. كبرتُ فيما بعد، ووُضعتُ داخل إطار رمادي مزخرف.

سجّلتُ في الصّفّ السابع في إعدادية المالكية. هناك كان أستاذ اللغة العربية هو الذي نال إعجابي، كان اسمه خالد، وكان لديه عرج خفيف في ساقه، وحضور مميّز في الصّفّ. وتشاء المصادفات أن يتعرّف إلى والدي، وأن تجمع بينهما جلسات لعب الورق. هذا ما أفترضه. وهناك حدثه أبي عن شَغَفي بالقراءة. ويبدو أنهما أجريا ذلك الاتّفاق الذي سيُحقّق لي صيفاً، لا أنساه أبداً. أخذني أبي إلى المركز الثقافي في البلدة. كان بناء مُؤلّفاً من عدّة غرف متجاورة، تفتح على ساحة صغيرة، تتوسّطها بحرة ماء. مشينا معاً في الساحة إلى غرفةٍ في الصدر، وحين دخلْنا، فُوجئتُ أن الأستاذ خالد كان يجلس إلى طاولة خشبية بُنِّيَّة اللون، وأمامه بضع أكوام من الكُتُب.

بدا تلك اللحظة نحيلاً أكثر ممّا رأيتُهُ من قبل. وظهر لي أنه بلا شَعْر تقريباً، لأنه كان يرتدي في المدرسة قُبَّعة أمريكية الطراز. وعرفتُ فيما بعد أنه كان يجمع بين مُهمَّتَيْن: تدريس اللغة العربية في الإعدادية، وإدارة المركز الثقافي في المدينة.

سار بي إلى غرفة، تصل خزائن الكُتُب فيها بين الأرض والسقف. وفي وسطها، طاولة ضخمة، اصطفّت على جانبَيْها كراسٍ زيتيّة اللون، ولها نافذة عريضة، تُطلّ على الباحة الداخلية. قال: "هذه الغرفة لكَ. لا أحد يأتي إلى هنا منذ زمن. اقرأ ما شئتَ، ومتى شئتَ". ثمّ أعطاني مفتاحها، وأضاف:" تعالَ في أيّ وقت من أوقات الدوام، وافتحِ الغرفة. واقرأ".

قرأتُ في ذلك الصيف خزانة كاملة. كنتُ أستيقظ صباحاً، وأتناول طعام الفطور، وأرتدي ملابسي، وأذهب إلى المركز الذي يفتح أبوابه في الثامنة صباحاً. قرأتُ سيرة عنترة بن شدّاد التي كتبها محمّد فريد أبو حديد في ستّة أجزاء. وقرأتُ سيرة حمزة البهلوان، وسيف بن ذي يزن، وسيرة الظاهر بيبرس، ورحلات ماركو بولو. ثمّ قرأتُ البؤساء التي ترجمها منير البعلبكي، وعدداً من الأعمال الروائية الشهيرة من الأدب العالمي بترجمته أيضاً. ثمّ قرأتُ ثلاثية نجيب محفوظ، وخان الخليلي، وبداية ونهاية. لكني ذعرتُ تقريباً من رواية السراب، ولم أُكمل قراءتها، إلا بعد ذلك بسنوات. أرعبَني عجزُ بطل الرواية، وتراخيه، ونكوصه عن أيّ فعل، يتّسم بالروح والقُوَّة النفسية.

وفي تلك السنة، عرفتُ معنى القُبلة لأوّل مرَّة. غير أنني لم أكن أنا مَنْ نفّذها، بل بنت أحد رجال الدَّرَك الذين كنّا نزورهم، وكانت تختلي بي، بحُجّة أنها تريد أن تُراجع دروسي، وتُعلّمني. كانت في الصّفّ العاشر كما أذكر. وقد كافأتْني، منذ المرَّة الأولى، على إجاباتي الصحيحة بقُبلة طويلة على شَفَتي. وقالت لي: برافو. انتشرت حصباء من الرعشة في جسدي كلّه. وشعرتُ بسعادة غامضة، ورغبة في التّسلّل إلى حضنها. ولكني لم أفعل شيئاً، وأقسمتُ لنفسي أن أواظب على الاجتهاد بطاقاتي كلّها، كي أظلّ عند حسن ظنّ مشرفتي في التعليم.

ولكني تجاهلتُ، بيني وبين نفسي، المعني الجنسي في حركتها. ولم أُخبر أحداً من أهلي بما حدث. ولكي أُشجّعها على إعادة العمل بهذا الشكل من المكافآت، رحتُ أراجع دروسي بهمّة ونشاط، كي أكون جاهزاً للتقبيل في ساعات المراجعة. غير أنها لم تكن تفعل ذلك دائماً. ولم أجرؤ في أيّ يوم على المبادرة، خشية أن تصدّني، أو تُوبّخني، وتحرمني

من خبرتها في التعليم. كانت لها شَفَتَان مليئتان، تعلوهما خميلة زغب أبيض، تغطّي المساحة المَرئية من شَفَتِها العليا التي قد أراها حين أجرؤ على النظر إليها. لم تُطوّر المكافآت قطّ. بل بقيت عند ذلك المستوى وحده، مع احتمال أن تضيف إليه عناقاً حميماً، يعقب القُبلة، أو يسبقها. فيما بدأت درجاتي في المدرسة تُثير إعجاب أساتذتي، ووالدي، حتّى في مادّة الحساب نفسه، عدوّي الأوّل في مراحل الدراسة كلّها.

في ذلك الوقت، حدث انقلاب الثامن من آذار، والظاهر أن أحد الذين كانوا يأتون إلى بيتنا في القامشلي، أخذ أحد المناصب الهامّة في السلطة الناشئة. وقد علمتُ من أحاديث البيت أنه توسّط لأبي، كي ينتقل من الشمال السوري، إلى مكان قريب من محافظة السويداء. وهكذا وصل النقل ذات يوم في منتصف صيف ١٩٦٣.

حملوا أغراض البيت في شاحنة كبيرة، كانت خطّة التحميل تجري على الوجه التالي: يُوضَع الأثاث، وأغراض المطبخ، والثياب، وأيّ غرض آخر في الشاحنة أوّلاً، وتُحزَم جيّداً، بالحبال القوية، ثمّ تُترك مساحة كافية للحصان في الجهة الحُرّة الأخيرة من الصندوق الكبير. وحين انتهى كلّ شيء. سافر أخي الكبير في وسائل النقل العامّة، وبقينا نحن أبي وأُمّي وأخي الأوسط وأنا وأختي الصغيرة، للسفر في الشاحنة. جاء خَلْق كثيرون لوداعنا. كان من بينهم صديقان لي، اسم أحدهما سابا، والآخر محمّد. هذا ما أذكره، ولكل منهما صورة عندي منذ تلك الأيّام. لكنني لا أذكر كنية أيّ منهما. أتأمّلهما كلّ فترة، وأنا أستعيد الذكريات. لا شيء يأتي من المدرسة في الحقيقة، بل من ساعات اللعب، والسباحة في نهير طينيّ صغير، كان يمرّ قرب المالكية (ديريك). ذلك النُّهير الملوّث بالوحل كان سبباً في أنني تلقّيتُ للمرّة الأولى والأخيرة في حياتي، صفعة من يد أبي.

لا أنساها، بسبب فرادتها. وكان النُّهير هو السبب. كنتُ أُنهي قراءاتي في المركز، ثمّ أخرج للقاء أصدقائي، ونذهب معاً لِلّعب، أو السباحة. غير أن ما لاحظتُهُ، هو أنني كنتُ أعود من السباحة وقد اصطبغ لباسي الداخلي بلون تُرابي مائل إلى الأصفر. فراحت أُمّي تُحذِّرني كلّ يوم من العودة إلى ذلك المسبح الملوّث. ولكن تحذيراتها لم تردعني. كان الشوق إلى الماء، والرغبة في اللعب، أقوى من صوت أُمّي اللطيف، ومن شكواها اللّيّنة. ولهذا لم أتّخذ أيّ إجراء بديل. لا امتنعتُ عن السباحة، ولا توقّفتُ عن الغياب، ولا راقبتُ ساعات عمل أبي. إلى أن اصطادني بنفسه: كان قد جاء مُبكّراً إلى البيت، والمؤكّد أنه سأل عنّي، ولا أعرف فيما إذا كانت أُمّي قد أخبرتْهُ بالحقيقة، أو لم تخبره. كان منظر شَعْري المُلبّد، وشكل وجهي المتّسخ، كافيان لمعرفة الوقائع. وبقليل من الأسئلة، علم كلّ شيء، بما في ذلك رفضي لتحذيرات أُمّي، وتمرّدي على طلباتها. كان الموقف يستدعي تلك الصفعة من وجهة نظر الدَّركي والأب، في آن واحد. وقد نلتُها بالفعل. ولم أعدْ إلى تلك الجهة من البلدة قطّ. واستبدلْنا مشاوير السباحة برحلات لِلَّعب بين الأشجار في الطرف الآخر فقط.

تحرّكت الشاحنة الكبيرة بنا صباحاً. لوّحنا لمُودِّعينا، ثمّ أخذنا الطريق نحو المجهول الجديد الذي لا أعرفه. كنتُ أجلس قرب النافذة، قريباً من أُمّي، ورحتُ أرى البيوت والأشجار تمشي متراجعة خلفنا في مرآة السَّيَّارة.

كانت رحلة عذاب. لا يمكن نسيان السفر في تلك الطُّرُق العجيبة الوعرة المليئة بالحفر بين القامشلي والحسكة، أو بين الحسكة ودَيْر الزور. صار المكان يضيق بنا أكثر ممّا هو ضيِّق، في غرفة القيادة. كنّا ننام مُرغَمين، من التعب والإنهاك، فيتسبّب ذلك في استحواذ كلّ منّا على مساحة أكبر من المساحة الممكنة في أثناء اليقظة. أنقلبُ بلا أيّ قَيْد يميناً أو يساراً

نحو أُمّي، أو أحد أخوَي، وأستيقظ بسبب السخط الذي يُبديه أحدهم من ثِقَل جسدي المتراخي في النعاس أو النوم. أذكر أننا وجدْنا استراحة وحيدة في تلك الدروب المقفِرَة المُغبرّة. نزلنا وأكلنا واسترحنا، ثمّ عاودنا السير.

كانت الرحلة بين أقصى الشمال السوري، وأقصى الجنوب، حيث نُقل أبي إلى محافظة درعا. تستغرق يومَيْن أو أكثر في شاحنة مُحمَّلة بعائلة الدَّرَكي، وأثاث بيته، وحصانه. وكانت الطُّرُق ضيِّقة، ووعرة، وتكاد تخلو من البشر، عدا بضعة رعاة، كنّا نراهم من بعيد، في إحدى الهضاب أو من السَّيَّارات. وكان الحَرّ يخنق ما يتبقّى فينا من قوى ضئيلة، يُهلكها النعاس. ولكننا كنّا ننام مُرغَمين، أنا وأخي وأختي، إلى أن وصلنا دَيْر الزور. كان جسرها الهزّاز المُدهِش في فتوّته آنئذ. وقد أيقظَنا أبي هناك، كي نشاهد النهر، ونستمتع بمسير السَّيَّارة البطيء على الجسر حين يأتي دورنا في العبور. من المؤكّد أننا عبرنا ذلك الجسر أكثر من مرَّة، غير أن تلك المرَّة، هي الوحيدة الباقية التي تظلّ تمنح الفتى الذي هو أنا متعة العبور الرقيق المهتزّ. رحل ذلك الجسر اليوم في حروب الخراب التي عمّت سورية، كما عرفتُ. فيما لا ترحل ذكراه اللطيفة أبداً.

بعد الدَّيْر صارت الطُّرُق أكثر نظافة، نمْنا بلا وجل، ولا مضايقات تُذكَر، ووصلنا إلى درعا في نهار اليوم الثالث. ومن هناك، انتقلنا إلى بلدة بصر الحرير التي عُيّن فيها أبي رئيساً لمخفرها. لم أكن أعرف جغرافيا المنطقة بعد، وحين وصلْنا، وأنزلنا الحصان والأثاث في البيت المُعدّ لرئيس المخفر، عرفتُ أننا صرْنا على مقربة من بلدتنا في السويداء. أخذ السائس الحصان إلى الإسطبل، ورأيتُ بضع نساء، وأتينَ لمساعدة أُمّي في ترتيب المنزل. وفي صباح اليوم التالي، أخذَنا أبي لمشاهدة مخفر البلدة. كان يشبه القلعة الصغيرة، وقد عرفتُ فيما بعد أنه بُني في زمن

العثمانيّيْن، ثمّ استخدمه الفرنسيون، ووضعوا قربه مدفعاً، كان يقصف قُرى السويداء المتُمرّدة، والثوّار الذين تحصّنوا في وعر اللجاة المتاخمة لبصر الحرير. ومن شرفة المخفر، المَبني على تلّة صغيرة مُشرفة على سهل مليء بالصخور البيضاء، (هكذا رأيتُها، وقد كان ذلك البياض الذي يغطّيها، كائنات بدائية من الطحالب التي تنتمي إلى العصر الأوّل للحياة. سرعان ما تخضرّ، لتصبح بلون العشب، حين تتلقّى أيّ دفعة من الماء) أشار أبي إلى قرية مُكوّمة من كتلة حجارة زرقاء، قائلاً: هذه هي تعارة. وعند الظهر، اعتلى صهوة حصانه، ومضى إلى قرية مَولده.

هاجمَنا تقريباً عند العصر، عشرات الأولاد والشّبّان من أقربائنا. كنّا تلك الأسرة الخفية المجهولة الضائعة بين قُرى سورية أكثر من ثلاث عشرة سنة. ومن بين الرجال الذين جاؤوا، كنتُ أعرف عمّي وجَدّي اللّذَيْن كانا يزوراننا في ديار الرحيل. فيما بدا لي القادمون الآخرون عالماً غامضاً، لم أفهم تماماً سرّ عناقهم لنا.

كان واضحاً فيما بعد أن والدي جاء إلى هنا، كي يستقرّ أخيراً من الترحال. وسرعان ما بدأ في بناء بيت لنا في القرية. بنى البيت خارج البلدة القديمة، بعيداً عنها بألف متر تقريباً. وقد أثار عجب أهله هناك. إذ بدت خطوته غريبة وصادمة لمَنْ تعوّدوا أن يبنوا بيوتاً متلاصقة، من الحجارة البازلتية، كي يحموا أنفسهم من قطّاع الطُّرُق واللصوص الذين كانوا يجوبون الوعر القريب، ويسطون على البيوت ليلاً، لسرقة الحلال أو الخيل. كانوا يُسمّونهم: كسَّارة. وسوف أسمع في السنوات التالية مئات الحكايات عن قصص الخوف والحذر والقتال المتبادَل، بين أهل القرية جميعاً وبين أولئك الكسّارة المُلثّمين الذين كانوا يلجؤون إلى الوعر. ربمّا ستكون قصص العائلة هي الأقوى، بفضل اثنَيْن من أعظم الرُّواة في حياتي: أبي وجَدّي.

حسناً. بدأ الدَّرَكي الذي اشترى من ماله المُدّخر في سنوات العمل قطعة أرض من أحد أعمامه، يبني حلمه في بيت يخصّه في مسقط رأسه. وفي ذلك الصيف، انتقلنا إلى الغرفتَيْن اللّتَيْن أُنجزتا، وجُهِّزتا للسَّكَن. وفيما تابع والدي أداء عمله الوظيفي في دَرَك بصر الحرير، ثمّ في دَرَك بلدات أخرى من حوران، تابعْنا بناء البيت، بإشراف جَدِّي الذي كان معمرجيّاً عتيقاً مُدرِّباً على بناء الحجارة.

كان صيف حكايات. تلقّيتُ فيه، في ساعات الراحة التي كانت تعقب العمل، سلالات من الروايات والقصص والحكايات من الجَدّ الذي بدا وكأنما عثر على لُقْيَة نادرة مُستعدّة لسماع حكاياته، وقد كان في انتظارها منذ زمن بعيد. كان ما يزال قوياً وصلباً، وله ذاكرة عذراء ممتلئة بالحكي، وكنتُ مستمعاً متطلّباً، لا يشبع من الاستماع.

إلى تلك السنوات البهية تعود معرفتي بتاريخ العائلة، فقد هاجر جَدّ أبي من إحدى القُرى في لبنان. الأرجح أنها العبيدية، أو معاصر الشوف، إلى عين قنيا في هضبة الجولان، ومن هناك، جاء إلى الجبل، حيث أقام في بلدة، كان لها اسم مُحيّر وغريب، هو "عاهرة". باتت تُسمّى اليوم "عريقة".. كان يُتقن البناء بالحجارة، وقد أورث مهنته لأولاده السّتّة الذين أنجبهم من زواجه السعيد بإحدى النساء من آل عزّام. وزاد في متانة علم البناء، أن الأبناء امتلكوا جميعاً قامات صلبة، وقوى جسدية مناسبة، ما تزال تظهر جيناتها في أفراد من السلالة، بين إخوتي أو أبناء عمومتي. كان جَدِّي يقول لي: إذا زرتَ هذه المنطقة، سوف ترى أثر أيادينا هذه (يريني كَفَّيْن ممتلئَتَيْن بأصابع غليظة قاسية متشقّقة من حمل المهدّات والشواقيف وأزاميل الشّقّ) في القُرى كلّها. هذا ما حدث فيما بعد. فحين كنّا نتجوّل بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة للبحث عن أمكنة مناسبة لتصوير

فيلم "اللجاة" الذي أعددْنا السيناريو فيه عن روايتي "معراج الموت"، أنا والمخرج الراحل رياض شيا. دلّني أكثر من شخص على بيوت بناها أجدادي. وقد كانت روايات جَدِّي، التي راح يستكملها أبي حين يأتي في نهاية الأسبوع من عمله، أو في الإجازات الطويلة، تشمل تاريخ العائلة الصعب المُثقَل بالصراع مع المشايخ (وهذا هو الاسم المحليّ للبكوات الذين استمدّوا سلطة الأمر والنهي من مواقعهم كمالكين للأرض) أو مع الطبيعة البازلتية. لا يمكن لأيّ شخص أن يُعادي الطبيعة، لو استمع إلى كلمات جَدِّي، كان يتحدّث إلى الحجارة، أو يتحدّث عنها، كما لو كانت تسمع ما يقول، أُنصِتُ إليه وهو يحاول أن يشقّ صخرة، أو ينحت حجراً: آها! يقول لها حين يكتشف المكان المناسب لوَضْع أزاميله. من هناك، ترى كيف تنفلق الصخرة، وتنشقّ، طولاً أو عرضاً، كأنما تستجيب لكلامه، لا لضربات مهدَّته.

الأمر الثاني الذي سيكون له أثر بعيد المدى، في حياتي. الأدبية خاصّة هو "اللجاة" وهي منطقة من الصخور البركانية التي بنى أجدادانا الأوائل قريتنا على أنقاض تلّ أثري نبطي قديم على حافّتها الجنوبية. سحرتْني منذ أن تعرّفتُ عليها، فامتدادها الشاسع الذي بدا لي لا نهائياً، في اتّجاه الشمال والشرق والغرب، وحضور اللافات الهائلة الضخمة، والأعشاب البرّيّة المتنوّعة العجيبة والضباع والذئاب وبنات آوى والأرانب والحجل ومئات الطيور والحيوانات الأخرى فيها، وندرة عدد الناس القاطنين فيها، وكثرة المغارات الطبيعية، يمنحها غموضاً سرّيّاً، تزيده الحكايات المليئة بالرعب، أو البطولة، عمّا حدث للبشر فيها هنا، جمالاً وجاذبية. تجوّلتُ في هذه البقعة التي تمتدّ خمسين كيلومتراً شمال قريتي، في اتّجاه دمشق. وأربعين كيلومتراً، في اتّجاه سهل حوران غرباً، وجبل الدّروز شرقاً، مرّات عديدة. سوف يكتشف المرء فيها كلّ مرّة مَشاهد جديدة، إذ

لا تتكرّر الجغرافيا البتّة. فكل تشكيل صخري قد تكوّن منذ عصر البراكين الأولى، متّخذاً شكلاً مختلفاً عن جواره، وكل مكان له خاصِّيَّة تمنحه جمالاً، لا يُضاهى، ومن الواضح أنه يمتدّ في غور التاريخ الجيولوجي، فعلى أسطح الصخور تتوضّع كائنات عجيبة، لها فعل السِّحْر، وهي الطحالب التي قيل إنها من أقدم الكائنات على الأرض، ففي الصيف، تتحوّل إلى طبقة بيضاء، يخالطها لون رمادي باهت، أو إلى لون قرميدي، يقترب أحياناً من البرتقالي، بسماكة نصف سنتمتر تقريباً، وتتفتّت بين يَدَيْكَ إذا ما عركتَها قليلاً. غير أن العجيب هو أنها سوف تخضرّ خلال ثوانٍ فقط، حين تسكب عليها القليل من الماء، خضرة عشبية بهيّة تبعث الحبور في النفس الإنسانية. يمكن للبشر أن يتعلّموا الكثير من حياة النبات. (ثمّة مَنْ يقول إنها حيوانات تنتمي للأوّليّات من الكائنات) وخاصّة في موضوع الحياة هذا. وهي تسيطر على الصخور في المنطقة كلّها، وتحوّل لونها بسرعة من البياض إلى الخضرة خلال ثوانٍ بعد المطر. وتاريخ اللجاة حافل بالحكايات أيضاً، ففيها تحصّن المقاتلون الدّروز الذين قاوموا إبراهيم باشا ابن محمّد علي. فنفّذ الرجل واحدة من أكثر الأعمال خسّة في تاريخ الغزو، إذ سمّم الآبار وخزّانات المياه السطحية المَبنية منذ زمن الأنباط بسيانيد الزئبق، حين لم يستطع جيشه ولوج المكان. وحاصرها الفرنسيون حين لجأ إليها المقاتلون الذين قادَهم سلطان الأطرش، في زمن الثورة السورية في عشرينيّات القرن العشرين. حين عجزوا عن دخولها، ولجأ إليها أكثر من لواء مقاتل من ألوية الجيش الحُرّ، قبل أن تسيطر عليها جبهة النصرة، وتتقاسمها مع البدو، في أثناء الثورة السورية الراهنة. ولا تزال مجموعات مسلّحة كثيرة تتحصّن فيها حتّى يومنا هذا. بحيث إنه لم يعد بوسع أحد العودة إليها، مثلما كنّا نفعل من قبل، بسبب غموض انتماءاتها الأيديولوجية.

ومن تلك الأيّام، وإلى أن تُوفيّ جَدِّي في نهاية السبعينيّات من القرن

العشرين، واظبتُ على استفزاز ذاكرته الماضية. وفيما عدا هذا الجديد الثري، فقد تبدّلت أوضاع المدرسة منذ هذا التاريخ. فحين بدأ فصل الدراسة، انتقلنا للسَّكَن في السويداء، نحن وأُمّي. فيما ظلّ أبي يأتينا في نهايات الأسبوع أو في الإجازات كالعادة. استأجرْنا بيتاً من غرفَتَيْن وصالة ومطبخاً في المدينة القديمة. وسجّلتُ في إعدادية اسمها "الثورة" وهو الاسم الذي أخذ البعث ينشره في البلاد كلّها، منذ أن استولى على السلطة. كانت بناء مستأجَراً في القسم الغربي الجديد من المدينة، وقد أُعدّ كمنزل للسَّكَن، لا للدراسة. كنتُ في الصَّفّ الثامن الإعدادي، وكانت غرفة الدراسة الخاصّة بشعبتنا، في الطابق الثاني من المدرسة. ومنذ اليوم الأوّل، اكتشفْنا أن لدينا مُديرا مرعباً، جال بين الصفوف، وهو يرعد بصوته الرفيع الحادّ، وعصاه الثقيلة المفتولة. لم أعد أذكر كلماته، ولكنها كانت تنصبّ على موضوع واحد، هو التزام الطَّلَبَة، بأوقات الدوام، والحفاظ على النظام، وعدم إظهار أيّ مَلمَح شغب أو ارتكاب أيّ مخالفة، كي يتجنّبوا هذه العصا. يرفع عصاه في وجوهنا، وهو يقف على آخر الدرج الصاعد إلى الطابق الثاني.

كان الطلاب يعرفون جبروته، وقسوته، منذ أن جرّبوه في العام الماضي. وقد حذّروني من أيّ عقاب، قد ينزل بي على يَدَيْه: سيكسركَ. قال لي فتى كان يُجاوِرُني. أعترف أنني لا أزال أحمل خوفي منه حتّى اليوم، وعلى الرغم من أنني رأيتُهُ بضع مرّات، فيما بعد، حين أُحيل إلى التقاعد، في أسواق المدينة، فقد عجزتُ عن السلام عليه، أو السؤال عن صحّته. كان مُدرِّساً للتاريخ، وقد أذاق الشُّعب التي كانت مخصّصة له، إلى جانب مهامّه في إدارة المدرسة، صنوفاً من الضرب المُبرِّح الذي عمّم كراهية التاريخ في المحيط كلّه. كانت تلك هي مادّة البغضاء، ولن تشفع لها أيّ مناسبة وطنية، أو أيّ بطولة شعبية، أو نضالية، في مَنْ درسوا على يَدَيْه.

صار التاريخ يعني قَمْعاً مدرسياً، لا رحمة فيه. أمّا أنا، فقد ذقتُ طعم تاريخ آخر، لم أستطع نسيانه أبداً، من عصا السنديان التي كان يفاخر بها:

كان يوما مُثلجاً، وصقيعياً، وقد حذّر المديرُ الطَّلَبَةَ من البقاء في غرف الصفوف في أثناء الاستراحات (يُسمّيها السوريون فُرصة) بين الدروس.غير أن زميلي في المقعد همس لي أنه لن يخرج إلى الباحة، في الاستراحة. قال سنموت من البرد. كان هذا واقعياً إلى حدّ بعيد، ولم يكن الوضع يحتاج لمزيد من الكلمات، كان البرد يهاجم الباحة، والشارع، والغرف، وقد تحلّق الطلاب حول المدفأة، وهم يمدّون أكفّهم الصغيرة المتجمّدة. لم نكن وحدنا، حين اقتحم المديرُ الغرفةَ، وأغلق الباب وراءه، وهو يعربد. فرّ الأولاد مثل الفئران. وأظنّ أن عدداً منهم، ممّنْ جرّبوا العصا، قد استطاعوا الخروج من الباب، حين بدأ يضربنا. أخذ أوّل طالب كان في متناول يده، ثمّ صرخ: "افتحْ إيدَكْ؟." يعرف السوريون جميعاً معنى هذه العبارة اللئيمة التي يظهر فيها المُعلّمون، وهم يرفعون العصي، لينهالوا بها على أكفّ الطلاب الصغار في المدارس. يضرب المُعلّمون بلا رحمة. فيما تُبدي الأكفّ المفتوحة استسلاماً مُروّضاً، يعجز عن الرفض أو التّمرّد. ربمّا نستطيع أن نرسم لتاريخ المدرسة السورية بديلاً مُجسّداً في هذا المشهد، فعلاقة المُعلّم، أو المدرّس، عامّة، بالتلاميذ والطلاب، كانت قائمة على العداء، لا التربية، كما اختصرت الوزارة المَعنية بشؤون التعليم اسمها فيما بعد.

يبستْ يَدَاي تماماً، حين تناوب على ضرب الكفّ اليمين والكفّ اليسار المفتوحَتَيْن ستّ عصي. وأضاف إلى ذلك إرغامنا على الخروج، والبقاء في الباحة، حين دخل بقية الطلاب إلى الصفوف. رحنا نرتجف من الألم والبرد. نضع أيدينا تحت آباطنا، لعلّها تدفأ قليلاً، أو تخفّف الألم.

هكذا مضى ذلك العام في الرعب من عصا المدير الذي لم نرَه يبتسم قطّ. وحين قرأتُ فيما بعد عن الضّبّاط النازيّيْن الذين اشتهروا بتعذيب الأسرى والمعتقلين، تمثّلتْ صورته وحدها. تخيّلتُ أن من الصعب أن يمتلك الفرد تلك الروح الهجومية الخالية من العطف، دون أن يكون تكوينه الفيزيزلوجي شبيهاً بمدير الثورة في ذلك العهد: كان ربع القامة، نحيلاً، وله وجه مستطيل، يتوسّطه أنف أقنى، وله عينان كعينَي صقر جارح، يُظلّلهما سواد، يملأ تجاعيد غضب مُضمَر، وشَفَتَان رقيقتان كالكرتون، وصوت حادّ يثقب الآذان. وفي السّرّ، كانت السخرية الوحيدة التي يتداولها الطلاب عنه، هي أنه ينطق رشّاً، لا دِراكاً. هذه مفردات مجازية جديدة، كانت قد دخلت حيّز العمل والكلام، منذ أن قرّرت السلطة الناشئة إدخال طلاب المرحلة الثانوية في التدريبات العسكرية. والتشبيه مأخوذ من البندقية التي تُطلِق رشّاً أو دِراكاً، أي طلقة وراء أخرى.

وفي بداية العام التالي، وكنتُ قد نجحتُ إلى الصّفّ التاسع، نُقلت شُعبتا الشهادة الإعدادية إلى ثانوية شكيب أرسلان. المرجّح أن المكان لم يعد يتّسع لطَلَبَة الإعدادي في "الثورة". وقد مُنحنا غرفَتَيْن في الطابق الثاني من الثانوية. هناك كانت لي تجربة مختلفة. ففضلاً عن غربتنا عن المكان، فقد أُجريَت لنا ما يشبه عملية خصي. ففيما كان من المؤكّد أننا سنصبح أسياد الإعدادية، حين صرْنا في الثالث الإعدادي، تحوّلنا إلى صغار غرباء متطفّلين على مناخ المراهقين في الصّفّ العاشر، وأجواء الزعران في الصَّفَّيْن الحادي عشر والبكالوريا. قُهِرْنا منذ اليوم الأوّل. لا زلتُ أذكر نظرات الاحتقار، والتهديد، والسخرية التي وُجِّهتْ إلينا من قِبَل الطَّلَبَة الكبار الذين لم يُعجبهم تسلُّل هؤلاء "الغرباء" المُدلّلين من الإعدادي. وفوق ذلك كان نظام التدريب العسكري الذي سُمّي آنئذ "الفتوّة" قد بدأ تطبيقه، في الثانويات. كانت السلطة قد انتدبت للعمل

في هذا النظام شبه العسكري، مُعلّمين سبق أن كانوا ضبّاطاً في احتياط الجيش. ومن بينهم مُدرِّب هتلري شرس مدجّج بالبذاءات. وقد اشتهر في المدينة كلّها بجملته الحكيمة التي كان يردّدها أمام الطَّلَبَة كلّ ساعة، في أثناء غضبه، أو رضاه: "بِجْمَعْكن بِجْمَعْكن وبْشِخْ عْلِيْكن." هذا هو رأيه في نفسه وفي الطَّلَبَة. لا يستأهلون سوى أن يشخّ عليهم ضابط، يحمل رتبة ملازم في الاحتياط. ومَنْ كان يعترض أو يُبدي أيّ تململ، كان يتلقّى تعذيباً "رياضياً" من نوع: التمرين السادس، أو مشي البطّة، أو الزحف على البطن، أو قياس باحة الثانوية بعود الكبريت. كان من الممكن أن أشمتَ في الأقوياء من الذين كانوا يقهروننا من بين طَلَبَة الثانوية، ونحن نرى كيف يُمرّغهم المُدرِّب العسكري في وَحْل التراب والكلام غير أن شعوراً عميقاً بقذارة القَمْع، ولؤم التّسلّط، ووساخة التّعصّب الأعمى للانضباط، جعلني أُشفق دائماً على أيّ طالب يُنفّذ أمام المدرسة كلّها عقوبات التمرينات الرياضية. فمشي البطّة الذي يقتضي السير على رجلَيْن مَطويَّتَيْن، وأقدام مرفوعة على الأصابع، يتحوّل إلى توتّر وإرهاق، لا مثيل لهما حين يتصلّب الفخذان، وتمتلئ الساقان بدم بارد جافّ، يجعلهما مثل خَشَبَتَيْن. لن يشفع التعب للطالب. بل إن أيّ بادرة تُظهر تعبه، أو عجزه عن المتابعة، سوف تُعَدّ من الملازم الهتلري رفضاً للأوامر العسكرية!

كانت العَسْكَرَة هي المعبود الجديد الذي بدأ يتغلغل في طَيّات المدرسة، وفي المُجتمع كلّه. وعندها قد يشخّ على الطالب، أو يدوسه بأقدامه، كي يُثبت قُوّة النظام الجديد، وقدرته على تطويع وهزيمة الاحتجاج أو المخالفات.

لم أقرأ شيئاً مهمّاً في تلك السنوات، كان المرض يهاجم أُمّي في الشتاء، ويفتك بها تقريباً. فتبقى طريحة الفراش، ولكنها تظلّ قادرة على

تقديم المشورات والملاحظات عن أعمالنا في البيت، كنّا نجلي ونكنس (تلك المقشّة اليدوية الجميلة المصنوعة من نبات الأسل) وننظّف البيت، ونُرتّبه. فيما تظلّ ساهرة كلّ الوقت. تسأل عن التفاصيل التي تعرفها بذاكرة يقينية، تجعلنا نُدرك أن لا مجال للخداع أو المراوغة مع الخمائر المستقرّة في رأسها وعينَيْها. وحين يأتي المساء، كنّا نعود إلى كُتُبنا ودفاترنا، كي نُنجز الوظائف والواجبات المدرسية، ونقرأ ما تيسّر من الدروس. قَلَّتْ ساعات اللعب، والمشاوير المشتركة مع أصدقائي، إذا كان عليَّ أن أُحقّق نجاحاً مميّزاً في الشهادة الإعدادية، يُعزّز ثقة أبي الغائب في مخافر محافظة درعا بنا. صحيح أن الدَّركي لم يعد يستطيع تأمين الحماية لنا، من تعسّف المُدرِّسين، والمُوجِّهين، ومُدرِّبي الفتوّة، بسبب بُعْده الجغرافي من جهة، وتراخي قبضته على المُجتمع، من جهة ثانية، في ظلّ تمدّد أجهزة السلطة المتعدّدة، واستقوائها، وحضورها اليومي في الشارع، وقدرتها على التّحكّم في المصائر. غير أنه كشف لنا، أو لي على الأقلّ، إذ كنتُ المستفيد الأوّل من ذلك، أنه راوي حكايات وطرائف من طراز نادر. ففي اليوم الذي يصل فيه إلى البيت، كان يجتمع لدينا رهط من الأعمام (ماتوا جميعاً الآن) وأبناء الأعمام، من آل قاسم الجَدّ، كي يستمعوا إلى حكاياته البديعة، التي كان يُلقيها، أو يتلوها، أو يحكيها، كلّ مرَّة بتنويع بارع مشوّق، يزخر بإيقاعات مبتكَرة، تجعل من الحكاية شاهداً على جمال الشكل والرواية معاً.

وحين أتذكّره، بعد أن رحل منذ سبعة عشر عاماً، يُذهلني أنه استطاع أن يخزّن ذلك الحشد الهائل من الطرائف، والروايات الشفهية، المُستمَدَّة من حياته، أو من حياة جَدّه وأعمامه. حاولتُ أن أُقلِّده كتابة. فكتبتُ أوّل رواية لي في العشرين من عمري، حكيتُ فيها عن رحلة جَدِّي الأوّل قاسم، حين فرّ من السفربرلك برفقة اثنَيْن من رفاقه، ومضى إلى اليونان، فمصر، ففلسطين، حتّى وصل عائداً إلى البيت. ما تزال الرواية لديّ، وقد أعود

لكتابتها مرَّة أخرى، بعد أن صار بوسعي أن أعرف كيف أنتقل من الحكي إلى الكتابة الروائية.

عام الصّفّ التاسع مضى تحت وقع الخوف أيضاً. فالمُوجِّهون الذين كانوا يُعيَّنون من قِبَل حزب البعث، تلقّفوا المعنى الكامن وراء تعيينهم الحزبي. أظنّ أن مثل هذه القناعات لا تُكتَب في التعليمات، بل في السياسات. فما دام الحزب هو الذي ارتأى أن يضع هذا المُعلّم أو ذاك في موقع المُوجِّه، بينما قد لا يتدخّل في شؤون الإدارة (راحوا فيما بعد يتدخّلون في كلّ شاردة وواردة من شؤون التعليم) فإن المهامّ تغدو واضحة. راح بعض أولئك المُوجِّهين يتغوّل، أذكر أن المُوجِّه كان يقف في شرفة الطابق الأوّل من الثانوية، بينما يتمشّى مُدرِّب الفتوّة، على الباحة الأرضية، فيما يكون الطَّلَبَةُ مُصطفِّين في الأسفل، نوع من التراتب الوظيفي والسلطوي، "يرتقي" من الأدنى إلى الأعلى. كان المُوجِّه يستطيع أن يرى من عليائه التّحرّكات السّرّيّة التي تحدث في الأرتال الواقفة، فيصنع من سبّابته شكل مسدّس، ثمّ يبدأ إطلاق النار، وسرعان ما يتحرّك مسرعاً نازلاً الدرجات قفزاً، نحو الرتل المحدّد، وهو ما يزال يضع إصبعه في حالة التّأهّب والاستعداد للإطلاق: أنتَ. يزأر بصوت أجشّ، وأنتَ. وأنتَ. اخرجوا من الصّفّ! يخرج العدد المطلوب، ويقفون في رتل أُحادي، ثمّ يستمعون إلى محاضرة في الأدب والانضباط والشرف الوطني والقومي والجدّيّة في زمن المواجهة مع العدوّ الإسرائيلي. غير أن المحاضرة ليست أكثر من إحماء أيديولوجي للعقاب الجسدي. الذي يتضمّن الضرب باليد، أو بالعصا، أو الرفس بالأرجل.

ولم يكن المُدرِّسون في الصفوف أقلّ وَلَعاً بهذا الجموح للقصاص والمعاقبة. باستثناء القليل منهم، في حين أن الطلّاب باتوا يميلون إلى

التّمرّد والرفض أكثر فأكثر. ولأننا كنّا طارئين على الثانوية، وننتمي من حيث الترتيب المدرسي إلى مرحلة دنيا من التعليم، فقد اكتفى الطلاب الكبار باحتقارنا. في تلك السنة، عادت أُمّي وأختي إلى القرية، وسكنتا في البيت الذي اكتمل بناؤه، بينما استأجرْنا أنا وأخي الأوسط، والكبير الذي كان قد بدأ يسجّل ماراتون الامتحانات المتكرّرة للحصول على شهادة البكالوريا، بلا جدوى، في غرفة ضمن أحد بيوت السويداء. كانت الغرفة تطلّ على بركة نبطية رومانية قديمة، اسمها "السورية"، وهي بركة بديعة، يصل عمقها إلى أكثر من أربعين متراً، وقُطرها يزيد عن خمسين متراً، وقد بُنيت جدرانها الدائرية من الحجارة البازلتية. وتمتلئ بالماء عبر أقنية غير مَرئية، تصلها من تحت المدينة القديمة، ولها درج عريض، كانت النساء ينزلنَ عبره، لورد الماء منها حين يتناقص في الصيف. ظلّت السورية صامدة إلى السبعينيّات، حيث تقرّر ردمها. فرُدمت تماماً، وأُقيم فوقها موقف للعزاء، يخصّ المدينة التي ضيّعت باختفاء السورية ذكرياتِ أجيال عديدة من شبّان المدينة، وقُراها، الذين كانوا يؤمّون محيطها المرصوف بالحجارة. ومن شرفة العليّة، لمحتُ أوّل عينَيْن تراقباني (أو هكذا خُيّل لي) من نافذة أحد البيوت المقابلة لنا. لا أعرف الفتاة، ولم أجرؤ على مخاطبتها قطّ، واكتفيتُ تلك السنة بتلك المراسلات العينية. كانت السويداء مدينة صغيرة، يغلب على بيوتها وعادات سكّانها الطابع الريفي. ولم يكن فيها مقهى واحد، يمكن لأيّ شخص، من أهل المدينة، أو من الغرباء الذين يزورونها، دعوة أحد على فنجان من القهوة، أو الشاي، بعيداً عن المضافات، أو الغرف المستأجرة. ومع ذلك، فقد كان فيها خمّارتان، افتتحهما أرمنيان ممّنْ اختاروا السَّكَن في المدينة منذ عشرينيّات القرن الماضي. وباستثناء بَدوي مُشرّد كان يظلّ سكراناً في الشارع، لم يخرج أحد من إحدى الخمّارَتَيْن يوماً، ليُعربد في الشارع. كان صاحبا الخمّارَتَيْن قد استطاعا أن يُرسِّخا تقاليد حضور هادئ

صبور، يُرسّخ المعنى الحقيقي للعبارة العربية المتداولة عن المُسْكِرات: "المشروبات الروحية". ومعظم الذين اشتهروا في المدينة بإدمان الخمر، أو العَرَق، وهو المشروب شبه الوحيد الذي كان سائداً، اتّصفوا بخفّة الروح، والبداهة الحاضرة. ومنهم مَنْ كان معروفاً بحِفْظ الشِّعْر العربي، والقدرة على استعادته في المناسبة الملائمة.

كانت نوادر رُوّاد الخمّارَتَيْن، ولا تزال، جزءاً من ثقافة تميل إلى الضحك، والفرح بالحياة. ويُخيّل لي أنها كانت النقيض الذي يُخلخل الجدّيّة، والصرامة، والعبوس، والغضب الذي بدأ يخزن، والتّجهّم، الذي بدأت سلطة البعث تُشيعه في حياة السوريّيْن. يساندها قادة الشيوعيّيْن الذين كانوا يؤكّدون على الملامح الصارمة في مقابلة الحياة. وقد يكون أحد أسرار تحطّم تلك الخمّارات البسيطة الضاحكة، كامن في هزيمة الضحك من حياة السوريّيْن كسلوك اجتماعي، وفي زوال حُبّ الحياة، والتّندّر على المصاعب.

ويمكن استخلاص نتائج مشابهة من الشِّعْر الشعبي المتداوَل اليوم، ومقارنته بما يحفظه الناس من شِعْر الآباء والأجداد ممّنْ كتبوا مثل هذا الشِّعْر. فمن النادر أن تجد اليوم أيّ حوار جدّيّ أو ضاحك بين شعراء العامّيّة. فيما تزخر أشعار الأسلاف بطرائف من النكات المتبادلة، والألغاز، والرسائل البينية المُعلَنة، وهي كلّها تشير إلى روح ودودة مُحبّة، تتحرّش بالآخر، كي تسمع كلماته، وتحفظها، وتنشرها، في الوسط الاجتماعي كلّه.

حال المدارس كان مُضاداً لهذا كلّه، داخل الباحة، ووسط الصفوف. فالتّجهّم والصرامة والجدّيّة هي العناوين شبه الوحيدة للعلاقات السائدة. ويزيد في ذلك أنها، أي المدارس، أخذت تحتشد بالشعارات، والشعارات عالم صارم متوتّر. الشعارات سبيل السلطة، أيّ سلطة، للهيمنة والمراقبة.

وقد انهمرت علينا منذ عام ١٩٦٢ سلاسل لا تتوقّف من الشعارات التي كانت تتغيّر وتتبدّل وتتوالد بعضها من بعض. وهي تضعنا، على أيدي المُوجِّهين والمُدرِّبين العسكريّيْن وبعض الأساتذة أمام مهامّ جليلة وكبيرة، ترفض الابتسامة.

كانت الابتسامة على شَفَتَي أيّ طالب، في أثناء الاصطفاف الصباحي، تُكلّفه تحقيقاً في الإدارة، أو غرفة التوجيه، أو أمام المُدرِّب العسكري، يمكن أن يلحق التحقيقَ عقوبات متنوّعة، من بينها إحضار الوَليّ. لمَ تضحك؟

نلتُ الشهادة الإعدادية تلك السنة، وانتقلتُ إلى دار المُعلّمين. كان نظام تدريب المُعلّمين، أو تأهيلهم، يتطلّب دراسة أربع سنوات بعد الشهادة الإعدادية. وقد أرغمني أخي الكبير، بمساندة غير حماسية من والدي، على الانتساب إلى الدار. كانت دار المُعلّمين تمنح الطلاب راتباً شهرياً، قدره خمس وثمانون ليرة سورية. وهو مبلغ طيّب جدّاً في تلك السنوات لفتى، عمره خمس عشرة سنة أو أقلّ. لا أعرف إن كان إغراء المال هو الذي جعل النافذين في الأسرة، يدفعون بي إلى ذلك الخيار العجيب، فقد حصلتُ على مجموع جيّد في الشهادة، لا يتطلّب أن يُزَجّ بي في دراسة ضيِّقة الأفق، أتخرّج فيها بعد أربع سنوات مُعلّماً في المرحلة الابتدائية. ولكن هذا ما حدث. وقد أمضيتُ الأشهر الأولى وأنا ألوم أبي على زَجّي في ذلك الخيار. أذكر أنه بدا نادماً، ولأنه لم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً، فقد أخذ يُشجّعني على إيجاد البدائل الدراسية بعد الانتهاء من الدراسة هنا، تستطيع الحصول على البكالوريا، والتسجيل في الجامعة فيما بعد. وممّا زاد في ندمه، كما يُخيَّل لي، أن أخي الذي يكبرني بأحد عشر عاماً، أخذ يستولي على حصّة كبيرة من راتبي الشهري، ويأخذها لنفسه.

في دار المُعلّمين، لم تتغيّر العلاقات بيننا وبين الهيئة الإدارية إلا في السنوات الأخيرة من الدراسة. كان نظام التوجيه هو ذاته، وكان نظام التدريب العسكري هو ذاته. بل إن ضابط الاحتياط الذي كان يُدرِّب طلاب الثانوية صار مُدرِّبنا.

كان معظم الطلاب من الفقراء، وكان الراتب المخصّص للطَّلَبَة أحد الحلول العظيمة لمتابعة الدراسة، وضمان حياة معقولة في المدينة. ومن بين خمس وأربعين طالباً هم زملائي، الذين سأرافقهم أربع سنوات قادمة، في الشعبة، كان ثلاثة أو أربعة منهم من أبناء المدينة، بينما كانت الغالبية من الريف. كانت المدينة تفرغ تماماً من الطلاب يومَي الخميس والجمعة، إذ يذهب الجميع إلى قُراهم، لإحضار زوّادة الأسبوع، من الخبز (كان سكّان الريف لا يزالون يخبزون في بيوتهم) واللبن والزيتون والكشك وغيره. لا أعرف إن كان قسم منّا يقتسم الراتب الذي يمنحوننا إيّاه مع أهله.

ما زلتُ أذكر أن المناهج في دار المُعلّمين قد استهوتْنا، ففيها الكثير من التّنوّع، والاختلاف عن جفاف الموادّ التي يدرسها طلاب الثانوية، بفرعَيْها العلمي والأدبي. ومن بينها التربية الزراعية مثلاً، والصناعات المحلّيّة، والتربية الفنِّيَّة، وفيها كُتُبٌ ضخمةٌ، أُلِّفَتْ لإعداد مُعلّمي المدارس المُقبلين، في هذه الشؤون المُتنوِّعة. لم تكن يد البعث قد امتدّت بعد إلى تلك المناهج، ولهذا لم ندرس أيّ موادّ ذات طابع حزبي. وبدلاً ممّا سُمِّي فيما بعد الثقافة القومية، قُرّر لنا كتاب، اسمه: المُجتمع.

غير أن الكُتُب ظلّت دائماً نظرية، ففي بناء مستأجر، وغير مُعَدٍّ لخدمة المناهج المُقرّرة، لا يمكن تنفيذ أيّ أنشطة عملية من تلك التي وُضعَت في كتابيَ الزراعة والصناعات المحلّيّة مثلاً، بقيت صناعة الصابون التي درسناها بالتفصيل مُجرّد خطوات مخصّصة للامتحان وحده. ولم نزرع أو

نُقلّم شجرة قطّ. وزاد في طين المشكلة بلّة، أن المهندس الذي أعطانا مادّة التربية الزراعية،كان يجمع بين أمرَيْن غريبَيْن: رخاوة الشخصية، وضخامة المادّة العلمية التي يعرفها. ولأن الطلاب عديمو الرحمة، فقد كان درسه يتحوّل إلى صخب وفوضى، لا ينهيها إلا قدوم أحد المُوجِّهين راكضاً، بعصاه، وجبروته الحزبي.

غير أن علاقتنا مع بقية المُدرِّسين كانت أفضل من ذلك. ويتعلّق الأمر دائماً بشخصية المُدرِّس، سواء من حيث المعرفة، أو الطريقة، أو الحضور الكاريزمي. ومن الواضح لي الآن، أن المسؤولين في مديرية التربية كانوا يختارون المُدرِّسين الثقات للتدريس في الدار. وهكذا حظينا بأولئك الذين اشتهروا في المحافظة في العلوم والرياضيات واللغة العربية والفيزياء وغيرها. بل إن أحد مُدرِّسي اللغة العربية، أعادني إلى القراءة من جديد. ففي أحد الأيّام أخذنا جميعاً إلى المركز الثقافي. كنّا في منتصف السنة الأولى في دار المُعلّمين، وهناك جلْنا برفقته في أقسام مكتبة المركز، التي كانت تمتلئ بالكُتُب المجلّدة، ثمّ أخذ يُوزّع على كلّ طالب منّا كتاباً لقراءته، وكتابة مُلخّص أو عرض له. كان من نصيبي كتاب الدكتور زكي المحاسني: "شِعْر الحرب في أدب العرب"، بالمصادفة. قرأتُ الكتاب كلّه. وهو مكتوب بلغة الدكتور المحاسني السلسة، وأجمل ما فيه أنه يتناول الجوانب الفنِّيَّة في ذلك الشِّعْر. وفي رأيه أن الشِّعْر العربي في العصر العباسي قد تمكّن من التّحرّر من ضغوط الموضوع، وتفرّغ لشؤون الفنّ الشِّعْريّ. ولهذا فقد بات يتجاوز التسجيل إلى التّأمّل في شؤون الزمن والتاريخ، من خلال بنية، تتوخّى فنّ الشِّعْر قبل مقاصد القول.

وحين أعود اليوم إلى مقدّمته، أجده يقول إنه ألّف الكتاب بما يشبه الرّدّ على دهاقنة السياسة في العالم الذين "يتعاورون"، بعد أن انتهت

الحرب العالمية الثانية، واقتسموا الأسلاب والمغانم، حروباً أخرى في خبايا النفوس.

أذكر أن الأستاذ لم يخترْ أيّ كتاب يتناول الأدب العربي الحديث والمعاصر، بل اقتصرت مختاراته على الكُتُب التي تقارب التراث وحده. تلك كانت واحدة من التابوات التي بدأت المدرسة السورية تخشى الاقتراب منها، أي مقاربة الكلام عن الأدب العربي الحديث بما يحمله من إشكالات ومسائل تتعلّق بالموقف من السلطة والحُكْم أزمات الإنسان وغيرها.

وقبل أن ينتهي العام الدراسي، زار الصَّفَّ أحدُ مفتّشي مادّة التربية وعلم النفس. كانت هذه واحدة من الموادّ الأساسية التي تُدرَّس في مناهج دار المُعلّمين. وفي نقاش حُرّ بين الأستاذ، وبيننا نحن الطَّلَبَة، وجّه لنا سؤالاً غريباً، ما زلتُ أذكره، بسبب الأثر الذي تركه في نفوسنا: سأل المفتّش الوزاري: لمَ يتفوّق بعض طَلَبَتِنا، على الرغم من أن المناهج لدينا تفتقر للدوافع التي تُشجِّع الطَّلَبَة على العمل والتّفوّق؟ لم يجبْ أحد عن السؤال. فيما تطوّع هو نفسه للقول إن السبب الوحيد هو قُوّة النفس الإنسانية، ورغبة البشر، بمَنْ فيهم نحن، في تحقيق النجاح الفردي.

كان اعتراف المفتّش الوزاري صادماً، ولم يُعلّق أستاذ علم النفس عليه بحرف واحد، لا في تلك الساعة، ولا فيما بعد. مثلما كان كلامه عن النجاح الفردي للطَّلَبَة، يضع المناهج والمُدرِّسين في رتبة أدنى من رتبة الطلاب أنفسهم. وكان أثره في نفس المراهق المأسور بين جدران الدراسة ذات الأفق المغلَق، أعني دار المُعلّمين التي ستتخرّج فيها مُعلّمين للمرحلة الابتدائية، محرّضاً، بحيث إنني منذ تلك الساعة كنتُ قد قرّرتُ مساراً مختلفاً لحياتي، يتضمّن من بين ما يتضمّن، إعلان التّحدّي لأخي

الكبير الذي أرغمني تقريباً على التواجد هنا، ولأبي الذي لم يعترض على اقتراحاته. ومنذ تلك الساعة، اتّخذتُ قراراً، مثلما فعل زملاء لي عديدون، أن يكون اجتهادنا الشخصي أحد الدوافع الأهمّ لتحقيق رغباتنا وآمالنا في الجانب العلمي من حياتنا.

ومنذ منتصف السنة الأولى، بدأنا نتعرّض لحملة تنسيب حثيثة لحزب البعث الحاكم من قِبَل المُوجِّه. كان يستدعينا إلى غرفته واحداً واحداً، ليحثّنا على كتابة طَلَب الانتساب إلى الحزب. لم أعد أذكر الأعذار التي قدّمتُها له، ولكني رفضتُ كتابة أيّ طلب. والراجح أنني تذرّعتُ بعدم رغبتي في التواجد داخل أيّ حزب. وهذا ما فعلتُهُ في السنوات الأربع التالية، في حين أن الخيارات الحزبية كانت محدودة، إذ لا يتواجد في منطقة السويداء سوى حزبَيْن كبيرَيْن، هما حزب البعث والحزب الشيوعي السوري مع بقايا متشرّدة للحزب السوري القومي، المعروف باسم الحزب القومي السوري. ولا وجود للأحزاب الدِّينية بين أقلّيّة درزية صغيرة، ليس لها أيديولوجية دينية متكاملة، بل جملة من التعاليم المذهبية فقط.

الطريف أن البعثيّيْن كانوا يضغطون علينا داخل المدارس وخارجها، بينما اكتفى الشيوعيون بالخارج وحده. وغاب القوميون غياباً شبه تامّ. وهكذا رأيتُ في تلك السنوات زملاء وأصدقاء لي يتنقّلون بين الانتساب إلى الحزب الشيوعي، ثمّ النكوص والعودة إلى حزب البعث. لم يحدث العكس بالطبع، بين مَنْ أعرفهم. وبدأ البعث منذ تلك السنوات نهجه العجيب في توكيل الشارع بالتعبير عن مواقفه السياسية، فلم تكن تمضي بضعة أسابيع، أو أقلّ أحياناً، دون أن نخرج في مسيرة مُدبّرة ومُعلَنَة من قِبَل السلطة، للتعبير عن شجبنا، أو رفضنا، أو تأييدنا، لما كان يُعلنه المذيع في الإذاعة السورية. كانت الإذاعة في تلك السنوات هي الناطق الرسمي

باسم الأنظمة العربية. وهكذا كانت المدينة تشهد تلك المسيرات الصاخبة المجنونة التي يهتف فيها الطلاب، وهم يرقصون ويهزجون ويقفزون في الشوارع ضدّ الأعداء الذين تُقرّر الخروج إلى الشارع ضدّهم. وفي إحدى المسيرات (كنّا نخرج مُرغَمين من المدرسة، وكنتُ أنسحب من المسيرة إلى الرصيف، على أن أبقى مَرئياً من قِبَل العيون المتجسّسة التي لا أعرف مَنْ هي) لم أفهم لماذا ضُرب الشيوعيون الذين كانوا يتحوّلون بسرعة إلى أقلّيّة، في مسيرة، خرجت لتُندّد بأمر ما في العالم. سالت دماء أحد الطلاب، وعُفس طالب ثان بالأرجل، وطُورد مَنْ تبقّى في الشوارع الجانبية. وسرعان ما خلت الساحة للبعثيّيْن وحدهم، الذين زاد هياجهم، وحماستهم، للأدوار المنسّقة في التظاهر.

وقد انعكست تلك المظاهر في أجواء دار المُعلّمين أيضاً، حيث بات عدد من الطلاب، يُجرون محادثات سرّيّة شبه دورية مع أحد المُوجِّهين. ولا أعرف إن كان التّحزّب، أو الشللية هي التي جعلت الأعضاء في الفرقة الموسيقية لدار المُعلّمين، يُبدون رفضاً شبه جماعي، لمحاولتنا، أنا وأحد زملائي، المشاركة في الفرقة.

كنتُ قد اشتريتُ آلة كمان من طالب في الصّفّ الثالث. دفعتُ ثمناً لها تسعين ليرة سورية، وفّرتُها من راتبي الشهري الذي عاد لي أكثر من نصفه بعد أن وجد أخي الكبير وظيفة دائمة، وتزوّج. لم أحفلْ باعتراضات أحد. ورحتُ أتعلّم العزف السماعي عليها، ريثما يتمّ قبولنا في الفرقة كمُتدرّبين. لم يكن لدى أستاذ الموسيقى ما يمنع من ذلك، فقد سبق له أن درّب آخرين ممّنْ صاروا في تلك الأيّام يعزفون في فرقة الدار الموسيقية. غير أن الرفض، الذي تجلّى في الاحتقار والمضايقة والتعبير عن البرم بنا، **جاء من عدد من أعضاء الفرقة ذاتهم. وقد تمكّنوا من إبعادنا بالفعل،**

فيما لم يُبدِ الأستاذ حماسة لإعادتنا. وفي تلك الفترة، عثرنا على مُعلّم آخر: كان رقيباً في فرقة الجيش الموسيقية، وقد تلقّى تدريبات في أكثر من دولة، من بينها إيطاليا. طموحه كان تأسيسه لفرقة، سمّاها "فرقة الأفق الفنِّيَّة" وقد تألّفت من ثلاثة عشر عازفاً، من بينهم أنا وزميلي في الصّفّ. بدأ يُعلّمنا العزف من تدريبات الصولفيج. وبعد ستّة أشهر، تمكّنّا من عزف قطعة موسيقية كاملة، هي "القمح" لمحمّد عبد الوهاب. الراجح هو أن تلك القطعة التي ألّفها عبد الوهاب على غرار التانغو، قد استهوت المُعلّم الذي كان يبغض الموسيقى الشرقية، وقد منعنا من تحويل آلاتنا إلى النظام "الدوزان" الشرقي تحت طائلة الفصل من الفرقة. وبعد سنة من التدريب، كنّا نتفوّق على كثيرين من أعضاء فرقة دار المُعلّمين الذين أقصونا، وكنّا قادرين على وضع النوتة الموسيقية أمامنا، وعزف المقطوعات البسيطة، بيُسر.

ربمّا أثارت هذه المنجزات غيرة آخرين، لستُ أدري، غير أن المدينة امتلأت بالكلام عن أن المُعلّم يقدّم لطلابه، (نحن بالطبع) الحشيشة، أو أيّ مادّة أخرى من المخدّرات. قيل إننا نأخذ المخدّرات في القبو الذي تتدرّب فيه، وقد ذُعر الرقيب في الجيش من الشائعة، وألغى بسرعة عمل الفرقة، ومزّق الأوراق التي أعدّها عنها، ثمّ تركَنا دون أيّ توضيح. هذا ما وصلَني، ولم أعد أجد أحداً من زملائي في العزف اليوم، كي أتيقّن من الخبر.

كنّا في الصّفّ الثاني، وكانت عطلة منتصف العام قريبة، فعدتُ إلى قريتنا، حيث كانت أُمّي، وأختي الصغيرة، وأخي الأوسط الذي يكبرني بعامَيْن ونصف.

ثمّة تجربة لا تُنسى في ذلك الشتاء الغريب. ففي إحدى الليالي، وكنّا نائمين، أنا وأختي وأُمّي في غرفة واحدة. استيقظتُ في منتصف الليل على همس أُمّي. قالت: قوم. وتعال شوف. لكنْ، لا تخاف.

فتحتْ دَرْفَةَ النافذة، وأرتْني مشهداً غريباً، حيث كانت ثلاثة ذئاب سود، (الراجح أنها رمادية، حوّلت العَتَمَة لونها إلى السواد)، تحاصر حماراً، يحاول أن يلجأ إلى زاوية المنزل، بين جدارَيْن. كان الحائط الذي يلصق جسده به، يحميه من هجماتها المتكرّرة، وكان ينهق بحشرجة مميتة، أو يحاول أن يرفس أحد الذئاب. لا أعرف إن كانت الشجاعة، أو المعرفة الأكيدة بطباع الذئاب، هي التي جعلت أُمّي تُشجّعني على الخروج معها، لإبعاد الذئاب عن البيت. غير أن هذا ما حدث: خرجْنا، وقالت لي اجمع الحجارة، فجمعتُ قَدْراً كبيراً من حجارة، تصلح للرمي باليد. ثمّ وقفْنا معا خلف باب حديدي صغير، يفصل البيت عن الخلاء خلفه. ثمّ قالت: ارمِ الذئاب بها، ولا تخفْ. فرحتُ أرميها من بعيد، لم تعبأ الذئاب بنا، وبدلاً من أن تفرّ، راحت تناوش الحمار بقُوّة. وحشر أحدها نفسه بين الحيوان وبين الحائط، وتمكّن من دفعه بعيداً. حينئذ، قالت أُمّي بأسى: خَلَصْ. تعالْ نرجعْ. لم نتمكّن من إنقاذ الحيوان، فيما رأيتُ الذئاب تأخذه، بالدفع، والعضّ، بعيداً عن البيت. صرنا نسمع في ذلك الليل الغريب الخاوي نهيق المسكين، وركضه. ثمّ أخذ يتلاشى كلّ شيء. سمعتُها تتنهّد، ثمّ تغطّيني باللحاف والبطّانيّة، وتقول: نم الآن. أخذوه. لكنْ، صرنا منقدر ننام.

وفي الصباح، أوضحت لي، أن احتمال أن تهاجمنا الذئاب كان مستبعداً تماماً، في حال وجود فريسة أخرى جاهزة في المكان. وقد راهنتْ على احتمال آخر، هو أن تفقد الأمل في الفريسة، وتمضي بعيداً عنه وعنّا. لكنها كما يبدو كانت جائعة وقادرة على اكتشاف تِقْنِيّة ناجحة في الاحتفاظ بالفريسة المُعَدَّة الجاهزة. لا يمكنني اليوم أن أصل إلى استنتاجات عديدة بخصوص ذلك. قال لي أحد أصدقائي أننا سلّمنا ذلك الحمار المسكين لمفترسيه. كان علينا أن ندعه في مكانه. وقال آخر: إننا فعلنا ما كان علينا أن نفعل. إنها محاولة لإنقاذه، وقد فشلت. وقال ثالث: لا أحد يستطيع

أن يُغيّر القَدَر. وقال رابع: لقد فعلتَ الصواب. أتحدّى أيّ إنسان أن يتمكّن من النوم، بينما تُزمجر ثلاثة ذئاب تحت نافذته، وينهق حمار.

لم يكن الذئب مكروهاً في الثقافة المحلّيّة لأبناء المنطقة، وقد كان كثيرون يُسمّون أبناءهم "ذيب" وهو لفظ مخفّف من "ذئب" ولم يكن الاسم يُشكّل أيّ التباس لدى الآخرين، شأنه شأن أسد، ونمر، وفهد. بينما كان الحيوان الأبغض هو "الضبع". كانت حكايات الخوف، والرهبة من الليل، والحذر من التّنقّل بين القُرى في الطُّرُق الوعرية، ترتبط بوجود الضبع، وحيله العجيبة الدنيئة في الإمساك بفرائسه من البشر.

في السنة التالية، كنّا قد انتقلْنا إلى الصّفّ الثالث من دار المُعلّمين. أي ما يعادل البكالوريا في التعليم الثانوي. وفي منتصف العام، علمنا أن وزارة التربية حدّدت موعد امتحاناتنا بالتزامن مع امتحان الشهادة الثانوية. لم نعد نستطيع أن نتقدّم لامتحان الثانوية ضمن طلبات الطلاب الأحرار، كما خطّطتُ. في تلك السنة، تعرّفنا إلى بدر شاكر السّيّاب، حينما وُضعت ترجمته في كتاب التراجم والنقد للبكالوريا. لم يكن الشاعر معروفاً قبل تلك السنة بين الطَّلَبَة، وقد كتب ترجمته أحد أساتذة اللغة العربية القديرين في المدينة، وهو صيّاح الجهيم الذي عُرف فيما بعد حين تابع ترجمة أعمال تولستوي الكاملة، التي أصدرتْها وزارة الثقافة السورية، بعد وفاة سامي الدروبي. ممّا زاد في جرعة القبول للشاعر.

والغريب أن تكون سنة تعرُّفنا بالسّيّاب هي سنة هزيمة حزيران. لم يكن الكتاب مقرّراً لنا في دار المُعلّمين، ولكنني قرأتُهُ في سياق التحضير للتّقدّم إلى امتحان الشهادة الثانوية، قبل أن أعلم باستحالة ذلك، بسبب تزامن امتحاننا مع امتحان البكالوريا. أمّا وجه الغرابة، فلم أكتشفه في تلك الأيّام، وإنما فيما بعد، حين أعدتُ قراءة الشاعر الذي كان يُندّد بكل تلك

الممارسات التي أوصلت بلادنا إلى الهزيمة الكارثية في حزيران. ولهذا لا يزال اختيار هذا الشاعر كي يُدرَس في القسم الأدبي من البكالوريا من قِبَل النظام التعليمي في سورية يطرح أسئلة كثيرة، لم أجد لها جواباً بعد.

أمّا الكتاب الثاني الذي بدا لي غريباً فيما بعد أن يكون من مقرّرات الطلاب، فهو "معذّبو الأرض" لفرانز فانون، الذي ترجمه سامي الدروبي، وجمال الأتاسي. كان الكتاب مطبوعاً في طبعة مدرسية، غير أنني اشتريتُ من المكتبات في السنة التالية طبعة دار الطليعة. وفيما بعد فقط بدا لي الأمر، ولا يزال غريباً. إذ مَن الذي اختار السّيّاب، من جهة، ومعذّبو الأرض من جهة ثانية، كي يكونا مُقرَّرين في الثانوية. ففي كتاب فانون تشخيص هجائي عنيف وتحذيري لشعوب العالم الثالث من أولئك القادة الذين قادوا حركات التّحرّر، وتزعّموا بلادهم بعد استقلالها. الحقّ أنه كان يُنذر عالمنا من تحوّل قادة البلدان التي كانت مُستعمَرَة، إلى نهج الاستبداد. لكننا لم نقرأ شيئاً من هذا على أيّ صعيد. وخاصّة صعيد الحذر وعدم الثقة بأولئك الذين يتشبّهون بالآلهة في قصور الحُكْم.

وفي تلك السنة، ازداد منسوب النزاعات السياسية بين الطَّلَبَة أعلى من أيّ وقت مضى. كانت سلطة البعث تتغلغل في أرجاء المُجتمع كلّها، بينما أخذ الشيوعيون يتقلّصون، وتقلّ فاعلية وجودهم. وبفضل وجودهم في السلطة، بدأ حضور البعثيّيْن يتّخذ منحى عصابياً، يتّسم بالطيش والعنف والرغبة في الهيمنة على كلّ شيء في الشؤون المدرسية. كانت دار المُعلّمين مدرسة للاحتواء. فقد غدونا موظّفين في الدولة منذ أن وقّعْنا عقدنا الأوّل الذي تضمّن التزامنا بالعمل لديها لعدد من السنوات مقابل الراتب الذي كانوا يدفعونه لنا. وبهذا فإن السياسة المتّبعة لدى السلطة أنه لا يحقّ لأيّ موظّف أن تكون لديه خيارات سياسية مختلفة عن

خيارها .. كانت هذه السياسة تُطبّق باطّراد وبطء، دون أن يُعلَن عنها. إلى أن تمّ التوقيع عليها رسمياً في ميثاق الجبهة في بداية السبعينيّات. لهذا لم تشهد دار المُعلّمين نشاطاً سياسياً مميّزاً، ولا أعمال شغب طلابية من أيّ نوع. كانت الطاعة هي السَّيِّد الخفي الذي سنحمله معنا إلى المدارس في المستقبل، كي نُربّي جيلاً من الصغار على ما تربّينا عليه. فيما استطاع قسم كبير من بين زملائنا حجز مقاعد مُسبَّقة لهم، في أدوار التوجيه والتدريب العسكري والإدارات والتوجيه التربوي في المدارس. فهناك العشرات من الوظائف والمكاسب التي تنتظر أولئك الذين اختاروا الانضمام إلى صفوف الحزب الحاكم. ولهذا مارسوا منذ أن كنّا هناك دور الضبط والإسكات وقمع الاختلاف. كأن هوية المستقبل كانت تتجسّد في أمرَيْن: الأوّل هو القمع بالقُوّة، والثاني هو الطاعة المرنة. سوف يكسب مَنْ يسير في أيٍّ من هذَيْن الخيارَيْن. وقد صرْنا الآن على أعتاب التّخرّج. أي لم يعد بيننا وبين الوظيفة والعمل الميداني سوى بضعة أشهر.

وبسبب هذه النزعات التّسلّطية، اخترنا أن ننضمّ إلى ناد أهلي مستقلّ، ينشط في مجال الفنون، اسمه: نادي الفنون الجميلة. أُجري لنا، نحن الذين كنّا في فرقة الأفق الفنِّيَّة المنحلَّة، اختبار في العزف، وفي قراءة النوطة، واجتزْنا الامتحان بنجاح، وصرْنا أعضاء في فرقة النادي الموسيقية. سوف أعرف فيما بعد أن البعثيّيْن يدّعون أنه نادٍ تابع للحزب الشيوعي السوري. لم يكن كذلك تماماً، غير أن معظم الإداريّيْن فيه كانوا من الشيوعيّيْن. وقد قدّمْنا في السنة التالية حفلاً موسيقياً ضخماً، في دار السينما التي كانت قد بُنيت حديثاً، إضافة إلى مسرحية "النّسّاجون" لغيرهارد هاوبتمان، التي مثّل فيها مجموعة من شبّان النادي.

وفي تلك السنوات، استعدتُ عشقي للسينما، كانت في المدينة

ثلاث دُور للسينما، إحداها بُنيت في زمن الفرنسيّيْن لتسلية جنود الاحتلال في الثكنات التي تحرس الحَيّ الاستعماري (كما يُسمّيه ماركيز) الذي بُني على التلال المُشرفة على المدينة، من ناحية الشرق وفق الطراز الفرنسي الذي يختلف تماماً عن طراز العمارة المحليّ، سواء من حيث أسقف القرميد المائلة، أو من مادّة البناء، أو من حيث اللون. إذ اهتمّ الفرنسيون بإسباغ اللون الأصفر على الأبنية جميعها التي شيّدوها في المدينة إبّان احتلالهم. بينما يسود اللون البازلتي الأزرق على بيوتها، وخاصّة في الحَيّ القديم غرباً. سبق للعثمانيّيْن أن بنوا قلعة هناك أيضاً، في قمّة التّلّ الأكثر علواً، وقد حوّلها الفرنسيون إلى مركز للمدفعية التي كانت تقصف المدينة في زمن الثورة السورية. الداران الأخريان بُنيتا في السّتّينيّات من القرن العشرين. كانت كلّ دار من الدُّور الثلاثة، تعرض أفلامها ليوم واحد، أو ليومَيْن فقط.وقد أتاح هذا لي أن أشاهد مئات الأفلام العربية والأجنبية خلال السنوات الأربع التي أمضيتُها طالباً في دار المُعلّمين. لم تكن الرقابة البعثية أو السلطوية قد تمكّنت بعد من التغلغل في مناحي الحياة جميعها، كما حدث فيما بعد. وكان القطاع الخاصّ ما زال قادراً على استيراد الأفلام وعرضها دون رقابة من أيّ جهة. هناك الكثير من الأشياء والمعطيات وأشكال العيش لا يعرف قيمتها البشر، إلا حين يخسرونها. لكننا كنّا نخسر تفاصيل حياتنا دون أن ندري. كانت السلطة تتسلّل إلينا عبر الشعارات والأهداف الكبرى والمسيرات التي لا تتوقّف، والعداء لإسرائيل الذي لا يملُّ الإعلام الحزبي من تكراره. وشيئاً فشيئاً كانت المدرسة تتحوّل إلى أبواق وطبول، مهمّتها التكرار والإعادة لسيل المهامّ الكبرى، فيما كانت السلطة تسحب من حياتنا الأشياء الصغرى واليوميات والتفاصيل الصغيرة.

لم تتغيّر محتويات الأفلام عن مثيلاتها أيّام كنّا في القامشلي. كان الفلم المصري، بشبابه المشهورين آنذاك: نادية لطفي وفاتن حمامة وأحمد مظهر

وعمر الشريف وأحمد رمزي وشكري سرحان وحسن يوسف ويوسف فخر الدِّين وشادية وغيرهم، هم سادة العروض، وكانت الرومانسية المجسّدة في قصص الحُبّ العاطفية المُثقَلَة بالأشجان تُحرِّك مشاعر الجيل كلّه، ولا ينافس الفلم المصري سوى أفلام الغرب الأمريكي التي زرعت لدى جيلنا غير المُحصّن أخلاقياً كراهية غامضة للهنود الحمر. لم نكن نعلم أننا نُقتل في الحقيقة كلّما قُتل أحد أولئك الهنود المساكين، وهو يدافع عن نفسه، أو عن بيته، أو عن أرضه. فيما كانت المدرسة تزداد انفصالاً عن شؤون الواقع. وعلى الرغم من أنهم كانوا يعدّوننا لتربية الأجيال، فإن الشؤون الثقافية والفكرية كانت قد انتُزعت منّا. كانت الأيديولوجية تضع في حسابها أنها هي التي تُقرّر ما الذي ستتربىّ الأجيال عليه. وما علينا كمُعلّمين، أو "كمُربّين" كما صاروا يطلقون علينا، إلا أن نُنفّذ الأجندات المُقرَّرة. ولهذا لم ندرس في أيّ صورة من الصور العلاقة بين الفنّ والواقع مثلاً، ولا أشكال التأثير غير المنظورة للسينما أو للإعلام في السينما على الرسائل الفكرية.

وفي ذلك العام البائس، فشلتُ في أن أعلن حُبّي لفتاة، كانت تسكن في الحَيّ الذي استأجرْنا فيه، كنتُ أراها كلّ صباح وهي تخرج من بيتها، مُتّجهة إلى المدرسة، فألحق بها مُتخفّياً، إلى أن تلتقي بإحدى زميلاتها، أو تدخل إلى مدرستها، فأُكمل طريقي إلى دار المُعلّمين. كرّرتُ هذا المشوار عشرات أو مئات المرّات، ولم أجرؤ على مفاتحتها بإعجابي. وتعويضاً عن الفشل والتّردّد، رحتُ أقرأ المنفلوطي. بول وفرجيني والنظرات والعبرات. كان المنفلوطي رفيق أجيال عديدة من العرب، ومن السوريّيْن، ولكنْ، لا أعرف إن كانت قراءته تعويضية على غرار قراءتي، لديهم، أم لا. قرأتُ أعمالاً لمحمّد عبد الحليم عبد الله. فسبّب لي كآبة، جعلتْني أتركه دون ندم. لم أقرأ له أيّ كتاب حتّى اليوم، وأسأل نفسي أحياناً: هل يوجد مَنْ يقرأ

هذا الكاتب البَكّاء الحزين؟. وكيف أن التعبير عن الحزن، أو الكارثة يتطلّب رفع مستوى الكتابة، كي تتجاوز أزمة أيّ فرد، كي تصبح أزمة الإنسان، وعن طريق أحد زملائي الشيوعيّيْن، قرأتُ مجلّة الطليعة المصرية، فأُعجبت بما يُكتب هناك. كان سعرها لا يزيد عن ليرة ونصف الليرة، فبدأتُ أقتني ما يصل إلى المدينة من أعدادها التي لا تُمنع. وقد ساعدنا في القراءة والمعرفة مَكتبيّ مُتنوّر، كانت لديه مكتبة صغيرة في الطابق الأرضي من إحدى البنايات. كان يُحضر الكُتُب، ويمكن أن يُؤجّرها مقابل مبالغ زهيدة.

ثمّ وقعت الحرب. أُجِّلَت الامتحانات إلى وقت آخر غير محدّد. فغادرْنا الغرف التي كنّا نستأجرها، عائدين إلى قُرانا. هناك لم يكن لدينا من وسيلة لتتبّع الأخبار سوى الراديو. كان لدينا في البيت راديو قديم من نوع سيرا، كانت له شاشة من قماش ناعم بلون الحرير، ومفتاحان كبيران على الجانبَيْن، وكان يعمل على بطّارية كبيرة، تُوضع تحته. لم تدم الحرب كثيراً، وقد اخترقت الطائرات الإسرائيلية الأجواء من فوقنا بضع مرّات، وقصفت أهدافاً عسكرية في أحراش الجبل (رأينا الدخان يتصاعد من هناك). وفي اليوم السادس، سمعنا المذيع يعلن الهزيمة. عمّ صمت مُنهَك قاتل في أرجاء البيت، خرجتُ من هناك، إلى الطريق العامّ المجاور لبيتنا، ورأيتُ عدداً من شبّان البلدة يأتون نحونا. لا أحد يعرف ماذا يفعل. كان خروجا عشوائياً، لا يهدف لشيء سوى الوقوف تحت السماء الفارغة التي تُشرف على تلال الجولان، هناك حيث بات الإسرائيليون موجودين في تلّ الفرس، أو تلّ الحارة أو غيرهما من التلال التي تظهر في أفق قريتنا. صمت. حزن. حَيْرة. أسئلة واستفسارات، لا يجيب عنها أحد.

استقال أبي من سِلك الدَّرَك أيضاً، بعد أن أمضى عشرين سنة في الخدمة بعد انتهاء الحرب، وعاد إلى بيتنا في القرية. هكذا بدأتُ أشعر

بالمزيد من الطمأنينة على والدتي التي كانت وحيدة مع أختي التي تركت المدرسة، بسبب مرض الوالدة المتفاقم. ومنذ تلك الأيّام، وإلى أن مات بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة، كان ديدنه أن يروي القصص والحكايات، مرّة عن أعمامه وجَدّه، وهو الرَّقْم النهائي الذي نعرفه عن شجرة العائلة، بسبب انقطاع السلسلة بعد هجرة جَدّ والدي من لبنان إلى سورية، أو عن خدمته المتنوّعة في سِلْك الدَّرَك منذ بداية الاستقلال إلى ما بعد هزيمة حزيران.

الأصعب أنه تخلّى عن الحصان. باعه كما عرفتُ، حين جئتُ في إحدى العطلات. وبسبب كآبته وحزنه اللَّذَيْن نجما عن الفَقْد، لم أسأله لماذا. خاصّة حين رأيتُ أنه كبّر صورة له مع حصانه، أُخذت لهما ذات يوم في غابات الفرنلق. صورة قديمة من أيّام شبابهما معاً. ومازلتُ حتّى اليوم أُعلن عجزي عن معرفة السبب الذي دعاه لبيع الحصان، حين يسألني أحد ما عن السبب، وهو يرى صورة والدي، في بيتي، مُعتلياً صهوة الحصان. بينما ظلّ ضمن سلسلة حكاياته، يروي لنا قصصاً عن قُوّة رفيق عمره، وإخلاص ووفائه، ومساندته له في أصعب الأوقات، كأنما أراد أن يُبعده، كي يحكي عنه، أو أنه لم يرد أن يراه يهرم ويموت في حضرته، أو في حضرة أيّ شخص ممَنْ نعرفهم. فالحكايات الجميلة تُروى دائماً عن الغائبين.

هذا شأن شديد الغرابة.

تقدّمْنا للامتحانات بعد الحرب أيضاً، وانتقلْنا إلى السنة الرابعة، أي سنة التّخرّج. كانت وزارة التربية قد ألغت نظام السنوات الأربع، ولم يبقَ في الدار سوى صفّنا، وصفّ آخر، أتى بعدنا. فتقرّر نقلنا من المدرسة المستأجَرَة. وجدوا لنا غرفَتَيْن في ثانوية شكيب أرسلان، فعدْنا إلى هناك من جديد. وحين بدأت الدراسة، كانت حكايات الحرب وذيولها وتوابعها

تشغل فكرنا. كانت النقاشات تقتصر على أحاديثنا المُستقلّة فيما بيننا فقط. بينما لزم المُدرّسون في الصفوف الصمت الشامل تجاه أيّ نقاش من أيّ نوع حول ذلك. كأن الهزيمة العسكرية الماحقة لم تحدث البتّة. وقد ظلّ المسؤولون الحزبيون والسياسيون جميعهم في مراكزهم. صمت المُجتمع أيضاً، وباتت الاهتزازات العظيمة مخزّنة داخل النفوس، وفي أعماق القلوب الجريحة. ولهذا فقد بدت المدرسة محايدة تماماً تجاه ذلك الحدث، وفي المحاضرة الأولى التي ألقاها مدير الثانوية ودار المُعلّمين معاً، وهو أستاذ للتاريخ، اسمه داود النمر، كان يُدرّسنا من قبل، ثمّ أضحى مديراً لدار المُعلّمين، والثانوية، لم يأت على ذِكْر الحدث الكارثي الذي لم يكن قد مضى عليه سوى بضعة أشهر.

كانت الثانوية الآن قد استسلمت تماماً. لقد مضت أربعة أعوام، تمكّنت فيها السلطة من تدجين مُجتمع الطلاب تماماً. لن تجد أيّ اعتراضات على أشكال النظام المتّبعة، وفي مقابل كلّ اقتراح قمعي، يمكن أن يتفتّق عنه ذهن أحد المُوجِّهين، أو أحد مُدرِّبي الفتوّة، كان الطَّلَبَة يكتفون بالرضوخ العَلَني، والسخط الخفي. وغالبية أشكال الشغب، أو المناكفة، كانت تتمّ داخل الصفوف، أي ضدّ المُدرِّسين الذين ما كانوا في الغالب ذوي سلطات سياسية أو حزبية. وسوف يقع الغرم الأكبر على عاتق المُدرِّسين الضعفاء ذوي الشخصيات غير القادرين على ضبط النظام في غرفة الصّفّ. ومن غير أن يدري الطلاب، فإنهم كانوا يساهمون، باحتجاجاتهم اللاشعورية المحرّفة، في تعزيز سلطة غرف التوجيه، وبأس المُدرِّبين العسكريّيْن. حين يلجأ المُدرِّس العاجز عن إسكات الفوضى، أو الضجيج، أو الشغب الطلابي في صفّه، إلى المُوجِّه الذي يأتي وفي يده عصا التأديب، وقُوّة الفصل والطَّرْد. تنطفئ أعمال الشغب تماماً، ويصمت الصّفّ بمَنْ فيه من طلاب أمام القُوّة العاتية التي لا تتردّد في استخدام

القمع الفيزيائي أو الكلامي. واللافت في الأمر أن الطالب "المشاغب" الذي قد يتعرّض للطَّرْد، أو لتِقْنِيّة إحضار الوَليّ، يُوجِّه حقده وكراهيته نحو المُدرِّس، لا المُوجِّه.

ومن النادر في تلك الأوقات أن يكون أيّ طالب قد سجّل اعتراضاً وجيهاً على الممارسة التأديبية، أو العقابية، أو التوبيخية، التي يستخدمها ممثّلو السلطة السياسية في المدرسة. كان رفاقنا وزملاؤنا المجايلين لنا قد نالوا البكالوريا، وسجّلوا في الجامعة، أو تطوّعوا في الجيش، أو سافروا. كنّا قد صِرْنا أكبر بكثير من الدفعات القادمة، من دون أن تكون لنا في الثانوية أيّ سلطة من تلك التي يملكها المُتقدّمون.

وقد تمكّن حزب البعث، الذي كان في الواجهة دائماً، في ذلك الزمن، من تحطيم معظم التّجمّعات الأهلية، والمَدَنية المستقلّة في المدينة (وفي سورية كلّها طبعاً) مثل النوادي الرياضية والاجتماعية والفنِّيَّة، ومنها نادي الفنون الجميلة الذي كنتُ أتدرّب فيه مساء على آلة الكمان في الفرقة الشرقية. أُغلق النادي بالشمع الأحمر. واستولت منظّمة الشبيبة التابعة للحزب على الموجودات فيه، من آلات موسيقية ومُستلزماتها. وتمّت السيطرة على إدارات الناديَيْن الرياضيَّيْن. وهكذا لم يبقَ للشباب أيّ مساحة حُرّة، يمكن أن ينشطوا فيها، دون أن يكونوا مُراقَبين ومَرصُودِين من قِبَل الأخ الأكبر. وكما سيكون عليه الأمر في العقود اللاحقة، فقد تحوّل الانتقاد السياسي إلى نكات خَفية، ونوادر وسخريات مريرة، تكتفي بالقول الشفهي، والمعارضة المنزلية.

وفي السنة الرابعة الثقيلة، خاب أملي في التّقدّم لامتحان الثانوية. تزامن الامتحانان مرّة أخرى، ولكننا لا نعرف الخبر عن موعد الامتحانات إلا في منتصف العام الدراسي، فأقرأ نصف منهاج البكالوريا مرّة ثانية،

ثمّ أنكص عائداً إلى سنتي الأخيرة في دار المُعلّمين فقط. أذكر أنها كانت سنة بلا هوية. فقدتْ دار المُعلّمين خصوصيّتها كمدرسة لتأهيل المُعلّمين، حين أُدمجت في بناء واحد مع الثانوية. وبدا أن المُدرِّسين أنفسهم، ما عادوا يُولُون الطلاب فيها اهتماماً خاصّاً، حين بات العمل المشترك بيننا وبين الثانوية يُنهِكهم. غير أن المتغيّر الأهمّ فيها هو تدريباتنا المكثّفة على التعليم في المدرسة المخصّصة لنا في المدينة، وقد بات هذا يزيد في سلب روح الطالب من نفوسنا، وإحلال مزاج المُعلّم. وفي تلك السنة، كان عدد كبير من زملائي في الصّفّ قد استطاعوا أن يجدوا شريكاتهم المقبلات. وخاصّة من بين البنات في دار المُعلّمات التي كان مصيرها مشابهاً لمصير دار المُعلّمين. بينما لم أكن قد وجدتُ أيّ شريكة. وانقطعتُ عن حالة الحُبّ التي اقتصرت على شوارع المدينة، وأزقّتها، حيث كنتُ أتسلّل وراء فتاتي التي لم أعرفها. وفي بيتنا كان المرض قد بدأ يفتك بأُمّي. ومصير المُعلّم الذي ينتظرني بدا لي أكثر الأشياء حزناً وكآبة. في حين كانت البلاد تشرف على هُوّة فاغرة من الحَيْرة والغموض.

ذاكرةُ المكان

صالح الحاجّ صالح

السماءُ الأولى

لا ذاكرة لديّ قبل الدخول إلى المدرسة إلّا بعض النُّتف. قد تكون هذه النُّتف ذاكرة أهلي عن أحداث، كنتُ طرفاً فيها، أو تخصّني وحدي، فأصبحتْ كأنها ذاكرتي لكثرة تكرارها. أنا في الصِّغر نحيف ناتئ العظام، وحُزتُ لقاء ذلك في سنة الصّفّ الأوّل على لقب "عصعوص" من قِبَل أقراني في المدرسة، هذا اللقب التصق بي لفترة طويلة، وهو أكثر ألقابي الأربعة إغاظة. وبالعموم، مَنْ كان في القرية والديرة كلّها كبيراً أو صغيراً بدون لقبٍ واحد على الأقلّ؟!

الألقاب في ديرتنا تُولَد مع الإنسان، وقبل حصوله على اسمه الذي قد يمتدّ لمدّة ثلاثة أيّام حتّى يناله - حسب العُرف - ولا يجوز تجاوُز ذلك شرعاً. خلال هذه الأيّام، يحوز المولود على لقبه الأوّل، المُستمدّ من صرخته الأولى، أو لونه، في أثناء خروجه من بطن أمّه، أو حركته الأولى؛ فهناك لقب "حمرين" المولود مزروراً، بسبب الولادة العَسِرة، وهناك الحصيني- أي الثعلب - مَنْ له بوز ثعلب، وهناك الجلاطة، ومَخْطَة .. وهناك لقب، صِفْرنّه، مَنْ يولد وبهِ يرقان، وهذا لقبي الأوّل قبل حصولي على اسمي الحقيقي، وقبل لقب "العصعوص" بخمس سنوات على الأقلّ. أبي، رحمه الله، بقي وفياً لانطباعه الأوّل عن مشاهدته الأولى لي بوجه أصفر، واستمرّ ذلك حتّى بعد زواجي؛ مناداة أبي لي بصِفْرنّه، يومي وعادي. صِفْرنّه تعال،

صِفْرنّه روح، صِفرنّه ليش عملت كذا؟ حتّى شككتُ باسمي الحقيقي. مرَّة في سنتي الأولى بالمدرسة، سألتُ أبي: ماذا أكتب اسمي على الدفتر، صالح أم صِفرنّه؟.. المهمّ مناداة أبي لي بصِفْرنّه لا تزعجني؛ فهي للتدليل والتّحبّب، وأيضاً للزّجر، وأستطيع تمييزها من طريقة لفظه لها.

قبل المدرسة أيضاً، وكحلم لا أميّز كيف بدأ وكيف انتهى! لكنْ، قيل لي لإجراء عملية فَتَقٍ بالخصية بعد كيٍّ أسفل البطن لم ينفع بشيء! أين ومتى تمّ هذا الكيَ؟ لا أعرف .. كلّ ما أتذكّره أيدٍ قابضة تضغط على يَدَيّ وقَدَمَيّ بقُوّة، وتمنعي من الحركة، ورباطٌ حول عينَي، كي لا أرى. كنتُ أقرب للإغماء عندما خَزَّ ألم مُبرِّح أسفل بطني، ورائحة عُطْبة مختلطة برائحة شواء، وبصقةٌ في فمي، تلاها قول (إنها لتخفيف ألم الكيّ، ولها مفعول شافٍ من سموم العقارب). وقتها حسبتُ نفسي في الجحيم، وبصاق أنكر ونكير في فمي. كان ذاك قبل سنة من لحظة الحلم في حلب. أمّا داخل الحلم، أو ما يشبهه، فأضواء، أضواءٌ كثيرة وملوّنة وزمامير سيَّارات تتخاطفني من اليمين واليسار، وضجيج، وصراخ، لا أميّز فيه إلا صراخي أنا، ياباااااااا ياباااااا، وقتها حضرَتْني وصيّة جَدِّي قبل السفر وهو يقول لأبي (دير بالك على ابنك من يهود حلب، تراهم يخطفون الأولاد، يصفّون دماءهم، ويشربونها)، لحظتها امتدّت يدٌ انتشلتْني من وسط الخوف، لتعيد الأمان لي، ووضعتْني أمام طعام على شكل دود ضخم، لا زلتُ أبحث عن مذاقه رغم استدلالي فيما بعد على أنه: الكباب. ولأحظى من خارج الحلم، في مستشفى، لا أذكر له اسم، بندبةٍ أسفل البطن على شكل خطّ طويل، له نتوءات على الجانبَيْن، يقطع دائرة الكيّ التي حُزْتُ عليها قبل سنة، ممتدّاً من أسفلها إلى أعلاها بقليل. يمازحني أبي حول هذه الندبة (معليش إذا أضعناكَ؛ فهذا الوَسْم يدلّنا عليكَ). ذاكرتي الباهتة تلك عن حلب منحتْني التّخلّص من

أحد ألقابي العَرَضية "كَروان" - الكاف تُلفظ كالجيم غير المعطّشة - أي صاحب الخِصية المتضخّمة.

حظّي هذا، الذي جعلني حاملاً لألقابٍ كثيرة، وفَتْق وُلِدَ معي، وكان سبباً بإبعادي من لعب "الغُبّيَه" الأثيرة - لا يرضى أحد أن أكون ضمن فريقه - لم يكن سيّئاً كما يتبادر للذهن. حظّي رسمتْهُ لي عرّافة غجريّة، ارتعبتُ من جعيري الذي بدأ عندما تمّ وخز رأس أنفي بالإبر لرسم وُشم لي. قالت أُمّي: لمّا علا صراخكَ، وانقطع تنفّسكَ، وتحوّل لون وجهكَ إلى الأزرق، خطفتُكَ من حضنها، وقلتُ لها: (هذا يكفي .. سأعطيكِ مقدار الطحين والبرغل الذي وعدتُكِ به، لكنْ، لن تُكملي وشمه، اجعليه يتنفّس .. فقط اجعليه يتنفّس) وقالت: رشّتْ على وجهك ماءً، نثرتْ على مهدكَ أزراراً وأحجاراً ملوّنة، بسملت وحوقلت؛ فعاد تنفّسكَ. وأخرجتْ من كيس في عبّها خرزة زرقاء، شبكتها على حبل المهد، وقالت (سيكون ابنكِ هذا محظوظاً، وهنيّاً في عيشته، وسيكون وجه السعد لمَنْ هم حوله!). تجلّى سعدي وحظّي – حسب العرّافة – قبل إتمامي السنة الخامسة، خريف عام ١٩٦٢، عام افتتاح المدرسة في قريتنا، متجنّباً الذهاب مع أخَوَيَّ اللّذَيْن يكبراني إلى مدرسة "كفيفة" التي تبعد مسافة تقارب الخمسة كيلومترات من قريتنا، مسافة يتمّ قطعها سيراً على الأقدام على طريق ترابي، يتحوّل شتاءً إلى طين، تغوص فيه الأقدام، ويقطعه فيضان الأودية عدّة مرّات في السنة. لم أذهب إلى مدرسة "كفيفة"، ولم أهجسْ خوفاً من الغَرَق في فيضان، كان يتكرّر في تلك السنوات عدّة مرّات في العام، وكنتُ من أوّل دفعة، تَدرس بمدرسة القرية.

كانت مدرستنا في أيّامها الأولى - ما يقرب الشهر - في الأوضة "مَضافَة القرية". خلال ذلك الشهر، كان العمل جارياً على إكمال بناء المدرسة

من قِبَل الأهالي، وهو شرط الحكومة، عندما قِيل لأكبر الأعمام الذي ذهب إلى المدينة مراراً وتكراراً: مبروك، ستكون لكم مدرسة. مبروك، وافقت الحكومة على فتح مدرسة في قريتكم، وسيدرس أولادكم وأولاد القُرى القريبة من قريتكم فيها. نريد كشفاً بعدد الأولاد الذين سيلتحقون بالمدرسة، سنُؤمّن لكم المُعلّم، ونمدّكم بالكُتُب والمقاعد وكل ما يلزم، وعليكم التّعهّد بتوفير مكان مناسب، أو بناء مدرسة.

أمّا عن بناء المدرسة في بدء العام الدراسي ١٩٦٢ -١٩٦٣، فلا أذكر منه شيئاً إلا طلب أُمّي بدَفْن سُرّةَ أختي المولودة حديثاً بين لُبِنها، لاعتقادٍ أن مَنْ تُدفن سُرّته في مكان ما، سيلتصق به، كما كان ملتصقاً برحم أمّه. والتصقت أختي بالمدرسة بتأثير من تميمة دفن سُرّتها، مُكْملةَ تعليمها كأوّل بنت في المنطقة. أُمَنِّنُها في ذلك، وأقول لها: لو لم أدفنْ سُرّتك في المدرسة، لما أكملتِ تعليمكِ! كما يُمَنِّنُها أخي الأكبر في إعادتها للمدرسة بعد انقطاع سنة بعد إنهائها للمرحلة الابتدائية، وإقناع والدَيّ بالسماح لابنتهم الوحيدة بالانتقال إلى مركز المحافظة مع إخوتها الذكور، لإكمال تعليمها، وقتها شنّ الأقارب حملة على العائلة الشيوعية قليلة الشرف!.

أمّا بقية تفاصيل بناء المدرسة، المكوّن من مستطيل واسع، تعلوه قبّتان مسنودتان إلى الجدران من ثلاث جهات، وتَتَقَنْطران على جسر من الأعمدة الخشبية في الجهة الرابعة، جسرٌ يقع في منتصف المستطيل، ويحوّله من الداخل إلى مربَّعَيْن متجاورَيْن، فلا أتذكّر منه شيئاً. كلّ ما أعرفه نِتاج مباهاة الأهل المتكرّرة في بناء المدرسة، وتحميلنا جَميلَ ما قاموا به. قالوا، عندما جاءت الموافقة، اتّفقنا أن يُسهم كلّ بيت بعامل، ومَنْ لا يوجد لديه عامل قادرٌ على العمل، يدفع خمسين ليرة سورية. وقالوا: لم يكن بناء المدرسة مُيسّراً، فقد هطلت أمطار خريفيّة مبكّرة،

أذابت اللُّبْنَ المُعَدّ للبناء قبل أن يجفّ تماماً؛ فأُعيد قَطْع اللُّبْن - أي تصنيعه - مرّة أخرى مترافقاً بأدعية، كي تُوقِف السماء كرمها المبكّر، وترسل أيّاماً مشمسة. وقالوا: اختلفنا على مكان موقع المدرسة، جنوب القرية، وفي واجهتها، وأمام أنظارنا، أم شمالها، حيث المكان الأكثر اتّساعاً، رغم خطر الفيضانات لقربها من الوادي. وقالوا: اخترنا الشمال، كي لا يزاحم بناء المدرسة مكان البيادر، وتُطْمَر بالتِّبْنِ في أثناء تَذْرية القمح والشعير. وقالوا: عندما تمّ اكتمال بناء المدرسة، راهن قسم منّا على أنها لن تصمد حتّى نهاية الشتوية، لأنها بُنِيَت على عجل، وبظروف غير مواتية، والعجلة من الشيطان، لعنة الله عليه.

اليوم الأوّل.. المُعلّم الأوّل

تدبّ الحياة في القرية قبل بزوغ الشمس، عندما يتنفّس الصبح، وتثغو الأغنام، ويرتفع دخان المواقد مع روائح الخبز من الدُّور. في تلك اللحظة تماماً، يصل إلى الأسماع صوتٌ ممطوط لزمور البوسطة، عابراً مدىً من مسافة كيلومترات، منبّهاً مَنْ يريد السفر إلى المدينة للاستعداد. كلّ صباح تُولَد الحياة بهذا الشكل، روتين اعتياديّ، لا جديد فيه، ولا تغيير. أمّا جديد القرية؛ فيأتي عصراً بعودة البوسطة من المدينة، والجديد المحمول بالبوسطة، قد يكون عسكرياً قادماً بإجازة، أو خبراً، يسرده مَنْ ذهب إلى المدينة صباحاً؛ وعاد عصراً ليروي، ماذا شاهد وماذا سمع. وإن لم يكن هناك من جديد يُروى، فعليه قول شيء عن أسعار المواشي والحبوب، أو عن موت قريب غادر إلى المدينة منذ سنين، وقد يكون عن لقاء لمعرفة قديمة، التقاه صدفة في ذلك اليوم. أمّا الجديد المثير الذي وصل عصراً في أحد أيّام الخريف، هو خروج البوسطة عن طريقها اليومي، وتوقّفها أمام

الأوضة على غير المألوف، مُفْرغة من على سقفها ومن داخلها مدرسة كاملة، مقاعدَ ولوحاً وطاولة وكرسيَّيْن من الخيزران وخزانة خشبية وكُتُباً ومُعلّماً.

اليوم التالي من وصول أثاث المدرسة والمُعلّم، ارتصفت المقاعد أمام الأوضة، واستند اللوح على جدارها الجنوبي. في هذا الفضاء، كان يومي الأوّل بالمدرسة، يوم عادي رغم الحماس الذي ملك كياني في الليلة الفائتة؛ فمن مكاني، أشاهد أُمّي تنشل الماء من البئر، أرى جَدِّي يخطو أمام بيته، أرى خليطاً من الأعمام والعمّات فوق قبَب إحدى الدُّور لتطيينها، أسمع خليط أصوات الحياة المعتاد كخلفية لاستغراقي في تحسّس المقعد الخشبي ذي المَلمَس الناعم، والدُّرج الخاص بي، الذي أغراني بِدَسِّ رأسي داخله، هامساً لجاري في المقعد من جوفه المضخّم للصوت (يوال عويس تسمعني) لحظة ذلك، خرج مُعلّمنا من باب الأوضة، يحمل سجلاً أزرق، كبير الحجم، تكلّم عن أسمائنا حسب دفتر العائلة، وقال شيئاً عن إخراج القيد، لم أفهم ماذا يقصد به، وقال شيئاً عن الشَّعْر والأظافير، وقال عن دفاتر وأقلام، كلّ ذاك أسمعه، ولا أعيه! فقد شغلني عن ذلك كلّه طَوالَ المُعلّم، طَوالَ تمنّيتُهُ لنفسي، كي أصل لصفِّ أعشاش العصافير المرصوف تحت سقف الأوضة، بمُجرّد مدّ يدي. مُعلّمنا هذا اسمه "علي خلوف" من مدينة السَّلَمْيَة. نحيل طويل القامة، ولهذه الصفات، أُطلق عليه لقب "عمود القَرَجْ" - أي الغجر - على عادة إطلاق الألقاب. صورته مَمْحيّة من ذهني تماماً، لا أتذكّر له مَلمَحاً، ولا نبرة صوت، أتذكّر فقط شيئاً واحداً عنه، لا يزال ينبض بالحياة، أرى حتّى الآن شبح رجل طويل، كشبحٍ يمور بالسراب، يخطو بخطواته السريعة بمحاذاة الجدار الجنوبي للأوضة ذهاباً وإياباً، وأرى كتاباً بيده، يقرأ فيه. هذا الجانب الذي بقي في ذاكرتي عنه، أثار وقتها موجة من التساؤل

من قِبَل بعض أهل القرية، كيف لمُعلّم لا يزال يدرس ويقرأ كأنه طالب؟ وعندما شرح لهم أنه لا يزال طالباً في الجامعة، ويَدْرُس الفلسفة، اغتاظ أحد الأعمام، وذهب إلى المدينة شاكياً، لأنها أخلّت بشرط التعاقد مع أهل القرية في تأمين مُعلّم – وليس طالباً – مع الكُتُب والمقاعد، مقابل بناء مدرسة على عاتق الأهالي. لكن العمّ عاد راضياً! ممّا أثار غضب جَدِّي عليه، لقبوله بمُعلّم يَدْرُس الفلسفة، ويُدرِّس الأولاد (أعوذ بالله، فلسفة، هذا اللي كان ناقصنا!) ولم يحببْه أو يرتحْ له أبداً. بينما نحن لم ننشغل كثيراً بآراء أهلنا حوله، فهو أستاذ، سواء كان لا يزال طالباً أم لا، هو أستاذ، لأنه يفرك شحمة الأذن، إذا أخطأنا بنتيجة ٥+٤، أو لم نكتب الوظيفة، وهو أستاذ، لأنه الوحيد الذي يقرع الجرس النحاسيّ متى أراد، وهو أستاذ، لأنه خنقنا عن اللعب بعد المدرسة، وهو أستاذ، لأن لديه عصا من الرّمّان، يضربنا بها في المدرسة وخارجها. وهو أستاذ لأنه علّمنا كتابة وقراءة ماما .. ماما، وتعني أُمّي، وبابا .. بابا ودادا .. دادا وتعني أبوي وأخوي، وهو الذي جعلنا نقرأ: (يا سوزان، قولي عاش بابا) وسوزان هذه طلع اسم لبنت! وهو الذي جعلنا نكتب كعقاب مِلء ثلاث صفحات (قطفتْ بنت أخي أزهاري) في وقت لا يوجد لأيٍّ منّا بنت أخ، والأزهار تنمو في كلّ مكان بالقرية وحولها، تأكلها الأغنام، ونَحِشّها، لنعمل منها مَغليّ البابونج، وحبراً أحمر أو أصفر، ولا يوجد مشكلة بقطفها.

المهمّ في غضبة جَدِّي من مُعلّمنا، ربّما شعوراً منه أنّ منافساً حلّ عليه في عُقْر داره، كما يقال: فجَدِّي مُفتي الديرة كلّها، يأتي إليه مَنْ يريد عقد قران ليلة الدُّخلة، أو مَنْ لفظ كلمة طلاق، وندم عليها. يُسْتَفتى في ميراث، اختلف عليه الوَرَثَة، وبوجوده يُعقَد صلح بين أطراف، سال بينها دم. حافظ جيِّد للقرآن والأحاديث النبوية وتفاسيرها، ومتحدّث واسع الاطّلاع عن روايات تاريخية، يُمْتِع بها مستمعيه، لا يناقشه أو يجادله أحد؛ فالكل

يستمع ويُسلِّم بقوله. هو القارئ الوحيد "للقرِّيطَة" - أي الجريدة - التي كانت تصل لأمير البدو في بلدة "عين عيسى" كلّ شهرَيْن أو ثلاثة أشهر، أيّام الاحتلال الفرنسي لسوريا، يتكلّم العربية الفصحى حتّى في غضبه. وهو أيضاً الجدُّ الصلب القاسي، الذي يحقّ له معاقبة الكبير والصغير، القريب والبعيد، دون تذمُّر أو اعتراض من أحد. له عدوّان، الأوّل: ضجيج الأولاد وصراخهم، وخاصّة عندما يقتربون من صومعته "غرفته الخاصّة" التي لا يجرؤ أحد على دخولها حتّى لتنظيفها. يقول للعمّات اللواتي يرغبنَ بتنظيف وترتيب غرفته، لا تفعلنَ ذلك، هذا يثير غضب "دكدوك" وهو اسم الجنّيّ الذي يقوم بخدمته، ويحرس غرفته في أثناء غيابه عنها. ربّما جَدِّي اخترع تلك القصَّة، كي لا يدخل أحد ويعبث بكُتُبه وأوراقه، لكن قصَّة "دكدوك" أصبحت حقيقة لنا؛ فدكدوك هو المسؤول عن وقوع وَلَد، صرخ بصوت عالٍ في أثناء اللعب، ممّا أزعج الجَدّ، وأرسل دكدوك ليُعاقبه، ويجعل امرأة تتعثّر وهي تحمل سطل الماء على رأسها، لأنها لم تُبسمل عندما نشلت من البئر، ويقلع سكّة حمار، أزعج نهيقه الجدّ في أثناء الصلاة، وهو الذي يعبث مع الجَدّ، ويخفي نظّارته، وهذه تحدث كثيراً، أمّا المُهمّة الأساسية المنوطة بدكدوك، فهي حراسة الجَدّ من ضجيجنا في أثناء القيلولة. مرَّة تلصّصْنا على جَدِّي وهو في قيلولته، علّنا نرى دكدوك؛ فما كان من هذا اللعين إلا إيقاظ الجَدّ - حسب تأكيد "طامان العجين" وهو عمّي "مصطفى" وقريني بالعمر والمدرسة حتّى نهاية المرحلة الإعدادية - هربنا إلى البرّيّة، فلحق بنا على فَرَسه، واصطادنا واحداً واحداً، وبين حَصَاتَيْن صغيرتَيْن، يُخبّئ الكثير منها في جيبه، دَعَكَ شحمة الأذن لكل منّا حتّى نفر منها الدم، وأعلنّا التوبة. عدوّه الثاني: النساء عندما يراهنّ مجتمعات يقول: (لعنكنّ الله، والله لم تجتمعنَ إلا لنميمة). لديه الكثير من الأولاد، ستّة عشر ابناً وابنة من ثلاث زوجات. لهذا كلّه شعر جَدِّي أن

المُعلّم منافس سيُزعزع مكانته، إحساس جَدِّي المبكّر بخطر نزع هيمنته ونفوذه ظهر مبكّراً من خلال انصراف جيل الأعمام والأقارب الذين يحقّ لهم ارتياد الأوضة إلى أحاديث المُعلّم ولعب الورق معه أكثر من أحاديث وقصص جَدِّي. أمّا نحن الجيل الثالث، جيل المدرسة، فأصبح لنا مصدران للخوف الدائم من المُعلّم ومن الجَدّ، فإن سلمْنا من عقاب الجَدّ، نزل علينا عقاب المُعلّم - عدا عقاب الأهل الخاصّ بكل واحد منّا - كلاهما يُعاقَب بأيّ وقت ودون اعتراض، لهم صلاحية مطلقة بالعقاب، حتّى الألم الشّاط الذي تُسبّبه حَصَاتا جَدِّي بفَرْك شحمة الأذن، حقّقه مُعلّمنا بسرعة وجدارة، لكنْ، بقرص شحمة الأذن بين ظَفرَيْن ناميَيْن.

أيضاً في سنتي الأولى تلك، اعتبرت وصايا أُمّي وأبي ألّا أركض كثيراً، كي لا يعود الفَتْق، رخصة لي، كي أعفيَ نفسي من كلّ عبء، يخصّ المدرسة، وخاصّة بعدما ولّى وهج الأيّام الأولى للحدث الجديد في حياتنا وحياة قريتنا بوجود المدرسة. وأحياناً أعفي نفسي من الدوام، وخاصّةً عندما تكون هناك وظيفة، لم أكتبها. أتسلّل إلى البيت مستغلاًّ مشاغل أُمّي في جلب الماء أو حلب الأغنام، وأختبئ، وعندما تجدني أُمّي وتسألني لماذا أنتَ هنا، أشير إلى أسفل بطني، مكان العملية الجراحية (هذا يُوجِعني). تتعاطف معي أحياناً، وتتركني ألوب في البيت كيفما اتّفق، وخاصّة عندما يكون أبي بعيداً عن القرية لعمل ما، وغالباً تسحبني من يدي، وتعيدني إلى المدرسة مع سلسلة من النصائح طيلة المسافة. أمّا عندما يجدني أبي، فهو يوم نحس بامتياز. يسأل: "يوال صِفْرِنّه، لماذا لستَ بالمدرسة؟"، وقبل أيّ إجابة، يلحق الكفّ بسؤاله، وجرّ من الأذن حتّى داخل الصّفّ، ويقول للأستاذ: (هذا حصيني "ثعلب" حيّال وماكر وكذّاب، لا تُصدِّقه بالتّحجّج بالمرض والوجع). أيضاً الفتق أتاح لي المجال في الخروج المبكّر من أيّ سباق أو شجار، ألتمس فيه خسارة ؛ فهو حُجّة ممتازة لتغطية

الفشل في أيّ منافسة، أعرف نتيجتها ليست لصالحي، استخدمتُهُ بكثرة للابتزاز وجلب التعاطف، حتّى استنفدتُ الفرص كلّها، بجعله ذريعة لي في المدرسة واللعب، ونتيجة ذلك، كان جلاء مُدرّسيّ يضعني في الترتيب قبل الأخير في نهاية العام الدراسي الأوّل. هذا الجلاء شكّل عاراً لي، يحتفظ به والدي في كيس قماشي مع الجلاءات كلّها التي حصلْنا عليها أنا وإخوتي طيلة سنوات دراستنا. حاولتُ تمزيقه عدّة مرّات، ونجحتُ مرَّة، لكنْ، أُعيدتْ لَمْلَمَتُهُ ولصقه، ليبقى سلاح مجاكرة من قِبَل إخوتي - ربّما الآن تمّ إعدامه مع بقايا ذكرياتنا وصورنا على يد داعش بعد استيلائها على منزل العائلة عام ٢٠١٤ -.

اليوم الأخير في رعاية حارسة الرّمّان:

انتهى اليوم الأخير في المدرسة، بعد احتفال صغير، بقي في ذاكرتي كطيف، لا أتبيّن تفاصيله كلّها، عماد ذلك مسرحية، أعدّها وأخرجها ومثّلَ فيها مُعلّمنا وبعض أهل القرية وبعض الطلاب، كان دوري في المسرحية: خروف صغير، يرعى العشب طيلة فترة عرضها. هذه المسرحية ألهبت خيالي لسنوات؛ أتخيّل نفسي أقوم بدور الراعي الكذّاب، ويكون الذئب ذئباً حقيقياً، كالذئبِ الذي سرق نعجتنا وقتلها في ليلةٍ مثلجة في الشتوية الفائتة، في مسرحيّتي المُتخيّلة أقضي على الذئب بضربة واحدة، دون الاستنجاد بأهل القرية. قال أخي الذي يكبرني عندما بُحْتُ أمامه إحدى المرَّات برغبتي (يا حمار، ما يصير إنتِ تقتل الذئب، بعدين ما تصير مسرحية، وفوق هذا إنت جبان، من وين لوين تستطيع قتل ذئب؟!). إذنْ، انتهى يومنا الأخير في المدرسة، انتهت السنة الأكثر إثارة في حياتنا وحياة قريتنا الصغيرة، وكقطيع فالت توجّهنا إلى أشجار التوت حسب ما قرّ قرارنا

قبل أيّام. في ذلك اليوم، مشينا على هوانا كمكافأة من أهلنا، وكتعبير عن تخلّصنا من رقابة الأستاذ وعصا الرّمّان. عند أشجار التوت قضينا يومنا الأوّل في العطلة الصيفية، وستكون أشجار التوت وظلالها مراحنا لأغلب أيّام الصيف وكل صيف، عندما لا نكون في مدرسة الشيخ لتعلّم القرآن أو نساعد الأهل في درس البيادر ورعي الأغنام. عند أشجار التوت، كبرنا سنة وراء سنة، عند أشجار التوت ونُضْجِ ثمارها نحسب انصراف سنة وبداية سنة جديدة من أعمارنا، عند أشجار التوت وبمراقبة الحبّابة "زهرة"، التي تحلّ ضيفاً ثقيلاً علينا لمراقبتنا وحراسة أشجار الرّمّان، تُعلّمنا السباحة، عُراة، في الحوض الإسمنتي الذي تتدفّق إليه ماء البئر الذي يسقي أشجار الرّمّان وحقل القطن، وعند أشجار التوت، اكتشفْنا التّلصّص على البنات عندما يتسلّقنَ الأشجار بدون سراويل في أثناء غفوة حبّابة زهرة على سجّادتها آمنين من نَخْزِ عصاتها. أشجار التوت، كانت كعبتنا الصيفية التي نحجّ إليها، ونطوف حولها أيّام العطلة الصيفية الطويلة كلّها. أمّا حارسة الرّمّان، حبّابة "زهرة"، أسميناها سرّاً "البطّة" نتيجة مشيها البطيء المتمايل، فهي صديقتنا ومنبع "الخرافات" كلّها التي امتلأت بها ذاكرتنا، نتحلّق حولها تحت شجرة التوت الكبيرة، ونحلف لها، إذا حكت لنا خرافة، فلن نسرق ثمار الرّمّان، تخضع لإلحاحنا، وتبدأ بخرافة من خرافاتها بعد تحذيرنا أن مَنْ يحكي أو يستمع للخرافة في النهار، ستطول أذناه، وتصبح كأذنيَ حمار. نقبل التحذير وخطر أذني حمار لكل منّا مقابل سماع حكاية، وتبدأ بفاصل الإثارة (أخورفلكم خوريفة، وإذينتكم مقيريفة، إجا الواوي وأكلها، قلنا ليشي يا واوي؟ قال أنا واوي وفلان قلي - تذكر اسم من الموجودين - قلنا ليش يا فلان؟ قال أنا فلان، وما حدا خبّرني) هذا الفاصل سيُعاد عدّة مرّات على عدد المستمعين، ورغم الاحتجاج على ذلك، والاستعجال لبدء الخورافة ؛ فلا بدّ من ذِكْر أسماء الموجودين كلّهم ضمن هذه اللازمة، وهي عبارة

عن أخذ موافقة من الكل، وتحمّل مسؤولية ظهور أذنيَ الحمار. في المرَّات الأولى، كنّا نتلمّس آذاننا، ونسأل بعضنا:

انظرْ، هل أصبح لي أُذنا حمار؟

لا .. بس كأنها بدأت تكبر .. والله، بَلّشَت أذنك تكبر، وزاد صار عليها شَعْر!

ولا مرَّة طالت أُذنَا أيّ منّا، وأصبحت كأذنيَ حمار، وعندما نحاجج حبّابة زهرة، لمّا تتمنّع من رواية خرافة جديدة لنا، أن ولا واحد منّا صارت له أُذنا حمار لسماعنا الخرافة السابقة، تفسّر ذلك بقولها: (عندما تنامون، تطول آذانكم، ولكنْ، لكل واحد منكم جِنٌّ أُنسي يحميه من خرافات النهار، فَمَنْ منكم سرق رمّاناً أو نسيَ قراءة المعوّذات، سيتركه يصحو بأذنيَ حمار). السّرّ الذي كشفتْهُ لنا حبّابة زهرة بقراءة المعوّذات جعلتنا نواظب على سرقة الرّمّان نهاراً، ونحمي أنفسنا بقراءة المعوّذات من أذنيَ الحمار ليلاً.

سنة الكوارث.

لم أكن أعتقد في السنة الثالثة أو الرابعة من المدرسة أن الموت قريب جدّاً، ولم أقف على حالة موت أو أخاف منه إلا يوم وفاة جَدّي عمّ والدي، كان يوماً شتوياً بارداً، تهبّ فيه ريح شرقية، تحمل دَثيثَ ثلجٍ، يلسع الوجوه كالإبر. قيل (لننهي ختمة قرآن على روح المرحوم قبل الدفن). وقتها، من أين جاءني اعتقاد أنه إذا أنهينا خَتْمَ القرآن قبل الدفن، سيعود جَدِّي للحياة من جديد! ولم يخطر ببالي أن موعد الدفن يمكن تأجيله حتّى انتهاء الختمة، وانبعاث الجَدّ للحياة. لم أستدلّ منفرداً على جزء عمّ – خاصّتي – كي أشارك في الختمة. ومن أجل ذلك، لِبْتُ المسافة بين بيتنا والبيت

الكبير، كي أُخرج أُمّي من حلقة الندب، فلم أفلح، وكذلك من الاستحالة اللجوء إلى أبي، وعندما اعتلى جَمْعُ المشيّعين التّلّ، أُغمي عليّ بذنبِ عدم المشاركة في الختمة والبرد الذي أصابني. في غيبوبتي، حلمتُ أنني ميّت، جاء مَلَكَان قطعا أطرافي، وأدفآها على نار، ثمّ أعاداها لي؛ فعدتُ إلى الحياة!. في الأيّام التالية وأنا أقصّ للمُتحلّقين حولي من الطلاب أنني عدتُ للحياة، لأن مَلكَيْن أدفآا يَدَيّ وقَدَمَيّ، وأن جَدِّي سيعود للحياة أيضاً، لم يصدّقني أحد. سخروا منّي، ووصفوني بالكذّاب، ولم أستطع نفي تهمة الكذب وأنا الوحيد الذي عرف الموت والعودة للحياة. حنقي على الطلاب وعلى المُعلّم الذي استنجدتُ به، ليؤكّد احتمال عودة الناس للحياة، إذا تدخّلت الملائكة؛ فلم يُنجدني بشيء، وأكّد أنه قد أُغمي عليّ نتيجة الخوف والبرد، لا أكثر ولا أقلّ. انتظرتُ معجزة، تُعيد جَدِّي للحياة أيّاماً وأيّاماً، ولم يعد. تلك الحادثة زرعت بذرة (الشّكّ؟؟!!) في نفسي تجاه المعجزات، التي انتهيتُ منها نهائياً في مراحل قادمة، وتحت سماوات جديدة، ورغم ذلك، لازلتُ أحياناً أنتظر معجزة ما، وأعرف أنها لن تأتي!

بعد أيّام من وفاة جَدِّي، انهارت مدرستنا، غزارة الأمطار انتصرت على قباب الطين التي بُنيت على عجل. هذا الانهيار عزّز مخاوفنا من الطبيعة، خوف نُجلّه إن أمحلت السماء أو أفاضت، خوف يدفع أهالينا، لوضع تمائم في جدران المنازل، كي لا تنهار، وفي أعناق الأغنام والماعز، كي لا تُصاب بالعين. نردّد وراءهم أدعية خاصّة لإبعاد خطر الصواعق، وأدعية أخرى للاستسقاء ودرء خطر الفيضان، وأدعية لزرع السكينة والطمأنينة في نفوسنا، ورغم ذلك، وبمُجرّد سقوط أول لُبْنَة فاتحة طاقة في وسط القبّة، وانْخِفاسٍ في شكلها، ممّا يُنبئ بانهيار كامل سفحها الغربي، نسينا الأدعية والتمائم كلّها، واندفعنا من الصّفّ مذعورين، سبقنا في الخروج مُعلّمنا،

ركض بقُوّته كلّها، لا يلوي على شيء مبتعداً إلى أقصى مكان، قال بعدما أمِنَ على حياته، وعلى سلامتنا: (رأيتُ أبنية ودوراً بأشكال مختلفة، لكن مثل هذا الشيء لم أره في حياتي!). وحلف يميناً أنه لن يدخل بيتاً له قبّة أو يبيت تحت قبّة، ومن شدّة حنقه وخوفه رفض المشاركة في إخراج المقاعد وأثاث المدرسة، بقي بعيداً تحت صبيب المطر، ولم يُثنه البرد بالاحتماء بمكان دافئ. أستاذنا هذا "عبد الحكيم حسن" ابن دمشق، لمسنا فيه من أول يوم عدم استئناسه الجلوس في الصّفّ، فكلّما دخل يُقلّب نظره في قلب القبّة، ويرى تقدّم كلّ طبقة من اللبن عن الطبقة التي تقع تحتها، حتّى تنعقد بلبنة واحدة، ويسأل:

- يا أولاد، هل أنتم متأكّدون أنها لن تقع؟.

- لن تقع، يا أستاذ.

- معقول تنامون تحت هذه القباب، ولا تخافون من سقوطها!

- لن تسقط، يا أستاذ.

- لماذا لا تبنون بيوتاً مربّعة الشكل، بسطح مسقوف بالخشب مثل الأوضة؟

- لا نعرف، أستاذ.

انهيار المدرسة فرض علينا عطلة، امتدّت لأيّام، جرى خلالها إفراغ غرفتَيْن ضيِّقَتَيْن بقبَّتَيْن قليلَتَي الارتفاع، كانتا تُستخدَمان كمستودع للحبوب ملحق ببيت جَدّي، كمدرسة بديلة، وإقناع مُعلّمنا بالدوام فيهما، بعد أن اشترط إلغاء الدوام في الأيّام الماطرة التي هي بالأصل أيّام، يقلّ فيها حضور طلاب القُرى المجاورة. هذه الحادثة أنهت أيضاً الشراكة بين

الأهالي والحكومة، عندما حمّل كلّ طرف مسؤولية المدرسة انهيار للطرف الآخر. فلم يقم الأهالي بالصيانة السنوية "تَطْيين" المدرسة بحُجّة أنها ليست بيوتهم! رافضين تقديم خدمات مجّانية للحكومة التي لديها من الأموال أكثر منهم. قالوا: اكتفيْنا ببنائها وصيانتها لثلاث سنوات متتاليات، أمّا الحكومة، فقالت على لسان الأستاذ: البناء ليس حكوميّاً، ولم تَبْنِهِ هي، وغير مُدرَج في سجلّاتها ووثائقها وممتلكاتها، فيكف تقوم بصيانة مبنى لا تملكه؟. استأنسنا بمَطْرح مدرستنا البديلة، أكثر من المدرسة المنهارة، الفرصة بين درسَيْن نقضيها بين أهلنا. تصل إلى أسماعنا في الصّفّ من الغرفة المجاورة المُعَدّة كمخبز، أصوات العمّات وهنّ يحذّرنَ بعضهنّ بعدم رفع الصوت، كي لا يشغلنَ أسماعنا عمّا يقوله الأستاذ. نسمع احتكاك الشيش في أثناء تقليب الخبز على الصّاج، وتقليب الحطب في الموقد مصطدماً بأحجاره، تصلنا روائح الخبز مع غيمة الدخان. العقاب الذي نناله من قِبَل الأستاذ، أصبح في حدوده الدنيا، استمتعنا بالمباوعة من الطُّوق المنخفضة لإخوتنا الصغار، وهم يمدّون رؤوسهم، وتشعلنا الفوضى والهرج عندما يقف كلب بالباب، جذبه صوت يألفه، أو اندفاع دجاجة تُقرقر صيصانها التي تنتشر بلحظة واحدة تحت مقاعدنا، وفي مدرستنا البديلة، اختبرنا الحَرَجَ أمام أهالينا وتعليقاتهم، باكتشافهم أن الواحد منّا يقرأ بطريقة خاطئة في أثناء مرور أحدهم، بالقرب من باب الصّفّ.

قريتنا الصغيرة التي يزيد عدد الأُسر التي تعيش فيها على عشرين أسرة بقليل، ينتمي أغلب سكّانها إلى عائلة واحدة، تملك أرضها الزراعية - وهي التي أنتمي إليها - مع بعض الأقارب الذين لم تشغلهم حيازة أرض خاصّة بهم، لقلّة الحيلة، أو لخوف من البحث عن سماء جديدة بعيداً عن الأقارب. تنقسم القرية إلى قسمَيْن، شرقي وهو الأكبر والأكثر في عدد البيوت، وغربي. يقع بين القسمَيْن منخفض يمتلئ بمياه الأمطار منذ نهاية

فصل الخريف إلى نهاية فصل الربيع، نُسمّيه "الكوله"- الكاف تُلفَظ جيم معطّشة - وهي الرام حسب تسمية مناطق سوريّة أخرى. والكولة هذه أصبحت مرآتنا السِّحْرِيّة التي نرى فيها كلّ ما يدبّ في القرية من بشر وحيوانات، نراقب فيها كيف يتصاعد الدخان من البيوت معكوساً إلى عمق الماء، نتتبّع على سطحها حركة الغيوم المارّة. صباحاً نمشي على سطح مائها المتجمّد الذي خلّفته ليلة شديدة البرودة، لفحتها ريح الشمال، متّحدين بعضنا مَنْ يستطيع الوصول إلى وسطها مع خطر تكسّر الجليد والغوص في مائها حتّى الركب. عند الظهيرة، نتسابق بتزحيط أحجار مفلطحة على وجه الماء، والفائز مَنْ يقدر برمية واحدة تكوين أكبر عدد من الدوائر المتتابعة عندما تتقافز حجرته على سطح الماء إلى أبعد مدى.

في الأيّام المشمسة الدافئة نتمدّد فوق العشب المحيط "بالكولة" نكتب وظائفنا، ونراقب بعضنا، وفي لحظات المَلَل نتبادل رسائل سرّيّة عبر "مرآتنا السِّحْرِيّة" إيذاناً بالتّسلّل خلف التّلّ، لنلعب بعيداً عن أعين أهالينا وعين الأستاذ. أمّا أكثر المرّات التي اكتمل فيها السِّحْر داخل مرآتنا الساحرة، كان بعد سنة الحرب، يوم انعكست فيها صورنا بشكل مقلوب، في لوحة تضمّ موجودات القرية كلّها من بيوت وبشر وحيوانات وطيور مهاجرة، حطّت لتنال قسطاً من الراحة، وترتوي من ماء "الكولة" وسماء تمرق فيها غيوم مسرعة، حتّى الضفادع تقافزت من وسط الماء، عندما علا صراخنا بهتاف، يمجّد حزب البعث، ويشتم أبا رقيبة، عشرون ولداً وخمس أو ستّ بنات. صرخنا فور خروجنا من غرفة الصّفّ (عيبه عيبه ... يا بو رقيبة .. الله ينتفلك هالشيبة/ يا بو رقيبة، يا غدّار .. حزب البعث ما يندار) و(بعثيّة ونزلت ع الشارع .. يا ويلو اللي بدو يمانع) و(احنا أولاد البعثيّة، واحدنا يسوى ميّة) هتاف تدرّبنا عليه طيلة ساعة بغرفة الصيف على يد أستاذنا الحموي، وبتهديد عصاه؛ فَمَنْ يخطئ بهتاف أو يخلط المقاطع

ببعضها ينال العقاب. هتاف رافقه نباح الكلاب وقرقرة ديوك الحبش المتفاجِئة بالصراخ، ليتشكّل إيقاع موسيقي صاخب، لِلَوحة بانورامية موّارة بالحركة داخل "الكولة". يصرخ أستاذنا: مرَّة أخرى. نُلبّي طلبه بصوت أعلى، وكل منّا يريد إسماع صوته لأهله "يا بو رقيبة، يا غدّار .. حزب البعث ما يندار .." أزيد من نصف ساعة و"عويس" على كتف "البغل" يهتف لنا، ونردّد وراءه، يقفز ضفدع من وسط الماء مسبّباً دوائر متلاحقة من أمواج صغيرة، تمحو صورنا، وتُحوّلها خيالات غير واضحة.

الآن وبعد مرور عقود على تلك المظاهرة في قرية صغيرة نائية، أتساءل: هل هي مَنْ رسم مصير بعض مَنْ شارك فيها؟ وخاصّة "عويس" الذي أصبح أمين فرقة حزبية طيلة عقد التسعينيّات من القرن الماضي، وعضو مؤتمر قطري، وهل هي التي حدّدت "للبغل" طريقاً، كي يصبح سائق بلدوزر، ويموت تحته عندما هوى في قناة، كان ينبش أوساخها؟ أم أن الأمر مُجرّد صدفة؟! وهل الصدفة هي مَنْ دفعت أبي، ليسخر من المظاهرة، عندما علّق عليها (الله يستركم من أبو رقيبة، أكيد سمع بمظاهرتكم، وراح يزعل منكم، الله يستر ما يبعث درك، ويأخذكم على تونس). لم أرتح للسخرية المبطّنة في كلام أبي، والغمز من قناة المُعلّم أنه قام بأمر تافه، في وقت كنتُ أرى بكل كلمة يقولها مُعلّمنا، أو فعل يفعله، شيئاً صحيحاً، وغير قابل للنقاش أو التشكيك، اقتنعتُ بكامل كياني عقلاً وقلباً بقوله وهو يشير إلى الخريطة المعلّقة على الجدار (هذه تونس، وهذا البلد العربي يرأسه رئيس عميل للصهيونية والرجعية، سنخرج بمظاهرة ضدّه، ونهتف لحزب البعث) فكيف لأبي أن يسخر منه؟! سخرية أبي أنهت الفرحة التي كنتُ سأقصّها على والدَيَّ بهتافنا للبعثية، وكنتُ معتقداً أنهم سيفرحون لذلك، لأنّ أحد أخوتي يحمل لقب البعثي منذ ولادته، لقب أطلقه عليه أحد الأعمام في أثناء إجازة له من الخدمة العسكرية. لقب

أخي هذا واسمه "أحمد" التصق به طيلة عمره حتّى كاد أن يلغي اسمه الحقيقي، لولا السجلّات الرسمية التي تُذكّرنا به. ومن طرائف حيازته على هذا اللقب أن صديقاً له، وبعد رفقة سنوات عديدة، هاجمه معاتباً، وقال له: (يا بني آدم، كيف تخدعني هذا الزمن كلّه، ولك اسم مثل بقية البشر، وطيلة سنوات صداقتنا، لا أعرفك إلا باسم البعثي .. صحيح أنك بعثيّ؟!).

حكاية الحرب

هل صدف ذلك في اليوم نفسه؟ أم ذاكرتي السَّيِّئة جعلت من الكارثَتَيْن شيئاً واحداً؟ أم أنهما وقعتا بزمنيَيْن متقاربَيْن ورغبتي الواعية ربطت مصيبة شخصية بكارثة عامّة؟ حقيقةً لا أعرف!. في ذلك اليوم، كنتُ أسير وراء أُمّي متعثّراً. بقايا نوم يملأ جفوني، وقلبي مملوء بحنق شديد على أخي الذي تمارض، كي لا يسرح بالأغنام. غضبي وحنقي الشديدان خرجا من فمي، بسباب، طال الأرض والسماء، سباب ندمتُ عليه بعد ساعات، واعتقدتُ جازماً أن ما تلفّظتُ به صباحاً هو سبب ما حصل لي في ذلك اليوم، كعقاب إلهي.

قالت أُمّي وهي تلهج بأدعية الصباح:

- شو صار؟ أخوك مريض، وإذا سرحتْ عنه ما راح تخرب الدنيا!

لكن الدنيا خربت من لحظة التفاتتي إلى مكان نوم أخي غربي الدار، مستظلاً بظلالها حتّى الضحى. رأيتُهُ يتباوع عليّ من تحت اللحاف، وخُيّل إليّ أنه يضحك ساخراً منّي، انفتلتُ راجعاً، وهرستُ رأسه بقضيب الخيزران الذي أحمله، غضب مكّنني لأخبطه مرَّة ثانية وثالثة وهو يتكوّم تحت اللحاف، ولولا صمته ونهنهته تحت اللحاف لما تركتُهُ، خفتُ أني

قضيتُ عليه، وإلا ما تركتُهُ، ممّا جعلني في كلّ خطوة أخطوها وراء أغنامي أصيخ السمع، لما يجري ورائي، يتهيّأ لي أحياناً أني أسمع عويلاً ونواحاً، أقف مصغياً السمع. لا شيء، لكن النواح والعويل يعود كلّما خطوت. هكذا بدأ يومي، كُره وغضب على أخي، وخوف عليه من أذى ألحقتُهُ به، بهذا الشعور، وصلتُ بأغنامي إلى سهل واسعٍ، يمتدّ على كتف وادٍ ممتلئ ببقايا حَصيد القمح والشعير، تتخلّله واحاتٌ من الشوك والعاقول. الوادي يمتدّ متعرّجاً نحو الغرب حتّى نهاية الأفق، حيث تغيب الشمس. سَرَحَتْ أغنامي مختلطة بأغنام صاحبي الذي سبقني، ولم يكن بمزاج أفضل منّي، قلتُ له:

والله، أيّام المدرسة أحسن، يا ريتها اليوم.

وأيّام المدرسة نقول يا ريت الصيفية تأتي، ونسرح بالأغنام؟

اقترحتُ عليه أن نهرب وندع الأغنام. لم يعِرِ اقتراحي أيّ اهتمام، وبالعموم، لم أكن جادّاً، قلتُ ذلك، لأخفّف على نفسي الضِّيق الذي يملأ كياني! خلفنا تصاعدت من القرية أعمدة الدخان، تحمل إلينا روائح الخبز، وأصواتاً مبهمة لدبيب الحياة، ممّا زاد من شعورنا بالغبن في برّيّتنا التي بدأت تُشوَى بأشعّة شمس القيظ، ومع بلوغ الشمس رَأدَ ضُحى، تزايد تقصُّف قَصْلات القمح والشعير بين أرجل الأغنام والماعز، بعدما فَرّ ندى الليل بفعل أشعّة الشمس، ممّا أثار حفيظة أرنب برّيّ نافراً من مخبئه تحت شجرة شوك. صحنا بصوت واحد، أرنب، والله، أرنب! فرّ باتّجاه الوادي، ولحقنا به. اقتربْنا منه، وزاغ عنّا .. يبتعد قليلاً، ويقف على قائمَتَيْه الخلفيّتَيْنْ مستكشفاً المسافة التي تفصله عنّا، وكي يرتاح قليلاً. نلاحقه بالحجارة وبكل ما تطاله أيدينا. اندسّ تحت أَجَمَة قندريس، فحطّمنا مخبأه بالعصيّ، ولمّا شعر باقتراب الخطر، عاود الهروب. يقول

صاحبي: (تريدها الحرب، يا أرنب؟ والله إلّا نشويك). الحرب التي ذكرها صاحبي للأرنب دفعت إلى ذاكرتي درس القراءة: (ب .. ـبـ .. ـب أرنب .. ب .. ـب .. حرب .. ب .. الأرانب تستعدّ للحرب). يراوغنا بالصعود إلى كتف الوادي، والنزول إلى عمقه بسرعة خاطفة، نتبعه بهمّة ونلاعبه، أنشدنا له نشيداً عن الأرانب: (نحن الأرانب .. نغدو ونركض في كلّ جانب .. سُهْ .. سُسُسْه .. سُهْ .. سُسُسْه). يفرّ خائفاً، ونتبعه بحماس الكلاب السلوقية. حاولنا إحاطته من جانبَيْن، فأدرك بحسّه ما نحن مُقدمون عليه، يقفز ويراوغ، نقترب منه، ويبتعد عنّا. غضب الصباح ولّى بعيداً، وكذلك الاشتهاء لرغيف خبز وصحن خاثر لم يعد على بالنا، كلّ ما نريده مسك هذا الأرنب، والأرنب يلاعبنا بغريزة يائس، يستشعر عاقبة الوقوع بأيدي مطارديه، يدخل في أجَمَة شوك كبيرة، ونستهلك قُوّتنا كلّها في تحطيمها، وبالاقتراب من مَكمَنه، يفرّ من بين أيدينا بعد أن أخذ قسطاً من الراحة، قافزاً قفزات سريعة وواسعة مثيراً وراءه الغبار، كأنه يقول لنا، انتهى وقت اللعب. كم لبثنا في مطاردتنا لم ندرِ، لكنْ، عندما ارتقيْنا كتف الوادي يأساً من اصطياده، كنّا قد ابتعدنا كثيراً عن أغنامنا التي لم تكن في مَرعاها، بل متجمّعة أسفل التّلّ، وحولها عدد كبير من الناس، وثمةَ ثلاثة من الدَّرك على أحصنتهم متّجهين إلى القرية. لم ندرك بداية ماذا حصل، لكن ما كنّا نوصى على تجنّبه من قِبَل أهالينا أو الغفلة عنه، ونخافه كثيراً، قد حصل؛ فقد اجتاحت الأغنام حقل القطن، ودمّرت قسماً منه - القطن في بداية عهد زراعته بالمنطقة مَحمي بقوانين صارمة، تصل لمصادرة الأغنام والسجن والغرامة -.

خوفنا أبعدَنا عن القرية، ولم نفكّر بالعودة إليها رغم تلويح الأيدي لنا من بعيد بعدما ظَهرنا على كتف الوادي، وكلّما اتّجه إلينا مرسال وهو يُومئ بيده؛ نبتعد أكثر. يوم قائظ شعرْنا فيه أن الشمس اقتربت كثيراً من رؤوسنا.

الخوف والعطش حوّلنا لضبَّيْن خرجا من مخبئهما إلى لهيب الرمل، تقافزنا فوق التراب المشويّ بأشعّة الشمس حافييْن، نبلع ريقاً بالكاد يرطّب سقف الحلق، وكامل تفكيرنا مشلول بحجم الكارثة التي حلّت باجتياح الأغنام لحقل القطن، حتّى كدنا نُمسك بخناق بعضنا، وكلٌّ منّا يلوم الآخر على ما نحن فيه. لكن صهد الشمس والتعب والعطش هدّنا كسرب قطا في فيءِ نبتة قندريس .. ربمّا غفونا ونحن ندسّ رؤوسنا بظلّ أجساد بعضنا أو أُغمي علينا؟!. وقتها لم أُدرك ماذا أصابني، لكنْ، كَمَنْ بُصِق في فمه، بدأتُ أستعيد وعيي وهمهمة من حولي، لم أتبيّنها. تناومتُ، كي أُحدّد ما يجري، ومن خلال غباشة في عينَيّ، أبصرتُ في الطرف البعيد أُمّي، تفرك يَدَيْها ببعضهما، وترفعهما إلى السماء، وصوت أبي وهو يقول: لا تخافوا، أصابته صرعة (ضربة) شمس، بلّش يصحو، سقاه "الشيخ إبراهيم" من طاسة الرعبة، وها هو يستعيد وعيه.

عصر ذلك اليوم، وبعدما استعدتُ وعيي تماماً، كان شيء قد تغيّر في القرية، لم أفهمه؟ ولم يسألني أحد أو يعاقبني على ضرب أخي صباحاً، ولا على اجتياح الأغنام لحقل القطن. جمعٌ من الأعمام والأقارب يحفرون، استقامات (خنادق) شمال القرية - بناء على طلب من مخفر الدَّرَك - قيل، خوفاً من هجوم الحلف الأطلسي المتواجد في تركيا على القرية! حفظتُ هذا الكلام دون أن أفهمه. يراقبهم العمّ ياسين - رحمه الله - مجنّداً برشّاش "سنوبال" منفوش الريش كديك حبش، وفي الأوضة، يلتمّ مَنْ هم أكبر سنّاً حول راديو. أمّا نحن الصبية، فلا أحد يطيقنا في ذلك اليوم، نذهب إلى حافري الاستقامات فنُطرد، ونعود لنتلصّص على مَنْ هم في الأوضة، يصل إلى أسماعنا صوت أُغنيّة ضعيف ينبعث من الراديو، ويزداد كلّما اقتربنا (عبّي لي الجعبة خرطوش، وناولني هالبارودة، ما يكلّفني خمس قروش اللي يقرب صوب حدودي) لحظة اعتلاء رؤوسنا

حافّة النافذة، اعتدل "الشيخ إبراهيم" في جلسته، وأمسك بيد جَدِّي الذي يجلس على يساره مصافحاً، متابعاً حديثاً، كان يقوله: يا حجّ عبد الله، ولا يهون الحاضرين، وحقّ عشرة رسول الله هذه، وحقّ عشرة رسول الله هذه، وحقّ عشرة رسول الله هذه، لو لم تحضر الوجوه الصالحة، وأوّلهم سيدي الباز الأشهب عبد القادر الجيلاني الذي امتدّ سربهم من بغداد حتّى القنيطرة، لكان الدم فيها وفي الشام للركب، وكان اليهود الآن هنا، هنا.. والله والله، كلّ تَفْلَة "بصقة" تسقط طائرة من طائرات اليهود، واللهِ واللهِ و.. ضاع قَسَمُهُ الثالث عندما طغى على صوته صوت الراديو الذي جمّد الجميع (بلاغ عسكري رَقْم (..)، صباح هذا اليوم قام سرب من طائرات الميراج للعدوّ الصهيوني بالاعتداء على ... وتمّ إسقاط ١٠ طائرات، بواسطة وسائط الدفاع الجوّي .. هذا وقد ...) لتُلعلع بعد البيان أُغنيّة (ميراج طيّارك هرب .. مهزوم من نسر العرب/ والميغ طارت واعتلت بالجو تتحدّى القَدَر). بعد ذلك، بقينا أيّاماً وأيّاماً نتسلّل إلى الأوضة، ونجلس تحت أحد شبابيكها، لنستمع إلى أُغنيّة "عبّي لي الجعبة خرطوش، وناولني هالبارودة .. ما يكلفني خمس قروش، اللي يقرب صوب حدودي" لا أزال أحفظ تلك الأُغنيّة بنغمتها وكلماتها، ولا تزال تشعل وجداني، رغم الكذب في مضمونها!

مَلمَس ناعم ..

في السنة الدراسية التالية للحرب التي لم نقرأ لها سيرة في المناهج الدراسية، على عكس الحرب التي تلتْها بعد ستّ سنوات! لم يقصّ علينا أحد من الجنود الذين حضروها بطولات قاموا بها رغم حدوثها القريب قبل عدّة أشهر فقط، مثلما قصّ علينا أستاذ العلوم الذي خدم كضابط

مجنّد في الحرب التالية، كيف كان يُطلق على طائرات العدو صواريخ "سام ٦" متساقطة كعصافير الدوريّ، وكادت تصبح نَسياً مَنسيّاً، لولا وجود الاستقامات "الخنادق" التي حُفِرت شمال القرية، لردّ عدوان الحلف الأطلسي المتمركز في تركيا، وأصبحت مكاناً مفضّلاً لقضاء الحاجة بدلاً عن الخرائب أو السَّيْر لمسافة أطول نحو الوادي. هذه الخاصّيّة التي حازت عليها الخنادق كانت حجّة لغزوها من قِبَل طالبَيْن التحقا بالمدرسة بأعمار تزيد عن السّنّ القانونية بسَنَتَيْن أو ثلاث، والاختباء فيها للتّلصّص على طالبات يقضينَ حاجاتهنّ. فِعلتهما هذه أثارت توتّراً ولغطاً، ممّا أوجب إنزال عقوبة بهما من قِبَل المُعلّم "محمّد فارس الحمود" ابن مدينة صلخد، ومنعهما من التّوجّه إلى ذلك المكان بشكل نهائي، وعمل جدار حماية للطالبات داخل غرفة الصّفّ. كنتُ شريكاً مع ثلاثة آخَرَيْن في تشكيل جدار حماية لهنّ؛ فأنا عدا ألقابي الكثيرة ونحافتي، لي صفة أضافها المُعلّمون جميعهم في جِلاءات المرحلة الابتدائية كلّها، داخل حقل السلوك والصفات الطارئة: (لكنه خجول). خجلي هذا جعلني شريكاً شبه دائم مع الطالبات في الجلوس على طرف أحد المقاعد المخصّصة لهنّ، بقصد منع الطّالبَيْن المذكورَيْن من دَحْش نفسَيْهما معهما في المقعد، بحجج مختلفة. هذه الشراكة في المقعد الواحد أوجدت لي أحاسيس جديدة، كما خلقت سبباً إضافياً للشجار والمماحكة، وأصبح التنابز بالألقاب يأخذ بُعداً جديداً معمّقاً: شعور الكره بيني وبين الطالبَيْن. بداية لم أرتضِ بالجلوس مع الطالبات، وعَدَدتُها إهانة. حرجي يزداد حرجاً عندما تبدأ وشوشتهنّ بطلب الإذن والخروج للخلاء "الحمّام" مع التنبيه الدائم بعدم رفع وتيرة الهمس، كي لا يسمع "العصعوص"، أي أنا. شعور مديد بالحرج والحصر، لم يكسره سوى المَلمَس الناعم الذي اكتشفتُهُ في يوم شتوي بارد عندما لَزّت إحدى شريكاتي في المقعد بكامل جنبها

ضاغطة على جنبي، وبعينَين ضاحكَتَين غرزتْهما في عينَيّ – ولأوّل مرَّة أكتشف أيضاً كيف العيون تضحك – قالت بهمس، لِزّ عليَّ حتّى نُدفّئ بعض .. أفق جديد انفتح بأحاسيسي، ورقّةٌ في القلب كادت تُوقِفه، حتّى المقعد المُنفِّر المُسبّب لكل البغضاء والحسد الذي أحاطني من قِبَل الطلاب أصبح أكثر ألفة، وأحنّ وأدفأ من حضن أُمّي. حسٌّ جميل أبقيتُهُ حبيس نفسي، رائحة الخضيرة التي علّقتْها في جديلتها ذات مرَّة لا تزال في أنفي. أتساءل أحياناً، كيف لرائحة تُخزّن في الذاكرة وتندفع إلى حاسّة الشمّ عندما يتمّ استدعاؤها! لم أبُحْ بسرّي لأحد حتّى في أثناء جلسات المباهاة ببطولات - مُتخيّلة أو حقيقية - بغمز فلانة أو قرصها. بقي مَلمَس أصابعها ليدي كتيّار كهربائي، يجعل روحي خفيفة، كنزٌ ثمين حفظتُهُ عن القيل والقال. كنز لم أنبشه من ذاكرتي إلا بعد ثماني سنوات عندما عدتُ للمدرسة كمُعلّم وكيل، مفسّراً لزميل العمل أثَرَ حفرٍ على أحد المقاعد الخشبية المتهالكة.

مدرسة جديدة ...

بعد أيّام من حادثة تلصّص الطالبَيْن، توقّفت سيَّارة جيب أمام المدرسة، قال مُعلّمنا: يا أولاد، جاء المفتّش. لا تخافوا عندما يسألكم، ولا أحد يجاوب على أيّ سؤال إلا برفع اليد .. أسرِعوا بجَمْع الورق الموجود تحت مقاعدكم .. اجلسوا معتدلين في مقاعدكم .. تكتَّفوا، ولا تضعوا أيدكم على الدرج .. الله يستر! لفظ نصائحه وتوجيهاته بسرعة، فاركاً يَدَيْه ببعضهما وبكلّ لحظة يلتفت إلى الباب. أدركنا أن مُعلّمنا خائف أكثر منّا، وتوقّعنا أن قدوم المفتّش بخصوص الطالبَيْن، لمّا توجّه إليهما بجملته الأخيرة قبيل دخول المفتّش غرفة الصّفّ، قائلاً: أنتما لا تخذلاني!

لحظة ولوج المفتّش باب الصّفّ، حانياً رأسه كي لا يصطدم بسقف الباب، صرخ مُعلّمنا بإيعاز عسكري، قيام .. جلوس. تلا ذلك صمت لثوانٍ، حسبناها دهراً، نَفّ خلالها المفتّش الهواء أمام أنفه بحركة مَنْ يريد إبعاد رائحة، لا يخطئها أنف مَنْ يدخل غرفة الصّفّ. وقال متبرّماً بسبب رائحة الصّفّ أو لمزاج مَنْ لديه سطوة يُدركها ويعرف تأثيرها. أُبشِّركم، التربية قرّرت أن تبني لكم مدرسة جديدة من الإسمنت، قوية وواسعة، أحسن من جُحْر الفئران هذا! لا تُؤثّر فيها مياه الأمطار ولا تنهار – ربّما لم يقل جملته الأخيرة، وإنما خيالنا أوجد التفضيل بين مدرستنا القديمة التي هدّمتها الأمطار والمدرسة الإسمنتية الموعودة - وقال ستأتي لجنة، كي تحدّد مكان المدرسة الجديدة، وقال سأتكلّم بهذا الأمر مع أهاليكم، وخرج باتّجاه الأوضة دون أن يسألنا عن شيء من دروسنا أو يوجّه أيّ ملاحظة لمُعلّمنا.

حضور المفتّشين التربويّين يُشكِّل كابوساً لنا ولمُعلّمينا بشكل دائم. نلحظه على وجوه مُعلّمينا وتوتّرهم وحركاتهم الخرقاء. ونلمسه داخل أنفسنا برعب حقيقي، يستمرّ طيلة الدقائق القليلة التي يتجوّلون فيها داخل الصّفّ، يتجلّى ذلك من خلال حالات التّبوّل اللاإرادي التي تصيب بعضنا مع كلّ إطلالة من إطلالات المُوجِّهين، حتّى الثناء وطلب التصفيق لطالب، أجاب إجابة أرضت المفتّش، لا تُذْهِب خوفنا. نُصفِّق بطريقة آلية، لا روح فيها، ولا فرح، على عكس حالات التصفيق المترافقة بالمرح والفوضى عندما نكون وحدنا مع مُعلّمنا .. مرّة مفتّش سمين، بوجه أحمر، وخَدَّيْن منفوخَيْن، يتدلّى تحت حنكه لُغْدٌ ضخم، أخرج "أحمد الأيّوب" وهو طالب ذو مستوى جيِّد، طلب منه أن يكتب جملة، ويعربها، ففعل ذلك بمهارة، صفَّقْنا لزميلنا بناء على طلب المفتّش؛ فلم يُعجَب المفتّش بتصفيقنا، كرّر الطلب، وكرّرنا التصفيق مرّتَيْن .. ثلاثاً .. أربعاً حتّى سال الماء تحت قَدَمَي الطالب، فَتَل جسمه، وخرج من الصّفّ، ولم يعد نهائياً!

خوفنا هذا لم يقتصر على المفتّشين التربويّيْن، هم عزّزوا هذا الجانب في ذاكرتنا المليئة بالخوف من كلّ حضور حكوميّ؛ فحضور دَرَك المخفر السريع للقرية لتبليغ أحد أبناء القرية بموعد السوق للخدمة الإلزامية أو لإيصال رسالة أرسلت من أشهر، يخيفنا أكثر من حضورهم لتناول الغذاء المقرّر بشكل دوري كلّ شهر أو شهرَيْن، في هذه الحالة، تُوضَع لهم فوق السّجّاد العَجمي زاهي الألوان، الذي يغطّي كامل مساحة الأوضة، مفارش الصوف، وتُحاط أجسامهم المنفوخة بالوسائد كملوك يستعرضون رعيّتهم. حتّى أحصنتهم يُفرَز لها مَنْ يعتني بها، تُزال عن ظهورها السروج الجِلْدية بُنِّيَّة اللون، والمُعشَّقة بقماش مخملي بلون أصفر بديع، يُوضَع لها العَلَف المقتصر على الشعير بدون خلط بتبن أو غيره، تُسقَى من ماء البئر مباشرة، وتتلقّى من الدلال كأصحابها؛ فحصان الدَّركيّ دَرَكيّ! أمّا في أثناء مرور الدَّرَك السريع، فنكون نحن الصغار أوتاداً لخيل الدَّرَك، ريثما ينهون التبليغ واحتساء قهوتهم المُرَّة. مصيبتنا في تلك الدقائق القليلة، دقائق كأنها قطعة من الجحيم خوفاً من حوافر الأحصنة عندما تبدأ بخبط الأرض بتحدٍّ متّزن بقوائمها الأمامية استجابة لصهيل حصان آخر، أمّا الكارثة، فتحلّ عندما يتناهى إلى سمعها حَمْحَمَةُ فَرَس. تُشَنّف آذانها صوب صوت الحَمْحَمَة، ثمّ تبدأ بنخر الهواء من أنفها، ليرتفع النخير إلى صهيل ومساوطة الهواء بقوائمها الأمامية، وقتها يبدأ وجيب قلوبنا بالارتفاع، فإمّا الصمود وشدّ اللجام مع خطر خبطة بحافر، أو إفلات الرَّسَن، لتكون كارثة وعقاباً، كما حدث مرَّة، وفَلَتَ حصان منطلقاً بسرعة هائلة باتّجاه أفراس القرية التي هربت أمامه، لتعمّ فوضى وخوف من الدَّعس تحت حوافر خيل تَخُزُّ القرية جيئةً وذهاباً، بعدوٍ أَجَّجَتْهُ حالة الشبق التي لم تنتهِ إلا عندما سَفَدَ فَرَساً بعد ساعات من المطاردة.

خوفنا الثاني موسميّ ومرتبط بمأمور عَدِّ الأغنام، خوف زرعه أهلنا من

المأمور "الجابي" وخاصّة إذا اكتشف أن عَدَدَ الأغنام المسجّل – بالقوجان - أي تذكرة العَدِّ أقلّ من عددها الحقيقي، مُعتبراً الأغنام الزائدة "قَجَقْ" أي أغنام مهرَّبة، وعليه مصادرتها، وإذا تساهل، فَرَضَ ضريبة مضاعفة عن كلّ رأس زائد، ويبقى احتمال السجن وارداً – وإن لم يحدث ولا مرَّة - مع عدم إمكانيّة خرق سطوةِ المأمور أو قرار يتّخذه في تلك الأيّام برشوة أو واسطة. تقول وصايا أهلنا تجنّباً لمخالفة المأمور: اخفوا الأغنام عندما تظهر سيَّارة المأمور، أو اتركوها، واهربوا .. لا تتلهّوا باللعب، كي لا يُفاجئكم، وإذا فاجأكم، لا تذكروا اسم مالك الأغنام أيّاً يكن .. انكروا معرفتكم بتلك الأغنام، وقولوا هي أغنام "عَوَارْ"- أي شاردة - نرعاها حتّى يظهر أصحابها. وإذا أعيتكُم الحيل جميعها، وأراد عَدّ الأغنام، ادفعوها كي تمرّ أمامه مُجتمعة، والولد "الخايس" هو مَنْ يزبّط مأمور العدّ عدَّ أغنامه بشكل صحيح. كنّا جميعاً في ذلك الوقت أولاداً خايسين وخائفين.

وبالعودة إلى خوفنا من المفتّش، فقد ارتبط خوفنا في تلك المرَّة بعقاب عيانيّ طالنا نحن، وخصّنا نحن بذاتنا ولذاتنا، وارتبط بنا نحن، لكوننا تلاميذ في مدرسة بقرية صغيرة نائية حلّ عليها مفتّش تربوي ذات يوم، يحمل بشرى بناء مدرسة جديدة، وبالصدفة وفي أثناء التَّمَسُّك به للغداء "تجراية دم" تكريماً لحضوره - وهي لازمة، لا بدّ منها لكل موظّف حكومي يصل للقرية- تُشْرَم شحمة أذن "الأدكش" – لقب أحد الطلاب – في أثناء مُباطَحة مع "جَريشه". خوف مُعلّمنا من وصول الأمر للمفتّش، قرّر منعَنا من فرصة الغذاء عقاباً على تهليلنا للشجار، وتَحسُّباً من ثرثرة، نقولها لأهلنا، الذين لا يتوانون من استكمال شجار بدأه الصغار. قال: أنتم ممنوعون من الغداء، وعدّ سبعة أسماء، من ضمنها جريشه والأدكش بعد معالجة أُذنه، وقال مَنْ يخرج منكم عندما أغادر، سيُرفع فَلَقَة. لم نغادر الصّفّ خوفاً من الفَلَقَة، واستمتاعاً بعقوبة جديدة لأول مرَّة تُفرض علينا،

اسْتَحبسنا أنفسنا فرصة "القدا" – الغداء - ابتزازاً لعواطف أهلنا التي لم تتأخّر بتهريب أدرمة الحلاوة، مفردها درم – سندويشة - عبر الطاقة المفتوحة بين غرفَتَي الصّف والفضاء الواقع أمام بيت جَدّي. فرصة "القدا" التي تمتدّ ساعَتَيْن هي من أفضل ذكرياتنا في المرحلة الابتدائية؛ فهي تقسم دوام أيّام السبت والاثنَيْن والأربعاء إلى قسمَيْن، قبل الظهر، ويُخصّص للدروس، وبعد الظهر، لحفظ الأناشيد والرسم والرياضة والخطّ. في تينك الساعَتَيْن، كانت تُعقَد التحالفات، وتُفَضّ سريعاً. وفيهما كانت تجري مسابقات التبوّل وقوفاً، ومَنْ هو صاحب أبعد قَذْف للبول. وكذلك تَعقد جلسات المباهاة والادّعاء ببطولات خارقة، تتمّ ليلاً بالدخول إلى خرائب، نخشى المرور بجانبها نهاراً! في تينك الساعَتَيْن، اكتشفنا النَّمَّ على بعض، والتّسلّل إلى أشجار الرّمّان لقطع عصيّ مستقيمة نامية عن جذورها، نهديها لمُعلّمينا، نتلقّى لقاء ذلك كلمة "برافو، أحسنت، يا شاطر" وبعد ساعة أو يوم، نُضرَب بها. في تينك الساعَتَيْن، تجري مباريات التّحدّي في لعب "الطاش" و"الكِلَلْ" - الدَّحَلْ- ومَنْ له اليد العليا فيهما.

أيضاً في تينك الساعَتَيْن، ارتبطْنا نحن الجيل الأوّل لمدرسة قريتنا بشخص، اسمه "أبو عبد الله التونسي"، هكذا اسمه، ولا أحد يعرف له اسماً آخر. قِيل هو من بقايا عساكر "سفربرلك"، وقِيل من بقايا الجيش الفرنساوي - وهو المرجّح - استقرّ في قريتنا منذ زمن بعيد. حسب رواية أهلنا عنه: يقولون لابَ المنطقة كلّها، ولم يتقبّله أحد بسبب خطيفته التركية "فوزية". هذا الرجل أصبحتُ شريكاً له باسمه، وهو حَيّ يُرزَق، كلقب جديد لي، رغم أن لا شبه بيننا سوى النحافة، نحافةً أوحت لأخي الأكبر بأنني أبو عبد الله التونسي، الخالق الناطق. وعندما يستفيض بإغاظتي، فأنا أيضاً رَجُلَ- أي زوج - "فوزية" التي تكبر أُمّي عمراً. ارتبطْنا بأبي عبد الله بصداقة ومنفعة. هو يقصّ لنا قصصاً عن عالم، لم نعرف

عنه أيّ شيء، لم نَدرِ أنه موجود أصلاً. عالمنا يبدأ من نهر البليخ شرقاً، حيث تُشرق الشمس، وينتهي عن تلال حجرية قليلة الارتفاع، حيث تغيب الشمس غرباً. لقاء هذه القصص، نجمع له أعقاب السجاير التي يرميها رُوّاد الأوضة، نلمُّ له كلّ ما يُلْقَى من أعقاب السجائر حتّى وإن كانت ممصوصة بشكل كامل، نضعها مُكوَّمة أمامه. يبدأ بتنقيتها وفرط ما فيها من "تتِنْ" بأناةٍ وطولة بال على منديل قماش مربّع الشكل، مُحّت ألوانه. وعندما تصبح الكمّيّة ما يزيد أو ينقص قليلاً عن الكَمْشَةِ - ملء قبضةِ اليد - يُرطِّبها بغمر إصبع الشاهد بالماء، يَدِثُ منه رذاذاً ناعماً على الكومة، بنَترْ إصبعه بثلاث حركات سريعة ومتتالية، وبيده الأخرى، يُقلّب كومة التتن باستمرار حتّى تصل لرطوبة مناسبة.

في إحدى المرَّات بعد أن رطّب كومة التتن، وصَرَّها بقطعة القماش، دفع بها لأشعّة الشمس، وهذا يحدث عندما يشعر أن رطوبة التتن أكثر من اللازم. قال: (البارح شفت الأستاذ وهو يدرّبكم على المشي المدوزن، أستاذكم لا يعرف! .. بكرا أعلّمكم المشي المدوزن على أصولو، إذا وافق مُعلّمكم). وكان الغد، وكان تدريباً على المشي المدوزن خلال درس الرياضة. صاح تعالوا هنا، القصير من الأمام والطويل من الخلف (تَرَادُفْ .. أَسْبِلْ .. يمين .. يسار .. قِفْ .. امشِ .. هرش .. مرش .. بير ..) جال بنا في باحة المدرسة الجديدة، وباتّجاه الطريق الترابي، وعلى أطراف القرية (قِفْ .. يمين دُرْ .. يسار دُرْ .. وراء دُرْ .. أمام سِرْ .. هرش .. مرش .. بير ..)، جعلنا نقفز داخل "الجفَار"(*) ونخرج منها، ندور حولها .. ينبّهنا أن نحرّك القَدَمَ اليمنى مع اليد اليسرى إلى الأمام، ثمّ نبادلهما بالقَدَم اليسرى واليد اليمنى، أنت خطأ، أنت صحّ.

*) الجفار: مفردها جُفْرة: وهي حُفر دائرية الشكل، بعُمق مترَيْن أو يزيد، تُبَطَّن بالتِّبْن، وتُملأ بالحبوب، وتُغطّى بطبقة تبن أيضاً، تُردَم بتراب، يجعلها بمستوى الأرض المجاورة. يُعتقَد أنها استُخدمت من أيّام السفر برلك لإخفاء الحبوب.

مدرسة جديدة وسنة أخيرة

لم يكن الأستاذ "حسين غنّام" ابن مدينة بانياس مميّزاً عن سواه من مُعلّمينا الذين سبقوه، فهو مُعلّم وحيد أيضاً، ويحمل عصاه للضرب، ويحتكر قرع الجرس، وهو الوحيد الذي ينفخ بالصّفّارة في أثناء لعبة كرة القَدَم مُنهياً المباراة أو منبّهاً لخطأ يقع فيها، وذلك قبل وقت طويل من معرفتنا أن الخطأ في أثناء كرة القَدَم اسمه فاول أو تسلّل. ما ميّزه أنه أوّل مَن غيّر مكان إقامته، وتبعه بقية المُعلّمين اللاحقين، من الأوضة إلى داخل المدرسة الجديدة، وهو أوّل مَنْ أحضر عائلته - زوجةً وابنة رضيعة - زوجة حضرية، تدخل بيوت القرية بالتّنّورة الطويلة والبنطال، ولا تتدلّى جدائل شعرها من تحت الهباري.

مدرستنا الجديدة مكوّنة من ثلاث غرف إسمنتية، واسعة ومضاءة بشكل جيّد، بفعل النوافذ الزجاجية الممتدّة على طول جدارَيْن متقابلَيْن، يحميهما شبك حديدي. وتمتدّ أمامها شرفة واسعة على كامل امتداد الغرف الثلاثة، خُصّصت إحداها كَسَكَن لمُعلّمنا وأسرته، والثانية إدارة للمدرسة، أمّا الثالثة، فهي صفّ المدرسة الوحيد - ضمّ طلاب المدرسة كلّهم من الصّفّ الأوّل حتّى السادس - في مدرستنا الجديدة حُلّت مشكلة رفع العَلَم؛ فخلال السنوات السابقة، كانت تُغرس عصا، تحمل عَلَماً بصفيحة تنك بأعلى القُبّة، وأي هبوب للرياح يطيح بالعَلَم، ليُعاد رفعه عندما تهدأ الرياح. أمّا في مدرستنا الجديدة، فقد زُرعت سارية حديدية في السطح الإسمنتي، يرفرف عليها العَلَم حتّى يهترئ، ولا يسقط. كذلك وُضعت لوحة على سفح جدار الشرفة، لها شكل صاج مقعّر، وكُتب عليها بخطّ أبيض أنيقاً اسم المدرسة الطويل - جرن أسود تحتاني - مع اسم الدولة والوزارة والمحافظة. شعور بالزهو والفخر ينتابنا كلّما مرّت البوسطة

على الطريق الترابي أمام المدرسة، ولسان حالنا يخاطب ركّابها، انظروا اقرؤوا الاسم، إنه اسم قريتنا ومدرستنا، هل قرأتُم ذلك؟ انظروا للعَلَم وهو يرفرف بألوانه ونجومه! مُعلّمنا هذا في سنتنا الأخيرة هو مَن اخترع رسم العَلَم على البيض كواجب منزلي دائم، ومَنْ لم يُحضِر واجبه، يُمنَع من لعب الكرة في أثناء حصّة الرياضة، وأيضاً هو مَنْ علّمنا النحت على ألواح صابون الغار والصابون العطري "المطيّب" الذي كانت تدسّه أمّهاتنا بين طيّات فرش ووسائد النضيدة وصناديق الثياب، كي يُكسبها رائحة عطرية بديعة. وهو مَنْ حفَّظنا الأناشيد الوطنية لكل دول الوطن العربي، فقد أولاها أهمّيّة خاصّة، يراها قدس الأقداس، ويستوجب الضرب لكل مَنْ يُخطئ بها، خاصّة النشيد الوطني السوري والجزائري. يصرخ (هذا نشيد الوطن، يا حمار، فكيف تخطئ به؟ انسخه عشرين مرَّة، وهذا نشيد ثورة المليون شهيد، العمى بعيونك، انسخه عشرين مرَّة) حفظناهما صَمّاً قراءة وكتابة، وأنشدناهما بحماس، وذبْنا عشقاً بنغمة النشيد الجزائري البديعة التي يُتقنها مُعلّمنا؛ فعندما يردّد النشيد معنا مُمسكاً عصاه بطرف أصابع يده اليمنى كمايسترو حقيقي، يُغمض عينيه، ويبدأ بصوت هادئ وخفيض، ليرتفع رويداً رويداً مع تقدّم النشيد (قسماًااً بالنازلات الماحقات .. والدمااااء الزاكيات الطاهرات/ والبنوووود اللامعات الخافقات .. في الجباال الشامخات الشاهقات .. نحن ثرنا، فحياة أو ممات .. وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر ... فاشهدوا .. فاشهدوا .. فاشهدوا ... إلخ) متعتنا وأوج حماسنا يصل الذروة عندما نكرّر في نهاية كلّ مقطع، فاشهدوا .. فاشهدوا .. فاشهدوا.

كذلك حماس مُعلّمنا في السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية لم يقتصر على الأناشيد، بل تعدّاه إلى تخطيط ملعب لكرة القَدَم بأبعاد حقيقية، تدرّبنا فيه مع جيل الآباء والأعمام من أجل خوض أوّل مباريات لنا

بكرة القَدَم مع مدرسة "الطريبخ" التي هُزمنا فيها مرَّتَيْن متتاليَتَيْن، وابتدع "المُعلّم الطالب" واختار لذلك أخي ياسين وطالباً آخر، يتناوبان تدريس الصفوف الدنيا مُولياً اهتماماً أكثر بنا - طلاب السادس والخامس والرابع - وحول ذلك، أتذكّر أنّ أبي عندما دفع أخي ياسين الذي يصغرني مباشرة للمدرسة، وهو ابن أربع سنوات ونصف كمستمع، خوفاً عليه من طريقته في لفظ الأحرف الأسلية "السين والصاد والزاي" التي تخرج من طرف اللسان، ويحوّلها إلى حرف لثوي واحد "الذال" - ومنه استمدّ لقبه الوحيد - لم يكن في باله سوى تعلّم اللفظ الصحيح، وربّما تمنّى وبغير اقتناع أن يُتقن ابنه كيفيّة مسك القلم وكتابة بعض الأحرف والأرقام. لكن النتيجة كانت مُفاجِئة لأبي، ومُعلّم تلك السنة الذي أقنعه في نهاية العام، بضرورة انتقال ياسين للصّفّ الثاني، متفوّقاً على أقرانه الذين يكبرونه في العمر. وعندما وصل إلى الصّفّ الرابع كانت المدرسة مزدحمة بطلاب أصغر عمراً، ومُعلّمنا الوحيد حائر بإيلاء اهتمامه بأوّل دفعة للمدرسة، ارتقت إلى الصّفّ السادس؛ فما كان منه إلا أن ابتدع صيغة "المُعلّم الطالب" التي رفعت عنه عبئاً كبيراً. كانا يقرأان ويستمعان للطلاب، ويكتبان لهم بأعلى الصفحة خطّاً ينسخونه ملء الصفحة، يعلّمونهم العمليات الحسابية، ويستظهرون لهم الأناشيد والمحفوظات ودروس العلوم. كانا يتماحكان ويتنافسان على مَنْ يُوليه المُعلّم ثقة أكبر في تدريس الطلاب .. الآن بعد سنوات وسنوات، لا أعرف إذا كانت تلك المنافسة هي التي جعلتْهما على طَرَفَي نقيض، فأخرجت الطالب الآخر من المدرسة من الصّفّ السادس، لينتهي به المطاف، ليكون أحد قادة فصائل "داعش"، بينما ياسين يُكمل تعليم المرحلة الثانوية متفوّقاً، ويسجن ستّة عشر عاماً، ويعاود إكمال دراسته في كُلّيّة الطّبّ.

الآن المفارقة المثيرة للاهتمام عندما أنظر إلى تلك الفترة، أتعجّب

من اندفاع الأهالي في المشاركة ببناء المدرسة، وتحمّل عيشة المُعلّمين المتعاقبين وإيوائهم، والحرص على إكمال الأولاد تعليمهم، والمباهاة بهم. بينما الآن ومنذ منتصف تسعينيّات القرن الماضي رغم ازدياد عدد المدارس في مجموع القُرى التي كانت ترفد مدرسة قريتنا بالطلاب إلى خمس مدارس، وبناء مدرسة إعدادية وثانوية في القرية، ازداد، بالمقابل، التّسرّب من المدرسة، برضى الأهل والطلاب والعزوف عن التعليم.

السماءُ الثانية

كنتُ فرحاً بانتقالي للمدينة في بداية المرحلة الإعدادية، أخوايّ اللذان سبقاني بسنوات، ألهبا خيالي عن المدرسة الكبيرة (كثيرة الطلاب وكثيرة المُعلّمين) يقول لي أخي، ويقول: (تصوّر .. حتّى للموسيقى مُعلّم خاصّ بها، ولديه عود يعزف عليه في أثناء الحصّة!) .. ثانوية الرشيد هي مدرستي في المرحلتَيْن الإعدادية والثانوية، عدا صفّ البكالوريا، نُقلنا خلاله إلى ثانوية عمّار بن ياسر، في أثناء تجربة، تمّ خلالها تخصيص ثانوية عمّار بن ياسر للفرع الأدبي وثانوية الرشيد للفرع العلمي، وقتها قال زملائنا جماعة الفرع العلمي " خلصنا من الزبالة " - أي طلاب الفرع الأدبي - .. ثانوية الرشيد تشغل مساحةً واسعةً، البناء مكوّن من طابقَيْن على شكل حرف E، يمتدّ من الشرق إلى الغرب، ويتّجه نحو الشمال، معطياً ظهره للباب الرئيس. المسافة الواسعة بين الباب الرئيس والبناء تشغله الباحة الجنوبية، طرفها الشرقي الممتدّ بين المدخل والبناء مغطّى بحصى فراتي، وعليه وعند قرع الجرس تماماً، يبدأ تأنيب الطلاب الملتحقين توّاً من قِبَل مدير المدرسة، بصوته الحادّ (يلا، يا ملائكة) (تمختري يا بنت) - سيِّئي النِّيَّة يحلفون أنه لم يقلْ ولا مرَّة، يا ملائكة، بل شبيهتها باللفظ

"يا منايكه" وفوق ذلك الحصى أيضاً تتمّ الزّفّة المعهودة بإشراف مُدرِّب الفتوّة للطلاب المتأخّرين عن الاصطفاف الصباحي بطريقة مشي البطّة حتّى داخل الصفوف. لصق الباب الرئيس غرفة العمّ "أبو جاسم"بوّاب المدرسة وحارسها، وأحد معالمها، صديق الكل، ويضحك للكل بابتسامة جميلة، ويمازح الجميع. لكنْ، حذار أن تَلحّ عليه، كي تخرج بدون ورقة مختومة في أثناء الدوام، أو تتحايل عليه، عندها لا يتوانى عن ضرب الكفّ لطالب الإعدادي، وإغلاق نافذته غرفته الصغيرة، بصفقها بقُوّة، بوجه طالب الثانوي. مقابل غرفة العمّ (أبو جاسم) ولصق بناء المدرسة يقع مقصف المدرسة الذي تباع فيه لفّات "سندويشات" الفلافل والمقالي الطازجة، والعيران. أكبر مصروف للطالب في ذلك الوقت ربع ليرة سورية، خمسة عشر قرشاً لسندويشة ضخمة، وخمسة قروش لكأس العيران، وخمسة قروش لقطعة راحة الحلقوم بالفستق الحلبي. في الطرف الغربي من الباحة، وعلى امتداد المسافة الواقعة بين السور الجنوبي والبناء، تقع ملاعب كرة السّلّة واليد والطائرة، وهو مكان الاصطفاف الصباحي أيضاً. في وسط البناء حيث الجزء الذي يفصل قسم الإعدادي عن الثانوي يقع في الطابق السفلي بهو واسع، تصطفّ فيه أجهزة ألعاب الجمباز، ويعلوه في الطابق الثاني غرفة المُدرّسين وغرف الإدارة، ومقابل ذلك، يمتدّ لسان، يشغله المسرح، وفيه وبزاوية منه، حيث كواليس المسرح، غرفة الإذاعة المدرسية التي تبثّ طيلة فترة الصباح والفرص أغاني فيروز، ويتمّ الوصول إليها عبر شرفة ضيِّقة، تحيط بالمسرح .. في صالة المسرح، كانت تعرض مسرحيات، وتُقام معارض علمية ومعارض كُتُب، وفي نهاية كلّ فصل يتحوّل إلى قاعة امتحان.

شمال البناء، ساحة أخرى مغطّاة بحصى فراتي أيضاً، فيها يتمّ قضاء الفرصة بين درسَيْن، ومنها، وفيها، يتمّ التّنقّل والاختلاط بين قسم الإعدادي

والثانوي، يليها حديقة مسيّجة بنبات الغار المقصوص بشكل أنيق، وتنمو داخلها أشجار الكينا والصنوبر والسرو بكثافة، حيث تُشكِّل مكاناً مناسباً للمُتسلِّلين خارج المدرسة، بقفز السور الشرقي، ومكان آمن للمتدرّبين على التدخين. يلي الحديقة مضمار ملعب كرة القَدَم الذي يصل بدوره بين البابَيْن الشرقي والغربي للمدرسة، بابان لا يُفتحان إلا في أثناء المباريات، بين ناديَي المدينة الوحيدَيْن، واللَّذَيْن لم يرتقيا في يوم من الأيّام إلى أيّ تصنيف، وأيّام الاحتفال بالأعياد الوطنية. ضمن المضمار، وبينه وبين الجدار الغربي تتوزّع مناطق ألعاب القوى. الجري والوثب الطويل والقفز بالزانة ورمي القرص والقلّة الحديدية. أمّا ملعب كرة القَدَم بأبعاده الحقيقة مغطّى بعشب طبيعي، وذلك قُبيل اكتشاف مأثرة تغطية الملاعب بمادّة "التارتان" فخر الاتّحاد الرياضي، وأكبر إنجازاته، كما علّق مرّةً مُعلِّق رياضي شهير.

ابتداءً من نهاية سبعينيّات القرن الماضي، جرى تحطيم وتشويه الثانوية - هكذا اسمها المتداول، الثانوية، دون إلحاق الرشيد بها، وكل مَنْ في المدينة سيعرف أنها المقصودة - فالجدار الجنوبي للمدرسة تمّت إزاحته شمالاً، ليشغله طريق واسع مُبعِداً الثانوية عن قصر البذخ الاشتراكي في عهد المحافظ "محمّد سلمان". ويُشَقّ طريقٌ آخر من جهة الشمال، فاصلاً حديقة المدرسة عن ملعب كرة القَدَم، بشارعٍ ضيِّق، يصل مابين المجمع الحكومي وقصر العدل الذي جَثَمَ مع مدرسة ابتدائية بجواره فوق المساحة المخصّصة للألعاب القوى، يتحوّل ليلاً إلى مبولة بَرِحَه للمارّين، ويُبنى على أجزاء من السور الشرقي، مدرسة الرُّوَّاد، ومدرسة للفنون النسوية، ومصرف عقاري .. اليوم، وربمّا بسبب الحنين الفائض، لا أعتقد يستطيع كلّ من دَرَسَ أو درّس في الثانوية إلّا ويشعر بالنقمة على اليد التي عبثت بها، لا يريد أن يستبدل بالصورة التي حفظها ذهنه الصورة التي آلت إليها الثانوية.

في يومي الأوّل بثانوية الرشيد، تهتُ بزحمةِ ما يزيد عن ستّمائة طالب، بحثتُ عن أخي كثيراً، ولمّا وجدتُهُ، التصقتُ به، أذهب حيثما يذهب، أخشى مفارقته رغم تأفُّفه منّي، وعندما مَلَّ منّي، أوقفني حيث لمّةِ طلاب الصّفّ السابع. قال: هذا مكانكم، وسيأتي المُوجِّه أو أمين السّرّ، يقرأ أسماؤكم حسب الشُّعَب، وبعدها اذهبْ حيث يذهب الطلاب. نلتقي نهاية الدوام عند الباب الرئيس .. رغم أنّ ما قاله أخي كلام واضح وبسيط، لكنْ، انتابني قلق جروٍ صغير في بداية تدريبه، لا يستطيع الثبات في المكان، ولا يجرؤ على المغادرة، وشعرتُ أن الدنيا أطبقتْ عليَّ، وكدتُ أصرخ به، أريد العودة إلى البيت، إلى أُمّي .. انطباعي هذا وشعوري بالضِّيق من زحمةٍ، وحيدٌ فيها وغريب، أفقدَني بهجة انتقالي وحماسي إلى المدينة والمرحلة الإعدادية التي كنتُ أتلهّف لخوضها قبل دقائق. حالة الضِّيق هذه، والذكرى الباهته لضياعي في حلب قبل دخولي للمدرسة الابتدائية، رافقاني طيلة سنوات عمري القادمة في كلّ مكان جديد، أذهب إليه، أتطلّب زمناً، كي أتقلم معه، وأتعوّد عليه.

لم ينتهِ يومي الأوّل بخيبة الأمل والشعور بالضِّيق والتوهان فقط، تلاه صدمة أخرى أفقدتْني صوابي - كما يقال - وشعرتُ أن مؤامرة تُحاك ضدّي؛ فعندما قرأ أمين السّرّ اسمي بين أسماء الطلاب المُفرزين لِشُعَب اللغة الإنجليزية، اغرورقتْ عيناي بالدمع، وبصوت واهن ومرتجف قلتُ:

- عمّو، آني أريد فرنسي!

- مو على كيفك .. ولماذا تريد فرنسي؟

عمّو إخوتي فرنسي، وآني أُريد فرنسي .. تقدّم نحوي، وسأل:

- من وين أنت؟

• من هناك. من الجرن الأسود. قلتُ ذلك بريقٍ ناشفٍ، وأنا أشير بيدي نحو الشمال.

• وين هذه الجرن الأسود؟ .. وقبل أن أُجيب، ألحق سؤاله بصفعة قوية! .. هذه عمّو تقولها بقريتكم، عند أمّك و(أبوك)، هنا تقول أستاذ .. وبعدين " شاوي " بدّو فرنسي، وين صارت هذه؟

وقتها لم أشعر بشيءٍ، فقط شعورٌ بالبلاهةِ، وكأنّ ما جرى، جرى لشخصٍ آخر، وتفكيري انْشَلّ وتمحورَ حول ضياع الفرز للُّغة الفرنسية. بقيتْ تلك الصفعة كلّما تذكرتُها في سنواتي القادمة محلّ حنق شديد وشعور بالعار أكثر من لحظة تلقِّيها، وظَلَلْتُ أسأل نفسي، ولا أزال: لماذا لم أبكِ أو أصرخ أو أحتجّ على تلك الصفعة؟ تلك الصفعة جعلت منّي طرفاً وحيداً ضدّ كلّ مَنْ في المدرسة من طلاب ومُدرِّسين وإداريّيْن، وربّما ضدّ كلّ مَنْ في المدينة لاحترامهم وتقديرهم لأمين السّرّ "عدنان العجيلي" وهو فعلاً شخصية محترمة ومقدَّرة، لكنه صفعَني أنا، ولم يصفع أحداً آخر! وبقيتْ صفعته هذه أكثر أثراً من كلّ الإهانات التي مرَّت بحياتي المدرسية، من مُوجِّهينَ ومُدرِّبي فتوّة ومُدرِّسين، جميعها ينمحي لحظة تلقّيها أو بعد حين، أمّا تلك الصفعة، لا تزال حَيّة في ذاكرتي، رغم أنّ مَنْ وجّهها لي أصبح في ديار الحقّ منذ سنينٍ طويلة.

في اليوم التالي، بادرني طالب قائلاً: "ياشاوي" تبادلني بالفرز؟ أنا أذهب للإنجليزي وأنتَ للفرنسي. وافقتُ فرِحاً ؛ فتمّتْ مبادلتنا بسجلات أمين السّرّ، الذي بادرني مبادرة مصالحة عندما رأى إجابتي على أسئلته بتلعثم وهزّ الرأس فقط. قال: يلا، يا شاطر، ستدرس اللغة الفرنسية، كما تريد، أوعدْني أنّكَ ستفوز على الجميع. لم أسامحه ... المهمّ اختياري

للُّغة الفرنسية لم يكن اختياري أنا، ولا رغبتي أنا، أخَوايَ اللذان يكبراني كان خيارهما اللغة الفرنسية، لسببٍ أجهله! وأنا، وأخوتي وأولاد عمومتي اللاحقون انْحَزْنا لخيارهما - يعني انحياز عائلي! -.. ورغم ذلك، وخلال السنوات السّتّ القادمة لم أتعلّم من اللغةِ الفرنسية شيءٌ يُذكَر، والدرجات الخمس من أربعين درجة التي حصلتُ عليهما في نهاية المرحلة الثانوية لمادّة اللغة الفرنسية، كانت بالتحزير!

كذلك فرزي للُّغة الفرنسية وضعني مع سبعةِ أو ثمانية طلاب آخرين في المرحلة الثانوية - عاشر، حادي عشر - بشعبة مشتركة - بقية طلابها يدرسون اللغة الإنجليزية - لعدم وجود إمكانية فتح شعبة ثالثة خاصّة للُّغة الفرنسية، ممّا أتاح لنا خلال درس اللغة الأجنبية الخروج إلى غرفة صغيرة مخصّصة لتلقّي بعض الطلاب التعليم المسيحي في أثناء حصّة التربية الإسلامية، نتبادلها معهم، مع أستاذ عمل سابقاً كملحق ثقافي بالسفارة السورية في باريس، كان شغله الشاغل في أثناء الحصّة الحديث عن فردوسه المفقود في باريس، وعن مغامراته فيها، أو نستمع خلال الحصّة إلى زميلَيْن، يكتبان الشِّعْر، ويهجوان بعضهما، أسميناهما الفرزدق وجرير. جرير، انتهى به الحال إلى الموت المبكّر في أثناء خدمتهِ العسكرية في لبنان في بداية عقد الثمانينيّات من القرن الماضي، أمّا الفرزدق، قضى ثلاثة عشر سنة في سجن تدمر في فترة وفاة غريمة نفسها، ولمّا خرج عَزَفَ على أنْ يكون فرزدقاً، مادام جرير لم يعدْ له وجود بالحياة. أمّا صفّ الباكلوريا، فكان أستاذ اللغة الفرنسية روسي الجنسية، بالكاد يتكلّم العربية، ويمنعنا من التّكلّم بها، فكنّا كالخَرَس في أثناء حصّته، لا أحد منّا يستطيع التّكلّم بالفرنسية أكثر من بعض التمتمات، وعندما يخرج من طوره، ويحمرّ وجهه، ويزُّخَنا بكلام، لا نفقه منه شيئاً، ننبش له من قاموس المفردات الشاوية كلاماً، لا يفهمه أيضاً.

الشاوي ..

في يومي الأوّل، وفي أثناء عودتي من المدرسة، لم تُزعجني تسميتي بالشاوي! حسبتُها لقباً كألقابي الكثيرة التي تُطلق عليّ في القرية .. مع تكرارها، وما يلحق بها من سخريةٍ، أدركتُ مقصدها للحَطِّ من شأنِ مَنْ تُطلق عليه. وهي تطال كلّ قادمٍ من قريةٍ – أيِّ قرية – وتطالُ أيضاً كلّ مَنْ لديه وَشْمٌ أزرق على محاسنِ وجههِ أو على يَدَيْه، فإن وجد الأمرَيْن معاً؛ فأنتَ شاويّ قُحٌ، لا فكاك من ذلك، ولزاماً على أيٍّ كان أنْ يصطادَكَ ويستغفلَكَ ويسخرَ منكَ، فقط كي يُثبتَ لنفسه، أنكَ مُجرّد شاوٍ، يُمكن النيلَ منه، والضحكَ عليكَ. هذا التنافس والعدائية تَظْهر في المدارس، وفي المرحلةِ الإعدادية أكثر من الثانوية، وتكاد تختفي، ونادرة الوجود عند الناس خارج أسوار المدرسة، تَرَتّب على ذلك داخل المدرسة، اصطفاف "شاوي، ريفي، قروي/حضري، مَديني" وداخل الصفوف يَظهر أحيانا في عدم الرغبة بالجلوس بمقعد مشترك من قِبَل الطَّرَفَيْن، هذا الاصطفاف أكلَ من أرواحنا الكثير خلال سنوات المراهقة الأولى، سنوات كان شُغلنا الشاغل وهاجسنا اليومي خلالها محاولة إخفاء علامات وملامح الشوايا، أو إيجاد توصيفات، تطال أبناء المُدُن، كنّا نقول: (كلب السوق، لا يطرد حرامي) جملة يائسة، كمحاولة للنيل من أبناء المدينة، على أنهم جبناء، وأبناء الريف شجعان!

المهمّ في تلك التسمية، كنتُ ألوم أبي وأُمّي اللَّذَيْن أورثاني شاويّتهما، أكثر ممّا كنتُ ألوم فيه الآخرين؛ فلون بشرتي الحنطي لا تكاد تخفيه السُّمرة المكتسَبة بفعل الشمس التي نلوب تحتها من مطلعها إلى مغيبها، فنحن "أبناء شمس" كما كنتُ أُحاجج مرَّة .. كذلك لا وجود للدّقّ الأزرق على محاسن وجهي الذي لم تستطع إنجازه غجرية في يوم مضى من زمن بعيد.

حتّى أمين السّجلّ المَدَني في بلدة عين عيسى "أبو حنّا" لم يَستدِلّ على وشمي، وهو الذي يبادر كلّ شخص يدخل غرفة مكتبة الصغير المليء بالسجلات الممزّقة والمتراكمة بفوضى، يصعب على أيٍّ كان إيجاد أيّ سجلّ، يريده لو أمضى يوماً كاملاً. قائلاً: أنتَ من العائلة الفلانية، من قرية كذا، أعطني السّجلّ الثالث من الأعلى، من هناك! ولنرى ماذا تريد؟

قلتُ: هويّة، أريد بطاقة هويّة ..

ملأ لي بطاقة الهوية بخطّ يده، ولم يكتبْ لي عبارة "دقّ أزرق على محاسنِ وجههِ" في خانة العلامات الفارقة، ووضع بدلاًعنها كلمة واحدة "تامّ" رغم تدقيقه في وجهي، وقوله لي: لا يوجد لديكَ دقّ أزرق؟ أدرْ وجهكَ، هل هناك شامة أو ندبة؟ وكذلك لم أحارب النقطة الزرقاء بحجم رأس الإبرة التي تركتْها الغجرية على رأس أنفي قبل موتي المؤقّت وأنا طفل عندما حاولتْ وَشمي، كما فعله شباب عائلة أقاربنا الذين نستأجر غرفة بجوار منزلهم، عندما شنّوا حملة جماعية لإزالة - وَسْم الشوايا - ببلورات ملح الليمون، وحصلوا بدلاً عن الوشم الأزرق الناعم، على بقعة بُنِّيَّة أكبر، كَوَحْمَةٍ، على رؤوس أنوفهم وصحون خدودهم.

في السنوات التالية، خفّ إلى حدٍّ كبير وبشكل مُتدرّج ما يستفزّني من وصفي بالشاوي، وجدتُ أخوَيَ اللَّذَيْن يكبراني يتلقّيان الوصف كأمرٍ عاديّ، أو مزحة يردّان عليها بمزحة. في البداية، استغربتُ منهما عدم مبالاتهما، وحسبتُ أنهما متواطئانِ على نفسَيْهما، بمرور الزمن، أَدركتُ أنّ هناك شيئاً آخر، يأكل الروح، ويُغذيّها، في الوقت نفسه، أكثر من(شاوي / حضري) فالحديثُ والمماحكة حول الناصرية والشيوعية والبعث والدِّين، في المدرسة وخارجها، وفي غرفتنا المستأجرَة أكثرحدَّة، وأسلحته المستخدَمة، متنوّعة، من الغضب والصراخ على بعض إلى

السباب والمقاطعة. انحيازٌ جديد يتجاوز الخاصّ وثنائية ريف مدينة إلى مكان أرحب، ويظهر هذا الانحياز بالانتماء إلى حزب و/ أو كتابة قصّة أو قصيدة شِعْر لمجلّة الحائط المدرسية، وهي السقف المتوفّر آنذاك لمَنْ يريد أن يُثبت ذاته، وينال الاعتراف، مجلّة الحائط تلك شكّلت عند عدد غير قليل مبتدأ انطلاق ممّنْ أصبحوا أُدباء وشعراء وصحفيّيْن ورسّامين معروفين، تُكتب موادّها بخطّ اليد على ورق مقصوص بأشكال مختلفة، وكانت تجذب يوم تعليقها ازدحاماً كبيراً، والويل لمَنْ يكتشف أنه سرق قصّة أو لطش فكرتها من آخر، أو نَحَلَ شِعْراً من شاعر قديم أو حديث، أو حاول في خاطرته إثبات رأي سياسي لنقاش بائت.

وكذلك كانت المنافسة بين مجموعات الطلاب في اصطياد كلب شاردٍ أو قطّة، وخنقها "بالكلوروفورم" لسلخ الجِلْد، وحشوه من أجل المعرض العلمي الذي يقام في مسرح المدرسة، وعن تجميع راديو من قِطَع خَرِبَة، وكنتُ شاهداً على الفرحة التي طالت شلّة أخي الأكبر عندما التقط ذلك الشيء الذي تمّ تجميعه من البَثّ الإذاعي لإذاعة دمشق وصوت العرب، عن سخريتهم مِنْ مَنْ كتب رسالة غزل، ولا تزال في جيبه منذ أسبوع، ولا يجرؤ على تسليمها، أمّا أكثر الفصول خِسّةً من أخوتي وصحبهم، عندما يبصق أحدهم في الطعام القليل الذي يُعدّ في غرفتنا المستأجرَة لكثرة الأيادي التي تَتَحلّق حوله، ليحرم منه مَنْ يقرف، وكنتُ الطرف الأكثر حَرَداً.

وبالعودةِ إلى انطباعاتي المبكّرة في السنة الأولى بالمرحلةِ الإعدادية، ولا تزال حَيّةً، كان بعدَ أيّامٍ قليلةٍ من بَدءِ العام الدراسي. عندما طلب منّا بعض طلاب قسم الثانوي – ما يُعرف آنذاك اتّحاد طَلَبَة سورية - الخروج بمسيرة حزن على وفاة جمال عبد الناصر. توجّهنا إلى قلب المدينة،

والتقتْ مسيرتنا بمسيرةٍ أُخرى، فيها عددٌ غير قليل من النساء الباكيات المتّشحات بالسواد. تتقدّم المسيرات المتلاقية صورٌ لعبد الناصر ببراويز أنيقة، بالإضافة إلى عشرات الصور الأخرى، التي لم أرَ من قبل صوراً بهذه الكثرة لشخص واحد! الصورة الوحيدة التي رأيتُها لعبد الناصر، كانت مُعلّقة "بأوضة" القرية، وبجانبها صورة للعقيد لؤي الأتاسي! الكلّ كان يبكي أو يفتعلُ البكاء في تلك المسيرة، ورغم محاولاتي البكاء مثلما يفعل الآخرون، لم أستطع، واعتقدتُ لحظتها أنه يوجد شيء غير سَوِيّ في داخلي، ممّا أحرجَني وسط جَمْع، أغلبهم باكٍ، وأزاد حرجي، حرجاً، بقيةَ ذلك اليوم في أثناء تواجدي في وسط المناحة التي أقامها شباب من عائلة أقربائنا، مع أصدقاء لهم، وجميعهم ينتمي لحزب الاتّحاد الاشتراكي في ذلك الوقت، وكان أحد أبناء الأقارب وصديقان له مُفرَج عنهم قبل وقت قصير من سجن المزّة الشهير – وقتها لأوّل مرّة أسمع بالاعتقال والتعذيب لأشخاص، لم يقوموا بسرقة أو بجريمة قتل - المهمّ في موقفي ذاك، افتعلتُ البكاء بإدارة وجهي جانباً، خاطّاً بإصبعي لعاباً تحت عينَيّ، كي تبدو دموعاً تسيل.

بعد ما يقارب الشَّهرَيْن من وفاة عبد الناصر، اقتحم علينا طلاب القسم الثانوي، الصفوف مرَّة أخرى، وهم يصرخون (يلا، مظاهرة، بدنا نخرج مظاهرة، صار انقلاب ..) خرجنا مردِّدين هتافات، يطلقها طلابٌ محمولون على الأكتاف (يسقط حافظ الأسد، يعيش. يعيش حزب البعث، يسقط مصطفى طلاس، يعيش حزب البعث) أظهرْنا حماساً زائداً، بسبب الفرحة التي اعترتْنا وقدرتنا في حُرِّيَّة الصراخ، وتوقّع الحصول على عطلة عدّة أيّام كالتي أعقبت وفاة عبد الناصر (.. يسقط .. يعيش .. يسقط الانقلاب، يعيش الرئيس ..) لكن أكثر الهتافات التي انجذبْنا إليها، والتحقْنا بالترديد وراء مطلقها (يا حافظ قلْ لطلاس، حزب البعث ما ينداس) الحلقة

حول مطلق هذا الهتاف ازدادت بشكل كبير، وأصبح مغنطيساً لأغلب المتظاهرين، من جهتي، لم يجذبني الهتاف بحدّ ذاته، بل مُطلِقه الذي يرتدي لباس "الشوايا" كوالدي، ويطلق من مسدّس بيده رصاصاً كمُطلقي الرصاص في الأعراس على وقع الهتاف، ولمّا بلغ الأوج في حماسه، بدأ يُلوّح بعقاله ومحرمته في اليد الأخرى، هذا الرجل رأيتُهُ فيما بعد كثيراً، بجانب حافظ الأسد، ورافقه كرئيس لاتّحاد الفلاحين طيلة عهده وبداية عهد وريثه .. في اليوم التالي، خاب الأمل بوجود عطلة، وعزاؤنا كان يوم مظاهرة جديد، وبهتاف جديد، أطلقه الأشخاص أنفسهم فوق الأكتاف نفسها، وهم يردّدون (هذا اليوم اللي كنّا نريدو .. حافظ أسد، يا عقيدو).

وفاة عبد الناصر وانقلاب حافظ الأسد في بداية المرحلة الإعدادية، كرّسا حالة ترقّب دائم لوفاة رئيس أو انقلاب على رئيس، للتّحرّر بشكلٍ أو آخر من روتين اليوم الدراسي الثقيل، الذي يبدأ صباحاً بالقلق والخوف من التّأخّر عن الدوام والبهدلة المنتظرة، ومشي البطّة حتّى داخل الصّفّ، مروراً بدروسٍ مملّة من مُدرِّسين غالباً ما يكونوا غاضبين، يعاقبون على أقلّ هفوة أو خطأ، وينتهي بالعودة ظهراً للأعمال المنزلية وكتابة الوظائف، أيّام مكرّرة ومتشابهة، أيّام ثقيلة عدا جزئها الصغير صباحاً، والسير في الشوارع شبه الخالية، وسماع صوت فيروز الذي بدأنا نعتاد عليه مع مرور الزمن، والمنبعث من الراديو عبر برنامج "مرحباً، يا صباح" .. بداية من راديو "أبو أحمد" الخضرجي، نسمع صوت المذيعة وأُغنيّة الشارة (بقطفلك بسّ.. هالمرَّة/هالمرَّة بسّ .. ع بكرة/ع بكرة بسّ .. شي زهرة/شي زهرة حمرا.. وبس ..) وقبل أن يغيب الصوت، تتلقّى أسماعنا صوت راديو المكوجي "أبو علي"، ومن ثمّ، الصوت المنبعث من مَحرسِ شرطة المجمّع الحكومي، وقبل الوصول إلى المدرسة بمسافةٍ ليست قصيرة، تصِل إلى أسماعنا الصوت الشجي عبر مُكبّرات الإذاعة المدرسية .. برنامج مُدّته نصف ساعة

أو أقلّ، تقدّمه المذيعة "نجاة الجَمّ" بصوتها الرخيم، مع "منير الأحمد" مشاركاً في التقديم والإعداد، هذا البرنامج له فضل كبير بتنمية ذائقة جيلنا وعشق صوت فيروز.

أمّا الجانب الآخر الذي مَكّننا من تَحمُّل يومنا المُكَرّر بشكل لانهائي، كان يوم السينما. البُعد عن الأهل أتاح لنا هامش حُرِّيَّة لحضور فيلم سينمائي كلّ أسبوع مرَّة، وأحياناً مرَّتَيْن في حال وجود فيلم جديد. أنا وأخي مصطفى، أتقنَّا الحِيَل كلّها لتأمين ثمن بطاقتَي سينما ببراعة، الاستدانة من الأقارب الموصى بنا عندهم من قِبَل والدي، بحجج كثيرة، كان أحد المصادر، إلى توفير واقتطاع فرنكين أو ثلاث من أيّة إرسالية شراء، يرسلنا إليها أخونا الأكبر .. صالات السينما الثلاث الموجودة في المدينة تكاد تكون متخصّصة بنوعية الأفلام التي تعرضها، أخي يفضّل الأفلام الأجنبية التي تعرضها سينما غرناطة، ومتابع شغوف لموجة أفلام السبعينيّات عن الفدائيّيْن الفلسطينيّيْن التي تعرضها سينما الزهراء بتكرار مُملّ، عشقي للأفلام الهندية التي تعرضها سينما الشرق عليه فيتو من قبله، ولا يدخل إلى فيلم هندي، إلا إذا كانت له رغبة بالسينما، ولا يوجد فيلم آخر يشاهده .. لم أدرك وأتوقّع أنّ متابعة أفلام الفدائيّيْن الفلسطينيّيْن مع أخي ستجرّ عليّ مصيبة التواطؤ، لم أستشفّ من مرافقتي الدائمة له نِيّته، لم يبحْ لي بشيء، تفاجأتُ مثلما تفاجأ أخي الأكبر، عندما وجدنا رسالته، يقول فيها :(أنا ذاهب للتّطوّع عند الفلسطينيّيْن، لا تخافوا عليّ، سلموا لي على أُمّي وأبي، وليسامحاني .. مصطفى) رسالة مقتضبة، تلاها أربعة أو خمسة أيّام من الجحيم، حتّى استطاع أبي اللحاق به إلى دمشق، وإعادته .. لم يكن صعباً معرفةِ مَنْ أرسله، الكل كان يعرف المُوجِّه "إياد" الفلسطيني الذي له دور في إرسال بعض الفِتْيَة إلى المنظّمات الفلسطينية، وتمّ إرجاعهم من قِبَل أهاليهم بسهولة، فالكل تقريباً تحت السّنّ القانونية، ولا تستطيع أيّ

منظّمة الاحتفاظ به في حال مطالبة الأهل بردّه، وهذا ما حصل مع أخي، عاد أخي مصطفى، لم يبكِ أو يتألّم أو يصرخ وهو يتلقّى العقاب من أبي، أرعبني صمته أكثر من رعب العقاب الذي ناله، انكسر شيء بداخله بعد تلك الحادثة، تغيّر كثيراً، وتغيّرت معه، واستمرّت الحياة.

التّسلّل خارج الأسوار ..

أتذكّر أوّل تسلّل خارج المدرسة، عَرفتُ من خلاله طعم المغامرة الممزوج بالخوف والقلق من انكشاف ذلك، وكذلك عَرفتُ متعة النجاة من العقاب لارتكاب مخالفة قوانين وأنظمة المدرسة وتحدّي القائمين عليها. كنتُ ثالث اثنَينْ عندما قرّرنا الخروج من المدرسة، هكذا قرّرْنا الخروج، خرجْنا وعُدْنا! كان ذلك في أثناء حصّة الرياضة، ثلاثتنا مُعْفى من الالتزام بها، لِعلّةٍ، يحملها كلّ منّا، خلال تلك الحصّة، نتجوّل على هوانا في المدرسة، لكنّ اعتراض المُوجِّه على تجوالنا كلّما رآنا، وإعجابه بجملتِه الشهيرة التي يكرّرها على أسماعنا بمتعةٍ (أنتم "المكاسيح"، لماذا أنتم هنا؟ انقلعوا من هنا ..) ويلحقها بقهقهةٍ عاليةٍ، ليسمعها كلّ مَنْ حوله، وكأنّ لسان حاله يقول، هل سمعتم ما قلتُهُ لهؤلاء؟ ألا تمنحوني التقدير لقولي هذه الجملة الذكية؟! كرهناه وكرهَنا، كأنّه لم يعد يرى غيرنا في المدرسة، ولم نعد نرى غيره، حتّى في العقاب الجماعي للصّفّ، وهذا كان متوفّراً في تلك الأيّام، بكثرة، يمرّ بعصاه على أيدي الطالب بسرعة، ويهوي بها على أيدينا بقُوّة وعيناه تلمعان سروراً .. المهمّ ملاحقته لنا والبهدلة التي تَطالنا كلّما التقانا، زرعت في نفوسنا رغبة في الانتقام منه، وتحديداً في الجانب الذي يتباهى به كثيراً، بأنه الوحيد القادر على معرفة المتسلّلين، وشمّ رائحتهم! .. الحديقة التي تفصل بناء المدرسة عن ملعب كرة القَدَم

مكان المناسب للتّسلّل خارجاً، وكانت مقصدنا. محاولتي الأولى في تسلّق سور المدرسة، فشلت، رغم وجود تجاويف في الجدار حفرها مَنْ تسلّل قَبْلنا، بينما نَطَّ شريكاي كقردَيْن، بيُسر وسهولة (وينك، يا جبان؟) هتفا لي من خارج السور. لم أُجرِّب تسلّق الجدار ثانيةً، قَدَّرت أنّ بإمكاني المرور من بين قضبان الباب الحديدي المجاور، فَتَلْتُ جسمي، ومَرقْتُ بكل يُسرٍ وسهولة، وأصبحت خارج سور المدرسة لأول مرَّة .. خُطَّتنا استكشاف المجمّع الحكومي الذي ألهبَ خيالنا ببنائه الضخم – أكبر وأضخم بناء في المدينة ذلك الوقت – يُذْكَر اسمه في الأغاني الشعبية، وتَخرج منه حكايا وقصص عن مجرمين، حوكموا داخله- كان وسيكون مَقْصدنا في كلّ مرَّة نتسلّل بها طيلة تلك السنة - صَعدنا وهبطنا طوابقه الخمس عدّة مرَّات، راقبنا الموظّفين وهم يختمون الأوراق لأناس مستعجلين بشكل دائم، تزاحمنا مع المراجعين على الدرج، وأمام باب المصعد الذي يعمل يوماً، ويتعطل أيّاماً، عَرَفنا الكثير من مسمّيات دوائر الدولة، ولأيّ وزارة تتبع كلّ دائرة، حفظنا أسماء بعض الأقسام، ونوعية عملها ،واكتشفنا الجمال الأنثوي الطاغي في موظّفة بالطابق الثالث - وهو أهمّ اكتشافاتنا - نَلوب ونتجوّل، لِنَمُرّ أمام الغرفة التي توجد فيها. الاتّجاهات الفوق والتحت واليمن واليسار كلّها تبدأ وتنتهي أمام الغرفة التي تداوم فيها، كلّ ما تقوم به مُدهش، ضحكتها، رَدُّها لشَعْرها إلى الوراء، غَضَبها المحقّ على المراجعين - لا يمكن لجمالٍ كهذا يغضب بدون حقّ!- .. عشقناها معاً، وأصبحت فتاة أحلامنا رغم فرق السنوات بين أعمارنا، وعمرها، واستعضْنا بصورتها المُتخيّلة في الذاكرة بدل الصور التي كان يؤجّرها لنا زميل دراسة!

تِجوالنا ذاكَ قادنا مرَّةً من المرَّات إلى ولوج المركز الثقافي، الملاصِق للمجمَّع الحكومي، وهو بناء مربّع الشكل من طابقَيْن، بلونٍ أبيض. في الأسفل، ممرّ واسع، له جدار من الزجاج، يحيط بحديقة مربّعة الشكل

مفتوحة للسماء، داخل الحديقة تَتَعْملَق أشجار نخيل وسرو، وتنمو بينهما شُجيرات جوري مُعتنى بها بشكل فائق، رائحة الجوري تملأ المكان متسلّلاً من حديقة الزجاج عِبر النوافذ المفتوحة بشكل دائم عدا الأيّام العاصفة، تمتدّ على الجانب الآخر من الممرّ غرف مغلقة الأبواب بشكل دائم، يشغلها موظّفو المركز وإدارته، والمكتبة. دخلنا أوّل مرَّة بحذر قطط، فرضه الهدوء المطبق على المكان، في نهاية الممرّ، توجد قاعة المطالعة التي تصل إليها من جانبَي الحديقة الزجاجية، وهي قاعة واسعة مستطيلة الشكل، يملأ كامل مساحتها طاولات محاطة بكراس، وعلى الطاولات تتناثر جرائد ومجلات، في ولوجنا الأوّل لقاعة المطالعة، لم نتجرّأ على لمس أيّ من الجرائد والمجلات، مررْنا بين الطاولات مهيِّئين أنفسنا بكل لحظة للهروب لمهابة المكان، ووجودنا الخاطئ في هذا الوقت، لم يعترضْنا أحد، ولم نخرج إلا بعد استكشاف المكان .. في الأيّام القادمة، أصبح هروبنا من المدرسة في أثناء حصّة الرياضة لغاية محدّدة، نصعد ونهبط الطوابق الخمس للمجمّع الحكومي، نَحِجّ عند عَتبة غرفة موظّفة الطابق الثالث، ونعود إلى المركز نُقلّب الجرائد والمجلات .. في البداية استهوتنا القصص المصوّرة في "مجلّة أسامة". تابعْنا مسلسل "شنتير"، وأثارتْنا العناوين الحمراء في الجرائد عن عمليات فدائية هنا وهناك، وعن مؤتمرات وقمم لتصفية آثار العدوان الإسرائيلي. ومن خلال تعليمات مكتوبة بخطّ اليد على باب غرفة المكتبة، قرأنا تعليمات استخراج بطاقة استعارة "هوية مركز" وشروطها، توافق ذاك - أو هكذا يُهيّأ لي الآن - مع طلب أستاذ اللغة العربية بقراءة قصَّة، وتلخيصها. أوّل كتاب استعرتُهُ كان مجموعة قصصية للكاتب وليد إخلاصي - لا أذكر عنوان المجموعة، ولا عنوان القصَّة - وفيها يتحدّث الكاتب عن ذبابة تحوم عِنْد مكتب مؤلّف أو موظّف، تسقط فجأة في دواةِ حبرٍ، وبعد جهد ومحاولاتٍ عديدة، تخرج، وعندما يجفّ الحبر تجد

نفسها تلبس أثوباً برّاقة، بفعل انعكاس ضوء الشمس على جسمها الملطّخ بالحبر، تعتقد أنها ملكة الذباب، وتطير إلى النافذة، حيث يحتشد الذباب، متباهية بثوبها الجديد، ووسط صيحات الإعجاب، يبدأ بخطاب ملكي، والذباب يهتف باسمها، ومندهش بلباسها البرّاق البديع، وسط فرحتها، والهتاف باسمها تسقط قطرات من المطر، تغسل الحبر عن جسمها، تاركاً بقعة زرقاء صغيرة مكان وقوفها، لتتبدّد رويداً رويداً مع صبيب المطر، وتظهر على حقيقتها!! .. أدهشتْني القصَّة، وحَظيتُ لقاء تلخيصي لها ثناءً من مدرّس اللغة العربية، ونلتُ علامة جيِّدة، وفتحت لي أفقاً جديداً .. رواية "السأم" للكاتب الإيطالي ألبيرتو مورافيا، هي الكتاب الثاني الذي استعرتُهُ، لا أعرف كيف اهتديتُ إليه؟ ربّما سمعتُ أحداً يذكر الرواية، أو أحداً ما وجَّهني لقراءتها، المهمّ في تلك الرواية، وجدتُ عالماً أغواني وأغناني عن الحَجّ للطابق الثالث في المجمّع الحكومي أو استئجار صور من زميل الدراسة، وخلال الأشهر التالية، استعرتُ أغلب روايات ألبرتومورافيا المتوفّرة في مكتبة المركز، مُشْبعاً من خلال سَرْدِهِ الجنسي خيال فتى مراهق .. هذا الإغراء الذي وجدتُهُ في روايات الكاتب الإيطالي، دفعني لشراء أوّل رواية "وينداح الطوفان" لمدير مدرستنا في ذلك الوقت عندما روّج لها بين طلابه، وأعتقد أن تلك الرواية كان لها قصب السبق في تسويق الكُتُب عبر جمهور، لا يملك إلا القليل من خيار الرفض!

أمّا ضمن أسوار المدرسة، فقد لاحَقَنا المُوجِّهون، ابتداءً من الصّفّ الثامن والتاسع وطيلة المرحلة الثانوية للانتساب لاتّحاد شبيبة الثورة - بديل الكشّافة لطلاب المرحلة الإعدادية واتّحاد طَلَبَة سورية لطلاب المرحلة الثانوية - وهي الفترة نفسها التي صدر فيها قانون الجبهة الوطنية التّقدّميّة، على ما أعتقد. لا أعرف عدد الذين استجابوا أوّل مرّة لطلب المُوجِّه عندما وزّعَ علينا طلبات الانتساب للشبيبة. لكنْ، استنتجت من انزعاجه ونبرة

صوته وهو يطلّ علينا من فوق منبر الصّفّ وخطابهِ القصير، عن عدم رضاه. تلا الخطاب صَمتٌ وحرج، بادلناه النظر خِلْسة دون أَنْ نَجرؤ على النظر في عينَيْه، سلبيّتنا كما قال في خطابه جعلتنا نشعر أننا نخون الوطن! بينما وقفة النسر، التي اتّخذها وهو على منبر الصّفّ، وتفرّسه في وجوهنا واحداً واحداً، تقول إنه هو الوطن بحدّ ذاته! .. في المرَّة الثانية، ربّما بعد أشهر، جاءنا بأسلوبٍ جديد، وبوجهٍ جديد. مُقدِّماً، لعرضِه في الانتساب للشبيبة، بُشرى في افتتاح دورات ودروس تقوية لامتحان الصّفّ التاسع في مقرّ اتّحاد شبيبة الثورة، وغَمَزَ أنّ الدورة مشتركة، طلاب وطالبات! فَمَنْ يرغب عليه ملء طلب الانتساب، رمى الأوراق على منبر الصّفّ، وغادر، وكأنّ الأمر لا يعنيه بعدما أشار "لعبد الفتّاح" أن يأتيه بطلبات المنتسبين الجدد، كي يُلحقَهم بدروس التقوية .. وعبد الفتّاح هذا هو الطالب الضرورة، والموجود في المدارس والصفوف كلّها، وإنْ لم يكن موجوداً، فيجب إيجاده! .. طيلة سنوات المرحلة الإعدادية والثانوية كان هناك عَبْدَ فتّاحٍ في كلّ شعبةٍ درسنا فيها، ومع مرور الزمن والارتقاء بسنوات الدراسة واهتمام المُوجِّهين، تمّ استنساخ أكثر من عبدَ فتّاحٍ واحد في كلّ صفّ. المهمّ صاحبنا هذا، طالب أنيق ومحبوب من قِبَل أغلب المُدرِّسين وكل المُوجِّهين، ينقل لهم كلّ ما يجري في الصّفّ، ويقدّم خدماته بسعادة وحبور، من مسح السبورة إلى تخطيطها وكتابة التاريخ وحكمة اليوم، إلى تقديم الصّفّ في أثناء دروس الفتوّة بطريقة عسكري، وكذلك يُسارع في جلب الطباشير، وفضح مَنْ أخفى طبشورة في جيبه، وهو عَينُ المدرّس إنْ غفلت عن طالب يغشُّ في أثناء المذاكرة، لديه موهبةً في اكتشاف العبارات الفاحشة التي تُكتب على المقاعد وحيطان الصّفّ، ومعرفةَ مَنْ كتبها! في المرحلة الثانوية، فرض علينا عبد الفتّاح قول كلمة واحدة "غَيّمَتْ" كإنذارٍ بوجود خَطر، عندما يقترب من مجموعة ساهِيَةٌ عن حضوره فارضاً الصمت على الجميع، أو تحويل حديثهم إلى منحى آخر ...

شخصياً لم أفكّر في الانتساب للشبيبة، ليس إدراكاً أو وعياً منّي، وإنما وجدتُ نفسي في وسط من النقاشات الحادّة حول انقسام الحزب الشيوعي، خلافات واتّهامات وتباين حول كلّ شيء، وأهمّها القرب من السلطة والتحالف معها؛ فعندما كان المُوجِّهون يقومون بالتوجيه والإغراء للانتساب للشبيبة، وتحريض المنتسبين إليها في ملاحظة رموز، لها دلالات سياسية، ومراقبة ما يُقال داخل الصفوف، كنتُ في الطرف الذي أُشير إليه من قِبَل المُوجِّه، عندما حقّقَ في رسم لشِعار، يمثّل منجلاً وشاكوشاً محفوراً على باب الصّفّ، قال: أعرفهم جميعاً تلك الفئران الحاملة لفيروس الأفكار القادمة من وراء الحدود! وقبل مغادرته، أشار أنتَ وأنتَ وأنتَ، أعرفكم جميعاً، لا تنسوا هذا! وقتها لم أكن منتمياً لأيّ حزب أو تنظيم، وبالمقابل، عرفتُ أنني غير مَعني أيضاً بمَنْ يتوجّه إليهم المُوجِّه في تقديم طلبات الانتساب للشبيبة، وأصبحت مع مجموعة من زملائنا الطلاب منذ ذلك الوقت، موضوعاً لتدريب زملائنا الشبيبيّيْن في كتابة التقارير، وحسن أدائهم وارتقائهم.

وكذلك شملت رعاية زملائنا الشبيبيّيْن، المُدرّسين، وما يقولونه في الصّفّ من جمل ملتبسة أو ترويج لفكرة ما. تلك الفترة بُدِئ في التطبيق الصارم لميثاق الجبهة الوطنية التّقدّميّة، وتبعيث المدارس، فترة لا يزال يوجد فيها بعض المدرّسين الذي يُظهِر انتماءه السياسي، ولا يخفيه .. أغلب مُدرّسينا كان يحظى باحترام الجميع، وهم الشديدون القساة المنصرفون لدروسهم فقط، هؤلاء لا يخلقون انحيازاً داخل الصّفّ، يريدون من الطلاب، الطلاب كلّهم، الخضوع لهم، والخوف منهم فقط، ولا يوجد لديهم هم سوى الطالب الذي يتصيّدهم في معلومة أخطأ بها، عندها تتحوّل كياستهم إلى حالة عدائية، وسخرية من المتصيّد بشكل دائم، ونادراً ما يتمّ من قِبَل بعضهم الاعتراف للطالب بصوابِ ملاحظةٍ قالها ..

وهناك من مُدرّسينا مَنْ يحظى باحترامٍ ومحبّة قسم منّا، وعداء قسم آخر على أساس انحياز سياسي أومناطقي. أحد مدرّسي اللغة العربية في صفّ البكالوريا كان يُضحكنا كثيراً، لأنه يَحْلِف "برأس المدلّلين الثلاث" قسم منّا يعرف ماذا يقصد، بمرور الوقت، انكشف قصده، ولمّا أحرجه أحد الطَّلَبَة في معرفةِ مَنْ يقصد بالمدلّلين الثلاث، وتحدّاه بالاعتراف بطريقة مستفزّة، قال: أقصد ماركس وإنجلس ولينين. بعد فترة، تمّ نقله إلى مديرية الزراعة بشكل نهائي .. مدرّس التربية الإسلامية إذا لم تخنّي الذاكرة اسمه "زهير نوفليه" لم يجرؤ أحد منّا على الخوض بنقاش معه لقُوّة منطقه وكثرة معلوماته ودقّتها، على عكس نمط مدرّسي التربية الإسلامية الآخرين الذين نورّطهم دائماً بالحديث المحبّب لدينا عن الجنس والزواج وموقف الشرع منه، اختفى إثر تعليق له عن الدستور وأحد موادّه، ولم يظهر بعدها .. مدرّس فلسطيني منع الطلاب في أثناء حِصّته من الخروج المبكّر لحضور اجتماع شبيبي للتحضير لمناسبة وطنية، تمّ نقله إلى منطقه ريفية نائية!

حرب تشرين

لم أتوقّف كثيراً بدكّان (أبو أحمد الخضرجي) كثيراً كي أفهم سبب وجومه وعدم ردّه السلام، أو مبادرته لي - كعادته دائماً - كلّما ظهرت في دكّانه قائلاً: (ابن أخوي، صار عليكم خمسون ليرة سورية، خلاص، وصلت حدّها، شايف ابن أخوي، دكّاني ما عاد فيه بضاعة وكل رأسمالي رايح ديون).. فقط أشار لي بيده أن أصمت، وأستمع، وبيده الأخرى ألصق راديواً عند أذنه رغم الصوت المرتفع والواضح! قال: اسمعْ، ابن أخوي، اسمعْ، يقولون صارت حرب، ويقولون إسرائيل هجمت على مصر وسورية،

وتمّ ردّهم .. الله يسترنا من حزيران ثانية!.. بس، والله، ما ني فهمان شي، شلون جيش مصر عبر قناة السويس؟ يا ريت يكون هالكلام صحيح.

لحظتها كدتُ أفتل عائداً دون أن أحصل على ما جئتُ من أجله، " عِلْجَتْ جَوايَّ نار "كما يقول مثل محليّ. بادلتُ في وقفتي النظر بين وجه (أبو أحمد) والانفعالات التي ترتسم عليه وكومة أكياس الورق التي يجلس عليها، علّه يتزحزح، كي أختطف واحداً، وأُعبّئ ما أنا محتاج له، وكي أكسر الصمت وألفت انتباهه لسبب وجودي، سألتُ: في بطّاريات كبيرة للراديو، عمّي أبو أحمد؟ .. أشار بيده مستغرباً سؤالي، أي انظرْ إلى ما حولكَ، إلى ما يحويه الدّكّان، هل يمكن أن تجد ما تطلبه؟

فعلاً دكّان (أبو أحمد) رغم مساحته الواسعة، يكاد يخلو من البضائع، وليس فيه أكثر من حاجة متطلّبات الجوار اليومية؛ فعدا بعض صناديق الخضار التي لم يبقَ منها إلا القليل والقريبة من الذبول مع اقتراب فترة العصر، يوجد رفّ من علب السردين، يقابله رفّ آخر فيه عدد قليل من كروزات دخان الغازي والحموي الملفوفة بكيس خيش مبلول بالماء! وفي إحدى زوايا الدّكّان كيس سكّر مفتوح جاذباً كومة من الذباب المستمتع بالرحيق الحلو، وتاركاً عليه بقاياه السوداء الصغيرة، وبجانبه صندوق خشبي كبير، فيه شاي أسود، وفي زاوية أخرى، سلّة أو أكثر مليئة بالتبن، تحتوي على بيض بلدي، وعليكَ عندما تريد شراء البيض أن تقوم بفَحْصها، تَخُضّها قرب أذنكَ عدّة مرّات، والإنصات جيّداً، أو تلفّها بقبضة يدكَ، وتنظر من خلالها إلى الضوء، لتحدّد مدى صلاحيّتها، ورغم ذلك، قد تشتري بيضة فاسدة، عندها سيكون يوم نكد بامتياز، لإفسادك طبخة "الجز مز" التي تُشكّل وجبة متكرّرة لا يملّ منها الطّلاب العزّاب، وعلى أرضية الدّكّان، وبامتداد جدار كامل، يوجد بند خشبي طويل، تصطَفُّ فوقه

وتحته في فترة الصباح طناجر الخاثر "اللبن" القادم من الريف، موشومةً برموز وأسماء، لا أحد يستطيع فكّ شيفرتها إلا (أبو أحمد)، محدّداً من خلالها اللبن الممتاز، والموثوق، ليخصّ بها زبائنه الدائمين وأصحابه، هذا المقعد الخشبي ينتقل عصراً إلى الرصيف أمام الدكّان، يتقابل فوقه أبو أحمد وجاره، وبينهما "منقلة" يُخشخشان بحصاها الملساء الناعمة طيلة الوقت .. المهمّ بانتهاء إصغاء (أبو أحمد) إلى ما كان يسمعه، علا صوت أُغنيّة فيروز "خبطة أدمكم ع الأرض هدّارة .. إنتو الأحبّة وإنتو الصدارة" التي أصبحت - هذه الأُغنيّة - بحدّ ذاتها في الأيّام التالية لتلك الحرب بمثابة بلاغ عسكري عن انتصارات جيشنا، وما على من كان مارّاً، ووصل إلى سمعه الصوت الهادر "خبطة أدمكم ع الأرض هدّارة .." سوى الإشارة بيده لمَنْ هم في جوار الراديو، عن عدد الطائرات التي أُسقطت! فيأتيه الجواب باليد أيضاً، بفرد الأصابع.

لم يطل انتظاري بعد ارتواء (أبو أحمد) من الخبر الذي كان يصغي إليه، وتحرير كومة الأكياس التي كان يجلس عليها، انتقيتُ القليل من الخضار والبيض، وعدتُ كالطير لقَطْع المسافة التي تفصلني عن البيت؛ فلدي خبرٌ، لم يسمع به أحد، لكنني لم أستطع إبهار أحد؛ فلقد وجدتُ أخوَيّ مع الطلاب في الغرفة المجاورة، يتحلّقون حول الراديو، وبصوتٍ واحد، قلتُ وقالوا (صارت الحرب في سيناء والجولان). بقية النهار والليل في ذلك اليوم، التصقنا بالراديو، نتابع البلاغات العسكرية المتتالية، نعدُّ الطائرات الإسرائيلية المتساقطة، منبعثة في ذاكرتي قدرة بصاق الشيخ إبراهيم الذي أسقط الطائرات الإسرائيلية في حرب حزيران، قبل التّعوّد على لفظ اسم الساحر الجديد سام ٦.

في اليوم التالي، ازداد حماسنا على وقع الأخبار السّارّة التي يحملها

الراديو، النصر اقترب، وغسل عار هزيمة حزيران أصبح بمتناول اليد، والبقاء بالبيت جحيم لا يطيقه أحد. أردنا أن نعمل شيئاً، أردنا المشاركة، ويجب أن نشارك .. انتشر خبرٌ بوجود دورات للتدريب على الإسعاف والإنقاذ والدفاع يقيمها الدفاع المَدَني في الملعب البلدي، كانت الأعداد كبيرة، طُردنا من هناك! وقيل لنا التحقوا بمدارسكم، مُدرِّبو الفتوّة سيجدون لكم عملاً نافعاً .. قيل عن التّبرّع بالدم، ركضْنا إلى بنك الدم، تبرّعْنا متباهين باللاصقة الطّبّيّة مكان وخز الإبرة .. تجوّلنا في المدينة من مكان إلى آخر، أحياناً نصطفّ مع المارّين في الشارع، عندما يوقفنا صوت فيروز "خبطة أدمكم ع الأرض هدّارة ..." لمعرفة أعداد الطائرات الإسرائيلية التي تهاوت. بفرد الأصابع يأتي الجواب دون أن يسأل أحد!.. سحرتْنا صواريخ سام ٦، وأصبحت كتميمة تجلب النصر بمُجرّد لفظه الاسم، انتشر خبر قرب الدخول إلى القدس والصلاة فيها بين لحظة وأخرى، وفي كلّ مرَّة يُؤجّل إلى موعد الصلاة القادمة! الراديو يكرّر كلمة حافظ الأسد عن عدم رغبتنا بالموت لنا وللآخرين، وأننا طلاب حُرِّيَّة، وعن شهر رمضان المبارك الذي تتوّجت فيه انتصارات الأمّة منذ القديم! .. ما كان ينغّص علينا في يومنا المجيد ذاك والأيّام التالية سوى اضطرارنا لارتداء لباس الفتوّة الذي ابتُلينا به ذاك العام كهدية من الصين الشعبية، لباس مصنوع من قماش زيتي سميك، يشبه البطّانيّات العسكرية، وموديل مُستمدّ من الحرب العالمية الأولى، مُتمنّين لو بقي لباس "الكاكي" الجميل مقارنة بهذا الشيء الذي نرتديه! .. وجدنا أنفسنا نشارك في صبغ أضوية السَّيّارات وزجاج نوافذ المنازل باللون الأزرق، لإخفائها عن طائرات العدوّ، كما قيل لنا، وتطوّعنا لحراسة مدخل المدينة الجنوبي عند الجسر القديم ليلاً. كنّا ما يقرب العشر طلاب، تمركزنا في بلوكوس فرنسي قديم حسب ما طُلب منّا، وتمّ تزويدنا ببارودة إنكليزية بدون طلقات. لم نعرف ماذا نعمل، وماذا نحرس، وكيف

نقضي ليلتنا تلك عدا الاستماع للبلاغات العسكرية، حتّى قرّ قرارنا على تمضية الليلة بلعب الورق وسرقة "القبيات" المجاورة (القبية: الخضار التي تُزرع على كتف النهر في تربة الطمي التي ينحسر عنها النهر بعد فيضانه) وانشغلنا عدّة مرّات بدفشِ سيّارة "الجيب واز" التي يستقلّها مُدرِّب الفتوّة وأحد عناصر الجيش الشعبي، والتي تحرن كلّما توقّفت، عندما مرّا بنا لتفقّد استعدادنا! .. تكلّمنا عن الحرب بحماسة رغم عدم معرفة الكثير عنها، طربْنا لانتصارات الجيش المصري والسوري، وعن خطّ بارليف والخطّة الذكية في عبوره، وعن خطّ آلون والتضحيات التي تمّت لإجتيازه، وعن الاتّحاد السوفيتي الصديق الصدوق الذي أطربَني الحديث عنه وعن سلاحه المتفوّق على السلاح الأمريكي .. في اليوم الثالث، نغّص علينا فرح الانتصارات المتتالية، الإسهال الذي أصابنا نتيجة برد آخر ليالي تشرين، وكمّيّة الجبس "البطّيخ الأحمر" التي حشوناها في بطوننا .. في ذلك اليوم، أغلبنا لزم البيت على مضض.

لم تدمْ فرحتنا طويلاً، والانتصارات من رفع العَلَم على مرصد جبل الشيخ، والسباحة في بحيرة طبريّا، وعبور القناة، وخطّ آلون، وآذان الجنود الإسرائيليّيْن التي ملأت جيوب التجريدة المغربية، وقطع النفط عن الغرب، وانتصارات الجيش العراقي الذي مرّ من أمامنا إلى جبهة الجولان. جميعها تحوّل بعد أيّام إلى ثغرة الدفرسوار، ومحاصرة الجيش المصري الثالث، والتراجع عن المرصد والبحيرة، والجسر الجوّيّ من الولايات المتّحدة إلى اسرائيل، وقرار مجلس الأمن، بوقف الحرب. لتنتقل الحرب من الجبهة إلى البيوت والشوارع، وفي الإذاعات. وتتحوّل من حرب بالسلاح والجنود إلى حرب بالكلمات، وبعنوان واحد "الخيانة" خيانة السادات والتّخلّي عن سورية، وعن خيانة قائد الجيش العراقي المشارك بالحرب، وجملته الشهيرة "ماكو أوامر".

لاحقتْنا الحرب أيضاً إلى المدرسة وداخل الصفوف، فتحت لنا مجالاً واسعاً أن نقول بشأنها كلاماً مسموحاً به، لكنْ، باتّجاه واحد، تجريم الخونة، لنخرج بنتيجة قارّة، أننا في حروبنا كلّها منتصرون، لكنْ، دائماً هناك خَوَنَة، يُحوِّلون النصر إلى هزيمة!.. من سقوط بغداد على يد المغول إلى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ إلى حربنا هذه، أمّا داخل الصفوف، خلال تلك السنة والسنة التالية، شاركنا مدرّسينا العائدين من الحرب، بالحديث عن بطولاتهم، عن صواريخ سام، عن تحرير مرصد جبل الشيخ، وعن الشرب والسباحة في بحيرة طبريّا! .. حماسنا لمدرّس العلوم الذي خاض الحرب كأحد العناصر في بطّارية صواريخ سام ٦، دفعنا لخلق جوّ حربي له داخل الصّفّ، بتفجير مفرقعات، خرج مدرّسنا، ولم يعد نهائياً إلى شعبتنا، وتمّ فصل كامل الشعبة لمدّة يومَيْن .. شغلتْنا أيضاً حرب الاستنزاف، وانقسمْنا حولها، لا من حيث استمرارها وأحقّيّتها، لكنْ، من حيث جدواها، إن لم تتحوّل إلى حرب تحرير شعبية، على شاكلة حرب فيتنام التي كانت تتوالى انتصاراتها في تلك الأيّام على أمريكا حليفة إسرائيل .. انتهت الحرب، وانتهت حرب الاستنزاف، ولم تظهر الانتصارات وتحطيم الجيش الذي لا يُقهَر إلا في المسيرات، وفي الخطب الحماسية، وعلى الراديو .. شعور متناقض وموقف عَصي عن الفَهْم من تلك الحرب، وسؤال هل انتصرنا؟ أم لم ننتصر؟ .. الأجوبة المقدّمة من خلال الخطب الرسمية والصحف وعلى مقاعد الدراسة، تقول: إننا انتصرنا، وحطّمنا أسطورة الجيش الذي لا يُقهَر! أقنعت الكثيرين!

انتصرنا أم لم ننتصر؟ شخصياً لم أقتنع بأننا انتصرنا، ولم أقتنع أننا لم ننتصر! بعد مرور سنة ونصف من تلك الحرب، وجدتُ نفسي مقتنعاً لحدّ ما بجواب قدّمه أستاذنا وصديقنا في ذلك الوقت، الشاعر "وفيق خنسه" ضمن قصيدة، نسخناها بخطّ اليد، وتداولناها سرّاً، قال فيها على ما أذكر (.. لقد انتصرنا، لكنْ، مثلما شاء نيكسون سِرْنا ..).

وكذلك تمظهرت الحرب بصعود نجم مُدرِّبي الفتوّة، وقدرتهم على إعداد وتنظيم المسيرات، والحشد لها، محوّلةً يوم ٦ تشرين، يوم مسيرات وطنية وأهازيج تتغنّى بقُوّاتنا المسلّحة، بجانب أيّامنا الوطنية التي تضاعفت بشكل كبير، وجميعها يمُجِّد ويُؤلّه حافظ الأسد، الذي وضعنا تحت سماء جديدة، عَصيّة على التغيير!.

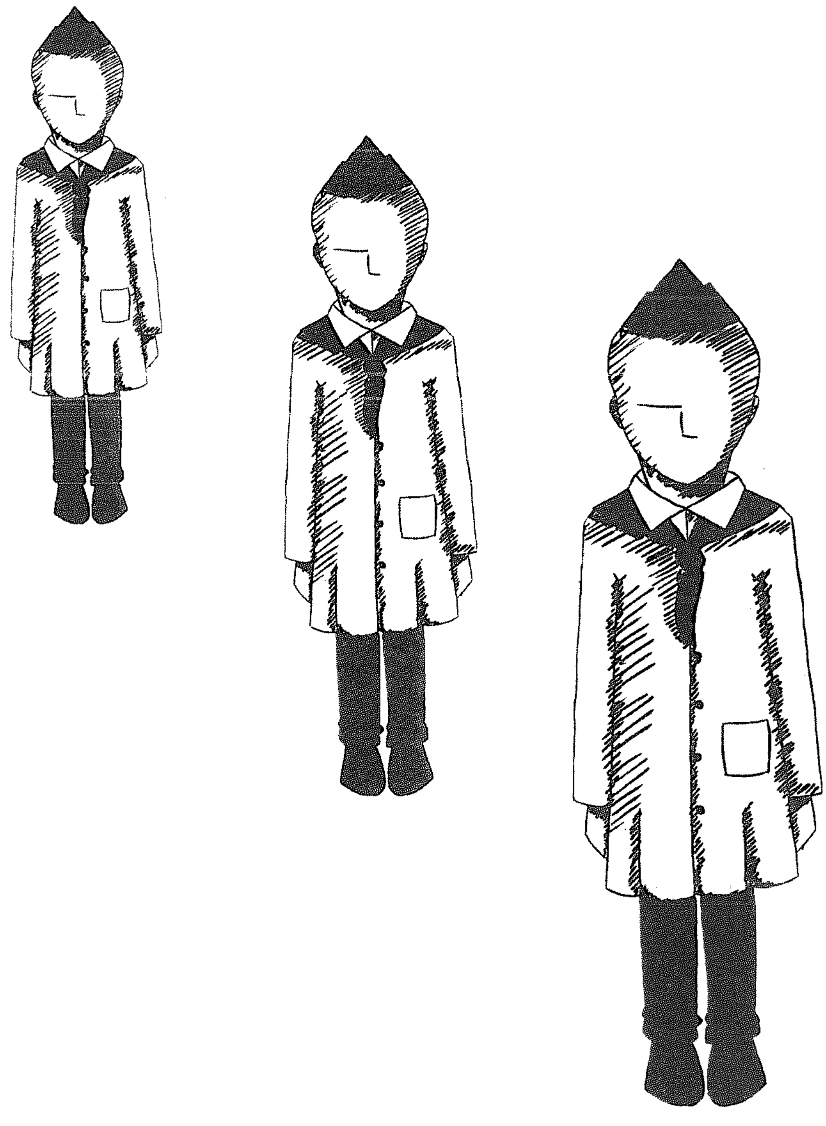

ورد وشوك

كوليت بهنا

حائط الشظايا الزجاجية

إلى اليوم ما زلتُ أتذكّر حقيبتي المدرسية الأولى. كانت حقيبة بلاستيكية حمراء، تشبه هلالاً أو (كعكة بيروت). لولا هذه الحقيبة التي اشتراها لي والداي، لما رضيتُ أن أذهب للمدرسة، برفقة أخوتي الأربعة الأكبر منّي. بدا الأمر في البداية مغرياً ولذيذاً، حيث كنتُ كلّ يوم أبكي حين يغادر أخوتي الأربعة المنزل صباحاً دون أن يصطحبوني معهم. وحين دقّت ساعة الحقيقة اكتشفتُ أنهم يذهبون إلى ما يُسمّى مدرسة، وأنها ليست أرض اللعب والمتعة التي ظننتُ أنهم يذهبون إليها كلّ يوم، ولأجلها يستيقظون في وقت مبكّر، ويسبّون ويلعنون بأصوات هامسة، كي لا أسمع ما يقولون.

تمّ وضعي في صفّ الحضانة، وحين كان يسألني أحدهم عن صفّي، كنتُ أجيبه أنني في صف الأكل. لأن حقيبتي الحمراء البلاستيكية لم يكن فيها لا كُتُب ولا دفاتر ولا أقلام. فقط كانت عامرة بالطعام اللذيذ والشهي. حيث كنتُ وباقي الأطفال نقضي اليوم في اللعب، ثمّ الأكل، ثمّ النوم بوضع رؤوسنا على المقعد، والتظاهر أننا نائمون. والحقيقة أنهم كانوا يُجبروننا على هذه الحركة فقط، كي يرتاح المشرفون قليلاً من ضجيجنا. وحين نستيقظ من هذا السبات الكاذب كنّا نعاود الأكل واللعب وجولة أخرى من النوم الوَهْمي إلى أن يحين موعد العودة في باص المدرسة

(الأوتوكار) مع أخوتي الذين كنتُ أرى التعب بادياً على وجوههم الصفراء، ما إن يصلوا إلى البيت، ينهوا واجباتهم المنزلية، ويذهبوا للنوم مبكّراً. فيما أنا التي أمضيتُ نصف يومي نائمة، أحتلّ المقعد الأوسط فوق الكنبة بين أحضان أُمّي وأبي أتابع بعض برامج التلفزيون (التيليفونكين) بالأبيض والأسود، أحكي لهم عمّا أكلناه في صفّ الأكل، وأصف لهم كيف تمشي الراهبات، وكيف نفخْنا مسحوق (النَّعُّومِة)(*) على أثوابهنّ السوداء الطويلة من الخلف، وأقلّد غضبهنّ، وأثير ضحكات أُمّي وأبي اللَّذَيْن اعتادا أن يصفاني بالعفريتة الصغيرة.

كانت مدرستنا، مدرسة خاصّة مختلطة تابعة للطائفة الكاثوليكية، تُديرها راهبات. هناك حيث كان علينا أن ندخل الكنيسة ثلاث مرَّات على الأقلّ بشكل يومي إلزامي. وتحيّة (دون بوسكو(**)) إلزامياً. وتناول الطعام في قاعة كبيرة، يقدَّم فيها الطعام من قِبَل المدرسة للطَّلَبَة الأكبر سنّاً. كنتُ أرتجف من القصاص الذي يمكن أن يلحق بأحد الطَّلَبَة، فيما لو رفض بعض أنواع الطعام. كلّ شيء هنا نعمة إلهية، عليكَ أن تأكله حتّى لو كان حجراً مطبوخاً. وما زلتُ أتذكّر كيف قامت طالبة ببَصْق قطعة اللحم الممضوغة قليلاً، وأخفتْها في منديل، رمتْهُ بسلّة القمامة، وكيف أمسكتْها الراهبة من رقبتها، وأجبرتْها على إعادة التهامها وسط شماتة باقي الطَّلَبَة وذعرهم الواضح على وجوههم.

الفسحة الصغيرة التي كنّا نلعب بها كأطفال للحضانة، مازالت موجودة إلى اليوم. كلّما مررتُ قربها، تجتاحني تلك الذكريات القاسية. جدارها الكبير الذي يفضي للشارع الخارجي الكبير، يصل إلى ثلاثة أمتار، وربّما أكثر أعلى هذا الجدار العريض تمّ غرز شظايا زجاجية كبيرة في الإسمنت،

---

*) النَّعُّومِة: قُضامة صفراء مطحونة، كانت تمُزَج ببعض ببودرة الفلفل الأحمر وحمض الليمون.

**) دون بوسكو. قدّيس إيطالي.

بحيث لا يمكن لأحد أن يقفز من فوق هذا السور. وكنتُ أفكّر، ولماذا سيقفز أحدهم من فوق السور إلى داخل مدرسة؟ ماذا سيسرق، كُتُباً؟ أم مقاعدَ خشبية؟ أم مرجوحة؟ أم سيدخل إلى الكنيسة الجانبية، ويسرق سرّ اللاهوت الأعظم؟! هل هذا اللّصّ غبي أو مجنون، إلى حدّ أنه سيقفز إلى مدرسة راهبات؟! لا شكّ أنه غبيّ، وسيُمزّقنَهُ إرْباً الراهبات العفيفات الحنونات المرتّبات النظيفات المنضبطات الجادّات الجلفات القاسيات القاسيات القاسيات.

كثيراً ما كنتُ أنزوي في زاوية ما من هذه الفسحة، أتأمّل هذا الجدار. واكتشفتُ أنه صُمِّم بهذه القسوة، ليس تحاشياً لدخول اللصوص من الخارج، وإنما لتفادي هروب الطلاب من الداخل، كما كنتُ أنا أخطّط دوماً. نعم، خطّطتُ، وفكّرتُ كثيراً كيف سأقفز فوق هذا السور اللعين؟ كيف سأتفادى الشظايا الزجاجية؟. وصرتُ أتخيّل شلال الدم الذي سيرتسم للأبد فوق الجدار وأنا أحاول الفرار، حيث تخيّلتُ يَدَيّ الصغيرتَيْن معلّقتَيْن ومتشبّثتَيْن بإحدى الشظايا الزجاجية، وأنا أحاول أن أقفز للشارع الخارجي، تشدّني من أسفل قَدَمَيَّ إحدى الراهبات للأسفل، لمَنْع هروبي، فيما الشظية الزجاجية التي تشبّثتُ بها، تمعن في الانغراس في لحمي، وتشرط يَدَيّ الصغيرتَيْن، كلّما شدّتْني من الأسفل. كانت هذه الصورة المُتخيّلة مرعبة، ولاتزال. وبدوتُ وكأنني مسيح صغير يُصلَب على حائط فسحة اللعب. إنها بداية مَقْتي للمدرسة، ولاتزال.

تبّاً للسجون. تبّاً لفسحة اللعب التي كانت تشبه سجناً مُزنَّراً بشظايا زجاجية.

الشّابّ الوحيد اللطيف الذي كان يمنحني بعض الصبر للبقاء هو رفيقي (الحبّاب) يسوع. يسوع الذي كنتُ أراه حزيناً في أيقونات المدرسة الكثيرة. تصادقتُ معه، وصرتُ أسمعه يهمس لي بأنه يحبّني. ويحاول

جاهداً أن يُقنعني أن لا علاقة له بهذه المدرسة. هو حُرّ وحُرّ، يُحلّق في السماء. يراني ويشعر بي. يهبط من عليائه أحياناً، ليجلس إلى جانبي في المقعد، ويستعطفني بأن عليّ أن أصمد وأقاوم، لأن أهلي دفعوا مالاً كثيراً، كي أتعلّم هنا. وأن أبي يتعب كثيراً لتحصيل المال، وأنه صار في الأشهر الأخيرة، يبدو أصفر اللون، شاحباً ممتقع الوجه، وكثيراً ما يتهامس مع أُمّي لدى عودته للبيت وهو يحمل أكياساً فيها أدوية، تبدو شديدة المرارة، حيث كنتُ أراقبه من تحت الطاولة، وأحزن، لأنه يتناول من هذه الزجاجات المُرَّة. لكني كنتُ أفرح له، لأنه لا يضطرّ لاستعمال تلك الحقن التي يحملها كالصواريخ المدبّبة (عمّو سيفو) الذي يطير كالرعب المتحرّك فوق درّاجة نارية، وحين يعبر في الحارّة يختفي منها الأولاد كلّهم بلمح البصر. وحين يضع الحقنة على النار لتعقيمها، تكون أنتَ كطفل قد اختفيتَ تحت سابع أرض، وعليهم أن يبحثوا عنكَ ثلاث ساعات، ثمّ ربطكَ بالحبال والاستعانة بالجيران، للتّمكّن من تثبيتكَ وحقنكَ. واو .. يا لها من ذكرى! وكأن تلك الإبرة المدبّبة مازالت تُغرَس في الذاكرة.

أضفْ إلى معاناة أبي الجميل الشّابّ، أضاف يسوع بصوت هامس يشوبه كثير من القهر، أن أُمّي تضحّي كثيراً لأجلي ولأجل إخوتي، وتطأطئ رأسها قهراً أمام الراهبة التي تقبض أقساط المدرسة، وتُسمعها في كلّ مرَّة أنها تحسم كثيراً من قيمة الأقساط فقط لأننا ننتمي للطائفة الكاثوليكية (العظيمة الرهيبة!!). وهنّ لا يمكن لهنّ أن يتخلّينَ أو يتركنَ أبناء الطائفة بلا تعليم، وعلينا أن نقدّر ذلك. لكنها لا تفتأ تذكّرها أن الحالة المادّيّة لوالدي ليست كباقي أهالي الطَّلَبَة الأثرياء الذين تتباهى بهم الأخت الراهبة المحاسبة، وتتفاخر وتزهو وتحمرّ وتتورّد بذِكْر أسمائهم اللامعة كنجوم، لوجود أبنائهم وبناتهم في مدرستها. يسوع الذي يرجوني كلّ مرَّة، كي لا أهرب وأختبئ فوق إحدى أشجار بستان (العدرا)، وهو بستان جميل ملحق بالباحة الكبرى للمدرسة، حيث تضطرّ أُمّي المسكينة كلّ أسبوع

للقدوم للمدرسة، والبحث عنّي مع كوكبة من الراهبات المزمجرات. كنتُ أَعِدُ يسوع أن لا أفعلها، وكنتُ في كلّ مرَّة أُكرّر هذا الهروب. أمر واحد فقط كان يُؤرّقني، وهو تجنّب يسوع للسؤال التالي:

هل تعلّمتَ أنتَ هنا، يا حبيبي يسوع؟

أسأله دوماً بإلحاح.

وأبداً لم يجبْني على هذا السؤال.

أيضاً لم يجبْني لماذا طردتْني الراهبة من الكورال الخاصّ بعيد الميلاد، وأبكتْني دموعاً مريرة. قالت يومها إنها تُقاصِصُني، لأنني جئتُ بملابس عادية!!. وما ذنبي إن كانت أُمّي قد غسلت لي ملابس المدرسة (الكوستوم)، ولم تجفّ، بسبب برودة الطقس؟!. أليس الكورال خاصّاً بعيد الميلاد؟! أوليس عيد الميلاد في الأساس خاصّاً بكَ، يا يسوع؟! حسناً. سأُقنعكَ بالحُجّة الدامغة. ألم تقلْ أنتَ بذاتكَ، يا يسوع (دعوا الأطفال يأتون إلي)؟؟ وها أنا ذا حين لبّيتُ دعوتكَ، وجئتُكَ بملابس عادية، تمّ طَرْدي بقسوة شديدة. فلِمَ لم تتدخّل وتَقرِف رقبة تلك الراهبة قاسية الفؤاد؟!. هذه الأسئلة كلّها ما زلتُ أنتظر أجوبتها منكَ، يا يسوع في يوم الدينونة. أوكيه؟؟؟؟؟

سفر الخروج إلى الحكومة

"غبيّ .. غبيّ .. حمار معبّى ببنطلون ..".

ربمّا كان ليل الاثنَيْن أو الثلاثاء أو ربمّا ليل الجمعة، لا أتذكّر بالضبط، لكنني أتذكّر أننا تجمّعنا على صوت أبي، يسبّ ويشتم بأعلى صوته،

وهو يخبط الطاولة. مَنْ هو هذا الغبي والحمار" المعبّى ببنطلون؟" الذي يقصده أبي؟؟؟.. هل يُعقَل أنه تشاجر مع جارنا الذي يرتدي القبقاب ساعات الفجر، ويطرق فوق رؤوسنا بحُجّة أنه يتوضّأ.؟ أم أنه تشاجر مع أحد أقارب أُمّي الذي كان يتحرّش النسوة الجميلات في الشوارع، ويُسمِعُهنّ كلام غزل، ويُورّط نفسه في مخافر الشرطة كلّ حين؟؟..

سأكتشف بعد عدّة أيّام قضيناها في البيت بدون مدرسة أن المَعني بهذه الشتائم التي لم أذكرها كلّها أمامكم، كان وزيرَ التربية أو وزير المعارف الذي أصدر قرار تأميم المدارس الأهلية. وعلى إثره، انتقلنا إلى مدرسة حكومية أو ما كان يُعرف بمدارس المعارف. كان أبي وأُمّي يتهامسان أنني وأختي التي تكبرني بسَنَتَيْن تعرّضنا لظلم شديد، لأن أخوتي الثلاث الكبيرات كنّ قد حصلنَ على (السيرتيفيكاه والبروفيه) من مدرسة الراهبات، وبالإضافة إلى إتقانهنّ اللغات الفرنسية والإيطالية والعربية، أتقنّ فنون الخياطة والتطريز والبيانو، وكثيراً من الآداب الاجتماعية (الإيتيكيت) و(الكومبيليمانات) التي تعلّمنَها من هذه المدرسة. هذا يعني أني وأختي سنبقى بلا آداب اجتماعية مستقبلاً؟؟ يا للهول!

في الأحوال جميعها، لم أفهم في حينه ماذا تعني (آداب اجتماعية)! ولم أفهم ماذا يعني هذا القرار أو أسبابه! لكن الانتقال بحدّ ذاته والخروج من ذاك السجن الكاثوليكي كان لا شكّ أمراً مريحاً ومرحاً للغاية، بالنسبة إليّ، وبالتأكيد كان حلاًّ ربّانيّاً، ساهم فيه دون أدنى شكّ تدخّل يسوع العظيم، بعد ازدياد شكاوي الأطفال في صلواتهم الليلية، وفي مقدّمهم، أنا.

انتقال بدا نهاية سِحْريّة لعدم انسجامي مع نظام الراهبات اللاتي وقفنَ يودّعننا عند الباب باكيات، فيما أنا أمدّ لساني القصير لهنّ من خلف معطف والدي الأبيض والأسود (الكاروهات). لكنني لن أنسى أبداً

القهر الذي ارتسم على وجوههنّ، وذاك الانكسار المُوجِع الذي بدا في عيونهنّ، والذي لم يكن مفهوماً بالنسبة إليّ وهنّ اللاتي كنّ يَصلنَ ويجلنَ في أشكال القمع الدِّيني. وسأتفهّم لاحقاً لماذا كنّ يفتعلنَ تلك القسوة معنا، وسأتفهّم أيضاً ماذا تعني ومن أين تأتي قسوة الرهبنة، النسائية بشكل خاصّ، وسأتذكّرهنّ، وأعود إليهنّ لاحقاً، لكنْ، ليس للدراسة، فقط لأطمئنّ عليهنّ، وأُطيّب خواطرهنّ، ومتابعة دراسة الدِّين من أجل الاستعداد للقربانة الأولى لاحقاً، وأيضاً متابعة تحيّة (دون بوسكو) الذي (لايهشّ ولاينشّ) مثل حبيبنا يسوع الذي كان يستجيب لطلباتنا دون إهمال.

جنّة الصالحية

يا الله. بدت المدرسة الجديدة مدهِشة للوهلة الأولى. غريبة البناء، وجميلة للغاية. كانت قصراً دمشقياً، يقع في شارع الصالحية القريب من بيتنا. أوّل مرَّة أدخل بيتاً دمشقياً، فكيف لو كان قصراً كهذا؟!! سأصفه لكم، وعليكم أن تتخيّلوه. بناء عبارة عن ثلاثة طوابق، وقبو. له سقف قرميدي، وباحتان. بناء مظهره من الخارج شأن البيوتات الدمشقية كلّها، لا يوحي بالجمال الساحر المختبئ في ثناياه. ما إن تدخل من الباب الخارجي لغرفة المدخل، تستقبلكَ طاولة بينغ بونغ، وبيانو عتيق على اليمين. وعند الحائط الأيسر للمدخل الداخلي الكبير خزائن خشبية فاخرة أو ما يُعرف (بالفيترينات)، وُضعت فيها الكؤوس التي حازت عليها المدرسة (فيترينات عريضة، كانت تُستعمَل لوضع أطقم الصيني الفاخرة وكؤوس الكريستال وباقي الزجاجيات المميّزة الخاصّة بأصحاب الدار سابقاً). هذا المدخل هو عبارة عن موزّع بين أربعة غرف، ينتهي بدرج عند اليمين، يُوصِل

للطابق الثاني. وباب كبير يفضي للساحة أو الباحة الكبيرة الأولى، وهي الرئيسة لتجمّع البنات. أرضيّتها مرصوفة بقِطَع الرخام الأبيض المخطّط بمربّعات سوداء من الرخام أيضاً. تتوسّطها بحرة كبيرة دمشقية مَبنية من الرخام المزخرف. والباحة الأخرى صغيرة، تقع عند باب الخروج، فيها صنابير المياه والمراحيض، لها نفق طويل مسقوف، يصل طوله تقريباً إلى عشرة أمتار، يفضي إلى الباب الخارجي للانصراف، حيث كنّا نخرج منه، لنلفي أنفسنا في بستان كبير مليء بالأعشاب البرّيّة والأشجار، من بينها نخلة مازالت حَيّة وشاهقة إلى اليوم، وحيث اقتُطع هذا البستان لاحقاً ضمن تنظيم الشوارع، وصار جزءاً من بداية شارع الحمراء المحاذي لشارع الصالحية. من هذا البستان، كنّا ندلف إلى حارة ضيِّقة، فيها بعض البيوتات القديمة، وأخرى حديثة البناء، ومنها إلى شارع الصالحية ومحلّ بوظة (دامر) القديم الذي يعرض صور الباعة القدامى بالأبيض والأسود، يحملون حقيبة خاصّة لبيع (الأسكا)(*). وسأعترف أن وجود محلّ دامر مواجهاً لمدرستنا، كان أحد أسباب عشقي لهذه المدرسة. هل من ضرورة لشرح السبب؟؟!

بالعودة للباحة الرئيسة في المدرسة، وقد كانت أرض الديار لساكني هذا القصر وأصحابه. وهي باحة كبيرة متّصلة بعدد من الغرف. تتوزّع فيها أشجار الكبّاد والليمون والنارنج واليوسف أفندي. عند طرفها الأيمن، هناك ستّ قناطر رخامية مغطّاة بالنقوش، خلفها خمس مرايا، يصل طول المرآة إلى مترَيْن، ولها تاج مزخرف ومقعد رخامي، بحيث يمكن للمرء أن يستريح ملاصقاً لها. كانت هذا المرايا شيئاً يشبه السِّحْر، حيث كنتُ أتخيّل أن ملكة هذا البيت، هي مَنْ أصرّت على وجود هذا المرايا في الباحة، لتتخايل

---

*) الأسكا مزيج مجمّد من عصير الفاكهة والماء.

أمامها، وترقص مع أولادها والخَدَم والحَشَم المرافقين لها. أو أن الملك الذي كان يعيش في هذا القصر، كان يحبّ زوجته ملكة قلبه جدّاً، وأراد أن يرى طيفها عبر المرايا كيفما تلفّتت أو مالت وتغنّجت.

لم تكن هذه المرايا الوحيدة في هذا القصر، إذ وضع ملاّك هذا القصر مرآة كبيرة في صدر الغرفة الرئيسة الملاصقة للباحة، والتي أحببتُ أن أُسمّيها غرفة الملكة. وهي مرآة، طولها ثلاثة أمتار، وعرضها أكثر من متر. يحيط بها برواظ خشبي، له تاج مزخرف مميّز مَطلي بماء الذهب. مذهلة هذه المرآة، ومذهل أكثر أن تحاول أن تعرف كيف تمّ رفعها بهذه الدّقّة والحِرَفِيّة. عند هذه المرآة، سأقف طويلاً، أتأمّل نفسي، الأقراط الماسية تتدلّى من أذنيّ، وتاج مرصّع بالجواهر فوق رأسي، حيث ينسدل شَعْري الطويل إلى الأرض، وكي لا يتّسخ، سأرى خلفي في المرآة الخادمات يحملن شَعْري بعناية ورعاية شديدَتَيْن، ويقمنَ بتمشيطه. ثوبي الأحمر المخملي أيضاً سيتدلّى طرفه إلى الأرض، وسيتولّى مُهمّة رعايته الخَدَم الصبيان. هؤلاء الخَدَم الصبيان كانوا يُشبهون أبناء جيراني الصبيان الغلظاء في الحَيّ الذي أقطن فيه، وقرّرتُ مقاصصتهم في الخيال، وجعلهم خَدَماً. وكيف سيعلمون ماذا أرسم لهم في خيالي؟؟

أنا ملكة هذه المدرسة الآن. لا.. ليست مدرسة. هي قصري الذي سأُحلّق فيه مع قصصي، وأركب فيه سُحُب الخيال، وستتولّى إحدى المُعلّمات مُهمّة إسقاطي من فوق هذه السُّحُب في كلّ مرَّة كانت تصرخ، لتُوقظَني من أحلام اليقظة، وأنا أقف قرب مرآة الملكة، أُحادث نفسي بزهو وغرور شديدَيْن:

(يا مرايتي، يا مرايتي .. مين أحلى بنت بهالمدرسة؟).

(انقلعي ع صفّك وليه .. بتضلّي لازقة بهالمراية؟).

في الطابق الثاني العلوي، عدد من الغرف أيضاً، بينها مُوزّع. هنا أيضاً ستجد مرآة في إحدى الغرف، لكنها ليست بروعة تلك المرآة في الأسفل. وصرتُ أعتقد أن مرآة الطابق العلوي مخصّصة للأميرة الابنة، فيما المرآة الكبيرة لصاحبة الجلالة، الملكة.

أمّا الطابق الثالث الأخير، والذي يعلوه السقف القرميدي مباشرة. كان مُغلَقاً، وممنوع علينا أن نصعد إليه. وإلى اليوم، أتمنّى لو أكتشف سبب إغلاق هذا الطابق وكشف أسراره. حيث كثيراً ما تهامسنا حول أسرار هذا الطابق، وبشكل خاصّ سرّ الغرفة العلوية التي كانت بلا أباجور، وكنّا حين نقف خارج المدرسة، نرى طيفاً يلوح منها، ونسمع أصواتاً. بالتأكيد هذا ليس قصراً للأشباح. لكنها مُخيّلتنا التي جعلتْنا ننسج قصصاً كثيرة حول هذه المدرسة القصر. من هذه القصص أن ملكاً وملكة عاشا فيها، وأن الجنود والعساكر والحَرَس تمّ دفنهم تحت البحرة وسط الباحة الرئيسة. وأن هذه الغرفة العلوية حُبست فيها ابنة الملك لسبب ما، وغالباً كان السبب أنها أحبّت واحداً جريئاً من حُرّاس القصر، فتمّت مقاصصتها، وحبسها، حتّى تحوّلت إلى مجنونة أو جنِّيَّة، كما كنّا نُسمّيها، وظلّ شبحها يحوم في المكان، وهي تصرخ، تحاول أن تخرج دون جدوى. أمّا القبو الذي كنّا نرى آذن المدرسة يهبط إليه لوضع الحطب الخاصّ بالتدفئة، حيث زُوِّدت كلّ غرفة بمدفأة صغيرة للحطب، وكنتُ أتشاجر مع البنات لأكون أنا وأنا فقط مَنْ سيتولّى مسؤولية وضع الحطب في المدفأة، ثمّ تأمُّل خشبه وهو يحترق بالنار الحمراء والزرقاء، وانتظار تلك الشرارات التي كانت تطير منه، لتُلامس أصابعي الصغيرة، وتمنحني متعة، لم آلفها من قبل. ذاك القبو الذي

لم ينجُ أيضاً من قصصنا الخرافية، وأنه المكان الذي كان يُسجَن فيه مَنْ يعصي أمر الملك، ومن بينهم الحارس حبيب الجنِّيَّة، والآن وقد تحوّل القصر إلى مدرسة، تمّ تحويل القبو إلى (بيت للفيران) للقصاص. وفي الحقيقة، كان بيتاً للفئران التي كانت تسرح في هذا المكان العتيق بألفة، ووحدها التي كانت تمتلك أسرار هذا البيت القصر، وتعرف أسرار ملاّكه.

أين أصحاب هذا القصر، أيّتها الفئران؟
(راحوا وتركونا). أجابت الفئران.
مَنْ هم؟ سألتُ الفئران مجدّداً.
(من آل العظم ..).
ماذا حلّ بهم؟؟

لم تُجب الفئران. ولم تُخبرني لِمَ تمّ تحويل قصر آل العظم إلى مدرسة حكومية خاصّة بالبنات اللاتي كنّ يرتعدنَ كالفئران لدى رؤية الفئران.

كلّ ما تقدّم لأُخبركم أني عشقتُ المكان من النظرة الأولى، وتقبّلتُ برضى وغبطة وفضول ودهشة وسِحْر أن أتعامل معه على أنه مدرستي الجديدة. مكان بدا مختلفاً تماماً عن مدرسة الراهبات تلك التي بُنيت بأسلوب حديث، كمدرسة صحّيّة ذات غرف واسعة، تدخلها الشمس، وممرّات عريضة، وقاعات للموسيقى، وغيرها. ورغم أنها كانت الأنموذج المعماري الأمثل لمدرسة، إلا أن مدرستي الجديدة، القصر السِّحْريّ، قصر المرايا، قصر الفئران والحكايا والخرافات بدا أجمل ألف مرَّة، حتّى إنه لا يمكن مقارنتهما كمدرَستَيْن. مدرسة الراهبات معتقل دِيني تدريسي جافّ، ونظيف جدّاً ومُعقّم، يخلو من المتعة، فيما قصري الجديد في الصالحية ملعب شيِّق، سيساهم لاحقاً في تطوير مُخيّلتي لنسج الحكايا وحَبْكها وتحوُّلي بفضله إلى كاتبة في المستقبل.

اكتشاف الهويات

في اليوم الأوّل لانضمامي لهذه المدرسة الممتعة، دخلتُ إلى الصّفّ، وقلت للمُعلّمة:

"بونجور مدموزيل".

أجابتْني بصفعة قوية، وهي ترتجف من غضبها:

"بتقولي صباح الخير، يا آنستي. فْهِمْتي وليه؟؟ إنتوا المايعين اللي جايين من المدراس الأجنبية بدي فكّ حنككم هون".

جرّبتُ أن أُخفي دمعتي بكبرياء. جلستُ على أقرب مقعد، والتصقتُ ببنت سمراء، لها ضفيرتا شَعْر أسود طويل، وأنا أحاول أن أتماسك، وخمّنتُ أن التصاقي بها سيمنحني بعض دعمها وتعاطفها، إلا أن هذه البنت نفرت منّي بقَرَف، وكأن عفريتاً قد مسّها، وقالت لي ببغضاء شديدة:

"بَعدي عنّي وليه.. إنتوا المسيحية كفّار".

لم أُجبْها في حينه. والحقيقة أنني وأخوتي لم ننطق بكلمة نابية في حياتنا، لأن القصاص كان ينتظرنا فيما لو جرّبنا المزاح في هذا الشأن، حيث لا تسامح ولا تساهل فيه من الأهل حتّى لو تدخّل يسوع بذاته للعفو عنّا. وهنا أتذكّر الآداب الاجتماعية، وأتمنّى لو أن الزمن يعود، لأقول لها:

"وحدة متلك وليه .." بأقلّ تقدير.

رغم قسوة الراهبات كلهنّ، إلا أنني لا أتذكّر أنني رأيتهنّ يصفعنَ أحداً. لم يستعملنَ العنف الجسدي إطلاقاً. أيضاً لا أتذكّر أبداً أنهن أهنَّ بعض الطلاب المسلمين الذين كانوا في المدرسة الكاثوليكية بشكل استثنائي،

لأنهم أبناء (ذوات). وكيف وأنتَ طفل لم تتجاوز الخامسة ستُميّز بين مسلم ومسيحي؟ ماذا يعني مسلم؟ .. المسيحي أعرفه، وهو الذي يدخل للكنيسة، ويُحيّي (دون بوسكو)، ويركع أمام الهيكل، ويُحيّي القدّيسين جميعهم. أمّا المسلم، فهو الذي لا يدخل، ويبقى خارج الكنيسة إلى حين انتهاء الصلاة. لكننا لم نشتمْهُ يوماً. فقط كنّا لا نفهم الفرق بيننا وبينهم أو لماذا لا يدخل للكنيسة؟

وماذا لو دخل؟...

في اليوم التالي للحادثَتَيْن المُتتاليتَيْن. كنتُ أقف مع أبي وأُمّي عند باب المدرسة قبل أن تفتح أبوابها. جاءت المديرة، وفُوجئتْ بنا. دخل معها والداي، تركاني واقفة في المدخل، وما إن أغلقوا باب غرفتها، علا صوت أبي، تلاه صوت المديرة تُهدِّئ من روعه، صوتها المميّز القوي الذي مازالت ذاكرتي تحتفظ به إلى اليوم. المديرة الخارقة التي استطاعت حلّ المشكلة وترطيب خاطر والديّ بخمس دقائق، وطلبت لهما قهوة ذات رائحة نفّاذة لذيذة. إنها السَّيِّدة خير النساء الحُسيني، وتُنادى بـ (خير النسا). مديرة مدرستنا. المديرة التي لن تتكرّر في التاريخ الدمشقي. حقّاً كانت خير النساء.

قيل لنا إنها كانت تقطن حَيّ المهاجرين. حيث تمتلك بيتاً فاخراً للغاية. هل هي ابنة الشيخ تاج الدِّين الحسيني؟؟ لا أدري. لكنها ابنة آل الحسيني، وامتلاكها لبيت فاخر لم يكن أكذوبة رغم أننا لم نرَهُ أبداً، إذ إن مظهرها الخارجي كان كافياً لتصديق كلّ ما يُحكى عن ثرائها.

صحيح أن أُمّي وعمّاتي وخالاتي وصديقات أُمّي وجاراتنا كنّ يُبدعنَ في تصميم وخياطة أجمل وأحدث الأزياء المستوحاة من الأفلام السينمائية

التي كنّ يتابعنَ حضورها في السينما بانتظام. إلا أن مديرتي التي كانت كبيرة في السّنّ نسبياً، تفوّقت عليهنّ بالأناقة والثراء. ومازلتُ إلى اليوم أتذكّر ماكياجها وتسريحة شَعْرها المصفّف مثل غريتا غاربو، وأحياناً مثل ليلى مراد. أتذكّر ببهاء وإعجاب تايور الشانيل بنقشة (البيديبول) الأبيض والأسود الذي كانت ترتديه مرَّتَيْن على الأقلّ في الأسبوع. له تنّورة تصل حتّى حدود الركبة وجاكيت مُزيّن بأزرار ذهبية مُلفتة، تحمل ماركة شانيل. تحته كانت ترتدي كولوناً أسود من النايلون أو كولوناً من الشبك الأسود، وحذاء (سكربينة) بكعب أسود عالٍ من الجِلْد الطبيعي الذي يلتمع بشدّة. وحين يحين موعد انصرافها، ترتدي قفّازَيْن من الشبك الأبيض أو الأسود، تظهر من فتحتَيْهما أظافيرها الطويلة المقلّمة والمَطلية باللون الأحمر، والخواتم الذهبية المرصّعة بالماس التي تلبسها فوق القفّازَيْن. ثمّ تحمل مظلّة بيضاء أنيقة، لها أطراف من الدانتيل حين يكون الطقس ربيعياً أو في شهر أيلول والتشرينَيْن مع بداية المدرسة. وفي الشتاء لها مظلّة سوداء، إضافة إلى تايورات الشانيل التي ترتدي فوقها معطفاً من الجوخ، وياقة من الفرو البُنّيّ الفاخر. يا لتلك السَّيِّدة! ما أجمل استرجاع صورتها في الذاكرة كنجمة سينمائية أو أميرة هاربة من باريس، ألفت نفسها في دمشق، تتنكّر بزيّ مديرة مدرسة حكومية للبنات!

في اليوم التالي لغضب والديّ، ذهبتْ خير النساء الحسيني إلى وزير التربية أو المعارف، ونجحت في قصاص المُعلّمة الوقحة التي صفعتْني، وذلك بحرمانها من التعليم لمدّة ثلاثة أشهر بلا راتب، ومن ثمّ، نقلتْها إلى منطقة نائية بعيدة عن دمشق. أضفْ إلى ذلك، نجحت السَّيِّدة خير النساء الحسيني، وأظنّ أنها هي مَنْ دفعت إلى استصدار هذا القرار التاريخي، وهو السماح للطلاب والطالبات من الطائفة المسيحية الذين انتقلوا إلى المدارس الحكومية التّأخّر يوم الأحد حتّى الساعة العاشرة، من أجل الذهاب للكنيسة صباحاً.

في الحقيقة، لم يُفرحني قرار العودة للكنيسة صباح الأحد كثيراً، وظننتُ أني تخلّصتُ منها للأبد. لكني فكّرتُ أنه يمكنني المراوغة والتظاهر بالتعب صباح كلّ أحد، من أجل ساعَتَيّ نوم إضافيَّتَيْن، ومن ثمّ الالتحاق بالمدرسة.

كانت أُمّي تروي ما فعلتْهُ خير النساء الحسيني أمام أقربائنا بكثير من التفاخر والزهو، وهي تقول لهم:

"مو طلعت السّتّ خير النسا ربيانة بمدارس راهبات داخلي بلبنان؟؟."

حسناً، ألأن السَّيِّدة خير النساء أمضت مراحلها الدراسية في مدارس راهبات داخلية بلبنان تعاطفت معنا كمسيحيّيْن في مدراس الحكومة؟! .. ماذا لو لم تكن كذلك؟؟ ماذا لو أنها لم تغضب لصفعة المدرّسة لي؟

ماذا لو أنها لم تمسك بيدي، لتُعيد الاعتبار لي، وتدخل إلى الصّفّ، وتُعنّف البنت السمراء التي وصفتْني بالكافرة، وتُحذّرها من تكرار هذا الكلام تحت طائلة طَرْدها، طبعاً بعد أن أبلغت والدَيْها، وعنّفتْهما بحدّة. ثمّ وقفت بشخصيّتها القوية الآسرة. طرقت بكعب حذائها الأسود المدبّب الأيمن مرَّتَيْن، ثمّ قالت أمام البنات جميعهنّ في الباحة، وأنا أقف قربها بزهو شديد:

"رحِّبوا معي بالطالبات المسيحيات. هؤلاء من أتباع سيِّدنا عيسى ابن ستّنا مريم. ألم تقرؤوا سورة مريم في البيت؟؟. تأكّدوا أن أيّ حديث أو سوء معاملة على أساس الدِّين في هذه المدرسة سيصلني بأسرع ممّا تتوقّعون، وسأُوقع أشدّ القصاص بمَنْ ترتكبه. مفهوووووووووووووووم؟؟ "

جلجل صوتها هادراً في باحة المدرسة، وخلتُها لوهلة هي الملكة

صاحبةَ هذا القصر. وكثيرا ما فكّرتُ لمَ فعلتْ مافعلتْهُ بعصبية واضحة.؟؟ هل كانت في قرارة نفسها مقهورة ممّا يحدث في البلد، وغير راضية عنه؟ وما الذي أجبر سيِّدة بهذه الأناقة والثراء والتعليم الأجنبي الخاصّ أن تعمل؟ هل كانت بحاجة حقيقة لسَدّ رمقها؟؟ وماذا كان يحدث في البلد؟

يبدو أن ما يحدث كان عميقاً وصعباً. أتلقّفه من نوبات الغضب التي كانت تصيب أبي من حين إلى آخر إثر عودته من عمله، وتفلت منه بعض الكلمات من مثل: "طار الوزير .. إجا أمين الحافظ .. جنّنونا البعثيّينْ .. أبو عبدو الجحش .. الناصريّينْ بدُّن يرجّعو مُعلّمن .. فشروا .. وزير الدفاع الجديد .. نور الدِّين .. الزعيّن .. صلاح .. عم يلقّطو الشيوعيّينْ .. إخوان .. مخابرات ..." إلخ من هذه الكلمات التي كانت تعكس الحال السياسي الذي يحدث في البلد في النصف الثاني من السّتّينيّات.

ولأنني كنتُ مُصابة بمرض غير واضح المعالم في الطفولة يُفقدني شهيّتي للطعام، كانت أُمّي تأخذني إلى الطبيبة (آغات السبع) للفَحْص الدوري. وبعد إحدى زياراتنا للطبيبة، ركضتُ أنا وأُمّي، واختبأنا في إحدى الأبنية إثر إطلاق نار، ورأيتُ أناساً غاضبين يركضون. كما رأيتُ بأمّ عيني أحد البيوت يحترق، كنّا نقف في منتصف شارع (أبو رمّانة)، وتحديداً قرب حديقة المدفع، ونحن ننظر برعب للبيت الذي يحترق، وكان في نهاية (أبو رمّانة) من جهة الساحة العلوية، وهو الآن البيت ذاته الذي تحوّل في وقت من الأوقات إلى مركز تعليم اللغة الأميركي. كان ذاك بيت أمين الحافظ؟ ربمّا نعم، وربمّا لا .. حيث جرّبتُ أن أبحث عن صاحب هذا البيت في تلك الفترة، وفشلتُ. وربمّا كان لأحد من معاونيه .. المهمّ أني رأيتُ بيتاً يحترق وعساكر وإطلاق رصاص، وكان الأمر مرعباً لطفلة .

أضف إلى ما تقدّم كثيراً ما كان أبي يعود إلى البيت بشكل مُفاجِئ،

ولا يذهب إلى عمله لأيّام. كنّا نستغرب من هذه الإجازات المُفاجِئة، ولا نُسرّ كثيراً، لأننا سنكون تحت عينَيْه طوالَ الوقت. لكننا أيضاً كنّا نفرح كثيراً، لأن أبي الحنون، المُحبّ للضحك والنكات، سيتمكّن خلال جلوسه في البيت من تخفيف قمع أُمّي وسطوتها التربوية علينا جميعاً، وستكون فرصة عظيمة لي للدخول معه إلى الغرفة المظلمة (dark room)، غرفة السِّحْر الجميل التي يقوم فيها بتحميض الصور يدوياً. وفي إحدى المرّات، حضر ومعه رجلان، قام بإخفائهما في خزانة المؤونة السّرّيّة التي يصعب اكتشافها. وأقنعوني يومها أنهما يلعبان لعبة (الطِّمّيْمِة)، وبقيتُ أيّاماً وأنا أقول لهما (فَتّحْ؟)، وهما لا يخرجان إلا لقضاء حاجة، ويتولّى أخي إيصال الطعام لهما بخفّة وسرّيّة تامّة ..

ماذا كان يحدث في البلد؟؟

زوابع ومتغيّرات سياسية مصيرية ستحفل بها مرحلة السّتّينيّات، ستمرّ أمامي كطفلة دون أن أعيها، وتعود اليوم في الذاكرة مثل أطياف هلامية، أحاول أن ألتقطها جيِّداً وأفسّرها، وأفشل.

وأنا، وقد انغمستُ في مدرستي الجديدة، صرتُ كلّ يوم أرتدي ملابس المدرسة التي تُسمّى (صدرية). صدرية تشبه ملابس الممرّضات، لكنْ، بلون طحيني باهت مقيت، فوقها ياقة بيضاء منشّاة، وبعض البنات كنّ يستعملنَ الياقات البلاستيك التي بدأت تدخل إلى البلد مع بداية احتلال الصناعات البلاستيكة لحياتنا كلّها. لم أحبّ هذه الصدرية، وصرتُ أترحّم على (كوستوم) مدرسة الراهبات الذي كان عبارة عن تنّورة مُكسّرة ذات لون كحلي، وفوق صدرية كحلية، بلا أكمام، تحتها قميص أبيض وبابيون. ورغم أنني لم أعشقْه أيضاً، إلا أنه بالمقارنة مع الصدرية التافهة، بدا أكثر أناقة بكثير.

- لماذا علينا الشرشحة في هذه المدراس الحكومية؟!

اليوم أتساءل، لكنني في حينه صرتُ أرتديها دون نقاش، كما أن أهلي ارتأوا أن الشكل الأمثل لشَعْري هو رَبْطه من الجانبَيْن، وليس إلى الخلف (ذنب حصان)، وكانوا يشدّونه جدّاً ومعه يشدّون عينَيّ، إلى درجة أن إحدى المُعلّمات سألتني ذات يوم: "هل لكِ أصول يابانية؟؟!!!". كانت جادّة في سؤالها، وأنا لم أفهمْه في حينه.

إضافة لتسريحة شَعْري التي ميّزتْني باستمرار، صرتُ أحمل حقيبة مدرسية جِلْدِيّة بُنِّيَّة اللون، تُحمَل على الظَّهْر، وأتباهى بغرور، وأغيظ البنات بحقيبتي هذه، وربّما كنتُ أوّل بنت في دمشق، حملتُ هذه الحقيبة الفاخرة التي اشتراها أبي من بيروت، بثمن مرتفع خلال إحدى زياراته للمشفى الأميركي في بيروت. هذا المشفى الذي سيمكث فيه أبي ستّة أشهر متواصلة.وهي ستّة أشهر، أضافها القَدَر والرعاية الطّبّيّة لعُمر أبي. حيث أوصلتْهُ أُمّي بشقّ الأنفس إلى المشفى الأميركي، وهو يكاد يلفظ أنفاسَهُ الأخيرة، واستطاع الأطبّاء أن يطيلوا عمره ستّة أشهر، بمعجزة طبّيّة حقيقية. أبي الشّابّ الجميل الذي سيعود إلى دمشق، وتتدهور عافيته بعد وقت قصير، وسيدخل قَسْرياً، وبحالة إسعافية إلى مشفى المواساة، وسيُحقن بكثير من تلك الحقن المدبّبة المُوجِعَة التي كنتُ أخشى عليه منها، وسيمكث فيها أيّاماً قليلة، ثمّ يموت بعمر الثامنة والثلاثين فقط. وسأكتشف لاحقاً أن ذهاب أبي للاستشفاء في المشفى الأميركي ببيروت، كان بمثابة عصيان، لن ترضى عنه الدولة العظيمة التي كان يخدمها بإخلاص وتفانٍ، وستُقاصصنا عليه بلا هوادة، وسيتسبّب استشفائه عند الأطبّاء الأميركيّيْن بحرماننا من راتبه التقاعدي، وإدخالنا لاحقاً في مرحلة الفقر، إلى حَدّ الفاقة أحياناً.

انهيار سقف بيتنا

صور سوداء تعود للذاكرة تنساب أمامي الآن. لا أتذكّر سوى السواد بعد موت أبي. سواد في حياتنا ومأكلنا ونومنا، وكل تفصيل من تفاصيل حياتنا. لقد انهار سقف بيتنا. مات أبي الجميل، وستنقلب حياتنا كلّها. حتّى إنني سأتدهور دراسياً دون أن أعيَ ماذا يعني موت. وستتدهور صحّتي أيضاً. وسأغيب عن المدرسة لأسابيع وشهور. أنا التي استطعتُ بزمن وجيز من تحقيق أعلى العلامات، والتّفوّق على الطالبات جميعهنّ. سنة سوداء كاملة ستمرّ، سأتعافى منها في العام التالي، وأعود للمدرسة والتّفوّق، ليس في الدراسة فحسب، بل أيضاً سأنجح في الانضمام إلى فريق رياضة الجمباز، والتّحوّل إلى بطلة على مستوى دمشق، ومن ثمّ، الانضمام إلى الفريق الموسيقي، وتالياً فرقة المسرح المدرسي التي ابتدأت فيها التّعلّم على الأكورديون، والمشاركة مع الفرقة بحفل ضخم للغاية، لم نعرف ما هي مناسبته في حينه، سيُقام على مسرح سينما الزهراء، وسيحضره حشد غفير. وبعد تقديم فقراتنا الموسيقية والغنائية، سنصعد إلى مقاعد الجمهور، وسيتقدم منّا رجل طويل، ويُقبّلنا.

"كأني رأيتُ هذا الرجل قبل الآن؟" ..

لم أتذكّره بسبب الضجيج والأضواء والتصفيق الحادّ الذي ملأ المكان.

انغماس كامل بالرياضة والموسيقى مع عدم إهمال الموادّ الدراسية، أعاداني لأكون الأولى على المدرسة. تفوّق كامل في كلّ شيء. لماذا؟ وكيف استطعتُ أن أوفّق بين هذه النشاطات والدراسة دفعة واحدة؟ أتساءل اليوم، وأكتشف أن دموع أُمّي المستمرّة حزناً على موت أبي، كانت السبب الوحيد لتفوّقي. كنتُ أريد أنا وأختي التي تكبرني بسَنَتَيْن أن نفعل

أيّ شيء يُوقِف تدفّق هذه الدموع. أيّ شيء يُفرِح قلبها. كان الأمر شكلاً من أشكال التّحدّي للقهر. مغالبته بالتّفوّق. هو القَدَر الذي يضعكَ في امتحاناته الكبرى. تنجح أو تسقط؟؟

مع انغماسي بالموسيقى، وتفوّقي في العزف، سأصير واحدة من أهمّ عازفات الفرقة المُستقلّة عن المدرسة، وسيتولّى رعايتنا أستاذ موسيقى جميل، سيكون بمثابة الأب الحنون لنا، والحريص علينا كحرصه على أولاده، والذي كان ينهرنا باستمرار، كي لا نتكلّم كلمة واحدة مع شبّان فريق (شبيبة الثورة) الذين كنّا نلتقيهم في البروفات أو كواليس المسارح. وسيتمّ ترشيحي للسَّفَر إلى موسكو في رحلة مع بعض الفِرَق المدرسية. لا أعرف أين تقع موسكو، لكن أُمّي وإخوتي انهمكوا في تحضير ملابس صوفية ثقيلة لي، وهم يُهوّلون الأمر عليّ، ويصفون لي جبال الثلج التي ستغمرني في موسكو، ويكتبون فوق قصاصات ورقية أسماء الهدايا الفضّيّة التي عليّ أن أُحضرها لهم، ومعاطف الفراء التي حلموا بها، وأعطوني مقاساتها (دون أن يكون في جيبي قرش واحد للسَّفَر)، وتجرّأ أخي، وطلب (دون أن تعلم أُمّي) زجاجة فودكا!! ما هذه؟!! دواء؟؟!!.

يا لفرحة تلك الليلة! الأخت الصغيرة (الفصعونة) التي هي أنا ستسافر إلى موسكو؟؟ فرحة انتهت بهاتف ليلي من أستاذ الموسيقى الذي أبلغ أهلي بصوت حزين بأن سَفَري قد تمّ إلغاؤه دون أن يوضح السبب. لكني علمتُ لاحقاً بأنه تمّ استبدالي ابنة ضابط كبير للغاية، ويُعدّ واحداً من أهمّ المشاركين في تأسيس النظام. ابنته التي لا تفقه في العزف، ولا تميّز بين سلّم السقيفة والسّلّم الموسيقي.

"لماذا؟ لماذا هي، ولستُ أنا؟!

سأتساءل بمرارة ودموع، وقهر شديد، دون أن أعرف الجواب في حينه. وحين سأدرك بعد سنوات، سيجتاحني قهر أكبر بكثير.

وسألاحظ أيضاً أن تحالفاً قوياً نشأ بين ابنة الضابط وبين تلك الفتاة السمراء ذات الضفائر الطويلة التي نعتتْني بالكافرة مع بداية دخولي المدرسة، وأيضاً صارت واحدة من أعضاء الفرقة الموسيقية، وسافرت إلى موسكو دون أن أعلم في حينه. تحالف مريب!! ابتدأ طفولياً للتنافس في العلامات بيني وبينهما، أو الحصول على أفضل مقعد مواجه للجمهور في الفرقة الموسيقية. لكنكَ لاحقاً ستكتشف أن هذا التحالف لم يكن طفولياً وبريئاً البتّة، إذ علمتُ أن عائلتَي الفتاتَيْن صارتا أصدقاء، وصارتا تتبادلان الزيارات، ويقدّم الضابط الكبير دعمه كلّه لوالد الفتاة السمراء، وهو مُحام مشهور وطموح؛ وبالتالي لا أعلم ما هي الخدمات التي قدّمها المحامي للضابط. لكن حزني وقهري لغياب والدي الذي كان سندي في الحياة سيتنامیان، وسأفهم المعنى الحقيقي لليُتم، وماحاجة البنت لأبيها، قد قلتُ إن سقف البيت انهار، حقّاً قد انهار.

رغم هذا كلّه، كنتُ طفلة مرحة، تتجاوز مراراتها بكبرياء وحيوية، وأتناسى ما فات بالجلوس مع البنات، بسَرْد النكات، وإضحاكهنّ، والسخرية من بعض الأمور التي تواجهنا في الدروس أو قوانين المدرسة. وإلى اليوم أحتفظ بشهادات المدرسة التي توزَّع عند انتهاء الفصل المدرسي، وهي التي كانت تُسمّى في مدرسة الراهبات (الكارنيه)، أمّا في مدارس المعارف، فتُسمّى(الجلاء). وفي الصّفّ الخامس، كتبت مدرّستي ما يلي في جلائي المدرسي:

(متفوّقة، خلوقة، مرتّبة، نظيفة، لمّاحة، ذكية .... إلخ). وختمتْها بنصيحة لي ولأهلي: (لكنْ، حبَّذا لو تخفّف من السخرية).

أُخفّف من السخرية؟؟ .. لم أفهم المعنى يومها. لكنني وحين ابتدأتُ كتابة القصَّة القصيرة (الساخرة) تحديداً، واكتشفتُ أني كائن ساخر بالمطلق، عادت بي الذاكرة، وتساءلتُ: ماذا لو كنتُ انصعتُ لنصيحة المُعلّمة، وخفّفتُ من السخرية؟ تلك المُعلّمة التي كانت دون قصد ستقتل موهبة، أشكر الله أنه حباني بها، وإلا لما تحمّلتُ هذه الحياة التي ترصدها روحي، بكلّ سخرية.

بنات المدرسة اللاتي أحببتهنّ جميعاً. كما مُعلّمات هذه المدرسة، جئنَ بمعظمهنّ من بيئة متوسّطة، لا فقراء، لا أثرياء. طبقة وسطى، كانت منتعشة في تلك المرحلة الزمنية، وذابت لاحقاً. كما أن البنات كنّ ينتمينَ بمعظمهنّ للبيئة الدمشقية الجديدة، رغم أنهنّ كنّ يُسمعنني قصصاً، ويروينَ حكاياتٍ، يتناقلنها من بيوتهنّ، ويغنّينَ أغانٍ شعبية ونسائية بشكل خاصّ، تعود للبيئة الدمشقية الشعبية التي لم أكن أنتمي لها، بحكم انتماء أهلي لبيئَتَيْن مختلفَتَيْن غير دمشقيَّتَيْن. بالمحصّلة، اكتسبتُ من هذه البيئات الثلاث معارفَ وخبراتٍ، أغنتنَ حياتي بمُجملها، وأحببتُ ظرافة البيئة الدمشقية الشعبية، واطّلعتُ على بعض أسرارها الجميلة، وكانت أقرب البنات إلى قلبي واحدة تُدعى(ندى)، وهي ابنة الفنّان الجميل(عبد اللطيف فتحي) الذي اشتهر بدوره الأشهر (بدري أبو كلبشة). كانت ندى تحكي لنا قصصاً ظريفة، تحفظها عن أبيها، وتقوم بتحفيظنا بعض الأغاني التي تُغنّى في البيت أو في حفلات الاستقبال الشهرية أو الأسبوعية الخاصّة بالنساء، والتي اشتهرت بها بيوتات دمشق حتّى زمن قريب. لكن ندى كانت تأتي باكية معظم الأوقات، و(تُسِرّ لي) معاناتها مع زوجة أبيها، وأكاد أتلمّس الجوع الذي تكابر عليه بكبرياء، وكأنها لا تأكل في البيت، بسبب الفقر أو بسبب الظلم والمعاناة. فصرتُ كلّ يوم أُحضرُ(سندويشة) إضافية أو أتقاسم (سندويشتي) مع الجميلة ندى التي تمسح دموعها، وتأكل،

وتبتدئ سَرْدَ حكاياتها الممتعة. بالمقابل، كنتُ أحكي لندى ملخّصات عن أفلام السينما التي كنتُ أحضرها مع أهلي. أهلي الذين كانوا عشّاقاً للسينما، ويكاد لا يمرّ فيلم في صالات دمشق إلا ويحضرونه. ولأنني كنتُ الصغرى التي يريدون التّخلّص من ضجيجها في المنزل، كنتُ أرافق الجميع. مرّات أذهب مع أخي الوحيد إلى أفلام الكاوبوي، ونجلس في القاعة السفلى المخصّصة للشباب والتصفير، وأنا ألتهم الأسكا باستمرار. ومرّات أذهب مع شقيقتَيّ الكبيرتَيْن المراهقتَيْن إلى صالة الكندي لمتابعة أفلام الرومانس الفرنسية أو الإيطالية، وأتأمّل جمال آلان ديلون وصوفيا لورين ورومي شنايدر وبريجيت باردو، وأخفي رأسي أو أغمض عينَيّ خجلاً حين يبتدئ التقبيل بين الممثّلين(لم تكن الرقابة تقطع القبلات)، وأستمع إلى الآهات الكثيرة التي تنبعث في صالة السينما بحسرة واشتهاء. ومرّات كثيرة أرافق أُمّي وصديقاتها لحضور الأفلام المصرية التي كانت تُسمَّى (فيلم عربي)، وأشعر بالمَلَل من فاتن حمامة رغم جمالها، وأعشق سعاد حسني (اللهلوبة)، وأحاول أن أفهم لماذا يرتدي النجم أحمد مظهر (الروب دي شامبر) الحريري فوق ثيابه في البيت بشكل مستمرّ؟.

كم كنتُ محظوظة أن أهلي من عشّاق السينما، وأوّلهم والدي رحمه الله الذي لم يكن يُفوِّت فيلماً سينمائياً يمرّ على صالات دمشق الكثيرة في السّتّينيّات، وأن أكتشف لاحقاً أن الأمر وراثة، حيث قام اثنان من أبناء عموم والدي في بداية القرن العشرين، بالهجرة إلى مصر، وهناك ساهما في تأسيس السينما المصرية، وأنتجا أوّل فيلم ناطق، وتحوّلا لاحقاً إلى أشهر شركة إنتاج وتسويق (بهنا فيلم). وسيكون لي نصيب في المستقبل بأن أستعمل خزّان ذاكرتي المليء بالصور السينمائية وحبكة الأفلام، وأكتشف أني صرتُ أكتب السيناريو السينمائي والتلفزيوني بيُسر وسهولة مستندة على ثقافة بصرية قديمة غنيّة غنى تلك الحقبة الجميلة.

المسيحية المسلمة

كلّ شيء كان يسير على ما يرام في هذه المدرسة، باستثناء مشكلة وحيدة، سأواجهها مرَّتَيْن في الأسبوع. وهي اضطراري للخروج من الصّفّ خلال درس الديانة الإسلامية.

أوّل مرَّة خرجتُ فيها، ألفيتُ نفسي وحيدة في الباحة، في البرد وتحت المطر. جرّبتُ أن أقتل الوقت ببعض اللعب والاستعراضات أمام مرايا الباحة. لعبتُ وأكلتُ. قمتُ ببعض حركات الجمباز. رقصتُ. غنّيتُ. هذه الحركات كلّها لم تستطع أن تُسلّيني، وأنا أشعر بوحدة شديدة، وباقي بنات صفّي يجلسنَ يتلقّينَ درس الديانة. إضافة إلى ذعري الشديد أن تنزل الجنِّيَّة التي تقطن في الغرفة المهجورة في الطابق الثالث، وتنفرد بي. يا ربّي، ما هذا المأزق؟؟

ها أنذا أخرج من صفِّي، لأني مسيحية. أقف خارج حَرَمَ الصّفّ، كما كان يفعل الطَّلَبَة المسلمون في مدرسة الراهبات، ويقفون خارج الكنيسة.

في المرَّة الثانية، شعرتُ بوحدة أكبر، وضيق شديد. وسأُسلّي نفسي بالتّسلّل إلى غرفة الأرشيف، وإخراج بعض الملفّات، وقراءة أسماء الطالبات اللاتي تخرّجنَ في هذه المدرسة، وسيستوقفني اسم (منى واصف). واو .. كانت تلميذة هنا؟؟ يا للفرحة! أعرفها هذه الممثّلة الجميلة التي تزور جارتنا الممثّلة، وحضرنا لهما أكثر من مسرحية في مسرح الحمراء. لكنْ، هذه التسالي كلّها لن تُسلّيني. وأتساءل: هل سيستمرّ نَفيي من الصّفّ طَوالَ السنة الدراسية؟ وماذا تتلقّى الطالبات في الداخل من أسرار، يُحرَّم عليّ سماعها؟؟

في المرَّة الثالثة، سأطلب من مديرة المدرسة أن تسمح لي بالبقاء

مع الطالبات، وسماع درس الدِّين الإسلامي الذي يتلقَّينه. لن تسمح المديرة بسهولة إلا بعد استئذان والدتي، التي ستوافق على مضض بعد أن اكتشفتْ أنني تعرّضتُ للبرد الشديد في المرَّتَيْن اللَّتَيْن خرجتُ فيهما من الصّفّ. وستُشرف على الأمر بعناية شديدة المديرة الجديدة للمدرسة بعد أن غابت خير النساء دون أن نعلم لماذا. وحلّت المديرة الجديدة السَّيِّدة عفاف. وكنّا نناديها الآنسة عفاف، لأن المُعلّمات كلّهنّ هنّ آنسات حتّى لو كنّ متزوّجات. الآنسة عفاف امرأة جميلة طويلة، بيضاء البشرة ذات عينَيْن زرقاوَيْن صافيَتَيْن، ترتدي منديلاً فوق رأسها، ما يُعرف بالحجاب، ومعطفاً رمادياً طَوالَ الوقت، وحذاء واطئاً. لا تضع على وجهها أيّة مساحيق تجميل، ولا تطلي أظافيرها، ولا ترتدي الشانيل أو المجوهرات، ولا مَنْ يحزنون. فرق كبير وصادم في الأناقة، لكنها كانت حنونة بشكل آسر، وذات صوت رقيق، وكنتُ أشعر أنها راهبة مسلمة.

وسأبتدئ باكتشاف الدِّين الإسلامي وبعض أسراره. وبسم الله الرحمن الرحيم، بدلاً عن بسم الآب والابن والروح القُدُس. ويا غفّار يا غفور، ويا رحمن يا رحيم، ويا جبّار يا معين. ولا إله إلا الله ومحمّد رسول الله.

- مَنْ هو محمّد؟

- الرسول محمّد (ص) عليه وسلّم. أجابت واحدة من البنات.

-هل هو مثل يسوع؟ سألتُ؟

-لا تقولي يسوع. نحن نقول سيِّدنا عيسى بن مريم.

- اسمها مريم العدرا، وليس مريم. أجبتُ.

- لا .. اسمها ستّنا مريم.

- حسناً. احكوا لي عن النبيّ محمّد.

- إيّاكِ أن تقولي محمّد حاف. محمّد (ص) دوماً. مفهوووم؟

- مفهوم.

وسأسمع قصص النّبيّ وسيرته وأحاديثه، وسأتخيّل الصراط المستقيم، وأُجرّب من خلال خبرتي العالية ولياقتي في رياضة الجمباز أن أسير عليه في الخيال بسهولة ويُسر دون أن أسقط على أحد الجانبَيْن. عالم الدِّين الإسلامي الذي سيدفعني لتحدٍّ جديد، كي لا أخرج من جديد للباحة، سيدفعني للاستعانة بجارتنا التي تلبس ملاءة سوداء على وجهها، لتعليمي بعض أصول الدِّين والركوع فوق السَّجَّادة الصغيرة التي اشترتْها لي خصّيصاً، وتحفيظي عن غيب بعض الآيات القرآنية و(ربعية يس)، دون أن تغيب رقابة أُمّي عن الأمر، وحذرها من خبث ما تتقصّده جارتنا لجَرِّي إلى عالم الإسلام. أمرٌ لم أهتمّ له في حينه، ما كان يهمّني أن لا أخرج للبرد من حصّة الديانة الإسلامية. وحيث كنتُ أسارع في درس الديانة إلى تسميع الآيات بمتعة، وأنا ألوّن صوتي قليلاً ببعض الموسيقى التي صرتُ أتقنها من خلال الفرقة الموسيقية. ويوماً بعد يوم، سأتميّز في درس الديانة الإسلامية، وسأُثير غَيْرة البنات، وبخاصّة تلك البنت السمراء ذات الجدائل السوداء الطويلة التي نعتتْني بالكافرة، وسأُثبت لها أنني مسيحية، وأفهم في الدِّين الإسلامي أيضاً، أي تحصيل المجد من طَرَفَيْه. ليستمرّ الأمر طَوالَ العمر مع وجودكَ كمكوّن ديني مختلف في بيئة، تغلب عليها الأكثرية المسلمة، لتكتشف لاحقاً أن ثقافتكَ العامّة في الحياة نصفها إسلامي، ونصفها مسيحي، وبجمع النصفَيْن اللّذَيْن سيُكوِّنان شخصيّتكَ في مراحل لاحقة، ستكتشف أنكَ لم تعد لا مسيحي ولا مسلم، هما فقط

ثقافتان اجتماعيَّتان تُغنيانكَ، ستحترم أهليهما وأعرافهما، لتخرج منهما لاحقاً إلى عالمكَ الرحب، عالمكَ العلماني الجديد.

سرّ الرجل الطويل الغامض

كنتُ وأختي التي تكبرني بسَنَتَيْن معاً في هذه المدرسة. لكن أختي منذ دخولها وحتّى خروجها من المدرسة لم تواجه أيّة مشكلة تُذكَر. كانت متفوّقة ومهذّبة ولطيفة، ومازالت، وكنتُ أُسمّيها (ملاك) ومازالت حتّى اليوم كذلك. أنا التي كانت تُخلق أمامي المشاكل وتحدث معي قصص غرائبية، وإرباكات لا تحدث مع أحد غيري. هو قَدَر يختاركَ من الطفولة، لتكون أحد لاعبيه، تلاعبه حيناً، ويلعب بكَ في معظم الأحيان. لتنتهيا معاً في مصير يختلف عن بقية الناس. لماذا أنتَ دون غيركَ؟!!

في السنة الأولى، كان إخوتي الكبار يقومون بإيصالنا للمدرسة. ولاحقاً صرتُ أذهب مع أختي الملاك. لكن اختلاف توقيت دوامها عن توقيت دوامي في إحدى المراحل، أجبرنا على الاستقلال في الطريق، والاضطرار للذهاب للمدرسة بمفردي.

في الطريق الواصل للمدرسة، كان عليّ أن أقطع شارع الباكستان الذي يفضي في نهايته إلى ساحة عرنوس والصالحية. في بداية الطريق، كان هناك محلّ صغير يبيع (الشّطّي مِطّي)(*) بنصف فرنك. أشتريها، وأتابع لأصل إلى منتصف الطريق، حيث كنتُ أقف كلّ صباح بعد أن يطلب منّي أحد الرجال المدجّجين بسلاح أن لا أتحرّك من مكاني. كنتُ أطيعه كطفلة مهذّبة، وأقف لأتفرّج على مشهد يتكرّر كلّ يوم، إلى درجة أنني حفظتُهُ غيباً،

*) الشّطّي مِطّي. حلوى دمشقية تُصنع من الهلام المجمّد القابل للمَطّ.

وأنا أشدّ (الشّطّي مِطّي) عشر سنتيمترات تقريباً، وأتلذّذ بمَطّها. كانت إلى جانب الرصيف العريض تقف سيّارة سوداء. خلف مقودها يجلس السائق بتأهّب. وعند بابَيْها الخلفيَّيْن يقف رجلان متأهّبان. إلى جانب الرصيف، يوجد بناء بأربعة طوابق، تحته دكّان يبيع البوشار. ومن خلال زجاج درج البناء. تمتدّ يد رجل، لترمي بحصة صغيرة. عند هذه اللحظة المصيرية التاريخية، أي حين تُرمى هذه البحصة، كان الجميع يتأهّب ويستنفر. وبعد أقلّ من دقيقة، يخرج رجل طويل، ينظر إليّ، ويبتسم، ثمّ يُلوِّح لي بسرعة، وأنا أُلوِّح له دون أعرف لماذا، ثمّ يتّجه تحت حراسة مشدّدة باتّجاه السَّيَّارة، حيث يركب معه المرافقان، وربّما ثلاثة مرافقين، وينطلقون بسرعة شديدة. بعدها أتلقّى أنا التي تقف قريبة، إشارة السماح من الرجل المسلّح الذي أوقفَني لمتابعة طريقي.

سألتقي بهذا الرجل الغامض في حفل سينما الزهراء الذي أخبرتُكم عنه مسبقاً، وقبّلنا بعد تقديم فقراتنا الموسيقية والغنائية، ولم أعرف مَنْ هو في حينه. لكنْ، سيأتي يوم لاحق، وتندلع حرب تشرين ١٩٧٣، وسيخرج رجل على شاشة التلفزيون، ويقول:

"نحن لسنا هواة قَتْل وتدمير، إنما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير" ......

سأقفز من مكاني، وأصرخ وأقول لأهلي:

" ييييي .. هادا الرجال اللي حكيتلكم عنه، وما بعرف اسمه، وباسني بمسرح الزهراء، وكنت شوفه كلّ يوم قدّام بيتو بشارع الباكستان، ويعملي باي باي بإيده .. ".

ستضحك أختي الكبرى، وتقول:

-"يخرب بيتِك شو هبلة ... هاد الرئيس".

واو .. حافظ الأسد هو الذي قبّلني مرّة في حفل سينما الزهراء، حيث علمتُ لاحقاً أنه كان احتفالاً بالحركة التصحيحية إثر استيلائه على الحكم، ويُلوِّح لي كلّ صباح أمام بيته في شارع الباكستان، وأنا أشدّ (الشِّطِّي مِطِّي)!! ..

أضحك اليوم كثيراً .. وأحنق على نفسي كيف سمحتُ لرجل غريب أن يُقبّلني حتّى ولو كان رئيساً؟!

الخروج من الجنَّة

خرجتُ من جنَّتي الصغيرة في المرحلة الابتدائية، وانتقلتُ إلى مدرسة المرحلة الإعدادية ومن ثمّ الثانوية. مدرسة باهتة اللون من ثلاث طوابق، من طراز المدارس الحكومية الجديدة. خالية من أيّة جماليات تُذكَر، عدا مديرتها الشَّابَّة الجميلة للغاية، التي ستُذكّرني أناقتها بأناقة خير النساء. لكن هذه المديرة الشَّابَّة ذات القوام الرشيق امرأة ذات شخصية قوية جدَّاً، لا تأتي أو تعود إلى بيتها مشياً على قَدَمَيْها، كما كانت تفعل خير النساء. هذه المرأة تأتي كلّ يوم بسيَّارة مرسيدس، يقودها سائق، وهمست لي إحدى البنات بأنها زوجة أحد كبار الضّبّاط. و"علوية" .

زوجة أحد كبار الضّبّاط، وفهمتُها. لكنْ، ماذا يعني "علوية"؟

وما حكاية مديرات المدارس؟ واحدة ثرية للغاية وابنة حسب ونسب، والثانية ثرية وذات حسب ونسب؟ لماذا تدير هذه السَّيِّداتُ المدارسَ؟ لماذا يعملنَ في الحقل التعليمي تحديداً؟ ولماذا يعملنَ أساساً وهنّ يمتلكنَ هذا المال كلّه؟!

سنتعرّف على هذه المديرة الجديدة الشّابّة في اليوم الأوّل للمدرسة، وعند الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم السادس من تشرين الأوّل عام ١٩٧٣، حيث كان دوامنا بعد الظهر. ستدخل على الصّفّ السّيّدة المديرة، وتقول لنا مع ساعاتنا الأولى في العام الدراسي الجديد وقد بدا وجهها مشرقاً، كما بدت مُتحمّسة وفرحة للغاية:

"حبيباتي .. احملنَ حقائبكنّ، وعالبيت مباشرة .. سوريا تدخل اليوم مجدها الكبير .. ارفعنَ رؤوسكنّ عالياً .. ابتدأت حرب تشرين المجيدة".

عدنا لا نفهم شيئاً ممّا قالته. لكن العودة للبيت لم تكن بالأمر السّيّئ إطلاقاً. إجازة صيفية طويلة، استمرّت لمدّة شهر أو أكثر طَوالَ فترة حرب تشرين. لنعود بعد الحرب، ونعاود الدراسة تحت إشراف هذه المديرة التي ستنتهز أيّة فرصة لتمتدح ترتيب وتفوّق الطالبات المسيحيات، ومن بينهنّ أنا. لم أفهم سرّ دلالها المبالغ لنا، وأفهمه اليوم جيّداً للأسف. وربّما فهمتُهُ في وقت أبكر حين بدأت بعض الطالبات بارتداء الإيشارب (الحجاب) وبدأت أعدادهنّ تتكاثر، ويتجمّعنَ معاً في باحة المدرسة، ويتهامسنَ فيما بينهنّ.

لا أنسى ذاك اليوم الذي فتحت فيه هذه المديرة باب صفّنا، وهي بحالة جنونية من الغضب، وقبل أن نعيَ سبب اقتحامها المرعب للصّفّ بهذه الطريقة، كانت قد انقضّت على طالبَتَيْن ترتديان الحجاب، وصفعتْهُما، ورفستْهما بقسوة شديدة. ثمّ شدّت لهما الإيشارب ومن تحته شَعْرَيْهما، وأسقطتْهما على الأرض وهي تلبطهما بكعب حذائها المدبّب، وتبصق فوقهما، وتصرخ بأعلى صوتها:

"يا بنت الكلب إنتي ويّاها .. بدّي أشحطكن وأخفيكن عن وش الدنية،

إذا بشوفكن مرَّة تانية بالإيشارب". بدكن تخربوا البلد؟؟ بدكن تخربوا البلد؟ ... آ..؟".

لماذا؟؟ .. وكيف ستخرب هاتَان الطالبتان البلد؟؟ ثمّ ما به الإيشارب.؟؟ ممَّ يشكو؟؟ الراهبات يُجبرننا على وضعه على رؤوسنا حين ندخل الكنيسة أو يجبرننا على وضعه على أكتافنا، فيما لو دخلنا بملابس صيفية مكشوفة جدَّاً. أُمّي تضع الإيشارب على رأسها أيضاً حين تُصلّي. جاراتي المسلمات يضعنَهُ. الآنسة عفاف الجميلة في مدرستي الابتدائية كانت تضعه، وكانت كالأمّ الحنون لي. لماذا تُقاصَص هاتَان الطالبتان وباقي الطالبات المحجّبات بهذه القسوة كلّها؟!

لا أنسى دموع هاتَيْن الفتاتَيْن في حياتي. لا أنسى دموعي ودموع باقي البنات، ونحن نحاول أن نُهدِّئ من روعَيْهما، وهنّ يقسمنَ أن لا ذنب لهما، وأن أهلهما هم مَنْ أجبرتاهما على ارتداء الإيشارب. لا أنسى قسوة المديرة وكعب حذائها ينغرس في رقبَتَيْهما، وهما على الأرض. لا أنسى رعبنا من تلك الحادثة التي لم نفهم سببها في حينه. وفهمنا بعدها أن انتشار الإيشارب كان الرمز الواضح والمُعلَن (للأسلمة)، ومن ثمّ بدء الحرب مع الإخوان المسلمين، والتي ستُتوّج في الثمانينيّات في إبادة مدينة حماه.

في هذه المرحلة الإعدادية، لا حوادث سجّلتُها ذاكرتي، باستثناء حادثة الإيشارب، لننتقل بعدها إلى المرحلة الثانوية التابعة للمدرسة الإعدادية ذاتها، لكنْ، ببناء مختلف، وتحمل اسم شهيد. وبدأنا بارتداء البدلة العسكرية (الفتوّة)، والذهاب إلى تدريب الرماية، وحمل السلاح، والزحف في الباحة عند أيّ عصيان، وتلقّي الشتائم والصفعات من مُدرِّبة الفتوّة، التي لم تكن تتوانى عن كسر رقبة البنات، فيما لو سجّلت عليهنّ أيّة ملاحظة، كأن تلحظ إحمراراً في وجناتهنّ، وتظنّه بودرة تجميلية. أو

تلمح سواداً قاتماً ويباساً في رموشهنّ، فتظنّه (ماسكارا). وكنتُ للأسف ضحيّة مُستمرّة لقسوتها، حيث إنني كنتُ في سنّ المراهقة، ولي وجنتان مُتورِّدتان بشكل طبيعي، حتّى إنني كنتُ أعاني من الخجل، ويزداد وجهي احمراراً في كثير من المواقف. لكن هذه المُدرِّبة لم تكن تُصدِّق هذه الخزعبلات كلّها، وتأتي بمنديل ورقي مُبلّل بالماء، وتفرك لي وجنَتَيّ بعنف، لعلّها تلتقطني بالجرم المشهود. وكلّما كانت تفرك وجنَتَيّ، كانتا تزدادان احمراراً وتوهّجاً. فتتركني بعد أن تشتمَني، ويبدو الغيظ على مُحيّاها بعد فشلها المُستمرّ.

كنّا يوماً إثر يوم نتحوّل إلى (عسكر بنات) خاليات من أيّة أنوثة. وذاكرتي هنا لا تختلف عن ذاكرة جميع مَنْ عاش مرحلة (الفتوّة) والتدريب العسكري للبنات، بقيادة المُدرِّبات المحترفات اللاتي انتشرنَ في المدارس. وفيما يخصّ مُدرِّبتنا تحديداً، والتي كانت ذكراً أكثر من أنثى، ونضحك أنها كانت ترتدي بنطلون زوجها. لم تكن وحدها مَنْ تمارس هذه القسوة، إذ كانت تساندها وبحزم المديرة (المسيحية) البعثية، التي لم تكن تتوانى عن إهانة البنات بدون أيّ سبب، وأنا بشكل خاصّ، لأنها كانت تعرف أُمّي. وبنوايا استباقية، وتحاشياً لأيّة محاولة منّي (للمياعة) أو الاعتقاد أنني مَحظيّة، كانت تقسو عليّ، لسبب لم أفهمه أبداً. وحين كنتُ أشكو أمرها لأُمّي، كانت أُمّي تصمت، وتطلب منّي الصبر والصمت. لكني كنتُ أسمع أُمّي حين تهمس لجارتنا أن هذه المديرة (معقّدة نفسياً)، وتُفرغ غلّها في البنات. لكنْ، لماذا أنا دون أن أرتكب أخطاء؟ لأكتشف السبب في وقت لاحق، وهو أن أُمّي أهانتْها يوماً، لأنها رفضت أن تلتحق إحدى أخواتي بحزب البعث، وربّما أُمّي شتمت البعث. لا أدري. ولكني أتمنّى أن أُمّي فعلتْها.

وكمثل مدرسة الابتدائية، لم يختلف الأمر هنا، حيث إن معظم البنات جئنَ من بيئة دمشقية، ومعظمهنّ من البيوت القريبة للمدرسة الواقعة في حَيّ العدوي الحديث معمارياً، باستثناء بعض البنات القليلات اللاتي وُلدنَ في دمشق، لكن أهاليهنّ يتحدّرون من الساحل، وكانت أغلبهنّ يأتينَ بسيَّارات، يقودها سائقون عساكر، وهي من نوع (بيجو) أو (جيب) عسكرية.

أيضاً كانت البنات بمعظمهنّ ينتمينَ للطبقة المتوسّطة، بمَنْ فيهنّ بنات الساحل. لكن مجيئهنّ بالسَّيَّارات العسكرية كان يوحي لبعض البنات أنهنّ أثرياء. والأمر كان مختلفاً تماماً، حيث كانت لي صداقة مع بعضهنّ، ودخلتُ إلى بيوتهنّ، واكتشفتُ أنهنّ يعشنَ معيشة متواضعة جدَّاً أو فلنقل معيشة عادية، باستثناء أن الأب يمتلك وساطات عند اللزوم، والسَّيَّارة المخصّصة له كضابط. وكان واضحاً أنه ضابط متواضع، مُنح هذه السَّيَّارة (الكركوبة) التي كانت تتعطّل باستمرار أمام باب المدرسة. وكنّا نخمّن أن السائق كان يتقصّد تعطيلها، ليكتسب بعض الوقت في مراقبة البنات، حيث كنّا نخرج ضاحكات، جميلات، مراهقات، أوّل ما كنّا نفعله هو أن نُحرّر خصلات شُعُورنا، ونتركها تطير بحُرّيّة في الهواء. ونتخلّص من (الكرافة) العسكرية (والسِّيْدَارَة)(*)، ونفكّ الأزرار العُلوية لقمصاننا، ثمّ نعضّ على شفاهنا، لتحمرّ، ونفرك وجناتنا، لتتورّد، ونمضي ونحن نختال ونسير الهوينى. فيما تلاميذ مدرسة الذكور القريبة لنا، ينتظرون مرورنا العاطر عند زوايا الطُّرُقات، يترقّبون منّا التفاتة أو نظرة، أو ورقة، فيها رَقْم هاتف، تسقط قصداً لاسهواً. لكن هذه الحُرِّيَّة لم تكن لتتوفّر دوماً، حيث كانت المراقبات ينتشرنَ قبلنا في الشوارع، ومن بينهم مديرة المدرسة ومُدرِّبة الفتوّة، وبعض إخوة البنات أو آبائهنّ، وأحياناً، أُمّي.

---

*) السِّيْدَارَة. القُبَّعة العسكرية التي كانت مخصّصة لبدلة الفتوّة.

في هذه المدرسة، وقد اختلف الزمن عن زمن براءة الأطفال، كنتُ أستمع إلى قصص بعض البنات اللاتي كنّ يتبدّلنَ بين ليلة وضحاها، ويأتينَ ليروينَ لنا أنهنّ قد خُطبنَ قبل ليلة، أو كتبنَ عقد (نكاحهنّ) ماذا؟؟؟

كانت هذه القصص مثار فضولي واستغرابي، حيث لا تحدث هذه الأشياء في بيتنا، ومن المحظّر الحديث عن العلاقات أو أيّة إشارات أو إيجاءات جنسية. لكنني كنتُ أتلقّف هذه القصص من البنات، وكانت إحداهنّ تستمع وهي تروي لنا كلّ يوم ماذا تفعل هي وزوجها (بدون دَخْلة). وماذا يعني (بدون دَخْلة)؟ كنتُ أسأل دوماً ببراءة، وكانت البنات يضحكنَ ويتّهمنَني(بالحُوبة). وكي لا أظلّ في مَرمى سخريّتهنّ، صرتُ أسرق مجلات (طبيبكَ) التي تشتريها أختي الكبيرة، وتُخفيها عن أُمّي، وأقرأ تحديداً بريد القرّاء، وأجرّب أن أفهم الأسئلة والأجوبة الكثيرة والمعقّدة .

أسئلة وأجوبة كثيرة ومعقّدة، سأُشكِّل منها ثقافة جنسية نظرية، أستعملها للإجابة عن الأسئلة المحرجة في درس الديانة الإسلامية الذي عدتُ وشاركتُ فيه، كي لا أخرج إلى باحة المدرسة، وكأن التاريخ يكرّر نفسه. درس الديانة الإسلامية الذي اختلف عن عالم الطفولة. هنا يأتي أستاذ، له لحية خفيفة، ويطرق رأسه حين يعبر مسرعاً بين أرتال البنات، وهو يتمتم بالمعوّذات. وخلال الدرس يضطرّ إلى الحديث بخجل شديد عن بعض الأمور ذات الإيحاءات الجنسية، حيث ستتظاهر البنات أيضاً بالخجل، وعدم الإجابة، لأتبرّع أنا بالجواب مزوّدة بثقافتي التي اكتسبتُها من مجلّة (طبيبكَ)، ولأُثبت للبنات اللاتي كنّ يسخرن منّي أني صرتُ مثقّفة.

أمّا ديانتنا المسيحية، فسنتلقّى درساً واحداً مرَّة في الشهر بعد انتهاء الدوام المدرسي، حيث يتمّ تجميع المسيحيات كلهنّ من مختلف الصفوف، وكنّا لا نتجاوز الخمسة أو السّتّة بين مئات المسلمات (اكتشافكَ

لما يُسمّى أقلّيّة)، وتلقّي دروس باهتة كمادّة مقرّرة إلزامية للحصول على الشهادَتَيْن الإعدادية أو الثانوية. دروس الديانة المسيحية التي بدت باهتة ومملّة هنا، وتختلف كثيراً عن مدرسة الراهبات، وشموع الكنيسة، وثوب مريم العذراء الفيروزي، وصور (دون بوسكو)، ونظرات يسوع الحزينة في تلك الأيقونات العتيقة.

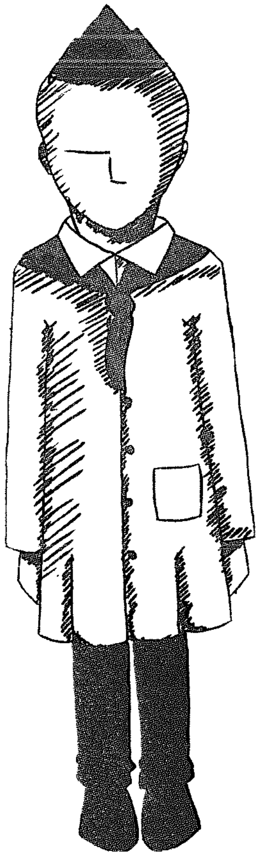

في معهد الأخوّة الخاصّ جدّاً ....

سلام كواكبي

الطفولة

في مدارس البرجوازية "العفنة" سعى أهلي لحصري بعيداً عن العمومي من التعليم. فكنتُ، ومنذ سنتي الأولى المدرسية. والتي تمّت في ظلّ الحركة التصحيحية سنة ١٩٧٠. أمارس التّعلّم نظرياً في ما سمّاه البعثيون بمعهد الأخوّة "الخاصّ"، وهو ما كان يُسمّى قبل تأميم التعليم بمدرسة الأخوّة المريميّيْن، وأحياناً بالشمبانيا، ولا أدري حتّى الآن علاقة هذه التسمية بالمشروب الرائج ذي الفقاعات المتناثرة والتأثير المتنامي بعد الرشفة الأولى. أمّا الخاصّ، فقد كانت "مَكرمة" من النظام التعليمي "الاشتراكي" لتمييز المدرسة التي تضمّ المراحل التعليمية كافّة عن باقي المدارس الحكومية، ولم تكن تعني أيّة ملكية خاصّة للمدرسة، وإنما مُجرّد نظام إداري، يُسمُّونه بالدارجة خفيفة التهذيب "المبْنْدَق". وبالتالي، سُمح هذا التخصيص بالحفاظ على مادّة واحدة مختلفة عمّا يُدرَّس في باقي المدارس، ألا وهي اللغة. وكانت حينذاك الفرنسية هي لغة عليّة القوم، فجرى الحفاظ على فتات، لا بأس به منها. خصوصاً أن تأميم المدارس أتى مع هجوم ينمّ عن عداء فطري للُّغات الأجنبية، وربط تعلّمها بالعدوان وبالاستعمار. وتُوِّجت المرحلة بقيام بأن نُسب الوزير سليمان الخشّ قيامه بإحراق كُتُب تعليم اللغة الفرنسية في ساحةٍ عامّة تذكيراً بعثياً منه بأننا أصحاب تقاليد، لا نحيد عنها في مسألة حَرْق الكُتُب، والكُتّاب أيضاً، إن لزم الأمر.

كانت المدرسة أُحادية الجنس، لا أنثى فيها سوى المُعلّمات. وفي هذا، التزم الرفاق البعثيون، الحاصلون على الحقّ الحصري بحُكم البلاد والعباد، جزئياً، بتقاليدها الكاثوليكية، وأبعدوها عن مشاكل الاختلاط التي يمكن أن تؤدّي، لا قدّر الله، إلى أن ينمو الطفل بشكل طبيعي. دونما وَجَل أو قَرَف من الآخر. كما يحصل في المدارس أُحادية الجنس، كما أثبتت ذلك الدراسات العلمية والتجربة العملية. أسلوبٌ ستدفع مختلف المُجتمعات التي اتّبعتْهُ ضريبة عالية الثمن، تنعكس في أخلاقيات مُنحرفة، وفي أمراض نفسية، وكَبْتٍ، يمكن له أن يؤدّي إلى ما لا تُحمد عقباه.

وكعادة الرفاق "الاشتراكيّيْن" عندما يحكمون، فهم يرسلون بأولادهم، فلذات أكبادهم، إلى المدارس الخاصّة نسبياً إلى جانب بقايا الطبقة الوسطى التي لم يُفقروها بعد والطبقة الثرية التي شاركتْهم الالتفاف على مبادئهم النظرية، وأشركتْهم أو اشتركت معهم في جَني الثروات، من خلال منظومة فساد وإفساد دقيقة التوازن، ومعقّدة التراتبية. وقد حفلت مدرستي بمزيج متفجّر من المكوّنات الطبقية والاجتماعية والدِّينية. وللحقيقة والتاريخ، فقد كان من الصعب، حتّى في سنّ الطفولة، أن لا نعي هذه المسألة، وأن نعيشها يومياً من خلال وصول قوافل السَّيَّارات التي تقلّ أصحاب الخصى الذهبية، على الرغم من وجود خمس حافلات كبيرة مخصّص كلّ منها لحَيّ أو أكثر، بحيث يتمّ نقل الطلاب دون عناء وسائل النقل العامّة أو إشغال الأهالي.

وفي عودة إلى مساعد المدير، وإخلاصاً لقاعدة سلطوية، أثبتت ديمومتها وفعاليّتها طَوالَ عقود، فقد كان يتمّ اختياره من الدِّين المسيحي محاولة لذَرّ الرماد في العيون، والإشارة إلى أن الحكومة التي أمّمت التعليم الخاصّ التابع، في بعض الأحيان، للكنيسة، احترمت أن يكون أحد الذين

يُشرفون عليه من الدِّين المسيحي، فيكون نائب المدير، وليس المدير حتماً. وغالباً ما يكون المدير حزبياً مندمجاً إلى أعلى أذنَيْه في منطق السلطة ومتطلّباتها من مراقبة تصرّفات الأساتذة إلى مراقبة تحوّلات الأولاد وأوليائهم. وطَوالَ سنواتي الطويلة التي أمضيتُها في هذه المدرسة منذ الصّفّ الأوّل، وحتّى نيلي للثانوية، لم يأتِنا، إن لم تخنّي الذاكرة، إلا مُديرٌ وحيدٌ، يمكن أن يُلقّب بهذه الصفة الإدارية، بمعناها الإيجابي. كما أنه كان صاحب علمٍ باختصاصه. وصاحب هدوء وتهذيب في ممارساته وقراراته. ولم تطلْ إقامته، فحلّ مكانه مَنْ هو في الولاء أكثر إبهاراً. وتعاقب علينا مديرون، تُكتب في حيواتهم الروايات. أحدهم، وقد صار مسؤولاً هامّاً فيما بعد، كان بالكاد أُمّيّاً. وله مَروية طريفة، تتناسب مع حجم ثقافته ووعيه، حيث وفي رَدٍّ على طلب استقدام فرقة تعزف الجاز، علّق مستهزِئاً قائلاً: "وما هذه الموسيقى؟ إن أخرجتُ قضيبي، وضربتُهُ على الطاولة، لأَخرَجَ أصواتاً أكثر طَرَباً". هذا المدير الأشمّ، والذي صار مسؤولاً عالياً في الحقل الثقافي، كان من مُحبّي "الكلاش" الديري صيفاً وشتاءً، ممّا أمتع طلاب المدرسة جميعهم بجماليات أصابع قَدَمَيْه، وتطوّر أحجامها طَوالَ سنين. مديرٌ آخر، أضحى فيما بعد مسؤولاً ثقافياً، تميّز بمعرفة من أين "تُؤكَل الكتف" فقد كان بعثياً حتّى النخاع (...) وعندما وقعت أحداث نهاية السبعينيّات، قام، وبسرعة مدهِشة، برفع صورة الرئيس القائد، ومَدّ في أرض مكتبه سجّادة صلاة، ولم ينسَ ركعةً ولا ثنيةً ولا طعجةً إلا وأدّاها طَوالَ شهور، وسرعان ما تبدّلت الأحوال، فعادت صورة القائد لمكانها، واختفت السّجّادة في عمق بئر النسيان.

مساعد المدير كان رحمة للتلاميذ، ممتلئاً طيبةً. ابتسامته لا تفارقه أينما حلّ في جنبات المدرسة المتباعدة. وقد كان متساهلاً للغاية ومُهذباً جدّاً، ممّا جعل البعض من المتفلسفين يعدّه خاضعاً. وقد علّمتْنا الأيّام

والأحداث والنوائب والمصائب بأن الخضوع نسبي. فَمَنْ عاش في ظلّ التّسلّطيّة، ولم يكن خاضعاً في جزءٍ من حياته أو من مواقفه، فليرمِهِ بحجر.

الحافلة رَقْم ٥ (الأوتوكار)

أمّا الحافلات، فلها موقفٌ خاصّ في المدرسة، ولها موقعٌ متميّز في ذاكرتي. لقد كان سائقوها جزءاً لا يُجتزأ من طفولتي. فَهُمُّ الاحتكاك الصباحي الأوّل بالمدرسة وهُمُّ أصحاب الابتسامة المرتبطة غالباً بمرافقة الأهل لي قبل الصعود، وبالتالي، السعي المبرّر وراء الإكرامية السنوية التي يمنحها الأولياء. وتتراوح هذه الإكرامية حسب ثراء الأهل وكرمهم وسلطتهم. فهي يمكن أن تكون مادّيّة بحتة أو خدماتية. فسائق الحافلة من الشخصيات المفتاحية في المدرسة خصوصاً للأهل. فمن المحبَّذ أن ينتظر قليلاً، إن تأخّر الولد عن الموعد. ومن المريح الاعتماد عليه في حالة حصول اعتداء غاشم من ولد آخر شرس، حيث يقوم السائق بالتّدخّل السريع الوقائي أو التأنيبي أو العقابي. كما يمكن للسائق أن ينحرف بحافلته عن الخطّ المرسوم، ليصطاد أحد الأولاد من شارعه، ومن أمام باب غرفته، لصعوبة وقوفه ربمّا أمام باب غرفة نومه. هذه المكرمات الأهلية للسائقين لا تنتقص البتّة من أن أغلبهم ترك ذكرى طيّبة، أسّست، فيما بعد، وعند البلوغ، لصداقة أو ودّ في حدّه الأدنى.

سائق حَيّنا كان أرمنياً، دفء وحزن متلازمان دائماً في مُحيّاه. كثيرٌ من التبغ في أنفاسه المتهدّجة. كان يعمل على سيّارة أجرة خارج أوقات العمل الرسمي. كنتُ أسعى دائماً لأن أكون في مقعد قريب منه، ليس بحثاً عن الجلوس في المقدّمة، بقَدْر ما كان مُحيّاه يُثير التساؤلات في نفسي. لم أكن طفلاً على اطّلاعٍ كافٍ فيما يتعلّق بمذابح الأرمن،

وبهجرتهم إلى سوريا وغيرها من البلاد. كنتُ فقط مشدوداً إلى الحزن الذي صنع الأخاديد في وجهه، وجعله هَرِماً بشكل مبكّر، على الرغم من سنّه غير المتقدّم. كنتُ أسأل نفسي عن سبب حزنه، وبطفولة ساذجة، كنتُ أربطه بمشاكل مالية أو أسرية. لم أنظر أبعد من ذلك حتماً في البداية. بالتأكيد بأنه كان فقير الحال، ومن الممكن أن تكون لديه أسباب عائلية لحمولة الحزن هذه، إلا أن هذا كلّه لا يمكن أن يُفسِّر أخاديد الحزن في مُحيّاه. وطَوالَ سنوات، كنتُ أسأل نفسي بخجل عن الأسباب إلى أن تجرّأتُ وطرحتُ المسألة على أهلي، فكان الجواب الذي أسّس لاحقاً لوعيٍ سياسيّ، ليته لم يحصل. فقد شرحوا لي ما هي مأساة الشعب الأرمني وطبيعة تواجده في سوريا. كما نبّهوني إلى أن وجود الأرمن في سوريا ليس مرتبطاً بمذابحهم الحديثة، وإنما هناك تواجد قديم، يُسمّيه أهل حلب بالأرمن "العتيق".

لقد كانت الحافلة جزءٌ أساسي من يوم الدراسة، ففيها تُنسَج الصداقات، وتُنشأ العداوات، وتظهر سلطات الأهل وسطوتهم. فما أكثر حوادث الصدام اللفظي والجسدي التي كانت تدور عندما يتمّ حجز المقعد المجاور لصديق، ترغب بمبادلته الحديث في أثناء الرحلة. وكم من معركة دارت رحاها، للحصول على إمكانية الجلوس على طرف النافذة ومراقبة الشارع بشعور انتصار، وبزهوّ بالارتفاع عنه لطفل صغير الحجم وقصير الطول. كما أنه، ومع النُّمُوّ والكبر، تصير الحافلة مكاناً أساسياً لتبادل الممنوعات. وبالتأكيد لم تكن حينها الممنوعات لا عشباً ولا مَنْ يحزنون. وأعظم الممنوعات كانت صور السَّيِّدات العاريات. أو التي خُيِّل لنا في عمرنا آنذاك أنهنّ عاريات. المقتطَعَة من المجلات الأجنبية أو التقويمات السنوية الشبيهة بتقويمات سائقي الشاحنات الضخمة على طُرُقات أوروبا الفاسقة.

الحافلة كانت في العتيّ من عمرها، وكانت عالية الارتجاج مع مقاعد داخلها من الإسفنج صار جزءاً من القذائف اليومية داخلها، كما أنه استُعمل في تحضير القذائف الخارجية عبر النافذة المكسورة. حافلتي كان رَقْمها ٥ وكانت عالية النعومة والفرنسة (من فرنسا) مقارنة بخليلاتها الباقيات. وكانت لديّ منذ الصغر نزعة إلى تمثيل وجه السَّيَّارة أو الحافلة بالبشر أو بالشعوب. فكثيراً ما عَدَدْتُ، وزادت قناعتي مع السّنّ، بأن تصميم العربة يرتبط عضوياً بتقاسيم الإنسان الذي صنَّعها. فكنتُ، ولا أزال، أجد نعومة الفرنسي النظرية منعكسة في تصميم السَّيَّارات الفرنسية. كما أنني أجد بأن جدّيّة وصرامة الألماني تنعكس أيضاً في تصميم ما يصنعونه من سيَّارات. وكذا الياباني. أمّا الأميركي، فعُنفه السينمائي وطريقة عيشه ووجهه الذي لا ينمّ كثيراً عن بداهة متطرّفة، ينعكس أيضاً في تصميمه لسيَّاراته. وبالتأكيد، فإن العولمة التي عرفتُها في سنٍّ متقدّمة، محت الكثير من هذه الاعتبارات، إلا أنها كانت شديدة الحضور في الزمن الماضي، وما أكثر الحنين إليها الذي تطوّر لاحقاً. وبالنتيجة، فحافلتي التي لم يكن لها نوع أو هوية واضحة، كانت فرنسية المُحيّا، ومُهجّنة الهيكل. ففي مدينة حلب، ونتيجة الندرة، أبدع سكّانها الأرمن العاملين في الحِدادة والتصليح اليدوي للسَّيَّارات في اختراع الأشكال العجيبة لهياكل سيَّارات، لا انتماء لها. وتطبيقاً لمبدأ من كلّ بستان زهرة، كان المحرِّك ألمانياً مثلاً، وعلبة السرعة يابانية، والفرش الداخلي من غرفة الاستقبال المنزلية، والتابلوه ألمانياً، والهيكل ذا وجه فرنسي وجسد متوسّطي، بحيث تكون المؤخّرة تُشكِّل ضعفَي حجم الرأس. إلخ.

كنّا نغنّي الأنشودات الطفولية في الحافلة طالبين من السائق أن يزيد من سرعته، وللأسف، كان يتجاوب معنا أحياناً. وفي إحدى المرَّات، ونتيجة لضعف هيكل الحافلة، مررْنا على كتلة من أسياخ الفولاذ المُعَدَّة للبناء،

والتفّت إحداها على عجلة الحافلة، ودخلت لتخرج من ساق أحد الطلاب، ويصبح كالمشوي في السيخ. لن أنسى هذه الحادثة ما حييتُ، ولن أنسى وجه التلميذ الذي لم يصدر عنه ردّ فعل مباشر، وإنما بدت عليه الدهشة، وهو ينظر إلى سيخ فولاذي، يخرج من أعلى ساقه، ويرتطم بسقف الحافلة.

في سنٍّ متقدّمة من حياتي المدرسية، وكنتُ في ريعان المراهقة، مررتُ أمام الحافلة ظهراً وهي تلتحف الشمس في بقعتها النائية، وفي عمق المدرسة، وقرأتُ جملة مُركّبة من كلمَتَيْن واسم. وقد كان اسم مساعد المدير الذي أُحبّ وأحترم، وأسرعتُ الخطى باتّجاه مكتبه، حيث كان مُجتمعاً بالمُوجِّهين الأساسيّيْن. ودعاني إلى الدخول، على الرغم من الاجتماع، متحبّباً ودوداً. فذكرتُ له ما قرأتُ على الحافلة بصوتٍ عالٍ. صمتٌ مريبٌ ساد .. نظر إلى المُوجِّهين، ومن ثمّ انتقل بنظرات غاضبة باتّجاهي قائلاً: "ألا تعرف ماذا تعنيه الكلمتان؟"، فأكّدتُ له النفي. فصار يضحك، وتبعتْه جوقة المُوجِّهين ضاحكة، تنظر لي بعيون ملؤها العطف، لأنني لم أُفطَم بعد على العبارات الجنسوية التي يستعملها شُذّاذ الآفاق لشَتْم الناس. ووصل بهم الضحك إلى درجة تافهة من الاستمرار، ممّا أغضبني، ودعاني لمغادرة الغرفة نادماً على أمانتي "العلمية" ونقلي للعبارة كما وردت. لحق بي إثر ذلك أحد الأساتذة قائلاً: "بِدَّكْ فَتّ خِبزْ كْتِيْر، يا اِبْنِي". وما زلتُ أشعر بأنني بحاجة لفَتِّ خبز حتّى سنّي المتقدّمة هذه، لأنه يغيب عنّي الكثير من السوء والسّبّيّة في الجنس البشرية.

حافلتي رَقْم ٥ كانت ما تزل تنام في حظيرة المدرسة، إلى جانب هياكل رفيقاتها قبل أن ابتعدت مدينتي في حزنها. وفي آخر زيارة لي إليها سنة ٢٠١٠، وقفتُ خلف السور الحديدي، أنظر إليها بعينَيْن مليئَتَيْن بدموع يتنازعها الفرح والحزن. بذكريات، كثيرها حلوٌ، ونادرها مرّ. استعدتُها

كشريط سينمائي، من دون ألوان. وكان التلاميذ يتبادلون القفز من نوافذها فرحين مبتهجين. كانت تحدِّثني وتعاتبني على إهمالها في هذه الزاوية الميّتة، من حديقة ميّتة، من مدرسة تموت. مَنْ قال بأن الآلات لا روح لها؟ ألم أذكر بدايةً بأن للحافلة وجهاً يرتبط بتقاليد وحضارة صانعيها؟! حافلتي كانت فرنسية الوجه ناعمة الملامح نحيفة القامة. حافلتي رَقْم ٥ ربمّا صارت لاحقاً متراساً، اختفى وراءه ضحايا كُثُر، وأطلق الرصاص عليه من كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ. لا أظنّها لتحتمل هذا العنف كلّه، ولن تكون قادرة على تجاوُز المقتلة، وهي التي أقلّت طَوالَ سنين الآلاف من الحالمين بحياة سعيدة. ماتت الحافلة رَقْم ٥ كما مات آلاف السوريات والسوريّيْن بعد سنوات عديدة من فترة المدرسة، حيث أدّى القمع والفساد إلى ثورة شعبية، تحوّلت إلى صراع مسلّح، دمّر الحجر والبشر، وصارت شوارع المدينة التي جابتها الحافلة رَقْم ٥ في حلب ركاماً ورماداً، خوفاً ورعباً.

طلائع الحياة السياسية

في سنوات المدرسة الأولى، كان الحضور السياسي غائباً عن مجمل التلاميذ لعامل السّنّ بداية، وللتأطير الناجم عن نسخ نموذج كوريا الشمالية التي يُسمّونها بالديمقراطية، حيث أنشأ البعث منظّمات "شعبية ديمقراطية" للسيطرة على المراحل العمرية كافّة، كما على مختلف المِهَن والاختصاصات العملية والعلمية. وكان من نصيب الأطفال منظّمة "طلائع البعث" للبدء في تنميط تفكيرهم، والحدّ من طموحاتهم، وتخويف ذواتهم، وجعل أغلبهم أو جُلّهم مشروع مُخبرين، بحيث يبدؤون بنَقْل ما يجري في بيوتهم الصغيرة، والذي يسمعونه بآذانهم الصغيرة، والذي يكتبونه بأناملهم الصغيرة. طلائعُ لبعثٍ، كان جزئي الحضور في المدارس الخاصّة نسبياً

كمدرستي، حيث إن التساهل كان أوسع رحمةً على ما كان عليه في المدارس الحكومية. مع ذلك، كانت لدينا أناشيد وعبارات، نُكرّرها دون أن نفهمها غالباً، ومَنْ يسعى للفَهْم في تراتبية غسل الأدمغة! كانت لدينا معسكرات صيفية أيضاً إضافة إلى التدريبات شبه العسكرية والتلقينات شبه الببغائية كلّ أسبوع. كان الأهالي يخشون أولادهم، فيصمتون عن الكلام المباح في الشؤون العامّة أمامهم، كيلا تُنقل أحاديثهم. عن حُسن نيّة أو سذاجة. إلى المُعلّم، والذي سينقلها بالتالي. عن سوء نِيّة أو عن ضغينة أو عن وصولية. إلى مَنْ يهمّه الأمر، فيصير ما لا يُحمَد عقباه بالأهل، إن احتوت تعابيرهم المنزلية على نقدٍ سياسي أو ممارسة "مشبوهة" من أقصى اليسار الشيوعي إلى أقصى اليمين الإسلامي أو حتّى بعثي نقدي.

كبرْنا، فخرجْنا من كابوس طلائع البعث الذي حرم مَنْ لم يكن لديه مساحات أخرى من الطفولة الحقيقية، لندخل في منظومة تأطيرية أشدّ صرامة، تمثّلت باتّحاد شبيبة الثورة الذي يرافق المرحلة الإعدادية والثانوية. انتسبْنا، أو تمّ تنسيبنا جميعاً إلى هذا الإطار شبه العسكري. وابتعد جُلّنا مع دخول سنّ المراهقة عن السياسة التي كانت صنواً للخوف وللمحرومية. بالمقابل، اعتقدتُ أنني سألتفّ على المحرّمات من خلال نشاطي في هذه المنظّمة، فصرتُ أطرح الكثير من الأسئلة في حصص التاريخ والجغرافيا، واستفدتُ من وعيٍ منزليّ، سمح لي بالقراءة غير المقيّدة، والنقاش غير المصاب بالرعب، على الأقلّ، في إطاره الضَّيِّق. ولكنني سرعان ما صرتُ مشاغباً سياسياً طارحاً السؤال تلو السؤال، إلى درجة دفعت بالأستاذ الذي كان يُدرِّس هاتين المادَّتَيْن إلى أن يُطلق عليّ لقب "الجريدة" الذي أسعدني حينذاك، لاعتقادي بأنه مديح مرتبط برغبتي الواسعة في الاطّلاع. ولكنني عندما اكتشفتُ مستوى جرائد بلدي المتوفّرة حينذاك، أُصبتُ بالإحباط لتفاهتها ولغتها الخشبية وضحالة معلوماتها وتملّقها لصاحب

السلطة. فهل كان أستاذي يمدحني؟ أم يشتمني؟ مع تطوّر الدروس والبدء في "الساخن" من الأمور، تبيّن لي بأنه كان يُشجّعني، لكي أُعوّض خوفه وخشيته. لم أعد أذكر شكله تماماً، ولكنه كان النموذج الكاريكاتوري من الأستاذ التقليدي ... كان يلبس طقماً رثّاً ونظيفاً شتاءً أو طقم سفاري، تميّز به البعثيون مع حقيبة يد صغيرة للغاية، كان يخال لنا دائماً أنها للمسدّس الذي يحصلون عليه في مرحلة القلاقل، وما أكثرها في سبعينيّات القرن المنصرم. لقد كان فقيراً كأغلب المدرّسين، حيث إن التّمكّن من إعطاء الدروس الخصوصية كان محصوراً بأساتذة الرياضيات عموماً. وحتّى يصير أستاذ العلوم الاجتماعية في حالة أقلّ فقراً، كان عليه أن يكون ملتزماً حزبياً، وبالتالي، نشيطاً في الأطر النقابية المقيّدة، والتي غالباً ما تسمح له ببعض من فتات المنظومة الحاكمة. وعلى الرغم من أن البعث اعتمد في تأسيسه على المُعلّمين، إلا أن حُكْمه أفقرهم بشكل منقطع النظير، وقادهم إلى البحث عن عملٍ إضافيّ في التدريس الخصوصي أو في أيّ مجال آخر حتّى لو كان عاملاً في معمل في فترة مسائية أو سائق تكسي، إلخ. ووجودي في شبيبة الثورة منحني بعضاً من حُرِّيَّة التّحرّك ضمن إطار المدرسة، فصدّقتُ لوهلة أنني قادر على اختيار مواضيع الاجتماعات التي تُعقَد، فصرتُ أقرأ الصحف القليلة المتوفّرة، وهي نسخُ مملّة عن بعضها البعض، فلا أجد ما يمكن أن يكون مادّةً دسمة لطرحها أمام الآخرين. حينذاك، لجأتُ إلى الإذاعات الأجنبية الناطقة باللغة العربية، وأشهرها البريطانية والفرنسية والأميركية. كان الصراع في أوجه بين الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية بيني وبين والدي. فكنتُ أميل إلى الإذاعة الفرنسية التي سمّوها حينذاك "مونت كارلو" أمّا والدي، فكان يميل إلى الإذاعة البريطانية. وكان الجدل السياسي يحتدم بيننا، فيتهمني بدعابته الدائمة بأنني أتقمّص لغة مونت كارلو، لأتّهمه بدوري بأنه يتقمّص لغة البي بي

سي. الاتّهامات المتبادلة لم تكن تُشير إلى مضمون الحديث، بقدر ما كانت تُشير إلى شكله وإخراجه.

مراجعنا الصحفية المحلّيّة كانت بدايةً محصورةً بجريدَتَيْن، أولاهما، الجماهير، والتي كانت تصل لوالدي بحُكْم عمله الوظيفي، ويضعها في حقيبته، لنتلقّفها عند عودته من العمل أنا وأخي، وكأنها جهاز "آيباد" في عصرنا الحالي. أفقر صحف العالم على الإطلاق شكلاً وموضوعاً. مع ذلك الفقر والجفاف، فقد كنتُ أقرؤها من الصفحة الأولى حتّى الأخيرة دونما كلل ولا ملل. لا يجب أن نخشى على عينَيّ حينذاك، فالجريدة الحلبية الوحيدة كانت مؤلّفة من أربع صفحات، لا أكثر. في مدينة شهدت أربعينيّات قرنها الماضي فورة صحفية، وصلت بعدد العناوين المنشورة فيها، بين يومية وأسبوعية وشهرية، إلى أربعين، أضحت تعيش بملايينها الثلاثة على صحيفة الجماهير المذهلة بفقرها.

لكن "ثقافتي" السياسية لم تتوقّف على ذلك، فقد كانت تصلنا عبر وسائل متعدّدة من تحت الطاولة أو تحت المعطف، جريدة الحزب الشيوعي السوري المَرضي عنه، والمُستقطَب من قِبَل السلطة، ولكنه لم يكن بإمكانه أن يوزّع صحيفته بشكل عَلَني. مفارقة يملك مفاتيحها عقلية سياسية متحجّرة لدى الناشر والمانع. وقد كانت أيضاً فقيرة في الشكل وفي المضمون، ولكنْ، ليس إلى الدَّرَك الذي كانت تقبع في مستنقعاته جريدة الجماهير. فقد حملت صحيفة "نضال الشعب" الشيوعية بعضاً من النقد الخجول الذي كان عملة نادرة في تلكم الأيّام. وينحصر هذا النقد طبعاً بالإدارات الحكومية دونما أيّة تعمّقات فكرية أو إسقاطات سياسية أو أيّ حديث عن منظومة فساد وإفساد معشّشة في أخاديد المُجتمع بحُكّامه ومَحكوميه.

الدِّين في الصِّغَر كالنَّقْش في الحَجَر

أول صدمة إنسانية وعاطفية وأخلاقية عشتُها كانت حين وصلتُ إلى عمر، لا أذكره تحديداً، حضر فيه المُوجِّه إلى الصّفّ طالباً منّا أن ننفصل بين مسيحيّيْن ومسلمين ويهود. فأجبتُهُ بعفوية عن السبب، وكان صوتي متهدّجاً، ويحمل نوعاً من الخوف الذي انتابني لمُجرّد سماعي كلمة الفصل. فقال لي مبتسماً بأن ذلك هو لكي يذهب كلّ من المسيحيّيْن والمسلمين إلى حصص تعليم دينهم منفصلين. فقلتُ له، واليهود، ماذا يفعلون؟ ولم يكن منهم سوى فرد أو اثنَيْن. فقال لي بابتسامة، بدأت ملامحها تتلاشى، بأنهم سيلعبون أو يفعلون ما يشاؤون في هذه الحصص، حيث لا دروس دِين لهم. تابعتُ، دونما التّوجّه إلى المُوجِّه، ولكنني سمعتُ نفسي، وهذا ما رافقني حتّى اليوم، لأقول: ولمَ لا يكون هناك درس مُوحَّد للدِّين؟ سؤالٌ لم يكن متطوّراً في حمولته التي أستعيدها الآن، لكي أُثريها بعد سنين من الاستقطاب الدِّيني الذي ترسّخ وتعمّق في مُجتمعنا، متسائلاً أيضاً عمّا إذا كان الإبقاء على حصة الدِّين كموضوع حضاري تجميعي توفيقي، يشرح من خلاله المُعلّمون مختلف الديانات لذوي مختلف العقائد. ألم يكن ذلك ليُنقذنا أو على الأقلّ، ليُبعدنا عن التخندق والتّطرّف من الأطراف كافّة؟

تعاقب علينا في المراحل المتتالية ثلاثة من أساتذة الدِّين الإسلامي على ما أذكر. أوّلهم، كان مُوجِّه الابتدائية، وهو بعثيّ معتدل الالتزام بعقيدَتيَ البعث والإسلام. ربّما أُعطي حصص الدِّين، ليحصل على ساعات تدريسية، تُحسَب له، ليس في الجنّة فحسب، بل على جدول الرواتب. أقول ربّما وأستغفر ربّي من كلّ سوء ظنّ رسّخت ثقافته عقود الجمر التي رافقت طفولتنا ويفاعتنا وشبابنا وما زالت. كان درسه من أسهل

الحصص، فلا دِين فعلياً إلا ما ورد في الكتاب الرسمي المُزيّن بصورة الأب القائد وأقواله، والتي ربمّا تجاوزت الإشارة إليها ضمنه الأحاديث النبوية الشريفة. كان مطلوب منّا أن نحفظ بعضاً من الآيات القصيرة والأحاديث دونما سعي أو رغبة في الحصول على فَهْم لمعانيها، ليس لافتقاد بعضنا الرغبة، ولكنْ، لرغبة الاستاذ أن يكون هادئاً بعد التلاوات الببغائية بعيداً عن أيّة محاولة لاستنباط معارفه التي أزعم اليوم أنها كانت محدودة للغاية في بحر الدِّين. في تلك الفترة، كان أبي يُلقي علينا بعض الملاحظات المتعلّقة بالطعام أو بالنظافة، مُزيّناً إيّاها بنسبها إلى حديثٍ شريفٍ. ربمّا كان هذا جزءاً من طرافته الدائمة. وكنتُ أنتقل بحديث والدي إلى صفّ الدِّين، لألقيه على مسمع الأستاذ والآخرين، فيقول لي الأستاذ، على الرغم من محدودية معارفه الدِّينية، بأنني اخترعتُ ما أقول، فأرفض بشدّة ناسباً الحديث لوالدي، فيخشى الأستاذ تحويل أصبع الاتّهام إليه، ليقول بأنه لم يطّلع على هذا النّصّ ربمّا.

بعد الأستاذ الإجرائي/الوظيفي، انتقلْنا في نهاية سبعينيّات القرن المنصرم إلى أستاذ آخر، بدت على ملامحه علامات التّشدّد والمعرفة، ربمّا ليست العلمية أو الفلسفية بالنّصّ الدِّيني، وإنما على الأقلّ المعرفة التلقينية، وكأننا في حضرة شيخ طريقة. وكنّا قد بدأنا بالنُّمُوّ العقلي والجسدي. فكان خطابه يتماشى مع المرحلة الزمنية، من حيث مراهنته على صعود الإسلام السياسي، وسيطرته على الحياة العامّة والخاصّة. وفي إحدى المرّات، انتبه إلى تواجدنا قرب سور المدرسة الذي يطلّ على طريق الجامعة. وبالفعل، لم يكن لنا هدف من التواجد سوى إلقاء النظرات القلقة، واستراق الابتسامات الخجولة، والبدء في سلسلة أحلام مكبوتة، من خلال استعراض الفتيات الذاهبات إلى الجامعة. فدخل إلى الصّفّ، وقال بأنه يتأسّف إلى سعينا الدنيوي هذا، وبأننا إن امتنعنا عن هذه الممارسات

غير المحمودة البتّة، فسيكون لكل منّا عشرات الحوريات في الجنّة، مضيفاً وبلهجته الحلبية العميقة، بأنهنّ سيكنّ بلباس البحر. صُدِمنا إلى هذا المدخل الإيروسي إلى درس الدِّين الجديد، وفُجعت بهذه "الرشوة" التي أشعرتْني بأن الدِّين الذي تعلّمتُهُ والمرتبط أساساً بالأخلاق، ينتقل بنا إلى مواضع حسّيّة صادمة. رفعتُ يدي طالباً السؤال، فنظر لي بابتسامة إنسان غير مرتاح عموماً مانحاً إيّاي الكلام، فقلتُ له وبهدوء شديد: أستاذ، ألا يمكن لنا أن نحصل على واحدة الآن، وننسى الجنّة؟ إثر هذا التاريخ، لم يعد مسموحاً لي بأن أحضر دروس الدِّين. وبما أن علاقتي كانت جيِّدة مع مجمل الأساتذة، كما نائب المدير الدائم الذي رافقني منذ الصّفّ الأوّل حتّى الثانوية العامّة، فقد كان أستاذ الدِّين يضع لي علامة معقولة، على الرغم من غيابي الدائم. نوعٌ من الفساد التربوي الحميد على ما أظنّ. بعد فترة، وإبّان الأحداث الدامية التي عرفتْها المدينة في المواجهات بين السلطة والطليعة المقاتلة الإسلامية، نُمِي إلينا بأن الأستاذ كان من ضحايا هذه المواجهات. وأخيراً، أتانا أستاذ دِينٍ إسلاميٍ مؤهّل أمنياً وعقائدياً. فلم يكن بعثياً، وإنما من خرّيجي كُلّيّة الشريعة المُستقطَبين رسمياً، ليكونوا التيّار الدِّيني البديل والمُطيع. حيث كانت المرحلة التي تلت القضاء على الإخوان المسلمين بشقَّيْهما السياسي والعسكري، تستوجب من السلطة أن تُقيم دِيناً رسمياً موازياً، تحاول من خلاله السيطرة على الشارع المحافظ في البلاد. وهذا ما حصل، ودفعت البلاد نتائجه الكارثية لاحقاً. فحيث تعزّزت الظلامية الاجتماعية والإجرائية في الممارسات الدِّينية بعيداً عن أيّ دور سياسي أو تَوعوي للدِّين. الأستاذ الثالث والأخير إذاً حمل هذه الصفات معزّزة بغطاءٍ أمني مطلوب لما للصفوف التي يُدرّسها، وهي في المرحلة الثانوية، من أهمّيّة وخطورة في العقيدة الأمنية، لما سمّيتُهُ لاحقاً بالأمنوقراطية السورية. وبما أنني كنتُ من كارهي هذا الأسلوب في تلقين

الدِّين منذ الصفوف الابتدائية، وبما أنني كنتُ دائم المشاغبة مع أساتذة الدِّين، فقد استمرّيتُ في مواجهة هذا "التيّار" باحثاً عن إقصاءٍ رسميّ عن الحضور أيضاً وأيضاً. ولكن الأمر مع هذا الأستاذ كان أصعب لأبعاده السياسية والأمنية. فكانت لدينا الكثير من المواجهات حول أمور، ما زلتُ أعتقد بأنها خارج نطاق المهمّ في التدريس الدِّيني، والتي كان يُسهِب في شرحها، والحديث عنها. هي أمورٌ تتعلّق بالعبادات وبالخطوات الإجرائية في الممارسة الدِّينية. عموماً، لا أحد من الأساتذة الثلاثة علّمنا الدِّين على أنه رسالة أخلاقية وحامل قِيَم. رسالتهم الأساسية كانت: "إن لم تفعل، فستتعرّض إلى هذا الجحيم وذاك العقاب. وإن فعلتَ ما نقوله لكَ، فستحظى بالرضى كلّه، والهدايا الحسّيّة والعينية".

بيروت مَصيفاً ومُتنفَّساً

قبل اندلاع الحرب اللبنانية، كان لدينا حلمٌ سنوي يتحقّق بشكل متواتر، وهو قضاء إجازتنا في بيروت لدى خالتي التي هربت مع زوجها من تأميم السّتّينيّات وسكنّا في حَيّ الروشة في طابق تاسع، من بناء يُطلّ على البحر، كما على فندق، اشتهر في الحياة السياسية اللبنانية خصوصاً في مرحلة الحرب الأهلية، وهو زال الآن عن الوجود، واسمه "الكارلتون". كان لديّ هَمٌّ يوميّ صباحيّ، يتمثّل بمراقبة سيّارة القمامة التي تأتي لباحة الفندق الخلفية، ويجري تحميلها بمخلّفات علية القوم الذين يرتادون المكان. والملاحظة لم تكن سوسيولوجية، بقَدْر ما كانت بحت عملية: فلم نكن نعرف في حلب سيّارة القمامة التي تضغطها هيدروليكياً. كانت مُجرّد شاحنات متوسّطة أو صغيرة، ترفع القمامة، وتجعلها تتناثر فيما بعد في الهواء بعد الانطلاقة المسرعة للسَّيَّارة. موضوعٌ يبدو ثانوياً للوهلة الأولى،

ولكنه كان يُشكّل جزءاً من وعيي، ومن محاولاتي المبكّرة لاكتشاف الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها الشعوب المتجاوِرة. كما كانت لديّ علاقة انبهارية بآلة توزيع المشروبات الغازية في مسبح الكورال بيتش الذي كانت خالتي أو أحد أولادها يقتادنا إليه. كوب بلاستيكيّ أبيض، يخرج من فُوَّهَة الموزّع، بمُجرّد أن نضع ربع ليرة في الجهاز. عجيبة من عجائب الطفولة. كما وأن المخزن الكبير للموادّ الغذائية كان جزءاً من دهشتي البيروتية، وهو "السبينيس" حيث كنتُ أسعى لشراء الشوكولا، وأهلي يدفعونني باتّجاه ما هو أقلّ ضرراً. بناءٌ جميلٌ، أو هكذا خلتُهُ، صار مهجوراً اليوم، على الرغم من أن أصحابه قاموا ببناء كتلة، لا طعم ولا رائحة لها في نقطة قريبة جدَّاً منه. ربمّا أرادوه شاهداً على الحرب التي عصفت به، كما بغيره، وتركت آثارها على جدرانه.

بيروت كانت لي أيضاً، وأنا في الطفولة، مهرَباً من مدرسة داخلية، أرسلني إليها، مع أخي الذي يكبرني بسنة ونيّف، أهلي ليستمتعوا بإجازتهم الأوروبية بعيداً عن ضجيج الأطفال وطلباتهم غير المنتهية، وأفهمهم بشدّة في سنّي الآن. وكانت المدرسة، في دَيْرٍ جبليّ جميل، يرتاده أبناء "الذوات" من الأطفال اللبنانيّيْن في صيفهم، ليتابعوا دروساً مفيدةً في موادّ علميّة ويلعبوا ما يُحفّز الذكاء من ألعاب، وكان الآولاد ينامون كالدجاج في وقت مبكّرٍ جدَّاً من المساء، ليستيقظوا على صوت تصفيق ساديّ من الأب المشرف، والذي كان ينام في غرفةٍ مجاورة لمهجع كبير، يتّسع لأكثر من ستّين طالباً ذكراً حتماً. وكانت هواية الأب ذاته أن يُتبِعَ تصفيقه بإسماعنا النشرة الصباحية لإذاعة البي بي سي، ونحن أطفال السادسة والسابعة، وما كان هذا ليُزعجني البتّة، ولكنني كنتُ الوحيد على هذه الحال. لم أكن واعياً في تلك الفترة إلى التمييز بين السوري واللبناني الذي تطوّر سلباً مع وبعد الحرب اللبنانية. لكنني شعرتُ بشدّة بحضور المسألة الدِّينية،

بتنويعتها المسيحية، في ريعان طفولتي لبنانياً. فقد كنّا في أثناء الصيف في هذا الدَّيْر الجميل، نُشارك في صلوات النهار التي نُدعى إليها. لم يكن يمنعنا شيء من المشاركة، وحتّى من التلاوة والإنشاد. حفظتُ الكثير من الأناشيد الدِّينية التي ما زال بعضها عالقاً في ذهني. بعيداً عن أيّ حديث في العقائد، كانت الدروس اليومية قصيرة وخفيفة الظّلّ، تليها مباشرة سلسلة من الألعاب في الطبيعة. وعلى الرغم من هذه الجماليات الشكلية والموضوعية كلّها، فقد كنتُ أنتظر بفارغ الصبر حضور أحد من أقربائي أو من أصدقاء أهلي لاصطحابي إلى بيروت في "إجازة" من الإجازة، لأنني كنتُ أشعر بالحبس رغم كلّ شيء.

وسيلة نقلنا من وإلى بيروت كانت قاطرة حمراء اللون على السّكّة الحديدية التي تصل حلب ببيروت، والتي لم تعدْ موجودة في قسمها اللبناني على الأقلّ. "الأوتوموتريس" أو العربة ذاتية الدفع، كان بالنسبة إلى طفل كنتُهُ، رمزاً للعطلة الصيفية. وعلى الرغم من سرعته الضعيفة، فقد خرج عن السّكّة في إحدى المرّات، بجانب مدينة حماه، وجاء أهل المنطقة ليبيعونا موادّ غذائية، تبيّن لنا بسرعة عدم صلاحيّتها للأكل، فنهرتْنا أُمّي عن الاستمرار، ولكننا لم نستمع، بسبب الجوع أو النهم أو كلَيْهما معاً. قليلٌ جدّاً ما ركبنا سيّارة أجرة في هذه الرحلات، ولكننا إن تمكّنّا من ذلك، فقد كانت الرحلة أقلّ متعةً وأكثر خوفاً من قيادة رعناء، تُعدّ جزءاً من التراث الشعبي في مجمل المنطقة. كما أن عبور الحدود كان مرحلة رسمية، لم أكن أفهمها لخلطي الدائم بين البلَدَيْن، ولاعتقادي بأن لا فرق بيننا، ولا حدود تفرض نفسها علينا، بما أن "خالتي كانت هناك".

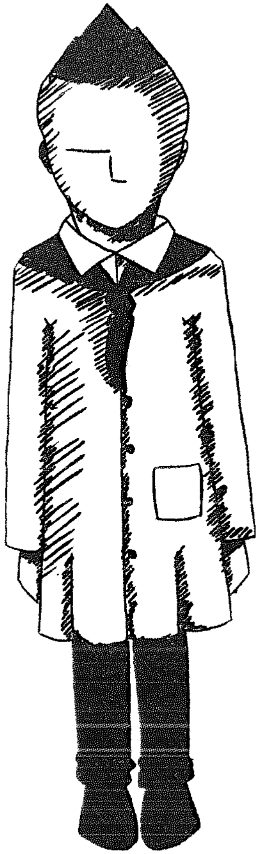

حياة موازية كانت هناك

جزء من سيرة روائية(*)

روزا ياسين حسن

صباحات برائحة اليانسون:

لم تكن نداءات أُمّي المتكرّرة، تلك التي يتصاعد غضبها مع كلّ نداء، ما يُوقظني باكراً كلّ صباح، لأُسرع إلى المدرسة، لكنّها رائحة القهوة بالهيل تعبق في البيت، تأتيني مع صوت راديو مونتي كارولو، أميكو حكمت وهبة أو هيام حموي، الذي يصدح من راديو أُمّي في المطبخ. راديو أُمّي ذاك لم يكن يعمل دون صفعة على غلافه البلاستيكي الأرجواني، ويبدو أشبه بصندوق خردة ضخم منه براديو. طيلة أعوام خطّطت أُمّي لتبديله، وفي كلّ مرَّة، كان ثمّة أشياء أخرى أكثر إلحاحاً لشرائها. في النهاية، اضطرّت لشراء راديو ترانستور صغير، صيني وبائس، بدلاً عنه حين أتى صباح، ولم تنفع الخبطات الغاضبة كلّها عليه، ومن الجهات كلّها: الراديو الأرجواني لفظ أنفاسه الأخيرة! الصباحات المفعَمَة بالقهوة، راديو مونتيكارلو وأغاني فيروز، وحفيف حبّات المطر على النافذة، فلم يكد يمرّ يوم شتوتي هنا في مدينتي الساحلية الصغيرة "اللاذقية" دون مطر. لولا أني مُجبَرة على الذهاب إلى مدرستي، كجندي، عليه الالتحاق بثكنته العسكرية، لكانت صباحات طفولتي البعيدة من أجمل الأوقات!

---

*) أجزاء من رواية ستصدر قريباً.

كان عليّ كلّ صباح قبل المدرسة أن أذهب لشراء الحليب من دكّان "عيّاش" في بداية الحارة على الناصية، أو أغدو إلى الفرن في الحارة المجاورة لشراء الخبز. ثلاثة صباحات للخبز، وثلاثة صباحات للحليب! أقبض على بضعة قِطَع نقدية، وأشحط جسدي النعسان إلى دكّان "عيّاش". هناك سألتقي كما كلّ صباح بالسكرجي ذاته. لم أعرف يوماً اسمه، لكنّنا كنّا نناديه في الحارة: "السكرجي"، لأن أحداً لم يلمحه صاحياً يوماً، دوماً يتطوّح بين الأزقّة، وهو يدندن أُغنيّة ما، غالباً لا يمكن للمرء تبيّن ما هي الأُغنيّة، فمنه تصدر كغمغمات ملحّنة لا غير. أحياناً كنتُ ألمحه في مركز المدينة: في ساحة الشيخ ضاهر أو شارع القوّتلي، لكنه لم يكن يُزعج أحداً، ولم يتحدّث يوماً مع أحد، مع ذلك، كان سكّان الحارة برمّتهم يتجنّبونه، كأنه يحمل الطاعون. يصل "السكرجي" إلى الدّكّان بعدي بقليل، يدفعني جانباً ليطلب من الدكنجي "عيّاش"، بصوت ممطوط لروبوت خرب، "بطحة العَرَق" خاصّته. بحركات أوتوماتيكية يجلب "عيّاش"، المتجهّم دوماً، زجاجة العَرَق من على الرّفّ الثالث على اليمين، يسلّمها له، ووجهه أكثر تجهّماً، يفتح الأخير البطحة من فوره، ويدلقها في جوفه دفعة واحدة دون أن يُنزِل الزجاجة عن فمه حتّى تنتهي. حين سأشاهد في المستقبل إعلانات الكوكا كولا، وهنا نُسمّيه الكازوز، والصبية الغنجة تضع الزجاجة على فمها، وتدلقها دفعة واحدة، لن أتذكّر إلا "سكرجي" حاراتنا وصباحاته الكحولية! لم يكن يخلط العَرَق بالماء أو بالثلج، كما كنتُ أرى والدي وأعمامي يشربون العَرَق، يشربه هكذا صلكّ على الريق، بدون أيّة مازة مرافقة! ثمّ تفوح رائحة اليانسون الواخز في المكان، وهو يتجشّأ، ويُجعلِكُ وجهه. يخبط الزجاجة الفارغة على طاولة "عيّاش" ثمّ يمضي إلى حاله. في قادم الأيّام، سألمح "السكرجي" غالباً في قلب البلد، يتّكئ غائباً عن الوعي في إحدى الزوايا المتّسخة. كانت

أعداد السُّكارى، المجانين، والمشرّدين، تزداد بشكل ملحوظ في مدينتي الصغيرة الأشبه بقرية، نحن الذين كنّا نتباهى بمُجتمعاتنا الشرقية، وبعدم وجود المشرّدين في شوارع مُدُننا، كما هو حال "الغرب"، كلّ منهم يحتلّ زاوية محدّدة، ويتمتّع بسمات محدّدة: امرأة متوسّطة العمر، ترتدي دوماً قُبَّعة عسكرية، وتؤدّي التّحيّة لكلّ مَنْ يمرّ أمامها، كجنرال حرب، قبل أن تطلب نقوداً! كنّا نُسمّيها "العسكري أبو طاقية". شابٌ بمتلازمة داون، وكنّا نُسمّيه: "المنغولي"، يغزل الصوف على قارعة الرصيف أمام باب أهله، لكنه لا يتوانى عن مَدّ لسانه لي، حالما أمرّ من أمام البيت، ثمّ يزعق وأنا أُهرول مبتعدة. امرأة متّسخة ترتدي عشرات الفساتين فوق بعضها البعض، وتتصاعد منها رائحة قاتلة، "أمّ الفساتين" كانت تقرص مؤخّرة كلّ امرأة، لا تعطيها النقود، وتبدأ برَمي الشتائم الجنسية. كانت أوّل مَنْ سمعتُ من فمه أسماء الأعضاء الجنسية وحالات الجنس بالتفصيل، لذلك فقد كانت أُمّي تُجهِّز القِطَع النقدية حالما تلمحها تقترب، فخسارة بعض المال أفضل من الفضيحة في ساحة مكتظّة بالناس كساحة الشيخ ضاهر. هذه المرأة التي كانت تقضي حاجتها على قارعة الرصيف دون أن تعير انتباهاً لأيّ أحد، ستجعل المارّة يتأفّفون مُطوِّحين برؤوسهم يمنة ويسرة، يشتمون، ويمشون مبتعدين فحسب!

"كلّنا سنصبح مجانين في يوم ما، ونسرح في الشوارع"، هذا كان رأي جَدَّتي "جميلة" التي لا تُوفّر فرصة للتّذمّر من حال حياتها، ولكنْ، لهذا حكايات أخرى!

- الله يتوب علينا، ويُحسن آخرتنا.

يتمتم "عيّاش" ككل صباح حالما يشحط "السكرجي" قامته، ويمضي بها، ويزداد تجهّم وجهه تجهّماً، ليزجرني بفظاظة: شو بدَّكْ؟!

كنتُ أتمنّى لو أقول له: أريد أوقية كاملة من السكاكر الملوّنة، تلك التي تزدان متألّقة على الواجهة. لكنّي كنتُ أتحسّس القِطَع النقدية القليلة في راحة يدي بحسرة، وأهمس: كيلو حليب!

كان يخاطبني دوماً كصبيّ! لم أفهم يوماً لماذا، هل أن الشرائط الملوّنة لشَعْري الطويل ووجهي غير الصبياني لا يلفتان نظره؟ مع الزمن، عرفتُ بأن "عيّاش" كان تركمانياً. ففي منطقة سَكَن أهلي، كان هناك الكثير من السّكّان المنتمين للأقلّيّة التركمانية، معظمهم يعمل في التجارة أو تصليح السَّيَّارات، وكان من الصعب على معظم مَنْ عرفتُهم من التركمان، خصوصاً الكبار في العمر، أن يميّزوا بين المذكّر والمؤنّث في اللغة العربية! لكن الأمر الأهمّ الذي لم أكن أعيه وقتها، ولم أعِهِ حتّى خرجتُ من أسر المكان، وبات بمستطاعي رؤية الأشياء من البعيد، أن اللاذقية، مدينة طفولتي، كانت تجمع أشكالاً مختلفة للعيش، كما أشكالاً مختلفة للإيمان والاعتقاد والانتساب. تلك الأشكال كلّها عاشت مُتجاوِرة متوازية ومتقاطعة. وحتّى ذلك الوقت من عمر طفولتي المتأخّرة، كان ذلك التجاوُر سِلْمِيّاً، بل ومثيراً للإعجاب، الأمر الذي لم أكن أشعر به، لأنه ببساطة كان بديهياً، ولأنني، للأسف، لم أكن أعي كُنهَهُ العميق، بل العميق جدّاً. "اللاذقية" في ذلك الوقت كانت مدينة ديمقراطية بحقّ، يعيش فيها المسيحيون، بطوائفهم الشرقية والغربية، والمسلمون، العلويون والسّنّة والمرشديّون، يعيش فيها التركمان والأرمن والعرب وبعض الأكراد، والكثير الكثير من الطقوس الدِّينية والطائفية والاجتماعية المتباينة. الأمر الذي يجعل محلات الكحول في ذلك الوقت تقوم إلى جانب الجوامع أو الكنائس، ويجعل رجلاً تركمانياً متديّناً كـ"عيّاش" يبيع العَرَق في دكّانه، ويجعل كورنيش البحر يغصّ بجماعات من الفتيات المحجّبات وغير المحجّبات معاً، يملأنَ الفضاء بضحكاتهنّ الملوّنة.

"عيّاش اليوم لم يعد يبيع الكحول بحال، وقد سلّم دكّانه إلى أولاده، ليجعلوا منه سوبرماركت "عصري". لا يمكن لأحد أن يراه اليوم إلا عجوزاً بسبحة طويلة، ودشداشة بيضاء، وطاقية المسلمين البيضاء المخرّمة، وهو في طريقه إمّا من أو إلى الجامع.

كم سأتذكّر ذلك كلّه حين سأحمل ابني بعد سنوات طِوال، وأهرب إلى أوروبا من جحيم الحرب في بلدي! هناك سأُجبَر على تعلّم لغة غريبة بقواعد غريبة، وأن أتحدّث إلى سكّان البلد بلغتهم. حين سأُحدِّثهم بألمانيّتي المستحدَثة، سأرى تعابير الاستغراب بادية على وجوههم، استغراب ممزوج بسخرية وعدم فهم، تماماً كما كنّا ننظر نحن العرب إلى التركمان أو الأرمن أو الأكراد، شركائنا في البلاد، حين يُجبَرون على التّحدّث بالعربية. أذكرهم، وتزداد قناعتي بأن "الزمن دولاب دوّار، لا يقف على حال"، كما كانت جَدَّتي "جميلة" تقول، ولكنْ، لهذا حكايات أخرى!

الخبز يستحقّه الأقوى:

أيّام فرن الخبز كانت أشدّ هولاً من دكّان "عيّاش"! فالانتظار لوقت طويل وسط دفعات وخبطات طالبي الخبز، خصوصاً وأن قامتي لم تكن تتجاوز خصورهم، صراخ النسوة ونزق الرجال، كان تجربة جدّ قاسية. الأمر كان يبتدئ بطابور منتظم، كلّ حسب دوره، ثمّ بعد دقائق، يأتي رجل بلباس عسكري، وأحياناً ببيجاما رياضيّة، يزعق بالواقفين، ليفسحوا له مكاناً، يتّجه من فوره إلى كُوّة البيع، يطلب ما يريد طلبه، ليُلبّي الفرّان طلبه صاغراً، وبخفّة، ثمّ يذهب رافعاً منخرَيْه بكبرياء رامقاً الواقفين الواجمين حوله، كأنهم صراصير. لم يكن من الممكن لأحد أن يفتح فمه، **فهناك شعور عامّ يُنبئ الجميع بأن ذاك الشخص لا يمكن الوقوف في**

وجهه! لكنْ، إثر ذلك، يذهب الطابور والدَّور أدراج الرياح، ويأخذ الناس بالتدافع والصراخ، والأشرس سيأخذ خبزه أوّلاً. في معظم الحالات، كنتُ أتأخّر عن المدرسة، لأحظى ببضعة أرغفة، أو ينتهي الخبز قبل أن أستطيع الوصول إلى كُوّة البيع!

- هيك ما بيمشي الحال .. لازم تقاتلي لتحصلي على الخبز.

ينصحني فتى صغير بعمري تقريباً، بلُكْنَة ممطوطة، تسم لهجة أهل البلد. صدريّته مليئة بالبقع، ونصف أزرارها قد ذهبت، لكنه كان كالقرد يتسلّل بين أرجل الواقفين، ويصل أوّلاً إلى الكُوّة. يرمي مشّايته البلاستيكية جانباً، مشّايته التي يرتديها مهما كانت ظروف الطقس، ويغوص في لجّة الأجساد المتدافعة حافياً:

- بدون شحّاطة، أستطيع أن أمرق أحسن.

حين حاولتُ أن أفعل مثله، عدتُ إلى البيت باكية: أزرار صدرية المدرسة نُزعت، شرائطي الملوّنة ضاعت، وحذائي الأسود اللّمّاع أقرب إلى حافر خنزير! كان الأمر أشبه بتدريب بدني على صراعات الحياة التالية. كنتُ أفشل، على ما يبدو، فشلاً ذريعاً في امتحاني الأوّلي. يوماً ما قرّر أبي أن يذهب بنفسه لشراء الخبز كلّ صباح، ليعفيني من تلك المُهمّة المهولة! فقد كان وجهي المحمرّ الباكي والصدرية الممزّقة عند الكُمّ أفظع من أن يتحمّلها. المشكلة أن تأخّري عن دوام المدرسة الصباحي ومنظري المزري كانا يرميانني تحت رحمة عصا المُعلّمة، تلك العصا الخشبية العريضة بطول إنسان التي كانت تتّكئ على طاولتها أقرب من نبض القلب، والتي تهوي على أكفّنا المفتوحة للهواء بغيظ وكره وشماتة، تشبه بالضبط وجه المُعلّمة. جحيم الآلام التالية التي

تُولّدها العصا لا يمكن للمرء تخيّله، فلن يفيدنا فَرْك الجِلْد الرقيق للأكفّ الصغيرة، ولن يفيدنا النفخ عليها بجنون، ولا تبليلها باللعاب الحارّ، الجِلْد سَيَنْتَبِجُ، وتخرج فقاقيع من الماء تحته، خصوصاً حين يكون مزاج المُعلّمة سيّئاً ذلك الصباح، وتنهال على أكفّنا بالعصا، لكنْ، بجانبها الضّيّق، وليس بسطحها العريض! حينها ستتحوّل العصا إلى سكاكين مُثلّمة، تنهش الأيدي. في بعض المرّات، كانت العصا غير كافية لتفريغ غضب المُعلّمة، فكانت ترميها جانباً، وتبدأ الصفع واللطم والقرص بيَدَيْها العاريَتَيْن. في إحدى المرّات، فَقَدَ رفيقنا في الصّفّ وعيَهُ. كان لديه عينان دائريّتان، تميلان نحو الأسفل، وسحنة من الكآبة الدائمة قادرة على ما يبدو على تحفيز غضب المُعلّمة حتّى الأقاصي. لذلك فقد كان ذاك الصبي الأصهب المسكين دريئة المُعلّمة المفضّلة "لفشّ الخلق". عنف العصا، الشتائم بصوت حادّ عالٍ، ورائحة القمع المقيتة كانت كفيلة بجعلنا روبوتات منصاعة، عنف يؤسّس أرواحنا، يبنيها يوماً بعد يوم، لتغدو أرواحاً تحت السيطرة، منفعلة لا فاعلة، تفعل ما يُطلَب منها، تفكّر بما تُؤمَر به، وليس خارج الصندوق المتاح. العنف في طفولتنا المبكّرة كان أداة مُعَدّة ومُفكّراً بها، لفرض السيطرة في بلاد، لا شيء فيها أكثر ثباتاً ورسوخاً من إيديولوجيا السيطرة!

بعد ذلك، لم تكن الساعات الطويلة التي سأقضيها أمام الجمعيات الاستهلاكية بأفضل من ساعاتي أمام أفران الخبز. وإن لم أجلب حصّة العائلة من الرزّ والسّكّر والشاي سنبقى حتّى الشهر القادم بدون تلك الموادّ، فالجمعيات الاستهلاكية التابعة للدولة كانت وحدها المخوّلة ببيعها للمواطنين في زمن سابق من ثمانينيّات القرن العشرين. لم يكن هناك بقّاليات لبيع تلك الموادّ، وإن وُجد، ستكون الأسعار أعلى بكثير من أن يستطيع موظّفان متواضعان، كأُمّي وأبي، دفعها. لذلك كان عليّ

أن أُصبّر نفسي وأنا أقبض على كوبونات الشهر، التي سيُعطونني بموجبها حصّة العائلة من الموادّ الغذائية. أُسرِّع الوقت بأن أخرج بخيالي خارج هذه الرقعة المكانية، بضجيجها وناسها وروائحتها العفنة. كانت الساحة أمام الجمعية الاستهلاكية أشبه بمكبّ للقمامة، ببقع زيت على أرضيّتها الإسمنتية وركام أوساخ. خيالي وحده كان قادراً على أَخْذي خارجاً، خيالي ذاك الذي كان سلاحاً ماضياً في وجه كلّ شيء، لا يعجبني. الخيال الصامت هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن للعنف المحيط أن يسيطر عليه، بل ربّما الأمر معاكس أحياناً، كلّما ازداد العنف يتعملق الخيال. الخيال لا يمكن لأحد أن يُعلّبه في صندوق، الخيال سلاح خطير، قد يصل إلى تخوم خارجة عن السيطرة، بقدر ما هي إيجابية أحياناً وإبداعية، بقدر ما هي خطيرة ومظلمة، وتدفعنا إلى ما لا يمكن للخيال نفسه أن يتصوّره أحياناً أخرى، ولن يعرف أحد متى ستأتي لحظة، وينفجر ذاك التراكم الأسود! استخدمتُ سلاح الخيال كثيراً في طفولتي وشبابي، ومازلتُ أستخدمه إلى الآن، في الحصص الدراسية والاجتماعات الإجبارية، في البيت، في الشارع، في كلّ وقت ومكان!

لكن صراخ الرجل ذي الشارب الثخين الأسود، من وراء طاولة البيع في المؤسّسة الاستهلاكية، يعيدني إلى الواقع: هيييي .. يا بنت، يا سردانة .. أين كوبوناتك؟!

دفتر الكوبونات، الذي تقتطع أُمّي منه القصاصات الورقية شهرياً، كان، في الحقيقة، يشبه دفاتر المدرسة، كُتُب المدرسة، التقارير الاقتصادية المطبوعة التي يجلبها أبي من عمله كلّ حين، كلّها متشابهة: باردة، بدون ألوان، وعليها صورة "حافظ الأسد" تطلّ بسطوتها كلّها، من الجهة العُلوية على اليمين!.

دفاتر ملوّنة بالقائد:

صورة "حافظ الأسد" كانت الصورة الوحيدة الموجودة في كلّ مكان، قبل أن تنافسه صور صناعاتنا "الثقيلة" بعد أكثر من عقد من الزمان: إعلانات العلكة، المحارم، والكازوز، والبسكويت! صور "حافظ الأسد" كانت في الشوارع، على النواصي، في الساحات، على الجدران والأسوار، في المدرسة، في المؤسّسات الحكومية، في المشافي، في التلفاز، وعلى صفحات الجرائد .. في كلّ مكان! حتّى في الأغاني المدرسية والوطنية، كانت صورته تخرج من نغمات الأُغنيّة:

"بعث عروبتنا يحمينا، ويعلّمنا ويربّينا
حتّى يكبر حبّه فينا، قائدنا أسد يرعانا" ..

يغنّي الأولاد، فيخرج القائد من الأُغنيّة. القائد يخرج دوماً إلينا، ومن كلّ شيء حولنا!

رفيقتي في الصّفّ، وهي فتاة نحيلة صهباء الشَّعْر، ووجنتاها مرشوشتان بالنَّمَش المحمرّ، تعيد عليّ دوماً كيف يُجبرهم والدها على الوقوف، هي وأخوتها، حين يخرج "القائد المناضل حافظ الأسد"، تقولها هكذا، على التلفاز، فيؤدّون كلّهم التّحيّة العسكرية باحترام! احترام "الأب القائد" يجب أن يبقى بسطوته حتّى حين نكون وحدنا، ممدّدين في أَسِرَّتنا، مستغرقين في أفكارنا، أو حتّى ونحن في الحمّام! فـ "الاحترام والتبجيل" أمر يجب أن نُجبَل عليه، أن يكبر معنا، أن نتأسّس على دعائمه، حتّى لا يأتي يوم، ونتناساه. هذا ما كان والد رفيقتي يقوله، لكنْ، بدون أن يقوله بجلاء. كان يكفي أن يصفع أحد أولاده صفعة ثقيلة، يتطوّح بعدها كسكران، في حال تلكّأ في إبداء "التبجيل والاحترام" في اللحظة التي يطلّ فيها وجه "القائد

المناضل" بصوته الأبحّ من التلفاز. التلفاز ذاك الصندوق الخشبي الذي كان يراقبنا أكثر ممّا نراقبه. تماماً كما قال "جورج أورويل" يوماً في روايته "١٩٨٤". رواية بقَدْر ما كانت تبدو فنتازية للقارئ البعيد، بقدر ما كانت من حقيقة حياتنا في تلك البقعة، وذاك الزمان، من بلادنا!

جَدَّتي "جميلة" لم تكن تفتح التلفاز إلا على المسلسلات الدرامية، أو لتستمع إلى الأغاني في برنامج "ما يطلبه الجمهور"، أو لتتضاحك على المسرحيات الضاحكة، التي لا تفهم إلا جزءاً يسيراً منها. تؤنّب والدي حين تراه يُنصت إلى الأخبار، ويقطّب ما بين حاجبَيْه. لم تستطع جَدَّتي أن تفهم يوماً السبب الذي يحدو بابنها للاهتمام بالسياسة. ما عدا ذلك كانت تقول لي: "اللي ما إنت قَدّه لا توقّف ضدّه!". فيما بعد سأكتشف بأن جَدَّتي لم تكن تعرف شيئاً عن نشاطات ابنها وأفكاره كلّها، فقد كان يواري أسراره عن الناس كلّهم، وأوّلهم أمه، ولكنْ، لهذا حكايات أخرى!

"حافظ أسد، يا عيوني .. لبسه لبس الليمونة" ..

يهزج رفاقي في الفرصة، فيخرج "حافظ أسد" إلى ساحة المدرسة، وتتغيّر رائحة الجوّ المحيط:

"لمّا بنزل على الباحة .. بيقشّر لي تفّاحة
لمّا برجع ع البيت بيطعميني خبز وزيت"!!

هل كان من الممكن لـ "حافظ الأسد" أن يقشّر لي تفّاحة؟!! يخطر لي هذا السؤال دائماً. ولا أفهم كيف كان من الممكن أن نُقنع الصغار بأن ذلك الرجل المتجهّم برأسه الكبيرة، الموجود في كلّ مكان، ذاك الذي تُثير

صورته هذا التّوتّر والرعب كلَيْهما في أرواحنا، سيصبح في لحظة مبهَمة رفيقاً للصغار، "أباً" حقيقياً، رفيقاً مرحاً يصاحبنا؟!!

كذبة كبيرة تلك التي كنّا نُجبَر على الترعرع معها كلّ لحظة من لحظات طفولتنا البعيدة.

كانوا يقولون بأن الحفاظ على صورة القائد مادّيّاً، ومعنوياً كذلك، هي من أهمّ واجبات الرفيق الطليعي، باعتبارنا كلّنا، تلاميذ المدارس الابتدائية، رفاقاً طليعيّيْن، وننتمي، أوتوماتيكياً، إلى "طلائع حزب البعث". نرتدي كلّنا لباسنا الباهت الموحّد، بالـ"فولارات" التي تُطوِّق أعناقنا كقيد، والقُبَّعات التي يجب أن نُثبِّتها جيِّداً على رؤوسنا الصغيرة. "صفوفنا المنظّمة" وزيّنا الموحّد وغيمة الخوف التي ترافقنا تجعلنا نشبه بالفعل طلائع جيش زاحف من الأطفال، يغنّي: "للبعث، يا طلائع، للنصر، يا طلائع ..".

أتوماتيكياً سينتقل أولئك الأطفال الطليعيون، ليصبحوا رفاقاً في منظّمة "شبيبة الثورة"، حين سيصبحون في المدرسة الإعدادية، ومن ثمّ الثانوية. هناك سنتحوّل كلّنا إلى جيش حقيقي زاحف إلى المدارس، بلباسنا العسكري، ودروس التربية العسكرية "الفتوّة" التي كانت تُعطَى لنا أسبوعياً. كانت تُسمّى لسبب ما "الفتوّة"! لم أعرف إلى اليوم لماذا كانوا يسمّونها "الفتوّة"، ربّما تلطيفاً لاسمها الرسمي الحقيقي المزدان في البرنامج الدراسي الأسبوعي: "التربية العسكرية"!! حين أفكّر اليوم بالأمر، أعترف بقدرة ذلك النظام الهائلة على زرع فكرة جذرية في عقولنا نحن الذين كنّا أطفالاً، والذين كنّا سنصبح كباراً، بأننا في حرب دائمة مع عدوّ خارجي وداخلي متوحّش وشرس، وعلينا كلّ صباح أن نرتدي ثياب القتال العسكرية، نتهيّأ للحرب، ونحن ذاهبون لنتعلّم. ليس المهمّ ماذا نتعلّم، المهمّ أننا غادون بعتادنا العسكري الكامل، لنصرخ بملء حناجرنا كلّ

صباح، وقبل أن نتوجّه إلى صفوفنا الدراسية شعاراتنا "الوطنية" اليومية، والتي يجب أن نحفظها كأسمائنا، كما كانت تصيح مديرة المدرسة، تلك التي جاهدتُ لأنسى اسمها، ثمّ "مُعلّمة الفتوّة" الآنسة جهينة في المدرسة الإعدادية والثانوية، وهي، في الحقيقة، "مُعلّمة التربية العسكرية":

أمّة عربية واحدة.

فنزعق رافعين سواعدنا اليمنى إلى الأمام: ذات رسالة خالدة.

تعود لتصرخ: أهدافنا.

فنجيب بشكل تلقائي: وحدة .. حُرِّيَّة .. اشتراكية.

ثمّ نردّد "العهد" في كلّ صباح كالروبوتات الملقّنة: أن نتصدّى للإمبريالية والصهيونية والرجعية، ونسحق أداتهم المجرمة عصابة الأخوان المسلمين العميلة.

يُرمى في لاوعينا مفردات، لا نعي معناها تماماً، وغير مطلوب منّا أن نعي معناها، المهمّ أن نعيدها ونعيدها حتّى تترسّب ثابتة في لاوعينا. وإن أتى يوم وتسرّب شيء مخالف لها من اللاوعي إلى الوعي، بخطأ معرفي ما، ستكون النتيجة كارثية، تماماً كما سيحدث بعد عقود حين سيصرخ أطفال سوريون: "الحُرِّيَّة"، لكنْ، بنغمتها الحقيقية، وخارج جدران المدارس، ويدفعون أثمان ذلك مئات آلاف القتلى، ودمار ثلاثة أرباع البلد! ولكنْ، لهذا حكايات وحكايات أخرى!

لكن تلك "الأداة المجرمة" التي كنّا نُقسم على سحقها كلّ صباح، تبدّت لي في يوم بشكل حقيقي، وليس كجملة مُجرّدة لا معنى لها. ذات صباح ارتدت تلك الجملة لحماً ودماً وأسماء، وارتبطت بمشاعر وذاكرة.

إرهاصات حرب مبكّرة!

هناك أحياناً تعليقات قصيرة، جمل بسيطة، كلمات أُلقيت على عجل بدون تفكير، يظنّها الكبار مضت مع الريح، لكننا، نحن الصغار، نلتقطها كرادارت فطنة، ونعيد إنتاجها مع الزمن.

"أسرعوا أسرعوا إلى الباحة الداخلية".

صاحت المُعلّمة، ذات الشَّعْر الأشقر بلون الحنطة، بصوت مذعور، لا يفارق أذني.

„اتركوا كلّ شيء، واركضوا ..".

صوتها المذعور كان كفيلاً بجعلنا نخرج من تحت مقاعدنا الخشبية التي اختبأنا تحتها حين لعلع صوت الرصاص من خارج المدرسة الابتدائية قبل قليل. قبل دقائق فقط، كان ذلك الصوت نفسه، الذي سمعتُهُ في سوق „العنّابة" قبل شهور قريبة، يصمّ آذاننا ونحن في الصّفّ. كنتُ لحظتئذ أكتب قصيدة جديدة لـ „سليمان العيسى"، أنقلها من كتابي الذي تُزيّنه رسومات „ممتاز البحرة" المحبّبة المشرقة:

„أرسم ماما، أرسم بابا بالألوان
أرسم عَلَمي فوق القمم، أنا فنّان ..".

أكتب بقلم الحبر الجديد الذي لم أعتدْ على استخدامه بعد، فلم يكن مسموحاً لنا إلا استخدام أقلام الرصاص. استخدام أقلام الحبر مع زجاجات حبر „هيرو" الصينية المثيرة للاهتمام، وأوراق „النشّاف" التي أجفّف حبر القلم عليها، كلّما سكب حبره زيادة عن الحدّ، كانت بالنسبة إليّ وسيلة

للانتقال من عالم الصغار إلى عالم الكبار الأكثر تعقيداً، والمليء بأدوات وأشياء غريبة: كالكتابة بالحبر! صوت إطلاق الرصاص جعلني أنسى الحبر، أرتجف بكُلّيّتي، وتشكّلت بقعة كبيرة على صفحة دفتري، كانت كفيلة بتوجيه عقاب صارم لي مع تأنيب، وربّما عدّة ضربات من عصا الآنسة، لكن شيئاً من هذا لم يحدث!! فقد رجّ الصّفّ فجأة بانفجار عظيم آت من الخارج، عرفنا بأنه انفجار، لأن المُعلّمة زعقت: „انفجار"، ثمّ أني لم أعد أسمع بأذنيّ، وتساقط زجاج النوافذ على المقاعد القريبة من النوافذ.

„اختبئوا تحت المقاعد .."

زعقت المُعلّمة من جديد، لكني لم أسمعها، قرأتُ حركة شَفَتَيْهَا، ورأيتُ رفاقي ينزلقون بسرعة تحت المقاعد حتّى الذين وقع الزجاج فوقهم. فانزلقتُ بدوري. كنتُ أسمع صوت ضربات قلبي، وألمح الدماء تسيل من رأس رفيقي قبالتي، كما يسيل الرعب من عينَيْه. في تلك اللحظة، كانت عيناه مختلفتَيْن جدّاً عن شكلهما حين كان يغازلني بقبلات طائرة في الهواء، وأتمنّى أن تنشقّ الأرض، وتبتلعني خصوصاً حين تهمس البنت التي خلفي: متى سيكون عرسكما، يا عاشقَيْن؟!!

ربّما كان هو أيضاً بدوره يراقب الرعب وهو يسيل من عينَيّ المختلفَتَيْن!

في الباحة الداخلية، اجتمعت المدرسة كلّها، لن أنسى ذلك العدد الهائل من مراييل المدرسة باهتة اللون التي تتراكم فوق بعضها في القاعة. الجميع كان يريد الذهاب إلى المرحاض، مَنْ لم يسعفه الوقت بالَ على مريلته. رأيتُ الكثير من المراييل ببقع غامقة في الوسط، ووجوه خجلة واجمة. يومذاك كان هناك الكثير من البكاء والعويل، الخدود مبتلّة والمفرزات المخاطية تغطّي الكثير من الشِّفاه. المُعلّمات الشاحبات يحاولنَ

إدارة الأمر بذكاء، وذلك بأن يُسكتنَ بعنف كلّ مَنْ يسأل ولو سؤالاً صغيراً! وهناك وفي ذلك اليوم سمعتُ لأول مرَّة كلمة „الأخوان المسلمين".

حين ستُفرج المُعلّمات عنّا في وقت متأخّر من بعد الظهر، سنسير كالمسرنمين باتّجاه بيوتنا. المكان المحيط بالمدرسة يُنبئ باندلاع حرب: حرائق وسيَّارت شرطة وركام على الأرض .. لكنْ، ثمّة صمت واجم في الشوارع. لا يوجد بشر، لا شيء إلا ترقّب ورائحة الشوارع مليئة بالخوف. اليوم وأنا أتذكّر ذلك، أستطيع أن أشمّ الخوف الذي كان يومذاك مجدّداً. من بداية الشارع، لمحتُ أبي آتياً، ليبحث عنّي، يرتدي معطفه الجوخ الرمادي ذاته، الذي ظلّ لأكثر من عشر سنين يرتديه، عيناه تنطقان بتعابير، لا يمكنني أن أشرحها: نظرات العيون. هل يمكن لأحدكم أن يتخيّل كيف تكون بعض النظرات؟ وماذا تقول؟ وكم من الأمداء الهائلة تفتح؟! العيون نوافذ الأرواح، نوافذ تُعرّي دواخلنا، وتلك النظرات المبثوثة منها هي الشيء الذي لا يمكننا نسيانه.

تعبير الرعب الذي بثّه أبي لي حينما لاقاني في بداية الشارع سمّرني مكاني، رعب ممزوج بارتياح وحُبّ وغضب، يلاحقني منذ تلك اللحظة. أخذني بين ذراعَيْه، وحينها فقط بكيتُ. في الحقيقة نظرته كانت البؤرة الأساسية في الحدث. كما كانت نظرة اللوم في عينَي أُمّي بؤرة أحداث كثيرة لاحقة وسابقة. ومازلتُ حتّى اللحظة أعاني من خوف اللوم. يحرقني سائل حامض من حَنْجَرَتي وحتّى معدتي. اللوم .. اللوم، ليس هناك أقسى من هذا الشعور. ولكنْ، لهذا أحاديث أخرى.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم، بقيت الكوابيس تلاحقني كلّما أغمضتُ عينَيّ. أرى مجموعات هائلة من البشر محشورة في مكان ضيّق ومظلم، وروائح بشعة تحاصرني. أهبّ مذعورة، فأرى ضوء المصباح

فوقي، الذي تركتُهُ مناراً تلك الليلة، كأنه أطياف أشباح شرّيرة تحاول خنقي، فأغطّي نفسي باللحاف. في طفولتي طالما اقتنعتُ بأن تغطية رأسي باللحاف كفيلة بحمايتي من الأشباح الشّرّيرة المنتشرة دوماً حولي، ألفّ نفسي به، ولا أُبقي إلا أنفي خارجاً لأتنفّس. قالت لي رفيقتي في المدرسة ذات الشَّعْر الأحمر مرَّة، ونحن عائدتان على طريق المدرسة، بأن الأرواح الشّرّيرة من الممكن أن تدخل من فتحَتَي الأنف إلى داخل الجسد، وتستوطن هناك. كانت قد رأت ذلك في فيلم رعب، عرضوه قبل أسابيع على القناة التلفزيونية الوحيدة الموجودة في مدينتنا. كانت تختبئ وراء الباب، وتراقب التلفاز الذي تشاهده أمّها وأخوتها الكبار، فيما كانوا يعتقدونها نائمة. من يومها وأنا حريصة أن أغطّي أنفي كذلك باللحاف. أسأل أختي الصغيرة: هل يبدو لكِ أني تغيّرتُ؟!!

سيحتاج الأمر إلى سنين طويلة، لأعرف ما الذي جرى حقّاً في ذلك اليوم المشؤوم الذي يكاد لا يغيب عن ذاكرتي، والذي تكرّس وازداد رسوخاً عبر حوادث كثيرة أخرى ومشابهة. سأعرف ما جرى بسبب بحثي الشخصي عنه، فلم ينبس أحد في بيتنا بنأمة حول ما حدث، كما لم أسمع كلمة عن الأمر، لا في المحيط الدراسي ولا العام! كمثل أشياء كثيرة حدثت، واعتقد والداي بأنها ستُمحى بمُجرّد عدم الخوض فيها أو الحديث عنها. أعتقد بأنهما كانا يحاولان حماية طفولة بناتهنّ، تلك التي ستُخدَش في حال معرفة أشياء لا تراعيها! هذا ما كانا حقّاً مخطئَيْن للغاية بشأنه. فأن لا نخوض في الكلام عن حدث ما لا يعني بأنه تبدّد أو زال من أجندة تاريخنا، بل على العكس ربّما كان عدم حديثنا عنه هو ما سيخلق له هالة قدسية، تحنّطه في الذاكرة إلى النهاية:

يومذاك كانت السلطات تهاجم مخبأ للأخوان المسلمين في قبو بناية،

أو „وكراً" كما يحلو للسلطة أن تُسمّيه، تلك البناية، التي يحتلّ مخبأ الأخوان المسلمين القبو منها، كانت بالصدفة قريبة جدّاً من مدرستي. نحن تلاميذ تلك المدرسة هم مَنْ دفع ثمن حرب السلطة مع معارضيها الإسلاميّيْن، كما دفعت البلاد برمّتها أثمان حرب السلطة ذاتها ضدّ معارضيها، مختلفي الاتّجاهات، في سبيل البقاء في كرسي الحُكْم! وربّما منذ ذلك الوقت، بدأت أولى الشقوق في جسد مدينتي المتعدّد الملوّن والجميل، وبدأ العيش المشترك لمختلف التّنوّعات الدِّينية والطائفية والإثنية والسياسية يعاني من وعكة صحّيّة، ستتطوّر مع الوقت، لتغدو مرضاً مزمناً. كما ستبدأ الشقوق في مناطق أخرى من البلاد تتّسع وتكبر، خصوصاً بعد مجزرة حماة، التي لم أعرف بها إلا بعد أن أصبحتُ في سنتي الثانية من الجامعة، أي بعد أكثر من عشر سنوات على حدوثها!

أنا ابنة البيت المعارض المثقّف أعرف بمجزرة كمجزرة حماة بعد هذا الوقت كلّه؟! مجزرة راح فيها عشرات الألوف من المَدَنيّيْن، وتدمّرت نصف مدينة، لا تبعد أكثر من ١٥٠ كيلو متراً عن مدينتي اللاذقية؟!! أنا التي أنتمي إلى عائلة كبيرة، فيها ما فيها من المعارضين والمعتقلين السياسيّيْن، وصديقة للكثير منهم! أنا ابنة كاتب، لم يكلّ يوماً من الكتابة ضدّ الديكتاتوريات والتابوهات والسلطات المختلفة!

- لكننا في بيتنا أيضاً، لم نتحدّث بها يوماً .. وحتّى اللحظة.

قال لي يوماً صديق من حماة، خسرت أسرته ستّة من أفرادها في المجزرة.

- الصمت لطَمْر ما حدث، الصمت للنسيان، الصمت لمقارعة الطغيان، الصمت للبقاء والمواصلة ..

أردف.

الصمت كان سلاح الذين بقوا من جيل أهالينا، ذاك الذي كان عليه أن يخوض حرب بقاء ووجود. إمّا الصمت أو سيدفع الأبناء ما دفعه الآباء، من حيوات مسفوحة في المعتقلات أو في المنافي أو تحت التراب. إذاً غريزة البقاء، التي حفّز النظام السوري وحوشها في داخل كلّ سوري، هي التي بقيت حتّى النهاية. ربمّا لو كنتُ مكانهم، لفعلت الشيء نفسه مع ابني، فالكلمة قد تكلّفني خسارته، وهذا ما لا أستطيع كأمّ تخيّله. وذاك الصمت الذي بقي لسنوات يعتصر الحناجر أتى يوم وانفجر، بغضبه كلّه، انفجاراً، أذهب بالحجر والشجر. وراح جيلنا يحمّل جيل الآباء مسؤولية ذلك الصمت. لكنْ، هل نحن مُحقوّن؟! وهل أمكنهم أن يقارعوا ذلك الطغيان كلّه؟! وهل كان من الممكن لنا، إذاً، أن نتقبّل آباء وأمّهات دونكيشوتيّينْ معلّقين كصور على الجدران، وغائبين كحضور من لحم ودم وحُبّ؟! ولكنْ، مهلاً، لهذا حكايات أخرى!

بقينا طويلاً بعد تلك الحادثة بدون زجاج لشبابيك صفّنا. علّقنا بدل الزجاج قطعة من النايلون الشّفّاف بالمسامير. اتّسخ النايلون مع مرور الوقت، وصار رمادي اللون، وعليه بقع غامقة. لكن الوقت لن يطول حتّى يتغيّر كلّ شيء، وتدخل في يوم ما مديرة مدرستنا الابتدائية، التي كانت ترتدي دوماً „تيّورات" من موضة الثمانينيّات موشّاة بزهور أو وريقات أو بقع، تضجّ بالألوان الصاخبة، إلى غرفة صفّنا. وجهها كان شاحباً وحزيناً بصمت على غير العادة. فقد كان قبلاً مليئاً بصخب وعنجهية طاغية. قالت للمُعلّمة إننا سننتقل كلّنا من المدرسة، وستتحوّل المدرسة إلى مقرّ لحزب البعث. ربمّا كانت يائسة، بسبب من أنها ستتجرّد من منصبها كمديرة للمدرسة! لكن ما حدث بعد ذلك كان أشبه بالكارثة، فقد انتقلت مدرسة ابتدائية كاملة، مؤلّفة من أربعة طوابق، لتذوب في مدرسة ابتدائية أخرى. الأمر الذي جعل الصفوف الدراسية الجديدة تكتظّ بشكل لا يُطاق

بالتلاميذ، والباحة لم يعد بها متّسع للّعب. طيلة السَّنتَيْن التاليتَيْن سنقضي أيّام مدرستنا في صفوف تكتظّ بأكثر من سبعين تلميذاً وتلميذة، وفي باحة لا يمكننا إلا الوقوف فيها، فاللعب أو الركض كان كفيلاً بجعل عصيّ المُعلّمات، أولئك اللواتي يتناوبنَ على مراقبة التلاميذ في الباحة، تطال أيّ جزء من أجسادنا الصغيرة، لا يهمّ رأس أو ذراع أو ساق، لنعدل عن أيّة فكرة تتعلّق باللعب في الباحة. أمّا مدرستنا القديمة المهلهة، فقد غدت مختلفة تماماً عمّا كانتْهُ بدهانها الجديد، وسورها المعدني، وثمّة عَلَم عملاق لحزب „البعث العربي الاشتراكي" على واجهتها، بجانبه صورة طولية بحجم العَلَم لحافظ الأسد. سننتقل كلّنا إلى مدرسة أخرى غريبة، اسمها „ابن سينا"، ستبقى بالنسبة إليّ غريبة وبشعة طيلة سنواتي دراستي فيها، رغم أني لطالما أحببتُ العلاّمة „ابن سينا" الذي سُمّيت المدرسة باسمه، ولكنْ، ظلّ شعور المحتلّين يلاحقني الوقت كلّه. كانت مدرسة لغيري، وليست مدرستي، وأنا أتيتُ كمحتلّة إليها. رفيقتي ذات الشَّعْر الأحمر كانت تستمتع بذلك، تقول لي متشفّية: „أخذنا لهم مدرستهم!! هيء هيء هيء".

لكنْ، ليس هذا ما كان يجعلنا نحفر على خشب المقاعد بأيّة أداة حادّة نمتلكها: شكلات الشَّعْر، نهايات أقلام الرصاص المدبّبة، المفاتيح، أو حتّى حصى مدبَّبة صغيرة، نحصل عليها من الطُرُقات. كنّا نكتب أسماءنا، نرسم قلوب صداقة، وأحياناً يكتب بعضنا كلمات بذيئة، كالكلمات البذيئة والرسوم الجنسية التي كانت حيطان حمّامات المدرسة الثانوية وأبواب المراحيض تمتلئ بها. رائحة نشادر بول خانقة، مكان ملوّث بالفضلات، وقذارات تمتلئ الأرض بها، هي حمّاماتنا! لكننا لم نكن نشعر بأن ما نفعله خاطئ. حتّى حين كنّا نأتي صباحاً لنرى بعض المقاعد مكسّرة، وعلى الجدران واللوح رسومات بشعة وشتائم، كان الأمر يثير ضحكنا المكبوت،

كما يثير حنق المُعلّمة التي تستدعي مدير المدرسة من فورها، ليجلدَنا بدقائق طويلة من التقريع واللوم والتأديب، وقد يختمها بعقوبات جماعية، تطال الصّفّ كلّه. لم يكن الأمر يجعلنا نشعر بالذنب، كلّ ما كنّا نفعله بمرافق المدرسة وأثاثها لم يكن يُشعرنا بالذنب! فالمقاعد ليست مقاعدنا، والمدرسة ليست لنا، تماماً كما كانت الشوارع ليست لنا، فلا ضير من إلقاء الأوساخ فيها، وكما كانت المرافق العامّة، الأرصفة، الحدائق، وحتّى الأشجار ليست لنا! كان لدينا إحساس مقيم، لكنّه غير واعٍ، بأن مدينتنا ليست لنا، شاطئ البحر ليس لنا كذلك، وكل ما حولنا يُنبئنا بأن إحساسنا صحيح: أنتم لا تملكون شيئاً! ولستُم سوى ضيف، في بلاد يملكها „الأب القائد″ وحزبه „حزب البعث″ ومَنْ يحكم إلى جانبه. بلادنا لم تكن لنا، وذلك الإيمان بالواجب تجاه البلاد، الذي يملكه مَنْ يشعر بأن البلاد بلاده، وبأن عليه الحفاظ عليها، لم نشعر به يوماً، اللّهمّ إلا في ذلك اليوم الذي أتى بعد عقود، والذي شعرنا فيه بأن من الممكن للبلاد أن تعود لنا، إحساس جعل مئات الآلاف تخرج في شوارع البلاد، يقودها حلم استعادة البلاد. ولكنْ، لهذا أيضاً حكايات كثيرة أخرى!

الموز وطلائع البعث:

من غرفة الصّفّ، تهبّ ريح باردة. البرد كان الحقيقة الصباحية الوحيدة في الغرفة العارية إلا من المقاعد الخشبية العتيقة، اللوح الذي كان لونه أخضر غامق في يوم من الأيّام، صور „حافظ الأسد″ وعَلَم ثورة البعث، ورائحة غريبة هي مزيج من أنفاس التلاميذ، التي مازالت عالقة منذ البارحة في الجوّ، ورائحة بَرِي أقلام الرصاص وسندويشات اللبنة الحامضة. في الزاوية هناك ثمّة خردة معدنية مدوّرة، كان ينبغي أن تكون مدفأة، وكان

ينبغي أن تُرسِل قليلاً من الدفء في فضاء غرفة الصّفّ. لكن مستحقّات المازوت لهذا الشهر كانت قد انتهت. في الأسبوع الماضي، مرّ مدير المدرسة على الصفوف كلّها، ومنها صفّنا، وقف بالباب مكشّراً بقَرَف، وهو يصيح بالمُعلّمة:

„افتحي النوافذ قليلاً، رائحة الصّفّ خانقة .."، ثمّ قالها بصوت جهوري ووجه متجهّم، كما هو دائماً: „مخصّصات المازوت آيلة للنهاية، اقتصدوا في استخدامها، وإلا ستقعدون بدون صوبيات وتدفئة".

لكنْ، للأسف يبدو أنها انتهت. لذلك كان علينا أن نراقب تلك الخردة الباردة، التي اسمها صوبية، ونحن نرتجف تحت معاطفنا. بعد قليل، ستعمل أنفاسنا على تدفئة الغرفة تدفئة طبيعية، ليخلعَ معظمنا جاكيتاته، ويرميها بين قَدَمَيْه، لأن الممرّ بين المقاعد الخشبية المتراصّة كان ينبغي أن يظلّ نظيفاً، في حال أرادت المُعلّمة أن تدور بين تلاميذها.

حين دخلتُ مرّة غرفة المدير، كانت أشبه بقصر صغير مزدان وسط عُري المدرسة وبشاعتها، أحسستُ نفسي، ما إن فتحتُ الباب، بعد أن صاح من الداخل بصوته المتجهّم نفسه: ادخل، بأني دخلتُ قصر السلطان ذاك الذي كانت جَدَّتي „جميلة" تقصّ لي القصص دوماً عنه، قصر السلطان الذي فيه ما لا يمكن لإنسان تخيّله! كانت الغرفة دافئة كحمّام، رائحتها منعشة كرائحة صابون جيراننا، ففي البيت، لم نكن نستخدم إلا صابون الغار، ومزدانة بأثاث فاخر، لا يمتّ بصلة إلى مقاعد صفّنا الخشبية العارية. في الحقيقة، دخلتُ تلك الغرفة الفاخرة مرّتَيْن، مرّة لأن تلميذاً ما، أو تلميذة ربمّا، وشى بي، فصورة „حافظ الأسد" على دفتري المدرسي كانت مشوّهة بالقلم الأزرق، رسمتُ له نظّارة زرقاء، ووضعتُ له عصابة قرصان. صفعني المدير صفعة كبيرة، مازال رأسي يدور كلّما تذكّرتُها،

وصاح: „الرفيق المناضل حافظ الأسد، أبو الطلائعيّينْ ومُرشدهم، وينبغي أن تظلّ صورته نظيفة فوق رؤوسنا". من يومها، لم تسمح لي أُمّي باصطحاب أيّ دفتر معي إلى المدرسة بدون تجليد كتيم أزرق، يغلّف كامل الدفتر. أمّا المرَّة الثانية التي دخلتُ غرفة مدير المدرسة فيها، فقد كانت بسبب شجار حصل بيني وبين زميلة لي في الصّفّ، اسمها „ميريام". كنتُ قد حدّثتها، لسبب ما أجهله حتّى اللحظة، عن كُتُب حمراء، ومنشورات غريبة في غرفة أبي، كما حدّثتُها عن اجتماعات سرّيّة في بيتنا، يأتي إليها رجال أغراب، يجلسون لساعات يتحدّثون، يتصايحون، يدخّنون، ويشربون الشاي الثقيل المرّ. قصصتُ لها كذلك حكاية عمّي „محمّد"، الذي لم يكن شقيق والدي حقيقة، لكنه قريب مقرّب منه جدّاً، والذي قال لي أبي يوماً، في لحظة ضعف ربمّا، إن الحكومة أخذتْهُ!

- إلى أين أخذتْهُ؟!

سألتْني „ميريام" وقد اتّسعت عيناها المكحّلتان برموش غزيرة.

- إلى مكان بعيد ..

لم أكن أعرف حقيقة. سيمرّ زمن طويل، سنوات طويلة ستمرّ، قبل أن أرى عمّي „محمّد" ثانية. حين سأراه ثانية، سيكون رجلاً آخر، لم أستطع أن أطابق بينه وبين صورته القديمة التي كانت عالقة في رأس تلك الفتاة التي كنتُها، والتي لم تكن تتجاوز الحادية عشر من عمرها. يومها حضنني، وقال وهو يجهش، إني غدوتُ صبية حلوة. لكنْ، لهذا حكايات أخرى!!

المهمّ أن تلك الفتاة „ميريام" أخبرت رفيقتها بأسراري، التي أخبرت أهلها بدورها، الذين أخبروا المُعلّمة، التي أخبرت المدير بدورها، وكان في النهاية، كما استطعتُ أن أستنتج بعد مدّة، أني أُحرّض على الحكومة بدَفْع

من أهلي الشيوعيّيْن المعارضين المخرّبين! في تلك الليلة، كانت أُمّي أقرب إلى الجنون، صفعتْني بدورها، وهي تصرخ وتبكي، من عينَيْها كان ثمّة خوف وقلق غريب ممزوج بغضب هائج. لأوّل مرَّة أشعر بالشفقة عليها!

أبي أخذني إلى غرفته، وأغلق الباب، ثمّ قال لي: نحن اتّفقنا أن كلّ ما يحدث في البيت يبقى فيه، أليس كذلك؟!

- ...

- هل تعرفين أن مثل هذه الأحاديث ستجعلني ألحق بعمّك محمّد؟!

حين أجهشتُ ببكاء هيستيري، قال وهو يُربّت على كتفي: „تعلّمي ألا تُخرجي أسرار البيت إلى الخارج، انسيها حالما تتجاوزين عتبة الباب".

في ذلك اليوم، نقل لي أبي الخوف من حيث لا يدري، الخوف من الآخر، الخوف من أن يكون أيّ شخص مُخبِراً، أيّ شخص حتّى لو كان قريبكَ المقرّب، من الممكن أن يخبر الحكومة عنكَ، ويرمي بكَ في بئر لا قرار له. الخوف كان الشرط الوحيد الذي يُبقينا على قيد الحياة في بلاد الديكتاتور، الخوف هو الذي يحمينا من الآخر „المخبر"، الخوف هو الرفيق الذي نتّكئ عليه حين نضعف.

أمّا „المخبر"، „المخابرات"، „فرع الأمن"، „الحكومة"، „السلطة"، „السياسة"، „أخذوهم!!"، „أخذوه!"، فهي مفاتيح الخوف. وما كان يتفاعل ويتطوّر كلّ يوم في المدرسة فهو „حسّ المخبرين"، بالضبط ما كانت السلطات تحاول أن تُنمّيه في دواخلنا كأطفال: „من أجل الوطن والوطنية وحماية الوطن لنفضح المخربين!"، لكنْ، مَنْ هم المخرّبون العملاء أعداء الوطن؟! سؤال لن يجيبكَ عنه أحد! فأيّ شخص من الممكن أن يتحوّل، بين يوم وليلة، إلى مخرّب، عميل، وخائن للوطن .. أيّ شخص!

بعد سنوات حين سيتمّ استدعاء والدي للتحقيق الأمني معه، سيكون أحد أقاربه هو الذي رفع بحقّه تقريراً أمنياً! وحين سيهجم عشرات الرجال المسلّحين لاعتقال أبي ورفاقه من البيت، سيكون صاحب البقّالية، اللطيف الكريم الباسم دوماً، هو المخبر الدائم والمعتمد في الحارة! بيد أن „حسّ المخبرين"، الذي راح بالفعل ينمو في دواخلنا، لم يكن مفيداً لمراقبة الناس و"المخرّبين"، كما كانت السلطات تأمل، فحسب، بل جعلنا نخشى الناس كلّهم، ونشكّ بهم كلّهم! الثقة بين تفاصيل النسيج الاجتماعي كانت تتخرّب، كما كان ثمّة شيء له رائحة كريهة يتفشّى، ويطغى على رائحة البحر المنعشة والطبيعة الندية في مدينتي.

أمّا السياسة، أو بالأصحّ، العمل السياسي، فهي الوحش الأكثر خطورة الذي كان علينا أن نتحاشاه. السياسة في بلاد الديكتاتوريات قنبلة دسستَها في ثيابكَ، وقد تنفجر فيكَ في أيّة لحظة. لكنها لن تؤذيكَ وحدكَ، بل ستؤذي كلّ مَنْ يمتّ لكَ بصلة. هذا بالضبط ما قالتْهُ جَدَّتي „جميلة" حالما دخلت ملهوفة على ابنها من باب البيت: „الباب اللي بيجيك منه الريح سدّه واستريح، يا ابني!"، وكان ابنها مُنهَكاً على الصوفا بعد أيّام من التحقيق في أحد أفرع الأمن، لكنْ، لهذا حكايات أخرى!

حين أتذكّر ذلك كلّه، أفكّر بأني كنتُ أتمنّى أن ألفتَ انتباه رفيقتي „ميريام" بحديثي ذاك عن عمّي „محمّد" والاجتماعات السّرّيّة في بيتنا، حديث غريب لفتاة غريبة لا تشبه جوّ المدرسة المألوف حدّ الملل. تلك الصبية الصغيرة التي كانت تضع في رقبتها دوماً عقداً من الذهب مزيّناً بلآلئ لمّاعة: „ميريام". الصبية ذات الشَّعْر الأشقر التي كنتُ أنظر بفخر إلى بقية التلاميذ في باحة المدرسة حين أمشي بقربها، أو حين أكلّمها، أو حتّى حين أخبرهم بأننا في الصّفّ الدراسي ذاته. حتّى لو كانت تعاملني بفوقية

واضحة، وتتهرّب منّي الوقت كلّه، فقد كانت نظرات الحسد تتصاعد من عيونهم الشبقة. رائحة زكية تتصاعد دائماً من „ميريام″، عطر الياسمين الأبيض، شَعْرها تتفنّن أمّها في عمل التسريحات المبتكَرَة له بمشابك ملوّنة خلّابة. في الدقائق القليلة التي كانت تهبها لي „ميريام″، كانت تحدّثني دائماً عن أشياء ممتعة فعلوها أو سيفعلونها: عيد الفصح ببيضه الملوّن المثير للشهيّة، عيد الميلاد المليء بشهوة الهدايا والمأكولات الطّيّبة، عيد البربارة ومزيج الحبوب بالسكاكر، التي كانت تجلب منها قصعة للآنسة كلّ عام، والمُعلّمة تتوهّج بالإعجاب الذي ما فتئت تتوهّج به تجاه „ميريام″ وشَعْرها الأشقر الخلّاب الرّبّاني. لم يكن ثمّة أشياء مثيرة في حياتي، كما هي حياة „ميريام″!! الأمر يقتصر على أقراص بالعجوة ومعمول بالجوز والسّكّر تصنعها أُمّي أحياناً في العيد. لم يكن ثمّة من طقوس مغوية ومُترَفَة. حتّى الصيف الذي كانت „ميريام″ تقضيه مع أسرتها في مكان ما من العالم، وتأتي في أوّل العام الدراسي، لتُحدّث البنات عنه، لم أكن أستطيع تخيّله. بالنسبة إليّ، كانت قريتنا القريبة من اللاذقية أو شاطئ البحر هما أبعد نقطتَيْن يمكنني التفكير في الذهاب إليهما! بدون أن أنسى زياراتنا المتكرّرة إلى سينما الكندي، التي كان أبي يحرص على أخذنا إليها مرّة على الأقلّ كلّ شهر. فسينما الكندي كانت تعرض في صباحات الجُمع أفلاماً مثيرة للأطفال. ربّما كان أبي يحرص بذلك على التّشبّث بنافذة حُرّة جميلة، يبقيها مفتوحة لبناته رغم الظلام كلّه الذي حولنا. أفلام سينما الكندي، قصص الأطفال، وحُبّ لا ينضب، كانت حبال النجاة التي استطاع أبي أن يرميها لبناته وسط القحط كلّه الذي عاشوه!

فيما بعد، وحين ستقرّر الحكومة أن تردم كورنيش بحر اللاذقية، وتحوّله إلى ميناء، تكاد سفنه ترسو على أبواب البنايات المحيطة، سنُحرَم أنا وأخواتي حتّى من مشوار الكورنيش الغربي! وسيزداد إحساسنا بأن هذه

البلاد ليست لنا. فحتّى شاطئ البحر هناك مَنْ يقرّر حرمانكَ منه بلحظة. فيما بعد وحين سيمتلك „رامي مخلوف″ جزءاً كبيراً من شاطئ المدينة الجنوبي، وحين ستَفصل المطاعم الفاخرة بين أهل المدينة و″بحرهم″، سيتعمّق الإحساس ذاك أضعافاً.

لكن، في الوقت الذي بدأت الأفكار اليسارية تجتاحني أوّل شبابي، كما كانت تجتاح معظم الوسط المحيط بي، بدأتُ بتفسير كلّ شيء طبقياً! هل كانت المُعلّمة تحبّ „ميريام″ لأن أهلها أغنياء، ولا تمرّ مناسبة بدون هدية تخصّ تلك المُعلّمة بها؟! أم لأنها جميلة بثياب ترفة؟! هل لأن أباها كان يصطحبها بسيَّارة بيجو بيضاء، كأرنب مدلّل، أمّا أبي، فيأتي بمعطفه الشتوي الرمادي وهيئته المتواضعة، لنذهب معاً مُتداريْن من المطر بمظلّة سوداء؟! أو ربّما لأنها كانت فتاة متّزنة هادئة، تدرس خطواتها وحركاتها، وليست مثلي، لا أكاد أهدأ عن الحركة، وتمّة على الدوام „دودة في مؤخّرتي″، كما كانت جَدَّتي „جميلة″ تقول! هل أن الأمر كان طبقياً؟ أم سياسياً؟ أم نسوياً؟ أم اجتماعياً؟! أم ربّما كان طائفياً؟ أم أنه أولئك مُجتمعون كلّهم؟!

في الصباحات الدافئة، كانت „ميريام″ تُشرع، مع تلميذَيْن آخرين، قرون الموز، ويلتهمونها بتؤدة ومتعة، مغمضين عيونهم مع كلّ مضغة. كان هناك دائماً جملة من العيون المصفوفة بجانب الحائط، تراقبهم حاسدة متشهّية، ومنها عيناي. أحاول تخيّل طعم الموز الحقيقي، مَلمَسه على اللسان، قوامه، ربّما كنتُ أُراقبهم مثل بقية التلاميذ المصفوفين بجانب الحائط، فقد عرفتُ طعمه من العلكة الرخيصة التي كانت بطعم الموز فحسب!

ذات يوم، لم تلتهم „ميريام″ مع مجموعة رفاقها في الفرصة الموز. قالت لي إن المُعلّمة أخبرتها أن لا تأتيَ بالموز إلى المدرسة، لأنها تثير شهية بقية التلاميذ الذين لا يمكن لأهاليهم أن يشتروا الموز.

- وما ذنبي أنا، إن كان أهاليكم فقراء مشحّرين؟!

كانت غاضبة ومتجهّمة. في الأيّام التالية، لمحتُها تأكل موزتها أمام باب غرفة المُعلّمات.

بالنسبة إليّ، فقد كانت نصف الليرة حصّتي من المصروف كلّ يوم، لا تكفي إلا لشراء حفنة من القضامة المُملّحة، أو مصّاصة سكاكر بحجم الدَّحلَة. كان عليّ أن أجمع مصروف يومَيْن حتّى اشتري بسكوتة بالشوكولا، أو كيساً من المارشيملّو القاسية على شكل قباقيب، كنّا نُسمّيها „قباقيب غوّار". أمّا تلك الأشياء العجيبة كقرون الموز، البسكويت الأجنبي المغلّف بأغلفة ملوّنة مشعّة، عبوات معدنية ملوّنة مملوءة بسائل أسود طيّب، اسمه كولا، وكنتُ أعتقد جازمة بأنه يختلف عن مذاق الكازوز في زجاجاته، والذي كان آذن المدرسة يُفرغه في أكياس بلاستيكية صغيرة مع مصّاصات نايلون، فقد كانت أشياء مختلفة مثيرة وأشبه بحلم بعيد. حتّى تلك المحارم الورقية الناصعة التي استخدمتْها „ميريام" لم تكن تشبه بحال محارم القماش التي تدسّها أُمّي لي في جيوب مريلة المدرسة، والتي لم أكن أستخدمها معظم الوقت مُفضّلة أن أمسح أنفي وفمي بكُمّ صدريّتي أسوة ببقية تلامذة المدرسة.

كان من الصعب عليّ أن أفهم آنذاك كلّ ما يحدث! الحصار الاقتصادي الذي فُرض على النظام السوري كان عامّة الناس وحدهم مَنْ يدفعون ثمنه. بدا وقتها، بالنسبة إليّ، أشبه بحرب حرمان نخوضها. حرب حرمان كان أكبر مستفيد منها هو النظام، فالشعب لا يملك الوقت ولا الطاقة، ليفكّر بأشياء أبعد من حرب عيشه اليومي. حرمان ينهش ذاكرتي حتّى اليوم حين أذكره، حرمان يجعل فتاة صغيرة تشتهي كلّ شيء، ولا تجرؤ على طلبه. كانت تلك الأسئلة تحاصرني في كلّ وقت: لمَ كان على شرائح معيّنة من

الناس أن تُحرَم اقتصادياً، فيما كان غيرها يزداد غنىً؟ لمَ كان على شرائح الناس تلك أن تلهثَ طيلة يومها، كي تستطيع أن تُطعم أولادها كفاف العيش، فيما كانت ثروة الآخرين تتعملق كلّ يوم؟!

أبي كان يجيب عن سؤالي الطفولي بأن: „النظيف" هو الفقير، والغني هو „السارق". لكنْ، لم كان ابن „السارق" يرتدي دوماً ثياباً رائعة ويأكل الطّيّبات، فيما تُجبرَ ابنة „النظيف" مثلي على قضاء نصف العام بحذاء، تمّت خياطة ثقوبه بخيط ثخين غامق، يمكن للمارّة أن يروه من بعيد بجلاء؟! لمَ على „النظيف" أن يئنّ تحت أثقال حياته، ليموت مغموماً؟! تماماً كما مات هو، مُنهكَاً مريضاً، ولم يُكمل بعد سنواته الثامنة والخمسين! لمَ على الأخلاق أن تكون دوماً بأثمان غالية هكذا، يكاد لا يقدر أحد على دفعها؟! أسئلة وأسئلة تجتاحني حين أجلس مع أخواتي حول مصباح الكاز، لنكتب وظائفنا المدرسية التي تكاد لا تنتهي. في تلك الشتاءات، كانت الكهرباء تنقطع دوماً، وعلينا دوماً أن نقضي مساءنا الطويل مُتحلّقات حول المصباح الذي يشعّ بضوئه المتقطّع الشحيح في الغرفة، تؤازره شعلة اللهب في صوبية المازوت وسط الغرفة. رائحة اشتعال الكاز ممزوجة برائحة دفء النار ولذعة الحبر مع رائحة قشر البرتقال، مزيج غريب لا يكاد يفارق الذاكرة! مزيج يجعلني أشعر بدوخة خفيفة أشبه بالثمالة. كان لنا مع ذلك أن نلعب لعبة „خيال الظّلّ" على ضوء المصباح، ونحرّك أصابع أيدينا الصغيرة أمام الضوء، كي تتعملق على الجدار أرانب وأحصنة وحمامات من ظلال. كما كان لنا أن نخترع ألعابنا الكلامية، وتتذكّر كلّ ما نحفظه من أغانٍ، ونضفر شُعُور بعضنا في جدائل طويلة .. ونضحك، نضحك، نضحك حتّى نغفو أمام دفء الصوبيا.

لشتاءات مدينتي البَحْرِيّة رائحة مصباح الكاز وقشور البرتقال، التماع

البرق، وهدير الرعد الذي يرجّ أنحاء البيت، العَتَمَة والأحلام التي لم تغفُ يوماً، وضحكات مكبوتة من تحت أغطيتنا الصوفية السميكة! ولنا تلك الذاكرة كلّها!

فيما بعد حين ستُتخم السوق المحلّيّة بأنواع المحارم والعلك والكولا والبسكويت (صناعاتنا الثقيلة الجديدة) لن أستطيع أن أتعامل معها كسلع فائضة! إلى اليوم يشكّل التهام قرن موز بالنسبة إليّ حدثاً غير عادي، وصوت فتح غلاف ملوّن لبسكوتة بالشوكولا موسيقا تُبشّر بمتع قادمة. هكذا، لا يمكن للذاكرة أن تتسلّل بسهولة من رؤوسنا، كما لا يمكننا، حتّى لو أردنا، أن نرميها صاغرة في قمامة النسيان. للذاكرة سطوة الديكتاتور في بلاد أنهكها الخوف، تشمّها في الأجواء، تلتقطها في الزوايا المخبّأة، وعلى النواصي، وتحزر طعمتها الذائبة في الماء .. الذاكرة وباء لا علاج له! وليس كما كانت فلسفة جَدَّتي „جميلة" تقول: „الإنسان أخوه للنسيان"، لا، ليس صحيحاً، يا جَدَّتي!

نظام تعليمي موازٍ:

كان عليّ كتلميذة مجتهدة أن أحلم كيف أصبح دكتورة أو مهندسة، في أسوأ الأحوال، محامية! كان عليّ أن أجيب عن السؤال الدائم والمتكرّر: „ماذا تريدين أن تصبحي في المستقبل؟!"، بما عليّ الإجابة به! فالسائل يتسم متوقّعاً جواباً مُدوّياً! في أحيان كثيرة، تمنّيتُ أن أقول أُمنيّة أخرى، لكن العيون المراقبة كانت تخيفني، وتجعلني أتخلّى من فوري عن رغبتي الغبية. الجميع، الأهالي جميعهم من الطبقة الوسطى، التي كان أبواي ينتميان إليها، كانوا ينتظرون من أولادهم أن يصبحوا أطبّاء، مهندسين **أو محامين فحسب. ليكاد المرء يتخيّل بأن المُجتمع كلّه يجب أن يكون**

مؤلّفاً من الأطبّاء والمهندسين، لا مكان فيه للعمّال، الفلاحين، المدرّسين، الخبّازين، الخيّاطين، اللّحامين، والدهّانين، رغم أن الجزء الأكبر من المُجتمع يتكوّن منهم، وليس من الأطبّاء والمهندسين! ثمّة تبرّؤ غريب من أصحاب تلك الطبقة الوسطى، التي كانت في الثمانينيّات واضحة نوعاً ما، لم تضمحلّ بعد، من البروليتاريا بالذات، رغم أن جزءاً لا بأس به منها كان مُسيّساً، وإن بشكل سرّيّ، وينادي دوماً بتقديس البروليتاريا، هو القادم بشكل أو بآخر منها أو من أصول فلاحية. حتّى إن الأسماء السوفييتية كانت منتشرة كثيراً لأبناء تلك الطبقة، وكم كانت تبدو مثيرة للضحك وهي مترافقة مع الكنى العربية، نتاشا محمود، زويا اللحام، ألكسندرا درويش .. وهلم جرّا. كان ثمّة استهانة بادية، تستطيع أن تلمحها في أحاديث طبقتنا المتوسّطة „اليسارية"، من العمل اليدوي، أو من الأعمال العادية التي لا تتطلّب أسماءً ولا ألقاباً مدوّية، الأعمال التي يمشي أصحابها بشكل عادي في الشارع، ولا يلتفتون يمنة يسرة، كي يراقبوا العيون التي تعرفهم و"تحترمهم".

أهالي الطبقة الوسطى تلك كان لديهم إحساس فطري بأنهم يضمحلّون، وبأن هناك وقت سيأتي لن يكون لأبنائهم من قيمة إلا مالهم، وبما أن مارد المصباح مازال محبوساً في مصباحه الضائع، فقد كانت الشهادات „الكبيرة والمُدوّية" هي الطريق الوحيد، كي يصل الأبناء إلى „القيمة والاحترام". المشكلة في ذلك كانت أن الطلّاب، بناء على أحلام آبائهم، لم يحلموا بدورهم إلا بتحصيل أكبر قَدْر من العلامات، وليس بمراكمة المعارف والثقافات. العلامات العالية هي التي ستُحدّد مصيرك المستقبلي برمّته. ومع الطريقة التي كنّا ندرس فيها كانت آمال أهلي، مع الانحدار المستمرّ لسلّم علاماتي، تكاد تتلاشى فيّ. المنهج الأساسي الذي كان علينا أن نتّبعه في غالبية موادّنا الدراسية هو الحفْظ عن ظهر قلب.

كلمة واحدة مختلفة، وإن كانت بالمعنى نفسه، كفيلة بإنقاص الدرجة. هذا يعني أنه كان عليّ أن أحفظ كتاب العلوم الطبيعية، التاريخ، الجغرافية، التربية القومية، الديانة، اللغة العربية، الإنكليزية، الكيمياء، وحتّى الفيزياء والرياضيات أحياناً، عن ظهر قلب دون أيّ تبديل في صياغات الجمل!! الأمر الذي كان أشبه بمعجزة بالنسبة إليّ أنا العاجزة في بعض الوقت عن تذكّر أسماء أصدقائي! طريقة التدريس في مدارسنا كانت متوائمة تماماً مع كلّ شيء حولنا، منظومة متماسكة متّسقة، وكل جزء يُكمّل الجزء الآخر، وليس فيها ما هو خارج عن النسق: احفظْ ما يُملى عليكَ، لا تفكّر كثيراً بمعانٍ مختلفة، اسعَ لتحصيل أكبر قَدْر من العلامات، ادعسْ مَنْ حولكَ كي تعلو. بهذا فقط ستحصل على ما تصبو إليه! على هذا، فمن كان أهله قادرين ماديّاً على جَلْب أساتذة خاصّين له، كنّا نُسمّيهم „أساتذة خصوصي"، ليدرّسوه في البيت، فقد ضمن الدخول إلى عالم „الناجحين" في الشهادة الإعدادية أو الثانوية، وبعلامات عالية. أمّا مَنْ لم يكن بمستطاع أهله أن يدفعوا للأساتذة الخصوصيّيْن، أولئك الذين كانت أسعار ساعة الدرس التي يعطونها تقفز مرتفعة يوماً بعد يوم، فقد بقي خارج عالم „النجاح الفردوسي"، وبالتالي خارج خيارات الدراسة العليا في الجامعة كلّها، تلك التي تحدّدها علاماتكَ في الدراسة الثانوية، ومنها تتحدّد حياتكَ القادمة برمّتها! مُعلّمو المدارس ومُعلّماتها كانوا قد بدؤوا يتواطؤون بشكل واضح مع هذه الموضة السائدة، أو لنقل مع هذا النظام التدريسي السائد. فكثير من الكُتُب المقرّرة لم تنتهِ فصولها في المدرسة، ولم نعرف، نحن الذين لا أساتذة خصوصيّيْن لدينا، كيف سيكون شكل أسئلة الامتحانات، ولم نختبر معلوماتنا، ولم تتمّ الإجابة، إلا فيما ندر، على أسئلة جوهرية، تتعلّق بامتحان تقرير مصيرنا في العيش: امتحان الشهادة الثانوية. كان هناك بالتأكيد، وكعادة كلّ شيء، استثناءات خارجة عن

القاعدة، وكان لا بدّ من وجود مُعلّمين ومُعلّمات يجاهدون، كي يعطوا المنهاج بكامله للطلاب الذين يشبهوننا: لا أساتذة خصوصيّيْن لديهم! لكن أعداد أولئك „الدونكيشوتيّيْن" راحت تتناقص يوماً بعد يوم، كلّما ازدادت الحالة الاقتصادية للمُعلّمين في مدينتي انحداراً وسوءاً، حتّى بات الراتب الشهري للمُعلّم لا يكفيه أن يأكل خبزاً وشاياً طيلة أيّام الشهر!

ذات مساء، قرّر والدي أن يطلب من أستاذ رياضيات معروف في المدينة أن يأتي ليعطيني دروساً في المادّة قبل الامتحان القريب. أمّا مادة اللغة العربية، فقد كان خالي، لحسن الحظّ، مدرّساً مرموقاً بها، وكان يمكنني أن أتمتّع بساعات تدريس طويلة ومجّانية بصحبته.

لكنْ، كيف ستدفع لأستاذ الرياضيات؟!

هذا هو السؤال الأوّل الذي خطر على بالي. قال والدي إن هذا ليس من شأني، مُهمّتي أن أدرس، لأحصل على علامات تُؤهّلني للدراسة في الجامعة في فرع علمي „يليق" بي وبعائلتي. ولكنْ، ما هو الفرغ الذي يليق بي وبعائلتي؟!! في ذلك الوقت كان والدي يعمل قبل الظهر في وظيفته، بعد الظهر في مكتبة صغيرة، استأجرها لبيع الكُتُب، وفي المساء، يجلس للكتابة والقراءة حتّى مطلع الفجر. أرى بأمّ عيني كيف يذبل يوماً إثر يوم كوردة نرجس في يد طفل شغوف. لكن المعضلة لم تكن قد حُلّت هنا. فقد كنتُ مقتنعة بأن الكثير من العلامات ستتسرّب منّي، كما يتسرّب ماء الحنفية الذي أتركه يلامس أصابعي، وينزلق بينها. ففيما يتعلّق بمادّة التربية القومية كان الأمر أصعب من أن أستطيع تخيّله: هناك مقاطع كاملة لأقوال الرئيس „حافظ الأسد" عليّ حفْظها، تماماً كما عليّ حفْظ الآيات القرآنية. الأمران كانا في غاية الصعوبة. لكنْ، مع أقوال „حافظ الأسد" بدا الأمر أشدّ صعوبة بكثير، حين لا تتمتّع نصوصه المقيتة لا بموسيقا القرآن

ولا بصوره اللغوية، بل هي نصوص جامدة، مقعّرة اللغة، تفتقر إلى أقلّ قدر من الخفّة الشهية، والأهمّ كاذبة في معظم الوقت. فكيف يمكن لي، وأنا في السابعة عشر من عمري، أن لا ألاحظ الفرق بين الواقع الذي أُسجن فيه وبين جملة „القائد" الشهيرة: „لا أريد لأحد أن يسكتَ عن الخطأ أو يتستّر على العيوب والنواقص"!!، مضحك حقّاً! وكيف يمكن لي أن أحفظ كليشيهات فارغة كطبل، وأنا أعيش كلّ يوم نقيضها: الوطن غالٍ، الوطن عزيز، الوطن شامخ، والوطن صامد. لأن الوطن هو ذاتنا ... إلخ، من هذه الترّهات التي كان على الطلاب حفْظها وهم يحلمون كلّ يوم بالنجاة من هذا الوطن „الغالي" الذي أضحى وطناً للطُّغاة. يحلمون كلّ يوم بالسفر بعيداً عنه حتّى لو إلى الجحيم! لكن هذا بالذات هو أسّ تلك المنظومة المتماسكة المتّسقة التي سبق وتحدّثتُ عنها، أن تحفظ ما يُملى عليكَ، لا تفكّر به، لا تتساءل، لا تشكّ، كنْ بيدقاً بيد سلطتكَ، كي تحوز كلّ ما تتمتّع به. وإن لم تفعل، فسيكون الثمن عظيماً!

في الحقيقة، كنتُ أتمنّى أن أصبح عازفة كمان، نعم هكذا ببساطة، رغم أني لم أكن أفهم ولا حرفاً في الموسيقا، ولم أكن قد لمستُ آلة موسيقية في عمري، اللّهمّ إلا تلك الطبلة التي كان ابن جيراننا يدقّ عليها، ويصمّ آذان أهل الحارة كلّ يوم. كذلك عود عمّي „محمّد" الذي كنتُ لا أجرؤ على لمسة خشية أن أُدنّس قدسيّته. كان أشبه بآلة في معبد، بل بقيثارة للآلهة. كنتُ أتخيّل نفسي دوماً وأنا أقف على المسرح أمام الجمهور محتضنة كماني، ثمّ أنحني لتصفيقاتهم المشتعلة. لكنْ، لم يكن ثمّة طريقة لتعلّم العزف في ذلك الوقت. دروس تعلّم الموسيقا الخصوصية لم يكن لي أن أحلم بها، فثمن الدرس الواحد يعادل مصروف البيت لأسبوع، وفي المدرسة، كانت دروس الموسيقا والفنون تتحوّل، أوتوماتيكياً، إلى دروس للفتوّة „التربية العسكرية" أو دروس رياضيات. أشبه بالجوكر كانت دروس

الموسيقا والفنون، يستطيع أيّ مُعلّم أو مُعلّمة، سبق وتغيّبا عن حصصهما قبلاً، أن يعوّضاها بها، وفي كثير من الأحيان بدل حصص الرياضة أيضاً. لا أذكر اليوم وجه أيّ أستاذ موسيقا أو فنون!! حتّى إني لا أعرف إن كان لدينا أساساً. أذكر مُعلّمة واحدة للفنون، لا يغيب وجهها عن ذاكرتي، فقد كانت أشبه بحورية منها بمُعلّمة فنون، أزياؤها الفاتنة وحليها الغريبة وابتسامتها كانت ترافقني أينما ذهبتُ. فجأة كفّت مُعلّمة الفنون تلك عن القدوم إلى المدرسة، وسمعت مُعلّمَتَيْن تتهامسان مرّة عن أنها تزوّجت من طبيب معروف، وكفّت عن التدريس.

الدبّيكة وشبيبة الثورة والقبل:

في قادم الأيّام، سأعثر على صورة فوتوغرافية فورية وغريبة، لا أعرف من أين جاءتْني! مدسوسة لسبب ما بين صور عائلتي وأصدقائي: مجموعة من طلاب مدرستي الثانوية، وأنا واحدة منهم، ندبك في حلقة كبيرة بحماسة مثيرة للاستغراب، كأننا نرقص في عرس أخوتنا! فوقنا هناك لافتة كبيرة بيضاء، مكتوب عليها بالأحمر: العيد الحادي والعشرون للحركة التصحيحية المجيدة، بقيادة الرفيق المناضل حافظ الأسد.

ما الشيء الذي حدا بي للرقص في حلقة الدبكة في ذكرى „الحركة التصحيحة المجيدة"؟! هذا الأمر الذي لم أجد له حتّى الآن جواباً شافياً!! فلم يكن قد مرّ وقت طويل على العقوبة الصارمة التي كتبها مُعلّم: „التربية القومية" بحقّي حين قلتُ له بخجل خائف: لا أريد الانتساب لحزب البعث!

مُعلّم „التربية القومية"، هو، في الحقيقة، رجل الأمن الأوّل في المدرسة، رئيس الفرقة الحزبية والمسؤول الرئيس عن شعبة الحزب في المنطقة، فَنْجَرَ عينَيْه في وجهي، وهو ما يزال يحمل طلب الانتساب إلى الحزب:

- ماذا قلتِ؟! أعيدي مرَّة ثانية!

ذهب صوتي فجأة! لم يعد ثمّة من طاقة داخلي تخرج الصوت. همست ببُحّة: لا أريد الانتساب إلى الحزب!

- لماذا؟ رفاقكِ كتبوا طلبات الانتساب!!

كان يحمل عشرات الطلبات التي أجبر الكثير من الطلاب في صفّي على توقيعها، والتي سيصبحون بموجبها أنصاراً، أو مشاريع أعضاء، في حزب البعث: الحزب الحاكم للدولة والمُجتمع.

لم أعرف ماذا أقول! كان صوت أبي يتردّد في أذني:

„لا توقِّعي مهما فعل، مهما هدَّدكِ أو أخافكِ .. لا تُوقِّعي".

- لا أُحبّ السياسة.

أجبتُهُ بسرعة.

- ليس مطلوباً منكِ أن تُحبّي السياسة، ولا أن تعملي بها .. هذا مُجرّد طلب للانتساب إلى الحزب!

- أرجوكَ، أستاذ، افهمْني أنا ..

- هل أنتِ منتسبة إلى أيّ حزب آخر؟!

- لا، أعوذ بالله أبداً أبداً!!

- هل تفكّرين بالانتساب إلى أيّ حزب آخر؟!

- لا، أعوذ بالله أبداً أبداً..

- ...

حين انتهت جلسة „التعذيب" أُسقط في يد مُعلّم „التربية القومية" وراح يهدر بأنني سأندم. بعد لحظات من خروجه، أدركتُ بأن الصمت كان طاغياً في الصّفّ، وبأن رفاقي جميعهم كانوا واجمين، يُنصتون لحديثنا. في لحظة، واجهتُ أكثر من أربعين زوجاً من العيون: عيون مذهولة، عيون متعاطفة، عيون شامتة، عيون كارهة. كان ثمّة زوج واحد من العيون المعجبة، جاء إليّ، وقال: برافو، ولكنه لن يُمرّر الأمر على خير!!

صاحب تلك العيون المعجبة، الذي امتلك أجمل عينَيْن خضراوَيْن أذكرهما في حياتي، أهداني بعد فترة قليلة كاسيتاً لـ „غسّان صليبا" يغنّي في مسرحية لمنصور الرحباني: غريبَيْن وليل. قال لي: اسمعيها اليوم، ونلتقي غداً.

حين عدتُ إلى غرفتي المشتركة مع أخواتي، أغلقتُ الباب عليّ، ودفعتُ الكاسيت بشوق في مسجّلتي العتيقة، تلك التي تشبه جهاز إرسال حربياً. كانت المرَّة الأولى التي يهديني فيها شابٌ شيئاً، المرَّة الأولى. كان لطعم الهدية الأولى حلاوة، لا يمكن أن تُنسى! قشعريرة تلازم الروح حالما تذكرها. سمعتُ المسرحية كلّها، أغانيها كلّها، حواراتها كلّها، كلّ نأمة فيها .. حفظتُها. رغم أني شعرتُ بأنها سخيفة مقارنة بالأغاني التي كنتُ أغوص وقتذاك في أتونها: أغاني اليسار والثورات والتّحرّر، أغاني هادرة عن الغضب والحُرّيّة والثورة الدائمة والفقراء .. وما إلى ذلك.

في اليوم التالي، كان ينتظرني أمام المدرسة مع انتهاء الدوام. قال لي: كلّ كلمة في المسرحية أهديها لكِ، نحن الغريبَيْن في هذا العالم. ثمّ راح يغنّي:

مش وقتك يا هوا ولا أيّامك أيّام

يا عينين الغرام اتركيني بسلام ..

...

كان يغنّي على الطريق، وأنا ألتفتُ حولي مرتبكة. مازلتُ أذكر الحرارة التي اشتعلت في رأسي لحظتذاك، وجعلتني أهرب منه، لا ألوي على شيء. لماذا هربتُ منه؟! لماذا لم أعد أردّ على رسائله؟! لماذا أنكرتُ وجوده تماماً؟! سؤال ما يزال يشغلني حتّى اللحظة! ولكنْ، لهذا السؤال حكايات أخرى!

لكن زوجاً من العيون المستغربة في صفّي أتت إليّ بعد نقاشي مع مُعلّم "التربية القومية"، همست مُطوّحة بجديلتها الطويلة:

- "أنتِ غبية! لمَ هذا كلّه؟! وقّعي طلب الانتساب، ولا تحضري الاجتماعات الحزبية، ولا تفعلي شيئاً! انتسبي للحزب دون أن تدفعي ولا نكلة. على العكس، استفيدي منهم، لأنكِ ستأخذين في البكالوريا علامات إضافية، وستحصلين على الكثير من المكاسب. هم يريدون منّا أن نكون كلّنا في الحزب. أوكي، لنعطهم ما يريدون، ونأخذ ما نريد .. أختي دخلت كُلّيّة الطّبّ، لأنها عضوة عاملة في الحزب، أعطوها الكثير من العلامات الإضافية في الباكالوريا.. غبية أنتِ!!".

الرفيقة هذه ذاتها، كان اسمها "سميحة"، همست لي قبل فترة بأنها ضبطت مُعلّمة الرياضة بصحبة مُعلّم الرياضيات يقبّلان بعضهما في غرفة تغيير الملابس في القبو.

"كنتُ ذاهبة إلى غرفة المستودع، لأن مسؤول المستودع وعدني بأن يجلب لي نسخة جديدة من الكُتُب بدل هذه النسخات البالية التي

ندرس بها. تعرفين مسؤول المستودع صديق والدي. هناك لمحت خيالَيْن متعانقَيْن، وسمعتُ همساً عند باب المشالح. كبتُّ نَفَسي، ومشيتُ على رؤوس أصابعي، وفاجأتُهما وهما يُقبّلان بعضهما. خخخخخخ.. لو رأيتِ وجه مُعلّم الرياضيات وهو ملوّث بحمرة شفاه مُعلّمة الرياضة!! خخخخخخ لو رأيتِها وهي تفتح أزرار قميصها العلوية، ويبان ستيانها الأحمر!! مشهد يُميت من الضحك".

- وهل ستخبرين الإدارة عنهما؟!

- أبداً!! غبيّة أنتِ؟! سأبقى حتّى آخر يوم في المدرسة أفعل ما أريد في حصّة الرياضيات وحصّة الرياضة!!

وهذا ما حدث بالفعل، لذلك كان الصّفّ كلّه مصعوقاً، إلا أنا بالطبع، حينما أخذتْ تلك الرفيقة أعلى علامة في مادّة الرياضيات، هي التي كانت تبذل مجهوداً لتنجح في أدنى درجة.

هذه الرفيقة ذاتها سترتدي خاتم الخطوبة بعد شهر تقريباً. الخطيب كان رفيق مُعلّم "التربية القومية"، لذلك كان يمكنها أن تتباهى بأساورها الذهبية، تُخشخش بها أينما ذهبت، دون أن تزجرها مُعلّمة "الفتوّة" الآنسة "جهينة". أمكنها كذلك أن تخرج مبكّرة من المدرسة، لأن سيَّارة عريس المستقبل تنتظرها على الباب الخارجي. قبل أن ينتهي العام الدراسي كانت قد تزوّجت، ولم أرها بعدها.

أمّا لماذا كنتُ أدبك مع رفاقي في ذكرى "الحركة التصحيحية المجيدة"؟! فهذا ما لم أجد له حتّى اليوم أجوبة وافية! هل هي حالة الجموع التي تسحبنا إليها كهاوية؟ أم كانت نوعاً من المباهاة أمام شباب المدرسة الذين انضمّوا إلينا في الدبكة؟ هل كانت بسبب الخوف، لأن

كلّ مَنْ لم يشارك في الاحتفال كان مُعرَّضاً للمساءلة، فعينا مُعلّم „التربية القومية"، الذي يقف على جنب، تحفظ كلّ وجه وحركة ونأمة وتعبير للحاضرين. كذلك كاميرا المصوّر الفوتوغرافي الفورية كانت تحفظ كلّ شيء. لماذا كان هناك مصوّر فوتوغرافي أساساً في احتفال مدرسة ثانوية؟!!

حين عدتُ مساء إلى البيت ومعي الصورة، تأمّلها أبي بوجه مُجعلك، رماها على الصوفا، ثمّ زفر وهو يتّجه إلى غرفته: ولماذا هذا الحماس كلّه، لتدبكوا في ذكرى الحركة التصحيحية؟! تبدون كالقرود ..

هذه الجملة لن تفارق ذاكرتي يوماً، ستجعلني أحرص ألا أكون كالقرود يوماً، تلك التي ترقص قطعاناً في ذكرى „الحركة التصحيحية المجيدة". وعدتُهُ يومها بدون أن أقول: لن أكون يوماً كالقرود. ولكنْ، لهذا حكايات أخرى!!

لا مكان للأنوثة ولا للجمال بيننا:

سألتنا مُعلّمة „الفتوّة" الآنسة „جهينة" عن مصير „سماح" في الحصّة الصباحية. كان الهباب الساخن يخرج من أفواهنا، ونحن نتراقص من البرد في الساحة المفتوحة أمام مبنى المدرسة، ذلك أنه كان علينا أن نخلع ستراتنا، ونبقى بالزّيّ العسكري الموحدّ، زيّنا المدرسي الدائم. كانت الآنسة „جهينة" قد انتهت للتّوّ من موجة جنون تلبّستها، حالما لمحت شَعْر إحدى الطالبات حُرّاً طويلاً، ويلتمع. صاحت بها أن تقترب منها، وأمسكت بخصلها الطرية وهي تزعق: مستخدمة السيشوار والكريمات، ريحة الكريمات واصلة لعندي، يا حيوانة .. مفكرة حالك رايحة ع عرس، ولا جاية ع المدرسة .. حيوانة ..

شحطت الطالبة من شَعْرها عبر الساحة باتّجاه صنابير المياه، وهناك أقحمت رأسها تحت إحدى الصنابير، وفتحت دفق الماء البارد، لينهال على رأس الطالبة التي لم تجرؤ حتّى على الصراخ. بعد أن ابتلّ شَعْرها كلّه، دفشتْها الآنسة „جهينة" باتّجاه الحائط، وزعقت: سوف تبقين هنا حتّى نهاية الدوام.

فيما كانت الطالبة سيّئة الحظّ ماتزال ترتجف، كعنزة وقعت في ساقية، وشفتاها زرقاوان، راحت الآنسة „جهينة" تدور بين صفوفنا المرتّبة كجيش ذاهب للتّوّ إلى المعركة. ليست صفوفنا وحدها التي كان عليها أن تكون كصفوف الجند، ولكنْ، أشكالنا أيضاً، أيّ مَلمح أنثوي قد يبدو على إحدانا سيكون كفيلاً بجعلها تدفع الثمن غالياً. أيّ مَلمح، وأقصد بالفعل أيّ مَلمح: ظفر خرج قليلاً عن الأصبع ستحفّه الآنسة „جهينة" بالحائط حتّى ينزل الدم من السلاميات! بقايا لامرئية لحُمرة شفاه من ليلة البارحة ستُكلّف صاحبتها صفعَتَينْ مهولَتَينْ على الفم، تجعله يتورّم لأيّام، فيبدو كمنقار البطّة! جوارب ملوّنة مخفيّة تحت البنطال العسكري الطويل ستُجبر مرتديتها على أن تقطع الساحة المكشوفة أربع مرّات زحفاً على أكواعها وركبها!

هنا لا مكان لميوعة البنات، تصيح الآنسة „جهينة". وتهمس إحداهنّ في الصّفّ الذي خلفي: „شفت غلّها العانس". كنّا نُلقّبها بالعانس، فقد كانت قد تجاوزت الأربعين منذ سنوات، ولم تتزوّج، وكانت الطالبات جميعهنّ يعتقدنَ بأن لديها عقدة من الفتيات كلهنّ، خصوصاً اللواتي يملكنَ لمحة جمال ما. كان الشّقّ الذكوري في الآنسة „جهينة" طاغياً على كلّ شيء آخر، رغم محاولاتها الدائمة في إخفائه. كانت تضع الكثير من مساحيق التجميل، ليكاد المرء يظنّ بأنها تضع قناعاً مسرحياً. كما كانت

تُبدّل كلّ يوم ثيابها المغرقة بالألوان والتصاميم المبتكرة. كانت الآنسة „جهينة" أول امرأة رأيتُها ترتدي مثلاً الشروال المزهّر ذاك الذي كان دارجاً في أواخر عقد الثمانينيّات. هل كان ذلك بسبب غياب الحُبّ؟! أم كان لأنه لم يكن ثمّة من رجل يُخرِج المرأة المختبئة داخلها؟!

لكن الرجل الذي كان داخل الآنسة „جهينة" لم يبدُ لي واضحاً للغاية، كما تبدّى يوم أخذونا إلى „تدريب الرَّمْي"! في ذاك الصباح الربيعي، وضعونا كلّنا في شاحنة عسكرية مفتوحة، يمكنهم نقل الخراف فيها ببساطة، وإلى حقل عارٍ إلا من الدرايا أخذونا جميعاً. كان على كلّ منّا أن تُنصت صامتة إلى طريقة فَكّ الكلاشنكوف، وتركيبه، والتصويب به، نحن اللواتي لم تتجاوز أكبرنا سنواتها السّتّ عشرة. كان الصمت يعمّ الفضاء، وحده صوت المُدرِّب يلعلع، وجوقة من القلوب التي ترتجف خوفاً. كنتُ أسمع وجيب قلبي المذعور، كذلك وجيب عشرات القلوب الأخرى تلك التي تختبئ تحت بذّاتنا العسكرية. حين أتى وقت الإطلاق، راحت رفيقتي تنتحب بصوت عالٍ، ووجدتني أنتحب معها! رفيقة أخرى راحت تترجّى المُدرِّب أن يرحمها ويعفيها من هذه الكارثة. ثمّة رفيقة تمدّدت قبلنا على الأرض، وضعت الكلاشنكوف أمامها، وهمّت بإطلاق النار على الدريئة، فأُغمي عليها. الرفيقة التي كانت بجانبها راحت تُوَلْوِل، وقد اعتقدتْ بأن رصاصة طائشة ما أصابتها. هنا في هذه اللحظة بالذات، هجمت الآنسة „جهينة"، التي كانت ماتزال تقف جانباً، على الطالبة المُغمى عليها، صفعتْها عدّة صفعات، رنّ صوتها في الجوّ قبل أن تهزّها بجنون، وهي تزعق عليها أن تستيقظ! حين شقّت الطالبة عينَيْها محاولة أن تستوعب ما حصل، كانت صفعة أكثر هولاً من سابقاتها تنتظرها، وصوت رجولي يخرج من داخل الآنسة „جهينة": يا حيوانة، جايبينك لتغمي هون؟!!

أمّا الأحذية السوداء، فقد كانت عنوان الطفولة والمراهقة والشباب الأوّل. ولأن الوضع الاقتصادي لكثير من العائلات، التي تشبه عائلتي، كان مُتعَباً مُنهَكاً، فقد كان من الصعب أن تحلم الواحدة منّا بحذاءَيْن في العام الواحد. فبما أن الحذاء الأسود كان هو الأساسي في المدرسة، فأنا لا أذكر أني قضيتُ سنوات طويلة بحذاء إلا حذائي الأسود، وحذاء الرياضة البلاستيكي الرخيص. كنتُ أحلف الأيّامين المعظّمة بأني حالما أُنهي مدرستي، فلن أشتري حذاء أسود ما حييتُ، سأصبح مثل ذات الحذاء الأحمر تلك الذي كذبت على أمّها بالتّبنّي، العجوز الكفيفة المريضة، واشترت حذاء أحمر برّاقاً بدل الحذاء الأسود الذي كان عليها كابنة عائلة كاثوليكية متديّنة أن ترتديه. الحذاء الأحمر كان بالنسبة إليّ عنوان التّمرّد، الغواية، الخروج عن طاعة القبيلة، والأنوثة .. ولكنْ، لهذا حكايات كثيرة أخرى!

الموت المشرّع على الجامعة:

في ذلك الوقت، كان مازال للموت سطوة هائلة، يمكن للمرء أن يشعر بها في الأجواء، كهواء ثقيل يجثم على الصدور، ويجعل تنفُّس الناس أصعب. كان للموت سطوة هائلة غير اعتيادية. لكن سطوة الموت تلك ستتغيّر عبر الزمن. كلّ شيء يتغيّر في الزمن حتّى الموت! الموت تلك البديهية الأبدية الثابتة تتغيّر أيضاً! الموت وقتذاك لم يكن يشبه الموت اليوم: حدث اعتيادي غير استثنائي! عشرون سنة لا غير مرّت، لكنها غيّرت كلّ شيء!

أن يُدهَس طفل بسيَّارة مثلاً كان أمراً يجعل الجرائد المحلّيّة تُصدر نسختها الصباحية وصورة الطفل المدهوس تتصدّرها. الناس جميعهم

كانوا يقفون حين يلمح أحدهم نعوة لشخص ما، فيقرؤها بعناية، يسافرون مئات الكيلومترات، كي يقولوا لأهل مُتوفٍّ ما: البقية بحياتكم، أو الله يرحمه، أو بسلامة راسكم، ثمّ يعودون مئات الكيلومترات رجوعاً، وهم يتأسّفون عليه. كان للموت سطوة، لا يمكن إنكارها! اليوم تعجّ الجدران بآلاف النعوات المتجدّدة كلّ يوم، نعوات فوق نعوات، ولا أحد يقرأ. قوافل الموتى ستتوالى على المدينة وريفها المحيط، النساء بالثياب السود، المشافي مُتخَمة بالجثث الحيّة والميّتة. اللاذقية متّشحة بالعَتَمَة اليوم، لكن كلّ شيء يتحوّل إلى حالة اعتيادية. ليس شكل المدينة الذي سيتبدّل، بل روحها أيضاً، ستعتاد البشاعة! وبشاعة الموت ستمرّ بشكل عادي، بل ومألوف! هل يمكن لمدينة أن تتصالح مع الموت؟!

حين قُتل الدكتور „سمير" في أواسط التسعينيّات، امتلأت المدينة بشوارعها وأزقّتها بنعواته، ظلّت حكايته شهوراً، يتهامس بها الناس. فأن يُقتل شابّ لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره، ولم تمضِ سنة على عودته من دراسته حاملاً شهادة الدكتوراه في الهندسة المعمارية، لهو حدث ليس اعتيادياً أبداً وقتذاك! لكن ما جعل قصَّة مقتل الدكتور „سمير" سرّاً مخيفاً، يتهامس به أهل اللاذقية دون أن يجرؤوا على الجهار به، حقيقة أنه دُهس، مع خمسة أشخاص آخرين، لأن سيَّارة مسّها جنون ما لأحد من „آل الأسد" خرجت عن سيطرة سائقها، صعدت على رصيف، ينتظر عليه مجموعة من الناس، ومنهم الدكتور „سمير"، الباص العمومي، ليقلّهم إلى بيوتهم عشيّة ذلك اليوم. قُتل الجميع لحظتها، بمَنْ فيهم امرأة حامل وطفلها، فيما رجعت السَّيَّارة إلى الشارع، وانطلقت أشدّ سرعة ممّا كانت، كأن شيئاً لم يكن. وصلت الأخبار إلى الجامعة بأن رأس الدكتور الشّابّ انفصل عن جسده! بعضهم قال إن ملامحه تشوّهت، بعضهم قال إنهم وجدوا جثّته على بُعد عشرات الأمتار من مكان الحادث. سيناريوهات مختلفة

عن طريقة مقتله. لكن الرواية التي أجمع عليها الجميع بأن القاتل هو واحد من „آل الأسد"، أولئك الذين كانوا، مع الأعداد الهائلة لمرافقيهم، يملؤون اللاذقية بأصوات سيَّاراتهم المجنونة التي تحصد في طريقها كلّ مَنْ تصادفه! „مرافقة آل الأسد" هي التسمية المنمّقة لـ „الشّبّيحة"، أولئك الذين راحوا يُشكّلون في الثمانينيّات والتسعينيّات شريحة من المُجتمع، لا يمكن الاستهانة بها. أيّ شابّ لم يكن لديه عمل، يطمح لتحصيل مال أكثر، يطمح للتّلطّي في ظلّ رجل قويّ، له سلطة لا تُضاهى، يحلم بأن „يتبرّز" على كلّ مَنْ لا يعجبه، وأن يقبض على سلطة، لا يمكن لأحد أن يقف في وجهها، ما كان عليه إلا أن يذهب لينخرط في صفوف „شبّيحة بيت الأسد"! هذه هي الوصفة السِّحْرِيّة لتحقيق الأحلام كلّها! الأهمّ أن لا أحد كان بمستطاعه أن يحاسبه، يمكنه أن ينجو بفعلته، أيّاً كانت تلك الفعلة .. لا مشكلة!

„عين البني آدم ما بيمليها إلا التراب". قالت جَدَّتي „جميلة" حين عرفت بأن أحد أقاربنا الشباب صار من „شبّيحة آل الأسد"، ترك بيت أهله، وصار يبيت على أبواب فيلاّ „فوّاز الأسد"!

إثر مقتل الدكتور „سمير" ارتدت الكُلّيّة كلّها الثيابَ السوداء. لسبب ما، كان الجميع حزيناً، حتّى الذين لم يكونوا يستسيغون الدكتور „سمير"، كان ذلك الحزن الحقيقي النابع من الداخل، الحزن الذي يتأتّى من شعور المرء باللاعدل وبالعجز معاً. وعلى الرغم من أن أحداً لم يتحدّث بالتفاصيل، إلا أن التفاصيل كانت تنطق بها العيون المنكسرة بالرعب!

لكنْ، لم تمضِ شهور قليلة إلا وكان ثمّة فقيد آخر من الكُلّيّة: الطالب في السنة الثالثة „حسّان". مرتكب الجريمتَيْن كان واحداً: „شبّيحة آل الأسد"، أولئك الذين تحوّلوا إلى مافيات حقيقية، تجوب المدينة كالقَدَر.

بالنسبة إلى „حسّان" فقد كانت قصّته تتواتر بين الطلاب بشكل أكثر سرّيّة من قصَّة الدكتور „سمير"، ذلك أنه لم يُقتَل بالخطأ أو بسيَّارة مجنونة، بل قُتل بسكّين جزّار مقصودة، اخترقت قلبه، وخرجت من الجهة الأخرى أمام أنظار الركّاب كلّهم في باص الدولة! فقد كانت إحدى عصابات „آل الأسد" تلاحق صبية جميلة، هربت منهم، والتجأت إلى باص الدولة. أوقفوا الباص في منتصف الشارع، وصعدوا إليه، يريدون أن يأخذوا الصبية عنوة. لا سائق الباص ولا أيّاً من الركاب تجرّأ على التّفوّه بنأمة، وحده „حسّان" الوحيد الذي جَرُؤ على حمايتها حين تلطّت وراءه صارخة: ساعدني، الله يخلّيك! لكن „حسّان" لم يكد يُكمل جملته: „حرام، يا شباب، هي في حمايتي .."، حتّى كان ثمّة سكّين قد غُرزت في صدره جهة القلب، ومات الشّابّ من فوره!

في قادم الأيّام، قيل بأن والده ترك الوطن ورحل. أيّ وطن هذا يُقتل فيه الشباب ذوو النخوة في الطُّرُقات! لكن قصَّة „حسّان" ستبقى معلّقة في الجوّ، تُضاف إليها كلّ يوم قصَّة جديدة: فتيات خطفهنّ الشّبّيحة، رجال قتلهم الشّبّيحة، سيَّارات سرقها الشّبّيحة، بيوت نهبوها. كانوا أشبه بعصابات موت، تجوب المدينة، وتحكمها فعلياً. ربّما لأجل ذلك كلّه أنزل „باسل الأسد" كتيبَتَيْن من جيش أبيه، الذي كان يحكم البلاد وقتذاك بالنار والبارود، ليحارب المافيات الجدد، فلم يكن من الممكن أن تُترك البلاد لحُكْمهم الذي راح يتمدّد شيئاً فشيئاً حتّى كاد يغيّب حُكْم عمّهم الديكتاتور الأكبر „حافظ الأسد"!

„قُتل المئات في القرداحة والقُرى المحيطة".

„الجثث مشلوحة على الطُّرُقات، ولا أحد يجرؤ على حملها".

„حرب حقيقية بالجبل .. الله يجيرنا".

اشتعلت المدينة الصغيرة بالشائعات، ثمّ اختفت عصابات الأسد من الطُرُقات لأيّام طويلة. كانت الإشاعات تتراكم وتكبر وتتطوّر، وتترك الخوف جاثماً على الصدور. رائحة الترقّب ملأت المدينة، كما ملأت كوريدورات الجامعة. الجميع كان يهمس برعب. الجميع كان يشنّف أذنَيْه لأيّ صوت يأتي من الخارج حتّى المحاضرين.

لكن الأمر لم يطلْ، وعاد الشّبّيحة، ليُرعبوا اللاذقية مجدّداً، وذلك إثر يوم تاريخي، أتى فيه مسؤول الفرقة الجزبية في كُلّيّتنا راكضاً زاعقاً في الكوريدورات بفجائعية:

„مات باسل الأسد .. يا فجيعتنا .. مات باسل الأسد" ..

ويلطم على رأسه.

الجميع كان يهمس „لقد قتلوه!!"، لكن أحداً لم يملك إثباتاً على ذلك، كان شعوراً عامّاً وقراءة للأحداث .. لقد قتلوه.

لكن الموت، الذي كانت له وقتذاك سطوته، مرّ على الدكتور „سمير" وعلى رفيقنا „حسّان" بشكل مختلف تماماً عمّا مرّ على „باسل الأسد": مجموعات البنات التي كانت تلطم في حَرَم الجامعة، سرادق العزاء التي فُتحت هنا وهناك، تلاوات القرآن العالية التي عمّت الكُلّيّات، الدروس التي توقّفت، والجنون الذي حلّ كإعصار على الأمكنة كلّها، يجعل موت „باسل الأسد" موتاً مختلفاً. فيما الصمت الذي رافق رحيل الدكتور „سمير" و"حسّان" يجعلهما أشبه بالجنود المجهولين الذين قضوا في الصفوف الخلفية! قد كانا كذلك حقّاً، فالفقد الذي مازال موجوداً حتّى اليوم في قلوب الطلاب والرفاق يشهد على ذلك .. ولكنْ، لهذا في النهاية حكايات كثيرة أخرى!

المدرسة حين تلاحقني:

هل كنّا بالفعل نعرف كيف نعلن البدايات دون أن نعرف كيف نُنهيها؟!

هذا ما كانوا يقولونه دوماً عنّا، جيلنا الذي اعتلى المسرح بعد إسدال الستار، وانتهاء المسرحية. هل كنّا بالفعل كذلك؟ أم أننا حُشرنا بين جيلَيْن، جيل سابق، دفع أثمان مقاومته في السجون والمنافي وتحت التراب، وجيل لاحق، بدا آخر همّه أن يفكّر بالبدايات والنهايات!

هناك مَنْ كان يسمّينا بكل لؤم: جيل حافظ الأسد، ذاك الذي أتى الحياة مع استيلاء الأسد على السلطة. هل هناك تسمية أكثر لؤماً وإجحافاً بحقّنا، نحن جيل السبعينيّات، أكثر من ذلك؟!

أنتم جيل، اتركوه للسخافات والتفاهات فقط ..

لا تكلّ أُمّي من قول هذا، هي الحريصة على التّفنّن في الحديث عن يوميّاتها في المدرسة الثانوية والجامعة، دون أن تدري بأنها تغيظني حتّى الموت. أو ربّما كانت تحاول أن تنشل نفسها من بؤس واقعها بالذهاب إلى الذاكرة البعيدة المليئة بالفاعلية. كانت تحدّثني عن تظاهرات الطلاب في السّتّينيّات، عن صراعاتهم الفكرية، عن نقاشاتها السياسية الحامية، هي التي كانت قومية ناصرية حتّى العَظْم، مع الطالبات اليساريات والإسلاميات والبعثيات. كنتُ أشعر، حين كانت تحدّثني بالتفاصيل، أنها حصلت في كوكب آخر، أو في زمان، لا يمتّ لزماننا بصلة، ويفصله عنه آلاف السنين، وليس ما يقرب من ثلاثين سنة لا غير! نحن الذين كان مُجرّد أن يشفّ حديثنا عن رأي سياسي في المدرسة كفيل بفتح بوّابات الجحيم علينا.

هل كان حال المدارس وقتها كما كانت تسرد أُمّي؟ أم هو إضفاء

قدسية على ماضيهم؟! وكيف حدث ذلك الانقلاب الهائل في زمن قصير هكذا؟! وكيف تحوّلت „القضايا الكبرى"، التي كان الطلاب يتصارعون حولها، حسب تعبيرها، إلى أشياء صغيرة تافهة؟! كيف حدث هذا كلّه؟! فيما هي ورفيقاتها، الذين صاروا أهالي جيلنا فيما بعد، هم أكثر الذين كانوا يزرعون الرعب في قلوب أولادهم من العمل السياسي وفاعليّته، بل حتّى من مُجرّد إبداء الرأي. هل كان الخوف فقط؟! هل كان الخوف هو الذي حدا بهنّ إلى منع بناتهنّ من لبس ما يرغبنه هنّ اللواتي يتباهينَ بصورهنّ في السّتّينيّات وأوائل السبعينيّات بالميني جوب؟! أم أن كلّ شيء تغيّر بالفعل، كأن ثمّة فيروساً فضائياً قلب المُجتمع وأهله، وحوّلهم إلى كائنات مغايرة؟!

لكن كلّ ما كان حولنا كان أشرس من أن يدعنا نُكمل ما بدأناه. لم يمرّ وقت علينا دون أن نحاول الانطلاق بمشروع ما. مشاريعنا الجديدة كانت تتمحور حول تجمّعات لأشياء نخترعها. ربّما كنّا نجرّب أن نكسر ذلك الجدار الوَهْمي الذي فُرض علينا، على جيلنا كلّه، بل على البلاد كلّها. مَنْ رأى فيلم „الجدار" الذي أبدعت بأدائه الممثّلة الألمانية Martina Gedeck أو قرأ الرواية التي عُمل على أساسها الفيلم لمارلين هاوسهوفر Marlen Haushofer، سيتخيّل تماماً كيف كان حالنا في تلك الفترة ونحن سجناء ذلك الجدار الوَهْمي. يمكننا فقط أن نراقب إذا استطعنا أن نلمح على مَرمى نظرنا فاعلية ما. ما كنّا نستطيع التّلصّص عليه كان بضعة كاسيتات، يمكننا أن نشتريها أو نستعيرها، بضعة كُتُب سبق وصُوِّرت بآلة فوتوكوبي سيِّئة.

كان أبي يملك آلة تصوير ضوئي، خبّأتها أُمّي يوماً في السقيفة فوق المطبخ. فقد كان مُجرّد العثور عليها جريمة سياسية، لا يمكن أن تُغتفَر.

كان يُصوِّر الكُتُب ممنوعة التداول التي يحملها الأصدقاء إليه من لبنان أو تونس أو من بلدان أوروبا. لذلك فقد كان بإمكاني أن أقرأ „نقد الخطاب الدِّيني" لـ „نصر حامد أبو زيد"، و"ذهنية التحريم" لـ „صادق جلال العظم"، و"فرسان بلا معركة" لـ „الصادق النيهوم"، و"لعبة الأمم" لـ „مايلز كوبلاند"، و"آيات شيطانية" لـ „سلمان رشدي" وغيرها الكثير من الكُتُب الثمينة، التي كانت كلّها بالأبيض والأسود، والتي كان والدي يدفع بها سرّاً للراغبين بقراءتها. لكنْ، لم يكن ثمّة الكثير من الأُمسيّات القصصية والشِّعْريّة التي يمكننا حضورها، اللّهمّ إلا تلك التي تقيمها وزارة الثقافة واتّحاد الكُتّاب العرب. لم يكن ثمّة الكثير من صالات السينما لارتيادها، ولا المسارح، اللّهمّ إلا المسارح التي تعرض المسرحيات الكوميدية الرخيصة، والتي لا يمكنني كفتاة الذهاب إليها، وإلا سأتعرّض لعشرات التحرّشات، والتي لا يعرف إلا الله إلى أين من الممكن أن تصل لمُجرّد كوني فتاة وحيدة، اقتحمت عالم الرجال. لم يكن يوجد فعاليات ثقافية وفنِّيَّة حقيقية، تجعلنا نشعر، ونحن في أواخر مراهقتنا وأوّل شبابنا، بأننا نقوم بعمل حقيقي فاعل، يملأ فراغاتنا الداخلية، ويكون بديلاً عن العمل السياسي والمَدَني الذي تعلّمنا أن ننساه! لذلك سيكون من الطبيعي أن تنحفر تفاصيل مجيء الشيخ إمام في الثمانينيّات إلى اللاذقية في ذاكرتي، تماماً كما هي تنحفر تفاصيل قدوم وحيدي إلى العالم. وأن أحفظ أغاني تلك الليلة الخالدة أكثر ممّا أحفظ حكاياتي الشخصية الخاصّة. فَحَدَثٌ كهذا كان أشبه برَمْي حصاة كبيرة في قلب مستنقع راكد!

تعالوا نُؤسّس فرقة موسيقية!!

صاحت رفيقتي ذات صباح.

يومذاك قرّرنا أن نُعلن قيام فرقتنا الموسيقية، ثلاث صبايا مُولَعات

بالموسيقى، ولكنْ، لم تكن ولا واحدة منّا تعرف العزف على أيّة آلة موسيقية. لم يكن الأمر مهمّاً بالنسبة إلينا. فقد كانت „صبا" تعشق مادونا ومايكل جاكسون، ملكة وملك البوب، حسبما كانت تسمّيهما، وتضع صورهما على حوائط غرفتها، ودفاتر مدرستها مَحشوّة بصور لهما بالأشكال كلّها حتّى إن المرء ممكن أن يتخيّل أن تطالعه فجأة صورة لأحدهما وهو يتبرّز. أنا لم أكن أحبّهما، كنتُ ما زلتُ مولعة بأغاني اليسار وأغاني البيتلز، وكذلك الرفيقة الثالثة „زينة". لذلك قرّرنا أن نعلن قيام مجموعة تُعنى بأغاني الروك، سمّيناها „ذا دور"، على اسم فرقة الروك العالمية، على الرغم من أننا كنّا نهوى أغاني ألفيس بريسلي والبتيلز أكثر، وعلى الرغم من إصرار „صبا" على تسميتها „جيم موريسون"، حين استطاعت الحصول على كاسيتَيْن للفرقة „waiting for the sun" و"strange days".

علّق أبي حين رآني أُلصق إعلان الفرقة الجديدة بجانب صورة غيفارا، التي كانت تحتلّ نصف حائط غرفة نومنا أنا وأختيّ: „ألم تجدي شيئاً أكثر أهمّيّة تفعلينه؟!".

يا إلهي! .. ما هو الشيء الذي كان أكثر أهمّيّة؟! تمنّيتُ أن أسأله. فقد كان هذا هو السؤال الأساسي الذي دارت حوله أيّامي، بل حياتي كلّها: ما الشيء المهمّ الذي من الممكن أن أفعله؟! وما الذي تعنيه صفة: „مُهمّ". هل ينبغي للشيء „المُهمّ" أن يكون جدّيّاً للغاية، متجهّماً، ومحمَّلاً بأفكار إيديولوجية، تجعله ثقيلاً ثقيلاً، لا يمكنه أن يتحرّك من مكانه؟!

بعد فترة، كان عمل مجموعتنا الموسيقية يقتصر على تسجيل الكاسيتات، ومحاولة بيعها، محاولات تكلّلت غالباً بالفشل. كذلك طباعة بعض الصور لأشهر مغنيّي الروك، وطباعة كلمات بعض الأغاني. لم يكن لدينا دراية واعية بأهمّيّة تلك الكلمات، ولا بما فعلتْهُ في العالم

من ثورة. لكن الروك كان يستهويني أكثر بكثير من البوب، رغم الجيتار الكهربائي الذي يُسبّب لي الصداع أحياناً. مع الزمن، سأعرف ما ميّز أغاني الروك، فقد اهتمت بقصَّة أو حدث ما أكثر من أيّ نوع آخر من الموسيقا. كانت ذلك النوع من الموسيقا الذى يحكي انفعالات البشر، الغضب والاكتئاب والتّحرّر والثورة. كانت ثورة الفنّ في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. ربّما لهذا، ومن حيث لا أدري، دغدغت شيئاً بداخلي.

بعد شهور قليلة، تبدّد مشروعنا الموسيقي!

الخواء كان عنوان مراهقتنا وشبابنا الأوّل. الخواء ذاك الذي يصاحبه العجز، العجز حتّى عن التّحرّك في قفصنا الصغير، ذاك الذي يضيق علينا يوماً بعد يوم، ربّما كان هذا هو السبب الذي دفعني لأن أغادر مدينتي البَحْرِيّة الجميلة "اللاذقية" وأُيمّم شطر "دمشق" العاصمة، ظانّة بأنها خارج القفص، ويأني سأعيش هناك المعنى الذي أفتقده. لأكتشف مع الزمن بأني كنتُ على خطأ، وأن المعنى والحُرِّيَّة اللَّذَيْن كنتُ أبحث عنهما دوماً لا يتعلّقان البتّة بالمكان .. ولكنْ، لهذا حكايات أخرى!

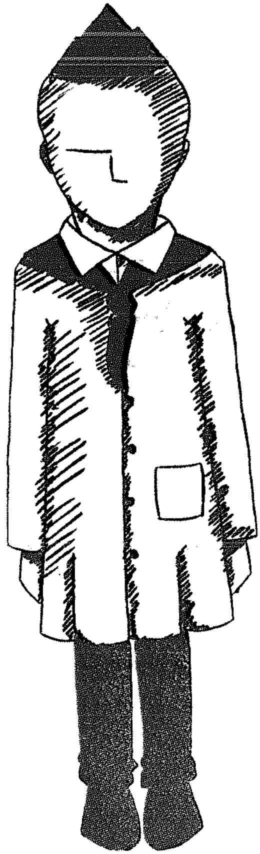

"مدرسة الأسد"

رستم محمود

اليوم الأوّل – تحطمُ البهاء

وُلدت علاقتي بالمدرسة ممّا يُمكن تسميته بـ "الأسطورة العائلية"، التي كان عِمادها أمران مُركّبان من ثلاثة أجيال سورية: فمن جهة، كنتُ الابن البِكْر لسيِّدة حُرمت من إكمال تعليمها، حيثُ أُخرجَت والدتي من المدرسة بعدما تجاوزت الامتحان العامّ للمرحلة الإعدادية بنجاح عام ١٩٨١، وزُوِّجت لابن عمّها، - أبي - رُغماً عنها، الذي لم يكن قد مسَّت قَدَماه فناء مدرسة ما قطّ. لكن أُمّي نفسها كانت ابنة واحدة من أذكى نساء جيلها ومُحيطها، فجَدَّتي لأُمّي كانت خيّاطة ماهرة وقارئة قُرآن، تعرف القراءة والكتابة بإحكام. لم يكن يُعرَف كيف استطاعت كسب تلك المهارات في بداية ثلاثينيّات القرن المُنصرم. حيث في تلك المناطق القَصية والقلقة من البلاد، لم يكُن حتّى الذكور من جيلها يحصلون على شيء من ذلك. تزوّجت جَدَّتي من قروي تقليدي، لم يكن يُقدِّر أيّاً من مواهبها تلك.

استخدمت جَدَّتي قُدرتها كلّها لدفع جَدِّي للاستقرار في المدينة في بداية الخمسينيّات من القرن المُنصرم، متخيّلة أن أبناءها سيستطيعون تحقيق ما حُرمت هي منه. فخالتي الكُبرى حُرمَت من دخول المدرسة، لأن عائلة جَدِّي كانت من العائلات الكُردية غير القليلة التي سُحبَت منها الجنسية السورية في أوائل السّتّينيّات. وفي انتظار القوانين والتعليمات الأمنية الجديدة، تأخّر خالي الأكبر من دخول المدرسة، فيما حُرمت أُمّي

من إتمام تعليمها، وهي التي يُقال إنها كانت أكثر أولاد جَدَّتي نباهة في التعليم. حُرمت خضوعاً لأعراف أولاد العمومة. وهكذا تحطّمت آمال جَدَّتي تماماً، وتسرّبت تلك الأُمنيّة من جَدَّتي إلى أُمّي، ومن أُمّي إليّ، أنا الذي كنتُ ولدها البِكْر.

بهذا المعنى، فإن أُمّي حبّبت المدرسة لي كعالم "بالغ البهاء" حتّى قبل أن أصبح بعُمر الالتحاق بها. وفي سبيل ذلك، علّمتْني الحروف والقُدرات الأولى على القراءة والكِتابة والنطق بالعربية وفهمها والعمليات الرياضية البسيطة قبل أن أرتاد المدرسة. وبأكثر من مستوى وأداة وطريقة، زرعت بي ذلك الإحساس بالشَّغَف بذلك المكان الذي كان اسمه "المدرسة". حتّى كانت تُذكّرني دوماً بأنها طلبت من خالتي الصُّغرى أن ترمي "صُرّتي" بعد الولادة في فناء مدرسة الحارة التي ستغدو مدرستي الابتدائية بعد سنوات قليلة.

بتلك الخلفية والروح، بدأتُ يومي الأوّل في المدرسة. وكانت أُمّي قد نبّهتْني أن عليّ اختيار الجلوس في المقعد الأوّل من صفّ المقاعد التي بالقُرب من حائط باب الغُرفة الصّفّيّة. فحسب خبرتها، سيكون ذلك المقعد هو الأقرب لمدفئة المازوت التي سوف تُنصَب شتاءً، والأفضل لمتابعة المُعلّمين ومُلاحظاتهم وما يُكتبونه على اللوح الصّفّيّ، وكذلك هو الأفضل للمُشاركة في النشاطات الصّفّيّة اليومية.

فعلتُ ذلك بانتباه بالغ، فما إن عرفتُ أن الغُرفة رَقْم أربعة هي غُرفتي الصّفّيّة، حتّى ذهبتُ للجلوس في ذلك المكان بالضبط. بقيتُ لأكثر من نصفِ ساعة وأنا أتأمّل كلّ تفصيل في المكان "البهي" في مُخيّلتي: خريطة العالم العربي. شعارات تمجيد القضية الفلسطينية. ثلاث صور لحافظ الأسد. السّلّة المليئة بالقُمامة مُنذ العام الماضي. مجلّة الحائط المكتوبة

بخطٍّ يدويّ بالغ الصِّغَر. المقاعد الخشبية المُكسّرة. بعض من نِتاجات النشطات الصّفّيّة للطَّلَبَة الذين كانوا في العام السابق. وشبّاك حديدي ضخم جدّاً، يطلّ على الشارع العريض الذي يؤدّي إلى بيتنا، ومئات الطَّلَبَة الذين يرتدون الثياب التي تشبه ثوبي، ويمارسون حركات شَغَب، لم أكن أصدّقها. فجأة وقف أمامي رجلٌ قصيرُ القامة بشوارب كَثَّة، ممسكاً يد طفل "بالغ الطفولة". بكلّ حزمٍ، طلب منّي هذا الشخص أن أجلس في مقعد آخر، وأن أخلي مكاني لابنه. بلعتُ ريقيّ بكثير من الخشية، وقُلت له ببساطة "هذا مقعدي، وقد طلبت منّي أُمّي أن أجلس هُنا"، أعاد طلبه بقول أكثر حزماً، لكني حلفتُ له بأن هذا مقعدي، وأن أُمّي لن تسامحني فيما لو جلستُ في غيره. أمسكني من سترتي، وحاول إخراجي من المقعد، وحين حاولتُ الإمساك بدرج الطاولة الخشبية، صفعَني بقُوّة على وجهي أكثر من مرَّة. هالني ذلك الفعل، تركتُ أغراضي كلّها، وبدأتُ بموجة صراخ وبُكاء هيستيرية، وهرولتُ مُسرعاً نحو بيتنا الذي لم يكن بعيداً.

في البيت، احتاج جَدِّي وأُمّي لقُرابة نصفِ ساعة، ليعرفوا ويعوا ما جرى، فقد كنتُ غارقاً في البُكاء، وتكاد أنفاسي أن تنقطع. وما إن أدرك جَدِّي ما جرى تماماً، حتّى حمل عصاه التي كان يستعملها في القرية فحسب، وخرج مُسرعاً، حيث كنتُ بالكاد ألحق خطواته المُسرعة، وبالكاد أيضاً أسمع مسبَّاته التي كان يطلقها وهو يصكّ على أسنانه ويزبد. وصلنا غُرفة المدير، وبدأ جَدِّي يترصّد وجوه المُعلّمين الذين كانوا غارقين في أحاديثهم الجانبية وضحكاتهم العالية، بينما كان مئات الطَّلَبَة يملؤون ممرّات المدرسة وغُرفها شَغَباً. ذُهل الجميع لمنظر جَدِّي الغاضب والعصا التي بيده، وما إن أشرتُ إلى ذلك الرجل في إحدى الغُرف الجانية، حتّى أسرع وبدأ يناديه وهو يُطلق الشتائم، وقبل أن يصل الرجل، أمسك اثنان من المُدرّسين به، فرمى العصاة التي بيده بكلّ قُوّة، وأطلق توعده بالكُردية "تُضرب ابني وأنا حَيّ، والله لأحرمك أولادك!!".

بين ذلك الهرج كان يوميّ الأوّل في المدرسة. هدّأ المُدير والمدرّسون من روع جَدِّي، واعتذر ذلك الرجل قائلاً إني شتمتُهُ حتّى لطمَني، وهو ما لم يكُن صحيحاً بأيّ شكل، فقد كنتُ طفلاً "مهذّباً" وابن تربية مُحافظة للغاية. وقد طال الأمر بتهدئة الخواطر حتّى نهاية الدوام المدرسي، وما إن خرجتُ ماسكاً يد جَدِّي، وفي مُنتصف الطريق تذكّرتُ بأني نسيتُ حقيبتي ومَطَرَة الماء التي كان أبي قد جلبها لي من ليبيا، حينما كان عاملاً هُناك قبل أربع سنوات. عدتُ مُسرعاً، وضربتُ الباب، أخبرتُ الآذن "الفراش" بأني نسيتُ حقيبتي ومَطَرَة الماء الجميلة، لكنه عاد وأخبرني بأنه لم يجد إلا الحقيبة. لا أعرف لماذا لم أطلب منه التّأكّد بأيّ شكل، ونظرتُ إلى عينَيْه بكلّ غريزة طفوليّة، فقد كنتُ مُتأكّداً بأنه أخفى مَطَرَة الماء الجميلة المُختلفة تماماً عن كلّ التي للطّلَبَة الآخرين. رجعتُ وأنا أجرّ حقيبتي على الأرض، وما إن رأيتُ جَدِّي حتّى دمعت عيناي من جديد، ولم أُخبره بشأن مَطَرَة الماء. في البيت، لم تفاتحني أُمّي بالأمر رُغم مُلاحظتها بأني عُدتُ دون مَطَرَة الماء، وطلبت منّي أن أنام إلى جانبها في تلك الليلة.

بعد ذلك اليوم الطويل، لم أعد أرى في ذلك المكان ما كنتُ أتخيّله من قبل. فقد بدت لي المدرسة مُجرّد بناء عال موصَد، وبلون واحد، رمادي باهت. وأكثر ما كان يُخيفُني هو شكل الأبواب الخارجية الحديدة الكبيرة، والأقفال الضخمة التي كانت عليها، ومعها الشبابيك المليئة بالسواتر المعدنية، كان ذلك يُسرّب إلى قلبي حساً غريباً بالخوف من الفضاء الداخلي للمدرسة. فدوماً كنتُ أتساءل في أعماقي: ماذا لو أقفل حارس المدرسة الأبواب يوماً، وأنا بداخلها! أيّ طريقة وطريق سينجينني من هذه البئر العميقة؟؟ وكيف سيسمعُني جَدِّي فيما لو ناديتُ بصوت قويّ؟!.

لم يكُن من شيء يُعزّز من ذلك الشعور سوى شكل المدرسة نفسه،

فككلّ باحات المدارس وفضاءات الصفوف الداخلية، كانت مدرستنا الابتدائية أشبه بسجن سوفياتي مُقفَل، لم يكُن بها شجرة واحدة، وكانت الألوان الداخلية والخارجية للمدرسة مزيجاً باهتاً من اللونَيْن البُنّيّ والرمادي، ألوان لا علاقة لها بأيّة طفولة. أمّا التشييّد الهندسي، فقد كان بالغ "السذاجة"، فالمدرسة كانت كغيرها من مدارس المدينة، مُجرّد مُربّع إسمنتي طابقي، تتقابل فيه الصفوف بشكل متواز، دون أيّة شُرفات أو حدائق أو ملاعب، كانت ببساطة مؤلّفة من ذلك البناء المُربّع المُغلَق العالي، ومعه باحة إسمنتية وسور مُغلَق. في عموم مدينة القامشلي كانت مدرستي التي درستُ فيها المرحلة الإعدادية مُخالفة لتلك الرؤية الهندسية الشمولية، وبالمصادفة فقد كانت المدرسة الوحيدة التي شُيّدت في المدينة قبل انقلاب حزب البعث الشهير عام ١٩٦٣.

***

في غابة العُنف

لم يكُن يومي الأوّل سوى التتويج الطبيعي لما كنتُ قد سمعتُهُ عن "المُدير توما"، كان لاسمه رنين مرعب في ذاكرة طفولتنا الأولى، كنّا نعرفه حتّى قبل أن نغدو طلاباً في المدرسة الابتدائية التي كانت في حَيّنا. فأطفال الحارة الأكبر سنّاً كانوا دائمي الذِّكْر لسيرته ووقوفه المستمرّ في صالون المدرسة، حيث كان يشدّ الطَّلَبَة من سوالفهم. كثيرون من طلاب الحارة كانوا يُظهرون أثر "مسكات" توما تلك.

لم يكن توما يمارس أيّ شكل من العنف الجسدي ضدّ الطَّلَبَة سوى أن يشدّهم من سوالفهم، فهذه كانت هوايته التي يتفنّن بها؛ فقد كان يركّز يَدَيْه حول رأس الطالب، ثمّ يسحب شَعْر السوالف للأعلى، ولو صرخ

الطالب/الطفل بين يَدَيْه، فإنه كان يخفّف الشّدّ قليلاً، ثمّ يعيد الشّدّ مرَّة أخرى، وحين كان الطالب يخرّ فاقداً حسَّه بالألم بين يَدَي توما، فإنه كان يبتسم، ويرمي الطالب من بين يَدَيْه. مرَّة حين أدمى توما سوالف أحد الطَّلَبَة، لم ترَ أمّه طريقة لإنقاذ ابنها سوى حلاقة شَعْره بشكل تامّ، كي تُنقذه من يد توما، وقتئذ حين شاهده توما، توعّده قائلاً: "بكرا بيطول شَعْرك، ووقتها راح يكون حسابك دوبل".

حينما تقاعد توما بعد سنوات كثيرة، اكتشف أطفال الحارة شيئا غريباً، فقد كان الشَّعْر الذي يغطي رأسه مُجرّد باروكة شَعْر مستعارة، بينما كان رأس توما أجرداً ومليئاً بآثار الجَرَب الجِلْدي، وبالذات في منطقة سالفَيْه.

لم يكُن المُدير توما المُدرّس الوحيد الذي كان يتفنّن في ضرب الطَّلَبَة في أثناء المرحلة الابتدائية، فكثيرون مثلهُ كانوا يمُارسون السلوكيات نفسها، تجاه أطفال لم يكُن عُمرهم يتجاوز عشر سنوات. فقد كان الأستاذ محمود معروفاً في المدرسة كلّها بأسلوبه الرهيب بوضع القلم بين أصبعَي الخُنصر والوسطى للتّلميذ، ثمّ الضغط عليهما، لكي تُؤلم التّلميذ بأكبر قَدْر مُمكن. وكانت مُدرّسة اللُغة الإنكليزية "أفتونيا" قد اشتهرت بضرب الطَّلَبَة بالعصا على وجه أيديهم، وليس على بواطنها، على الجانب العَظْمي من اليد، الذي كان يؤلم أكثر بكثر من الوجه اللَّحمي لليد. وكان المُدرّس سيف الدِّين مشهوراً بشَدّ آذان الطَّلَبَة وخدودهم، ولم يكن يتركها إلا حينما يصل الطالب لدرجة الصُّراخ. بالنسبة إلى هذا الأخير، فإنه كان يختار الطَّلَبَة ذوي الخدود البارزة والآذان الكبيرة، ولسوء حظّ فظيع كانت هاتان الخاصّتان الجسديّتان متوفّرتَيْن بي، مع الكثير من الطَّلَبَة الآخرين الذين كانوا يشبهونني، وفي الكثير الكثير من المرّات، فإن المُدرِّس سيف الدِّين كان يمُارس تلك السّاديّة في سبيل التسلية، وليس العقوبة، فقد كانت

الحصّة بالنسبة إليه تنتهي بأقلّ من عشرة دقائق، يُعطي بها مُلخّصاً صغيراً عن مضامين الدرس، ثمّ يطلب من الطَّلَبَة إخراج كُتُبهم والقراءة منها، ويذهب لمُحادثة مُدرّس آخر على الباب، ومَنْ كان يُصدر ضجيجاً، ينال تلك العقوبة الجسدية القاسية.

إلى جانب هذه الأشكال الجسدية العنيفة، كان ثمّة عُنف نفسي كبير يُمارَس علينا كَطَلَبَة في أثناء الابتدائية. أتذكّر مثلاً أنه كان ثمّة مُدرّس يُسمّى غسّان، كان مثالاً واضحاً للإنسان البائس، فطَوالَ أكثر من ستّ سنوات من مُعايشتي له في تلك المدرسة، لم أره يبتسم قطّ، أو بدّل سترته الخضراء العسكرية، وفي مرَّات كثيرة، كان يُمكننا أن نُلاحظ أنه لم يستحمّ مُنذ أيّام، ولم يغسل وجهه صباح هذا اليوم. حينما كان المُدرّس غسّان يدخل الصّفّ كان يطلب من الأطفال أن يضعوا أياديهم بشكل مُنتظم على الطاولة، وأن لا يحرّكوا حتّى جفونهم التي كان يُحدِّق بها بشكل مُنتظم. وإن جرى وتحرّك أحدهم بشكل ما، فإنه كان يطلب منه أن يقف في زاوية الصّفّ، رافعاً يَدَيْه وإحدى قَدَمَيْه، شيء شبيه تماماً لما كان يجري بحقّ الأسرى العسكريّيْن. في مرَّات كثيرة، كان المُدرّس غسّان يُمضي حصّته كلّها بتلك الشاكلة. فقد كان اضطرابه النفسي الواضح جدّاً ينعكس على علاقته المُعقّدة مع هؤلاء الأطفال الذين قدموا أساساً، ليتلقّوا الدروس، لا هذه الاختبارات النفسية المريعة.

هناك ثلاثة أمور لا يُمكنني نسيانها عن عُنف الابتدائية. الأوّل يتعلّق بتوكيل المُدرّسين لبعض الطَّلَبَة بممارسة العُنف عنهم. فبعض الطَّلَبَة الذين كانوا أكثر حضوراً وشكيمة من غيرهم الأطفال البُسطاء، كانوا يُعيّنون كعُرفاء لصفوفهم، أو كلجان انضباط لمراقبة الطَّلَبَة الآخرين، حيثُ كانوا يُخوَّلون لممارسة بعض السلوكيات العنيفة تجاه باقي الطَّلَبَة، وبالذات في

حيّز منح الأوامر والنواهي. كُنت أحد الذين تمّ تعينهم عريفاً في الصّف الرابع، وأتذكّر بالضبط ذلك الانجراف "المُغري" لطفل كان في العاشرة من عُمره، ليُمارس العُنف النفسي واللفظي والجسدي تجاه أقرانه وزُملائه في الصّفّ، وكيف أن ذلك الشي كان يُسرّب أوهام التّفوّق الجسدي إلى عالمي النفسي من طرف، وإلى تحطيم علاقتي الطبيعية الطفولية مع الكثير من الطَّلَبَة الآخرين من طرف آخر، وكيف أن هاتَيْن الآليَّتَيْن تحوّلتا بالتقادم إلى ديناميكية لتحوير شكلِ علاقتي مع أخواتي في البيت وأقراني من الأطفال في الحارة.

كان ذلك يحدث فقط، لأن الكثير من المُدرّسين لم يكونوا يجدون وقتاً ومزاجاً لمُمارسة التعنيف والانضباط بشكل روتيني تجاه الطَّلَبَة، فقد كانوا يوكلونه للطَّلَبَة أنفسهم، دون أيّ اعتبار لما يُمكن أن تُحدثه تلك الآلية من فظاعات. لا أعرف كيف كان لذلك الأمر أن ينعكس على عالمي الروحي والنفسي لو استمرّ لسنوات أخرى، وهو لحُسن حظّي لم يجرِ سوى لأسابيع قليلة، فقط عاقبتُ أحد الطَّلَبَة بأن ضربتُهُ على رأسه بالعصا التي أدمتْهُ، وبعد قدوم أهله، ومعرفتهم بأني فعلتُ ذلك، أخبرتُ المُدير وأهل الطفل وبحضور أُمّي - وبكلّ براءة واتّساق نفسي- هذا من حقّي، كما أخبرتْني المُعلّمة، ووكّلتْني بذلك، وقتها استشاطت المُعلّمة، وصارت تنفي ذلك تماماً، وهو ما لم يكُن صحيحاً بأيّ شكل، فذلك التعنيف كان يجري في الصّفّ، وبحضورها.

نهاني أهلي عن فعل ذلك مرَّة أخرى، بينما كان باقي الطَّلَبَة مُستمرّين في ذلك، وكان الكثير مُنهم يستمتعون به. وتحوّل ذلك الفعل إلى مُكوّن تأسيسي في شخصيّاتهم وحضورهم العامّ. لكن ما لا يُمكن عدم ذِكْره في هذا المقام، هو أن عُرفاء الصّفّ ولجان الانضباط في الابتدائية كان يحقّ

لهم فعل وممارسة صلاحيّاتهم بحقّ الطَّلَبَة كلّهم، خلا أولاد المُدرّسات والمُدرّسين، فهؤلاء كانوا الفئة الناجية من كلّ شيء، كانوا طائفة بذاتهم.

الأمر الآخر الخاصّ بعنف الابتدائية كان يتعلّق بتنامي حسّ التضامن بيننا كَطَلَبَة في مواجهة المُعلّمين. وكان يتأسّس على أكثر من بُعْد. فمن جهة، كنّا نشعر أننا طَلَبَة بينما هم مُدرّسون، ومن جهة أخرى، كنّا نحسّ أننا أكراد مثلاً، بينما المُدرّس الفلاني سرياني أو عربي، حيث تناما هذا الحسّ الأخير في سَنَتَيْنا الأخيرَتَيْن في الابتدائية، بسبب طالب كان يُسمّى "ريبر" كان أهلهُ من المُنخرطين في الحركة القومية الكُردية، وكان على الدوام يُحدِّثنا عن المُدرّس الفلاني الذي يكره الطَّلَبَة الأكراد، والمُدرّسة الفلانية التي تضرب الطَّلَبَة الأكراد أكثر من غيرهم. أتذكّر أنه في أثناء الكثير من جولات التعنيف عبر الضرب بالعصي على راحة الكفّ، والتي كانت معروفة العدد، بين أربعة إلى ثمانية ضربات للطلاب المُعاقَبين، وقتها كان أحدنا يطلب من المُدرّس أن يتلقّى نصف عدد الضربات نيابة عن صديقه الفطيع، والذي ربّما لا يُصدّق أن هؤلاء المُدرّسين كانوا يقبلون بذلك الطرح، في ميل واضح وتأكيد عميق على أن العُنف إنما يُمارَس لذاته، في تخلٍّ تامٍّ حتّى عن الحجّة السخيفة التي كانت تسعى لأن تقول بأن التعنيف إنما يجري لصالح الطَّلَبَة، ليكونوا أكثر انضباطاً والتزاماً بما يُعطَى لهم.

الأمر الأخير المُتعلّق بعُنف المدرسة الابتدائية كان يخصّ علاقة العائلة بهذا العُنف، إذ كانت الأغلبية المُطلقة منهم لا تستنكر هذا الأمر، وبمعنى ما تعدّه طبيعياً وإيجابياً، وكاستمرار لما كان يُمارَس ضدّ الطَّلَبَة من عُنف منزلي، خصوصاً العائلات الأفقر مادّيّاً والأقلّ تحصيلاً معرفياً. ففي أواسط الثمانينيّات، في أثناء مزاولة الذين في جيلي عُمرياً للدراسة الابتدائية،

كنّا الجيل الأوّل الذي يزاول المدرسة بالنسبة إلى الكثير من العائلات. أتذكّر أن ذلك كان بالنسبة إلى الكثير من أعمامي وعائلتي الأوسع، وكيف أن المدرسة كانت بالنسبة إليهم عالماً غامضاً ومُركّباً، مزيجاً من مكان رهيب ووقور، مع الكثير من السُّلطة الرمزية شبه المُقدّسة، التي لا يُمكن مراقبتها ونقدها ورفض حتّى بعض سلوكيات القائمين عليها. فقد كانوا يعدّون بأن العُنف على أولادهم إنما يحدث لـ "مصلحتهم" وأن المُدرّس على حقّ دون شكّ، وأنه لولا بعض السلوكيات المُشينة من أبنائهم، فإن المُدرّسين لم يكُونوا ليفعلوا ذلك دون شكّ. أتذكّر بالضبط بأن العُنف كان أداة هؤلاء الأهل لمعاقبة أبنائهم، فيما لو لاحظوا أيّ خلل في أدائهم المدرسي، أو فيما لو اشتكى مُدرّس ما مُنهم.

في أثناء الابتدائية، كنتُ شاهداً على أن الكثير من الآباء قد عنّفوا أولادهم بطُرُق مُريعة في أثناء دعوات بعض المُدرّسين لهم، لشكوى ما. أتذكّر أحد الجيران حينما دخل الغرفة، وانهال بضربات قاسية من قشاط خصره على ابنه، وكيف أن المُدرّسة لم تستطع أن تحمي الطفل إلا بعدما طلبت مُساعدة باقي المُدرّسين، وكيف أن ضرباته طالت الكثير من الطَّلَبَة الآخرين.

أكتب هذا وأنا أفكّر بالعشرات من الطَّلَبَة الذي توقّفت دراستهم عند المرحلة الابتدائية فحسب. إذ كيف تمركزت أفكار تتعلّق بالمؤسّسة والمعرفة والدولة في أذهانهم، وبماذا ارتبطت على الدوام في ذاكرتهم العميق، سوى تلك الصور المُريعة من العُنف. يحُضرني بجلاء أقوال الكثير من صُحبة اليفاعة الذين كانوا يصرّحون بكراهيّتهم الواضحة للمدرسة والمُعلّمين، وكلّ ما قد يتعلّق بذلك. وأتذكّر أنني بقيتُ طَوالَ السنوات التالية للمرحلة الابتدائية لا ألقي السلام على جارتنا مُدرّسة التربية الدِّينية،

التي كانت تُعنِّفنا بغرس القلم بقُوّة في رؤوسنا فيما لو شاغبنا أو أصدرنا أصواتاً عالية حينما كانت تُحادث باقي المُعلّمات في أثناء الحصّة الدراسية.

***

في المرحَلَتَيْن الإعدادية والثانوية تحوّر العُنف، ليغدو له أكثر من بُعْد ومستوى ودلالة، ولم يعد مُجرّد أداة من قِبَل المُدرّسين تجاه طَلَبَتهم.

ففي أوّل يوم حضور في المرحلة الإعدادية، حين دخل الأستاذ زَكَرِيَّا، مدرّس اللغة العربية، نادى الطَّلَبَة بلُكْنَتِه الحلبية: "إلكون ولاّ للديب!" ردّ أكثر من طالب: "يتخسى الديب، أستاذ". تنفّس المدرّس ملء رِئَتَيْه، ثمّ قال: بدّي منكون تجيبولي عصاية، تكون خفيفة ومنجّرة وسهلة الاستعمال".

في اليوم التالي، كان عدد من الطَّلَبَة قد اصطحب معه أنواعاً مختلفة من العصي المخصّصة للضرب، استطلعها المدرّس بدقّة وهدوء، حمل كلّ واحدة منها، وقاس وزنها بيَدَيْه، مسّدها وكأنها طفلته المُدلّلة، إلى أن وقعت عينه على عصاً مستطيلة ملفوفة بشريط لاصق أسود، ابتسم، وحملها، وقال: "من جايب هاي العصاي؟"، رفع أحد الطَّلَبَة يده، نظر إليه المدرّس، وابتسم:"برافو عليك، يا شاطر، هاي العصاية راح سمِّيها السمرة".

كانت السمرة لا تفارق يد الأستاذ زَكَرِيَّا، وهو الذي كان قد حدّد أشكالاً مختلفة من العقوبات للطَّلَبَة الذين يتخلّفون عن تنفيذ "أوامره". فضربتان منها على وجه الكَفّ، لأيّ طالب نسي كتابة وظيفته المنزلية، وأربعة لمَنْ لم يحفظ الدرس، وخمسة لمَنْ نسي كتابه في البيت ... وهكذا. في مرّات كثيرة، كانت تجتمع هذه العقوبات في طالب واحد، كانت عقوبة زَكَرِيَّا

تصل لعشر ضربات من السمرة على باطن الكفّ، ممضياً يومه المدرسي من دون أن يُشفى من ذلك الوجع.

كان المدرّس يأخذ "السمرة" معه إلى غرفة اجتماع المدرّسين، في أثناء استراحات المدرّسين الذين كانوا يتبادلون الأحاديث حول طريقة استعمال كلّ واحد منهم للعصا. فالمدرّس أحمد كان يحمل واحدة، يسمّيها "الخنساء"، التي لفظاعةٍ لا تُصدَّق كانت اسم أُمّه!!. أمّا المُوجِّه عزّو، فقد كان يحمل "كابلاً كهربائياً" يضرب به الطَّلَبَة، وقد كان المُوجِّه التربوي في المرحلة الإعدادية شخصاً، تنطبق عليه كامل صفات الشخصية السّاديّة .

مرَّة في أثناء موجة الضرب، حين كان أكثر من نصف تلاميذ الصّفّ يقفون بانتظام، ليتلقّى كلّ واحد منهم عقوبته، وقتئذ قال صديقنا "إبراهيم عيسى" للمدرّس زَكَرِيَّا: "أستاذ، بس ممنوع الضرب بالمدرسة، ممنوع"، استشاط المدرّس غضباً، وضع "السمرة" جانباً، وبدأ بتوجيه الصفعات على وجه إبراهيم، مردّداً عبارته "ولك خـ .. عليك وعلى قوانين التربية".

كان أحد أقربائي زميلاً للأستاذ زَكَرِيَّا في المرحلة الجامعية، وأعلمني بأنه أعدّ رسالة تخرّجه عن شِعْر "ابن زيدون الأندلسي". في الفترة المسائية، كان المدرّس زَكَرِيَّا يدرّس طلاب المرحلة الثانوية، كان يردّد بصوته الجهوري قصيدة بدر شاكر السّيّاب "الأسلحة والأطفال" التي كانت من مقرّرات الثانوية. كان يردّد باندماج بالغ: "عصافير أم صبية تمرح؟ عليها سنا من غد يلمح، وأقدامها العارية، محار يصلصل في ساقيه، لأذيالهم رفة الشمأل ..... لمَنْ هذا الحديد كلّه؟ ... لِقَيْد سيُلوى على معصم ..... ونصل على حلمة أو وريد ... وقفل على الباب دون العبيد ...وناعورة لاغتراف الدم ... رصاص ... لمَنْ هذا الرصاص كلّه؟!".

كان المُدرّس زَكَرِيَّا يُمثّل قمّة التناقض الذي يُمكن أن يُلاحَظ في شخصية المُدرّسين الذين مرّوا علينا في المرحلة الإعدادية والثانوية. فقد كان مُدرّسنا هذا حاصلاً على درجة الماجستير في تاريخ الأدب العربي، مثقّفاً ومطّلعاً إلى حدّ كبير على روائع الأدب العربي. غير ذلك، فقد كان مُدرساً مُلتزماً تماماً بتفاصيل العملية التربوية، مُلتزماً بالوقت، ومُثابراً ووفياً على العطاء التربوي؛ لكنْ، مع ذلك، كان بالغ العُنف مع الطَّلَبَة، حيثُ ليس من تفسير موضوعي لذلك التناقض سوى أن هذا التعنيف الذي كان يُمارسه بحقّ الطَّلَبَة - خصوصاً تجاه أكثرهم ضعفاً - كان خارج تفكير الأستاذ زَكَرِيَّا تماماً، وبمعنى ما، كان شيئاً ممّا يظُنه اعتيادياً من العملية التربوية. فالأستاذ زَكَرِيَّا كان ابن بيئة حلبية مُحافظة جدّاً، وكان على الدوام يُذكّرنا بالفروق الجوهرية البنيوية التي تُمايزنا - كشرقيّيْن وكمُسلمين - عن الغرب، وكان يُذكّرنا أحياناً غير قليلة بأن الأساليب التربوية المثالية لا تنفع معنا، أي أن تعنيف الطَّلَبَة في مُخيّلته، كان جزء مُتّسقاً ممّا يظنّه عملية تربوية مُتكاملة، وكانت هذه المُخيّلة التي تُسيطر على أكثر من مُدرّس ومُوجّه تربوي في المرحلة الإعدادية، كانت أخطر ما يُمكن أن يواجهه الطَّلَبَة، ويؤثّر بالتالي على مُخيّلتهم فيما بعد، بالذات الذين سيغدون مُدرّسين بعد سنوات قليلة قادمة.

قدر ما كانت تعنيف مُدرّس اللُغة العربية زَكَرِيَّا للطَّلَبَة مُتناقضاً مع روحه والمادّة التي يُدرّسها، فإن تعنيف المُوجّه التربوي "عزّو" كان مُناقِضاً تماماً لمُهمَّته كمُوجّه تربوي للطَّلَبَة. فقد كان على الدوام يحمل كبلاً ضخماً في يَدَيْه، ويضرب الطَّلَبَة دون أيّ سبب، في الممرّات وعلى الأدراجْ وفي الساحة المدرسة، دون أيّ سبب سوى التسلية والضحكات الغبية التي كان يوزّعها حينما كان أحدهم يصرخ مُتوجّعاً. حتّى إنه في أثناء الحصص التدريسية كان يتلصّص على الطَّلَبَة من شُبّاك صغير، يطلّ من الممرّ على

الصّفّ، وما إن يجد طالباً ما يتهامسُ مع طالب آخر بجواره، حتّى كان يدخل الغرفة الصّفّيّة بطريقة همجية، ويبدأ بتوجيه الضربات من كيله لهذا الطالب، بصمت تقليدي من قِبَل المُدرِّس الذي يكون غارقاً في إعطاء درسه. مرَّة واحدة اعترضت إحدى المُدرّسات على أسلوب المُوجِّه عزّو هذا، فما كان مُنه إلا ان استشاط غضباً، وقال للطالب المُعيّن "راجِعْني بغرفة التوجيه بعدما تخلص الحصّة"، وهُناك بالضبط وجّه له عشرات الصفعات.

كنتُ في الصّفّ التاسع حينما صادف وطلبتُ من المُوجِّه عزّو المُغادرة بسبب عارض مرضي، لم يُعرني انتباهاً، غادرتُ دون أخذ إذن واضح منه. في اليوم التالي، دخل المُوجِّه لصفِّنا فجأة، وضربني بالكابل على كتفي، حيث لم أكُن قد تعافيتُ بعد من آثار الوعكة الصّحّيّة. صعد ألم غريب إلى رأسي، ثمّ نزل وكهرب كامل جسدي، كدتُ أن أسقط أرضاً، لولا أني تلقّيتُ في تلك اللحظة إهانة وجدانية غير معقولة ممّنْ من المُفترَض أنه "مُوجِّهٌ تربوي". بصق عليّ. دفعتُهُ بكِلتا يَدَيّ، وبدأتُ بكيل الشتائم له، وعدوتُ مُسرعاً حتّى وصلتُ حانوت عمّي الكبير. لا أعرف لماذا بكيتُ فقط حينما رأيتُ عمّي، وأظهرتُ آثار الكبل على كتفي الأيمن، هاله ما وجده من خطٍّ أزرق عريض على كتفي، وباختناق تامّ، أخبرتُهُ ما حدث. في المدرسة أخبر جَدِّي المُديرَ بأن هذا الأمر لن يمرّ، سواء في المدرسة وبالقانون، أو خارجها وبعُرف القُوّة؛ لكن هذا الأخير أعاد الرواية، وكأني أنا مَنْ بدأ شتم المُوجِّه أوّلاً، مُستخدماً أدوات الابتزاز كلّها التي يُمكن أن تُؤثّر على "مُستقبلي الدراسي" فيما لو خرج الموضوع لغير إطاره الطبيعي خارج المدرسة. آلم عمّي أن يسمع ذلك، وأن يحدث بحقّي ما لا يجب أن يحدث، لكن المُوجِّه عزّو وعى تماماً بأن مثل هذا السلوك تجاهي لن يمُرّ مرَّة ثانية، لذلك بقي مُتحفّظاً تجاهي طوالَ السنوات الأخرى، حتّى

إنه لم يُحادثْني قطّ، فيما بقي يمُارس سلوكيّاته نفسها تجاه باقي الطَّلَبَة، خصوصاً الأقلّ قُوّة وهيبة وحضوراً، دراسياً واجتماعياً.

مرّ قُرابة عقدَيْن على تلك اللحظة التي تلقّيتُ فيها ضربة الكبل تلك، لكن طعم تلك الإهانة التي لا أستطيع وصف مرارتها التي ما تزال في حلقي، وأستطيع القول براحة ضمير أنها كانت اللحظة الأهمّ في تجربة الألم الخاصّة بي، والتي كانت لبنة مُهمّة في بناء ضميري الداخلي، في رفض مثل هذه السلوكيات السّاديّة/الهمجية تجاه أيّ كان.

كشخص، أملك الكثير من التفسيرات لأسباب ما كان يدفع المُوجِّه عزّو وأمثاله لأن يمُارسوا مثل تلك السلوكيات تجاه الطَّلَبَة، إذ يخطر لي أن مزيجاً من ضعفهم الجسدي مع هشاشة واضحة لموقعهم الشخصي والعائلي في السّلّم الاجتماعي، مع الكثير من استسهال رهيب من القانون والضبط العامّ، وربمّا بدفع موضوعي من قِبَل "القيادة العامّة للتربية والطَّلَبَة" لأن يفعلوا ذلك.

على أن ذلك لم يكُن نموذجاً شاملاً عن المُوجِّهين التربويّيْن التقليديّيْن الذين "أشرفوا" علينا طَوالَ المرحلة الإعدادية والثانوية، فدائماً كان ثمّة بعض الاستثناءات، التي كان المُوجِّه "جورج مطلوب" مثالاً عنهم، فقد كان شخصاً بالغ اللطف والدماثة وخفّة الدم، وذا تأثير بالغ وغير عنيف على الطَّلَبَة، الذين كانوا يعدّونه بأغلبيّتهم العُظمى صديقهم، حتّى إن مُعظم الصور التي نحتفظ بها عن المرحلة الثانوية، هي تلك التي صوّرنا المُوجِّه جورج مطلوب بكامرته، فقد كان مصوِّراً بارعاً.

***

على أن عُنف المُدرّسين والمُوجّهين لم يكُن ليُقارَن بعُنف "المُدرِّبين

العسكريّينْ"، الذين كانوا يُسمّون عُرفاً بـ "مُدرِّب الفتوّة". فهؤلاء كانوا ببساطة التجسيد الواضح والدقيق لما تراه المؤسّسة التربوية العُليا في الطَّلَبَة. فهُم في عُرفها مُجرّد جنود في جيش، اسمُه "وزارة التربية"، ومُدرِّبو الفتوّة هؤلاء هُم ضبّاط الانضباط.

أتذكّر بأن أوّل "مُدرِّب فتوّة" في المرحلة الإعدادية لم يكن أحد من الطَّلَبَة يعرف اسمه، كلّ ما كنّا نعرفه عنه أنه "أبو أبجر" وهكذا فقط. مرَّة طلبنا من "عريف الصّفّ" أن يكشف لنا اسمه الحقيقي، لأن العريف يطلّع على دفتر الدوام اليومي، حيث كان أبو أبجر يوقّع باسمه الرسمي، بعدما طلب منّا العريف أشكالاً مختلفة من القَسَم بأن لا نفشي السّرّ المكين، فإنه أخبرنا بصوت خفيض "اسمه إدوار"، كنّا متيقّنين بأن الاسم الصريح لهذا المُدرِّب هو أحد الأسرار التي لا يُمكن إفشاؤها بأيّ شكل.

كان لأبو أبجر هيئة غريبة، شخص أشقر مُلتح، يلبس برّة عسكرية مموّهة، وبعتاد كامل، يضع نظّارة شمسية طَوالَ الوقت، وقُبَّعة عسكرية حمراء. يحمل عدداً من النياشين على سترته، وصوراً لحافظ الأسد ونجليْه، شعار الحزب وصورة لخيل دامعة، في تذكار لموت باسل الأسد .

كان أبو أبجر يقف على باب المدرسة الرئيس، يراقب الطلاب واحداً واحداً، وفي أثناء الحصص التعليمية، كان يقف على الطاولة وسط الغرفة. يُشهر سلاحه، ويبدأ بشرح خصائص هذا السلاح أو ذاك. أمّا لو سأل أحد الطَّلَبَة سؤالاً، فإن صحّة الجواب أو خطئه ليست مُهمّة، المهمّ في الأمر أن يُنهي الطالب جوابه بأقلّ من دقيقة واحدة، لأننا في معركة والوقت من ذهب، حسبما كان يردّد دوماً .

كلّ عام كان ثمّة يوم "تدريسي" يُسمّى بـ "يوم الرمي"، فالطَّلَبَة جميعهم

كانوا يغادرون المدرسة إلى منطقة عسكرية محيطة بالمدينة، يتعلّمون فيه استعمال الأسلحة الخفيفة. كان ذلك اليوم هو الأجمل بالنسبة إلى (أبو أبجر)، كانت البسمات لا تغادر مُحيّاه، يصرخ بالطَّلَبَة "يا جنود، هلأ نحنا بالحياة العسكرية، الحياة الطبيعية الأكثر انتظاماً، إنتو الجنود وأنا القائد .. إلخ". كلّ عام كان أبو أبجر يقوم بزيارة لقبر باسل الأسد سيراً على الأقدام، كان يدّعي أنه يمشي لمئات الكيلومترات، كي يصل إلى قبر باسل الأسد، ويأخذ عشرات الصور التذكارية التي كانت تغطّي معظم غرفته الخاصّة في المدرسة.

حين أُلغيَت مادّة "التربية العسكرية" من المناهج التربوية، قدّم "أبو أبجر" استقالته، وأُصيب بالكآبة، لم تعد إليه الحياة إلا حين أُضيفَت مادّة "التشبيح" إلى حياة السوريّيْن فيما بعد اندلاع الثورة. فهذا الشخص يُمكن أن يُطلَق عليه بكلّ بساطة "الهومو عسكري"، الذي لا يستطيع أن يحيا دون ما يعتقد أنها دورة الحياة العسكرية. وليس من خارج التفسير بأن كُتلة الأوامر والنواهي الكثيرة التي كان أبو أبجر يعطيها للطَّلَبَة باعتبارهم "جنوده" الخاضعين له، كانت تُخفي بالمُقابل الحيّز "المازوخي" من شخصيّته تجاه السُلطة الفعلية في المدينة، بالذات رؤساء أجهزة فروع المُخابرات. فالكثير من المَرويّات لسُكّان المدينة كانت تروي كيف أن (أبو أبجر) كان يزحف على رُكبَتَيْه في مكتب العميد محمّد منصورة رئيس فرع المُخابرات العسكرية في مدينة القامشلي، وكيف أنه كان يُقبِّل حِذاءه، وكيف أن المنصورة كان يغرق في موجة ضحك حينما كان يفْعل ذلك.

كانت شخصيّة (أبو أبجر) تكثيفاً لما وجدناه في باقي "مُدرِّبي الفتوّة" طَوالَ ستّ سنوات من الدراسة الإعدادية والثانوية. فجميعهم كانوا يستسهلون التعنيف والسُّباب والصُّراخ والإهانة بحقّ الطَّلَبَة، والأسهل

منها هو إخضاع الطَّلَبَة للعقوبات الجسدية والمعنوية، التي قد تصل حدّ ضربهم أو الطَّلَب منهم الزحف على بطونهم، وطبعاً صفعهم ونعتهم بأقذع الألقاب. كنّا وكانت المدرسة بالنسبة إلى هؤلاء المُدرِّبين "جيش سوريا المُصغّر"، وكما كان يحقّ لأيّ ضابط في الجيش أن يفعل بجنوده ما يشاء، فان المُدرِّبين كانوا يفعلون بنا بالضبط كذلك، دون روادع وقانون واضح وبيّن. كان المُدرِّب وليد العطوري يستهوي ضرب الطَّلَبَة على سبيل التسلية والضحك، فيما كان المُدرِّب أحمد هاجري يُسمِعنا أقذع العبارات، ولا يتوانى عن الإشارة إلى أعضائه الجنسية، وأشياء من هذه، وتلك تُطبَق على باقي المُدرِّبين كلّهم.

لم يكُن شيئاً من ذلك خارج القانون العامّ، فالذي كان من المُفترَض أنه المُشرف على عمل مُدرِّبي الفتوّة في المدينة - يوحانون زيتون - كان يفعل تلك الأشياء كلّها حينما كان يزور إحدى المدارس، وكأنه بمعنى ما يُوجّه هؤلاء المُدرِّبين لأن يستمرّوا بما كانوا يفعلونه بحقّ الطَّلَبَة.

المُبرّرات نفسها التي تنطبق على أسباب سلوكيات المُدرّسين والمُوجِّهين التربويّيْن تجاهنا، يمُكن بكلّ وضوح أن تصحّ بحقّ المُدرِّبين. فهؤلاء كانوا قبل سنوات قليلة الطَّلَبَة الأقلّ تحصيلاً علمياً، ولولا ذلك، لما كانوا قد دخلوا معهد التربية العسكرية البائس. كما أنهم بكلّ تأكيد كانوا من العائلات الأكثر هامشية وفقراً، فهذا المعهد كان يُغري طَلَبَتَهُ بأن توظيف المُتخرّجين منه إجباري، والطالب طَوالَ سنوات دراسته يحصل على مُساعدة مادّيّة من وزارة التربية ومكتب الأمن القومي، وهي لا تُغري إلا أبناء الطبقات الأكثر سحقاً اقتصادياً. يُضاف لذلك بأن البنية الشخصية التي تدفع هؤلاء المُدرِّبين لامتهان هذا العمل بالغ الدّقّة، فهؤلاء لانتماءاتهم الطائفية والمناطقية لا يستطيعون دخول الكُلّيّة العسكرية الأعلى

مرتبة ومردوداً ومكانة في الحيّز الاجتماعي، لذا فإن دخولهم للمعاهد العسكرية مرتبط على الدوام بكبت مُستبطَن، يظهر بشكل كثيف في علاقتهم المُعقّدة مع الطَّلَبَة، ضحاياهم.

***

كانت علاقة العُنف المُركّبة في المدارس، التي كان جيلنا شاهداً عليها، من المركّبات غير الصّحّيّة التي كوّنت شخصيّاتنا فيما بعد. كانت هذه العلاقة امتداداً طبيعياً وسلساً، لما كان يُمارَس علينا خارج هذه المؤسّسة، سواء من العائلة بشكل نسبي، أو من أجهزة النظام بشكل مُطلق. أتذكّر بجلاء يوماً حينما كنّا نتمشّى كرفقة في طريق العودة الطويل من المدرسة، كنّا نتسلّى بأيّ شيء في طريق عودتنا عصراً كلّ يوم، كنّا نغني مرّات، ونتسابق مرّات، ونمتحن بعضنا البعض في حفظ جدول الضرب والإعراب أحياناً أكثر. في أحد أيّام شهر شباط البارد، كنتُ مع "ردولة السمين" في آخر قافلة الطَّلَبَة الذين كانوا يغطّون الشارع الطويل، كنّا نتسامر بركل حجرة ملساء، عددناها بمثابة كرة، حيث كان كلّ واحد منّا يتقصّد أن يصيب قَدَم الآخر، ليُوجِعه، رغم الضحكات التي كانت تعلو مُحيّا كلّ منّا؛ بالصدفة، وقرب بناء فرع الأمن السياسي، رميتُ الحجرة بشكل قوي، فاصطدمت بالباب، انفضّ الطَّلَبَة بشكل غريزي عن الشارع، وراحوا يراقبون عن بُعد. خرج عنصر الأمن مذهولاً، حيث لم يجد أمامه غير "ردولة السمين" قادماً حاملاً تلك الحجرة بيده، فناداه زاجراً: "هنت إلي ضربت الحجرة عالباب؟" احمرّت وجنتا ردولة، وردّ ببراءة طفولية: "والله، يا عمّو دون قصد انضربت الطابة بالباب" فردّ العنصر حانقاً: "ولكْ بتكذب كمان، شايل الحجرة بإيدك وبتقول طابة" وبدأ يمسك ردولة من شَعْره، ويُشبعه ضرباً.

هرولتُ مُسرعاً لبيت ردولة، لأُخبر والده بما جرى. بعد أقلّ من دقائق، كان والده يسبقني لذلك المكان. ويحاول باستماتة إخراج ردولة المُدمى من بين أيدي عنصرَي الأمن، اللّذَيْن كانا يتناوبان على ضربه، حيث كان الطَّلَبَة كلّهم يُخرجون رؤوسهم فقط من زوايا الشارع، ليتابعوا ما كان يجري، وقد كان آخر ما تلقّاه ردولة صفعات من أبيه نفسه، الذي كان يخاطب عنصر الأمن: "أنا راح قلع عيونو لو قلّل أدب معكون، يا سيدي". لا أعرف لماذا مُنذ ذلك اليوم، بتنا نادي صديقنا باسمه الحقيقي "رادل" ولم يعد أحد في المدرسة يناديه بـ"ردولة السمين".

انعكس ذلك العُنف كلّه على علاقتنا كَطَلَبَة ببعضنا. أتذكّر أننا كنّا في الصّفّ الثامن، حينما صادقتُ ذلك الطالب الودود للمرَّة الأولى، كان الوحيد الذي يلبس نظّارة في شُعبتنا المدرسية، ومن لُكْنَته العربية المخفّفة، كنّا قد عرفنا بأنه ليس من الجزيرة السورية مثلنا، فوالداه الصيدلانيان كانا قد نزحا من مُدُن الداخل السوري نحو مدينتنا، رغبة بعائد ماليّ أكثر يُسراً. كان صديقنا هذا، يختلف بمنظومته القِيَمِيّة عن عمومنا. فقد كانت المحافظة اللفظية والسلوكية تكبح تفاعله معنا، لأسباب كثيرة، أقلّها أنه تربىّ وتحدّر من بيئة مختلفة عن بيئتنا نحن.

في إحدى فترات الاستراحة المدرسية، شتم أحد الطَّلَبَة هذا الطالب الودود في عائلته، وحينما اندفع صديقنا "الغريب" للدفاع عن نفسه، صرخ الطالب الآخر بكلمة غريبة، فالتمّ أكثر من عشرة طلاب لضرب صديقنا الذي تلقّى الشتيمة؛ أدموا وجهه، وكسروا نظّارته، ولم يستطع أحد أن يُنقذه من بين أيديهم.

في غرفة "المُوجِّه التربوي"، بعدما نظّف المدرّسون دم الطالب الودود، وأعادوا له تركيب نظّارته، قال له المُوجِّه: "يا ابني، أنتم أصدقاء، وبكرا

بتتصالحوا". وحين ردّ الطالب الودود: بس أستاذ هو اللي سبني، واللي ضربوني كانوا عشرة، يا أستاذ!!. غيّر المُوجِّه قسمات وجهه، وقال: ولك يا ابني هدول أولاد عمّو، وهالطالب ابن كبير العشيرة. ملأت علامات التّعجّب وجه الطالب، وقال: شو يعني عشيرة، أستاذ؟! في طلاب ضربوني، وأنا بدّي اشتكي للشرطة. وقتها استشاط المُوجِّه غضباً: ولك أنت شنو مفكّر حالك، الناس مقامات، مقامات". سنوات كثيرة مضت، رأيتُ ذلك اليافع الودود وقد أطلق لحيته، وحفّ شاربه، أمّا المُوجِّه "التربوي"، فبات مُوجِّهاً لقطعان جيش الدفاع الوطني التي كانت بقيادة والد الطالب الآخر في مدينتنا.

كنّا صغاراً جدّاً حينما اكتشفنا تلك البداهة السورية المُريعة، بداهة رقاقة جدار الحماية الذاتية التي كنّا نحسّ بها، ونعيشها بشكل فعلي. ولم تمضِ سنوات كثيرة حتّى غدوتُ طالباً جامعياً في دمشق، ودخلتُ الشأن العامّ عبر المُنتديات السياسية التي كانت شكّلت ما سُمِّي ربيع دمشق في بداية الألفية الجديدة، ومن هُناك تعرّفتُ على الكثير من السُّجناء السياسيّينْ السابقين، وهالتْني مَرويّاتهم الفظيعة عمّا لاقوه من عُنف وجداني وجسدي في سنوات السجن الطويلة، وعلى الدوام، كان ينتابني شعورٌ غريبٌ أن المدرسة كانت بمعنى ما عَتَبَة لذلك السجن، وإن تغيّرت بعض المعايير وأشكال العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، لكنْ، في النهاية، كان ثمّة غياب حقيقي لفكرة القانون وهيمنته، وكان ثمّة سلوكيات ساديّة تُمارَس بحقّ مَنْ هُم أضعفُ شأناً وحضوراً.

ربمّا كتكثيف رمزي لاستمرار العُنف في مؤسّسة التعليم في مراحلها كلّها، هو ما رأيتُهُ بشكل مُتقطّع حتّى في المرحلة الجامعية، في أثناء مُشاركتي في ربيع دمشق. أتذكّر يوم سماعي لصخب سيّارة مُسرعة،

دخلت حَرَمَ كُلّيّة الآداب بجامعة دمشق، وإثارتها لانتباه مئات الطَّلَبَة المتجمّعين في ساحة الكُلّيّة الرئيسة. خمسة أو ستّة مسلّحين نزلوا مسرعين، وأحاطوا السَّيَّارة، حيث كانت الدهشة تلفّ المكان. أخرجوا رجلاً مُزنّراً بالسلاسل من أدنى قَدَمَيْه إلى قبضَتَي يده. كان منظراً مُروّعاً بالنسبة إلى الطَّلَبَة، فماذا الذي يفعله هذا الشخص في ساحة كُلّيّة الآداب. هل سيعيدون تصوير جريمة سابقة، كان قد اقترفها؟!!. هل سيدلّهم على مكان جريمته وسرّها!!. ومن بين تلك الأسئلة، غلبني الفضول للاقتراب ورؤية "المجرم" المفترَض، فجأة ظهرت "أمّ راوية" أمامي، وصوت النواح يغلي بداخلها ودموعها لا تتوقّف: يريدون إهانته، شايف حالة عمّك سليمان، يجرجونه وكأنه مجرم، يقيّدونه وكأنه خطير ومذنب كبير، يعني معتقل سياسي غلط، وقال بدّي اقدّم امتحان بالجامعة، هل يستحقّ هذه الإهانة كلّها، يا ولدي؟؟!!".

وقتها، لم يكن يظهر من وجه المعارض السوري سليمان الشّمّر "أبو راوية" سوى حبّات العَرَق الغزيرة التي كانت تتساقط من على جبينه الأسمر. لم أمتلك نفسي، أسرعتُ لاحتضانه وتقبيله: ولا يهمّك أبو راوية، أنت الكبير. تعالى صراخ المسلّحين، وبدؤوا بمدافعتي، وما كانوا لينهوها كذلك، لولا إحساسهم بأن الموضوع قد يُحدِث ضجّة في الحَرَم الجامعي. طَوالَ أيّام الامتحانات كانوا يأتون بالصديق سليمان شمّر بتلك الطريقة، ويوماً بعد آخر، نشرنا قصّته ودوره في الحياة السورية المعارضة، حيث كان كلّ مرَّة يزيد من رفع رأسه، وتوزيع الابتسامات على زملائه الطلاب، الذين كانوا يصفّقون له، لكنْ، في قلوبهم.

لكنْ، لن تمرّ سنوات أكثر حتّى تندلع الثورة السورية، وينكشف صندوق "العُنف السوري"، حيث كانت البلاد كلّها لوحة من رقاقة جدار حماية

المُستضعفين مع فظاعة عُنف المُسيطرين، وبينهُما كان يُبذَل لغو القانون وديباجة الدولة ومكاذبة مؤسّساتها. كانت مدرستنا صورة عن البلاد، وككلّ شيء لبنة صغيرة ومُعبّرة في تفاصيلها كلّها، عن البلاد كلّها.

***

اكتشاف سِحْر التّنوّع

حين دخلت المُعلّمة في اليوم الأوّل لنا في الصّفّ المدرسي، ساد صمت طويل بيننا. وزّعت نظراتها يميناً وشمالاً، وصرخت بقُوّتها كلّها فجأة: "قيام"! فوقف طالب واحد. ثمّ أعادت الكرّة مرَّة أخرى: "ولك قيام، يا بهايم"! لكنْ، دون أيّة جدوى، حيث ظلّ واقفاً الطالب نفسه فقط. ستحتاج المُعلّمة إلى خمس دقائق من التحديق في جدول أسماء الطلاب، لتكتشف بأن الطالب الواقف كان الطالب الوحيد الذي يفهم العربية بين الطَّلَبَة الأربعين.

بعد سنوات عديدة من ذلك اليوم الأوّل، سيهمّ الأستاذ بوغوص بشرح مُضن لدرسه باللغة الإنكليزية، ثمّ سيسأل الطلاب: مَنْ منكم لم يستوعب الدَّرْس؟ فرفع طالب كردي يده، ما يعني أن الأستاذ بوغوص سيُعيد الدرس كلّه من جديد. ثمّ أعاد السؤال، فأعاد الطالب نفسه رَفْع يده مُعبّراً عن عدم فهمه. وقتها أخرج الأستاذ بوغوص غضبه كلّه قائلاً: "لك يا ابني أنت كيف يفهم، ولك يا ابني أنت تاخوذ درس الإنكليزي بالعربي من أستاذ أرمني وأنت كردي، ولك يا ابني لا الحقّ عليكي ولا علي"، ثمّ غرق الطَّلَبَة في الضحك.

بقيت المُعلّمة تُحدِّق في ورقة الأسماء، ثمّ قالت: "أحمد عبد القادر". لم يرفع أحد يده، فزاد ذلك من حنقها، وراحت تصرخ: "ولك

حتّى اساميكون ما بتعرفوها، مين أحمد عبد القادر"؟ فلكز طالب طالباً جالساً أمامي: "ولك حمو، المُعلّمة تنادي على اسمك". يقف هذا جافلاً، فتقول له المُعلّمة: "شو اسمك؟"، يردّ بحياء: "حمو قادو". تبتسم المُعلّمة، وتتابع: "ميشيل جرجس"، فلكز ميشو جرجسكو. تنادي: "خليل حسين"، فلكز خلو حسكو. "حنّا كورية"، فلكز حنوشي. بعد أيّام قليلة، ستنسى المُعلّمة مثلنا الأسماء المكتوبة على ورقة المدرسة الرسمية، وتصبح تنادينا بأسمائنا التي نحبّ، هكذا، إلى الصّفّ الخامس.

كان الطَّلَبَة يجلسون بطريقة اعتيادية حتّى الصّفّ الثالث. في اليوم الثاني أو الثالث من ذلك العام، دخل رجل مُلتح، وسلّم بأدب بالغ على مدرّسة مُحجّبة كنّا نراها للمرَّة الأولى، ثمّ بدأ يردّد أسماء الطَّلَبَة: "حنّا، برصوم، فليب، شربل، حكمت، أنكيدو، شمعون ... تفضّلوا، يا أولادي". بعد ذلك، سنعرف أن هؤلاء الطَّلَبَة مسيحيون، وهم سيحضرون درس الدِّين في غرفة خاصّة بهم. سيجلسون مُجتمعين في زاوية من الصّفّ، وسنجلس "نحن" في القسم الآخر منه. سننقسم في أثناء حصص الرياضة لفريقَيْن، وسوف لن يأتي فيليب ليرافقني إلى المدرسة. سيذهب بصحبة برصوم، وسأذهب أنا برفقة عليكو الأعور. وسوف نصطاد بعضنا البعض في السواقي والحواري الضَّيِّقة. سيموت أبو برصوم بحادث سير، والرجل الملتحي سيأخذ الطَّلَبَة ممّنْ ناداهم في المرَّة الأولى لزيارته، وتعزيته. وحين سيعمر أهل رضوان السمين غرفتهم الثانية، سيساعده فقط الذين لم يذهبوا لزيارة برصوم يوم وفاة والده. إلى أن يأتي يوم، وأسأل مدرّس الدِّين: "أستاذ، هل سيدخل المسيحيون الجنّة" فيردّ دون تردّد: "كلّ مَنْ ليس مسلماً، سيبقى خالداً مُخلّداً في نار جهنّم".

بعد ذلك اليوم بسنوات كثيرة، حين سأهمّ بمغادرة البلاد، سأشتاق

لدموع صديقي مالك كورية، كما أشتاق لدمعة أُمّي. لكنْ، بين لحظتَي جواب الأستاذ والحنين للصديق مالك، شقاء في الروح أليم، ومحنة في التجاوز لا تُوصَف.

قبل ذلك بعام واحد، كانت المُعلّمة قد طلبت منّا أن نجلب معنا في اليوم التالي عشر ليرات. أعطتْنا ورقة صغيرة، كي نُسلّمها لأهالينا. لم نكن نعرف ما كُتب في تلك الورقة، فقد كنّا بعدُ في عامنا الثاني من معرفتنا بالعربية. في الصباح، أخبرتْني أُمّي أن المُعلّمة تطلب عشر ليرات تبرّعاً. لفّتْ أُمّي النقود بورقة، وأدخلتْها بشكل مُحكَم في باطن جيبي. في الطريق إلى المدرسة، قرّرتُ ألا أمنح الليرات العشر للمُعلّمة، وأن أدّعي نسيان الورقة في الحقيبة، وعدم اطّلاع أهلي عليها، وذلك لأشتري بالمبلغ قِطَعاً إضافية من البسكويت لدى عودتي مساء.

في الحصّة الأولى، طلبت المُعلّمة من الطلاب جميعهم أن يضعوا المبلغ والورقة على الطاولة. أنا لم أضع إلا الورقة. ثمّ أخرجت المُعلّمة عشرات الصور من حقيبتها، وقامت بإلصاقها على اللوح الكبير في الصّفّ. كانت صوراً لأشخاص يتفيّؤون تحت خيام هالكة. صوراً لأطفال مشرّدين حُفاة. أبنية كبيرة مهدّمة، وأمّهات يتلقّينَ العلاج في المستشفيات. ثمّ بدأت تشرح: "لقد حدث زلزال رهيب في أرمينيا منذ يومَيْن، ذهب ضحيّته عشرات القتلى والمجروحين. لقد هدم الزلزال الكثير من أحياء مدينة يريفان، وآلاف الناس ينامون في العراء، سوف تذهب تبرّعاتكم لأطفال يريفان المجروحين ..."، ثمّ همّت بالبكاء على أطفال ذويها الأرمن.

حينها، أخرجتُ العشر ليرات من الحقيبة، ووضعتُها بصمت على الورقة. وحينها بالضبط، لمّا شاهدتُ دموع المُعلّمة الأرمنية، أدركتُ أن البكاء ليس فعلاً كردياً خالصاً. فدارنا في ذلك العام بالضبط، كانت تغرق

بالدموع، دموع الأمّهات والخالات والعمّات والجيران، في ولائم البُكاء الحسينية التي كانت تُعقَد ربيع عام ١٩٨٨... كانوا يبكون أطفال حلبجة الذين ذُبحوا في العراء أيضاً.

مع استلامنا كُتُب التاريخ والجغرافيا في الصّفّ الخامس، كانت الأسئلة الكبرى قد بدأت تتغلغل في مداركنا. لا أعرف بالضبط إن كان هذا الأمر عامّاً، لكنه بالضبط ما كان يختلج في ذاتي. كُتُب التاريخ كانت تبدأ بسَرْد سيرة القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية حين انهار سدّ مأرب، وكيف انتشرت هذه القبائل في مناطق "الوطن العربي" كافّة، حيث تعود الأصول العِرْقيّة واللغوية كافّة في المناطق المختلفة من "الوطن العربي" إلى تلك القبائل المهاجرة من الجزيرة.

كان الأستاذ أحمد يشرح لنا ذلك والعَرَق يتصبّب من جبينه. يمسح نظّارته بين اللحظة والأخرى. وكان يقول على مضض: "يعيش الشعب العربي على امتداد الوطن العربي الكبير، من أقصى المغرب العربي إلى أقصى الشرق في سوريا والعراق، وتحتلّ تركيا الكثير من المناطق العربية، من لواء إسكندرون، إلى تخوم ولاية ديار بكر العربية". وأنا كنتُ أستمع باستغراب إلى شرحه هذا، فالأستاذ أحمد كان صديقاً لخالي، وموالياً لحزب العمّال الكردستاني. وسمعتُهُ في سهرات كثيرة في بيت جَدِّي وهو يقول: "ديار بكر عاصمة كردستان الكبرى. وحينما نحرّر أرضنا التي يحتلّها العراق وتركيا وإيران وسوريا، سوف نعيد ديار بكر كعاصمة شاملة لدولة كردستان الكبرى. هؤلاء الأتراك والعرب احتلّوا أرضنا، ولازم نرجعها، وكل كلامون عن الأرض العربية والتركية والفارسية كذب بكذب! هي أرض كردستان فقط...".

مضت سنوات، ولم أملك (نملك) الجرأة لسؤال المُعلّم: أيّ الكذبتَيْن

حقيقة؟؟ وأيّهما كذبة؟ فيما بعد، أيضاً، اكتشفنا إمكانية أن تكون كلتاهما كذبة، وأن تكون كلتاهما حقيقة.

في النصف الثاني من الابتدائية، كانت طفولتنا شاهدة على أحداث كبيرة. فقبل عامَيْن بالضبط، كان الجيش العراقي قد احتلّ الكويت، ثمّ بعد شهور، بدأت الحرب ضدّ نظامه. وفي أثناء تلك الحرب تحديداً، قامت الثورة الكردية الأشهر في العصر الحديث. مساحات شاسعة من المناطق الكردية خرجت من سيطرة الجيش العراقي، وهاجر ملايين الأكراد إلى الجبال هرباً من القصف الكيماوي الذي كانوا يتخوّفون منه. لم تمرّ تلك الأحداث بطريقة طبيعية في مُجتمعنا الصغير ومدرستنا الابتدائية. فالأهل والجيران المحيطون بنا كلّهم كانوا يتابعون شاشة التلفاز بشَغَف مساءً، ويُهرعون لجَمْع التّبرّعات والأغذية للمُهجّرين من أكراد العراق، حيث كان الآلاف منهم بثيابهم التقليدية يبيتون بيننا.

ربّما كانت مدرستنا ومدينتنا حالَتَيْن استثنائيّتَيْن في عموم البلاد، فمدينتا - القامشلي - كانت مكاناً مُتخَماً بالهويات. لأسباب تاريخية وسياسية وجغرافية، فإن مدينتنا كانت بمثابة "مُتحف الإمبراطورية العُثمانية". فلأنها كانت على الحدود السورية التُّركية، وكانت مع بداية القرن مركزاً لمَحمِيّة عسكرية فرنسية، لذا فإن مُنتمين لحساسيات ثقافية وعِرْقِيّة ودِينية ولغوية كانوا لجؤوا لهذه المدينة ومُحيطها، هرباً من تحوّلات تلك المرحلة وقسوتها. وكان لحسن حظّ جيلنا أن يحيا في تلك الجغرافية، وأن تكون مدرستهم الابتدائية في منطقة وسطى بين حارات الأكراد والأرمن والسريان والعرب واليهود في المنطقة الغربية من المدينة، التي كانت المنطقة الأولى التي عُمِّرت في المدينة.

على أن رحلة الاكتشاف كانت، بمعنى ما، درباً لاكتشاف الذات،

وعلّني لا أُفشي سرّاً حين أقول بأني كطفل كُردي في "مدارس البعث" فإن الاكتشاف الأوّل بالنسبة إليّ كان أمرَيْن مُركّبَيْن، الأوّل يُمكن تسميته بـ "عالم اللغة"، أمّا الثاني، فهو "اكتشاف المهانة"، حيثُ الكُردي في تلك البلاد بالضبط "لا شيء"، أو بمعنى أكثر دقّة: هو "لا شيء" أكثر ممّا أقرانه الآخرون، الذين هُم أيضاً "لا شيء" بنسبة أو بأخرى.

كنّا في الصّفّ الرابع، حين وقف طالبٌ أسمرُ بالغ الخجل على باب الشُّعبة، استسمح المُعلّمة بالدخول، لأن فرزه جاء في هذه الشُّعبة الصّفّيّة. وحين سألتْهُ عن اسمه، أجاب بصوت خفيض "ميمون"، فغرقنا كلّنا في موجة ضحك هستيرية، شاركتْنا بها حتّى المُعلّمة، بينما بقي ذلك الطفل الخجول مصدوماً وغير مُدرك "الفداحة" التي ارتكبها، ليستحقّ هذه السّخرية كلّها. لم يكن صديقنا ميمون يُدرك أن معنى اسمه بالكُردية، يعني حرفياً "القِرد"، وهو شيء لم يعرفه ميمون قطّ، حتّى بعد سنوات من رِفقتنا المدرسيّة.

لم تمضِ أيّام كثيرة، حتّى بدأ ميمون يندهش للُّغة التي نستخدمها في التواصل في ما بيننا، وحينما نضحك، يغتاظ للغاية، ويذهب لإخبار المُعلّمة بأننا نتحدّث عنه، وحينما تسأله المُعلّمة عن مضمون كلامنا، يقول ببراءة "ما أدري، بس يحكون ويتطلّعون عليّ، ويضحكون!".

مع الوقت، تعمّقت صداقتنا مع ميمون، رحنا نُترجم له النُّكات التي نتبادلها، لكنها لم تستدرج ابتسامته، بل ظلّ يستغرب دوماً عمّا يُضحِكنا فيها. إذ كيف نضحك على أشياء لا تُضحِك؟! وبدورنا نستغرب ما يرويه ميمون لنا من نُكات وحكايات. الأمر نفسه يتمّ حين نتبادل الشتائم وأشكال التعبير الوجدانية الأخرى والقصص الخُرافية التي سمعناها عن أهلنا، والأغاني والأشعار والرقصات والإيحاءات الجسدية والكلمات المُشفّرة.

فكلّ ما يتعلّق بـ "اللُغة العميقة" كان مقطوعاً بيننا، على الرغم من وجود "لُغة معرفية" مدرسيّة مُشتركة. وهو ما كان يُحدِث الكثير من سوء الفَهْم مع رفاقنا من أمثال ميمون، حيث لم نُدرك وقتها أن لكلّ منّا "لغة أمّ" خاصّة به، وأن تلك اللغة يُستحال أن تُلقَّن أو تُدرَّس أو تُعلَم، فهي شيء عميق، تتوارثه العائلة، ويُحفَر عميقاً في الذاكرة الجمعية. كلّ منّا تلقّى لغته واستبطانها بطريقة غير واعية، من بيئته التي وُلد فيها، وباتت جزءاً تكوينياً من هويّته و"إنسانيّته".

لا نعرف ما الذي تمّ مع ميمون والكثيرين الكثيرين من أمثاله و"أمثالنا"، من الذين ولدوا وعاشوا في بيئات وجغرافيات مُركّبة. ما الذي حصل معهم بالضبط حين أرادوا التفاعل مع أُناس لا تجمعهم بهم "لُغة أُمّ" مُشتركة، لا سيما في أشكال التفاعل التي لا تنفع معها إلا اللغة الوجدانية الحميمة، كمشاعر المواساة أو الحُبّ؟ وهل من فظاعة توازي الفشل في التعبير عن الودّ والحُبّ لمَنْ تُصادِق أو تعشق، بلُغة تمسّ وجدانه بصِدق؟!.

صحيح أنه كان من الصعب على الأطفال "العرب" الذين يعيشون في مناطق ذات غالبية سكّانية كُردية وسريانية التواصل مع أقرانهم والتّودّد إليهم، ومعرفتهم عن قرب. لكنهم لم "يعانوا" قطّ ما عاناه غيرهم، الآخرون من أمثالنا. فنحن باتت لنا لغتان مُنفصمتان تماماً. لُغة مدرسية تلقّفْنا عبرها المعارفَ والعلومَ والمفاهيمَ، لُغة شكّلت أداتنا الوحيدة لفهم العالم والظواهر، وعبرها وعيْنا حركة التاريخ والمُجريات، والمعاني المُجرّدة والعلوم الرياضيّة والمصطلحات، وأخرى ترتبط بالوجدان والضمير، تلك التي تُسعفُنا في التعبير عن الذات والخوالج.

وعليه، بقي على الدوام "خلل" ما، إذ لم نستطع أن نُعبّر عن "أرواحنا" بلُغة معرفتنا، وكذلك نفشل في التعبير عن أفكارنا ورؤانا بلغتنا العميقة

الوجدانية. فنحن على الدوام في حرج مكين، في تلعثم وقلق، في دولة استبدادية، قطعت الأوصال بين أرواحنا وأدمغتنا.

وكان من نتاج تلك العوالم أنها صنعت من الكثيرين منّا أشخاصاً مُستفَزِّين على الدوام، مليئين بحسّ دفين بالاستهداف من المركز، ومن الغالبية السّكّانية والثقافية واللغوية. وأدّى منعُنا من التّعلم والتّكلّم بلُغتنا الأمّ إلى قَهْر جعل "اللغة الأخرى" في ذاكرتنا لُغة "الجماعة القاهرة"، وليس فقط النظام القاهر والمُستبدّ. لن أنسى ما حييتُ موقفاً حصل في الصّفّ السادس، حين سأل مُعلّم اللغة العربية زميلنا رضوان "السمين" أن يُعرب جملة، فقال له "رضوان، أنتَ، أعرُب". فردّ رضوان بسرعة وبطريقة بديهية "لا أستاذ، والله العظيم، نحنا أكراد"، ابتسم المُدرّس، وردّ "يا ابني، قصدي أعرب الجُملة، مو قصدي أنتَ عربي!".

أقول هذا وأنا أنتمي لعائلة، كان والداي يعرفان التّكلّم بالعربية بطلاقة، وأُمّي بقيت تُدرّسنا حتّى الصّفّ السادس الابتدائي بكلّ رصانة ومهارة؛ أقصد نحن الذين توفّرت فينا شروط المتابعة المنزلية، وقدرة الوالدَيْن على تعليمنا تألّمنا إلى هذا الحدّ، فكيف بأبناء مئات الآلاف من العائلات الكُردية من الذين لم يكُن ذووهم يستطيعون التّحدّث والقراءة والمتابعة بالعربية، والكثير الكثير من هؤلاء كانوا من عائلتي الأكبر وجيراننا الأقربين؟! كانت حياة أبنائهم المدرسية بتفاصيلها كلّها شبيهة بما يُعانيه المهاجرون الحديثون مع مدارس أبنائهم في المهاجر، مع فارق كبير وواضح بأن المؤسّسات التعليمية في المهاجر تعرف هذه المُعضلة، وتتعامل معها بكلّ مرونة وإيجابية، على عكس حالة الاستعلاء والتّأفّف التي كانت تُغالِب الكثير من مُدرّسينا مع طلَبَتهم. أتذكّر صديقنا زيور المُجتهد جدّاً في الابتدائية، وكيف حينما بقيت المُدرسة لأكثر من أسبوع تطلب منه

أن يُحضِر أحد والدَيْه، ولم يُلبّ الطلب، كلّما كانت تسأله عن السبب، كانت عيناه الصغيرتان تزوغان، وتحمرّ وجنته، ويدخل في تلعثم مكين. لم يكن، وربّما لم يستطع، ذلك الطفل البريء أن يقول لمُدرّسته التي تودّه أن أباه وأُمّه لا يعرفان التّكلّم بالعربية، التي تعني بشكل ما أنهُما لا يعرفان الكلام أساساً. كانت عينا زيور الصغيرتان ومرارة حلقه المُتلعثم تتويجاً لأربعين عاماً من سياسة التعريب التي طالت كلّ شيء، وأوّلاً طالت العلاقة المُفترَضة بين أمّهاتنا ومُعلّماتنا.

في الحيّز الاجتماعي، كان واضحاً بالنسبة إليّ مُنذ السنوات الأخيرة للابتدائية ثلاث مستويات من الفارق الاجتماعي الذي يُمكن أن تلاحظه بين الطَّلَبَة.

فقد كان واضحاً أننا سُكّان الحَيّ الغربي، الذين نُعدّ نسبياً من سُكّان مركز المدينة وحارتها القديمة، الذين ترك أهلهم القُرى مُنذ عشرات السنوات على الأقلّ، واستقرّوا في المُدُن، وامتهنوا أعمالها، وتلقّوا تعليماً نسبياً معقولاً، مُختلفون في الهيئة والحضور والوفرة عن غيرهم من الطَّلَبَة الأكراد القادمون من الأحياء الأكثر بُعْداً عن المدرسة، أحياء بنغلاديش والهلالية و"علي فرو".

الفروق كلّها بيننا كانت تتكثّف في علاقة هؤلاء الطَّلَبَة بـ "الوحل". فأحياؤهم التي بقيت حتّى أواخر التسعينيّات غير مُعبّدة، كانت تغرق في الوحل طَوالَ شهور الشتاء، والمئات منهم كانوا مُجبَرين على السير لأكثر من خمسة كيلومترات للوصول إلى المدرسة. كانت أحذيتهم البلاستيكية الرّثّة تغرق في الوحول والمياه، وكان بعضهم يفشل في القُدرة على المشي لقَدْر ما كانت تُلتصق بها، فكانوا يحملونها، ويسيرون حُفاة، إلى أن يصلوا حاراتنا المُعبّدة، يغسلون أقدامهم في أحد البيوت بالمياه الباردة، ويعودون

لارتداء تلك الأحذية البلاستيكية. والكثيرون الذين لم يكونوا يتناسون تنظيف أحذيتهم وأقدامهم قبل الوصول إلى المدرسة، كانوا محلّ شجب وتعنيف من المُدرِّسات، أو المُدير توما الذي كان كعادته يشدّ زوالفهم ليتألّموا.

بقيتُ لسنوات كثيرة كلّما أصعد سطح منزلنا في أثناء السهرات الصيفية أتطلّع بحَيّ الهلالية البعيد والترابي، وأتخيّل طفلاً أسمر، كان معي في الصّفّ الأوّل يُسمّى "محمّد علي" كنّا نُكنّيه بـ "محمد علي كلاي"، وكيف أنه كان يقطع هذه المسافة الطويلة كلّها من هُناك وحتّى مدرستنا الابتدائية، وكم كانت تبرد قَدَمَاه الصغيرتان، وتتعبان، في أثناء رحلة المجيء والعودة، وأيّة طاقة كانت تبقى معه، ليعود لمُراجعة دروسه المدرسية اليومية، وكيف أن ذلك الوهن اليومي كان سبباً جوهرياً في تراجع مستواه الدراسي وتركه للمدرسة قبل إتمام المرحلة الابتدائية، وبات مُجرّد "عامل بيطون" عادي، وهو الذي لم تكُن تنقصه علامات الذكاء والنباهة وخفّة الدم كلّها. أقول ذلك، وأنا كامل الإدراك بأن شارعاً مُعبّداً كبيراً واحداً من وسط حَيّ الهلالية الذي كان يسكُنُهُ قُرابة خمسين ألف مواطن، وإلى وسط المدينة، مروراً بكلّ المرافق العامّة الطبيعية، لم تكن تكلفته تزيد عن مهرجان خطابيّ واحد كان يُعقَد كلّ شهر تقريباً، تخليداً وتذكّراً للقائد المُفدّى.

المستوى الآخر كانت في الفروق بيننا وبين الطَّلَبَة "المسيحيّيْن" في المدرسة. فلأسباب تكاد تطابق التي كانت تفصلنا عن بقية الأطفال الكُرد القادمين من الأحياء الأكثر طرفية، كان الطَّلَبَة "المسيحيون" أكثر حضوراً واهتماماً منّا بالتعليم، وكان ثمّة فارق واضح بيننا في الكثير من التفاصيل. وعلّني هُنا أسجّل مُلاحظتَيْن، قد توضحان جانباً من هذا الاختلاف بيننا مُنذ المرحلة الابتدائية. فأوّلاً لم تكن الفروق الاقتصادية هي التي تخلق

تمايزاً بيننا، فالكثير من الطَّلَبَة الأكراد المتأتّين من مُحيطنا كانت موارد ذويهم الاقتصادية متأتّية من التجارة والزراعة الوفيرة، وهي كانت تفوق ما كان يجنيه ذوو "الطَّلَبَة المسيحيّيْن"، لكن الأمر كان يتعلّق بنوعية مِهَن الأهل. فأغلبية واضحة من أهلية الطَّلَبَة المسيحيّيْن في مدينتنا حتّى أواسط التسعينيّات كانت تتعلّق بالبيروقراطية الوظيفية ومِهَن الطبقة الوسطى العليا، أطبّاء ومُهندسون ومدرّسون؛ وبالتالي فإنهم كانوا يعدّون مسألة تعليم أبناءهم تكويناً جوهرياً في حيواتهم، يجب المثابرة والمُتابعة الدائمة لهم، ليستطيعوا مُستقبلاً شغل أعمال وظيفية شبيهة بتلك التي يزاولونها. الأمر الآخر في عالم الفروق كان يتعلّق باهتمام المُدرّسين، وبالذات المُدرّسات، بنا. فالأغلبية المُطلَقة من المدرّسات اللواتي درّسونا في الابتدائية كُنّ "مسيحيات"، وكُن يُظهِرْن تعاطفاً نسبياً مع الطَّلَبَة "المسيحيّيْن". كانوا يجلسون في المقاعد الأولى، في الطرف الأقرب للمدفئة الصّفّيّة، كانت المدرّسات يتعقّبنَ دفاترهم المدرسية بشكل يومي، ويهتممنَ بهم، ويدفعنهم على المُتابعة والدراسة. طبعاً الأمر لم يكن ينطبق على المدرّسات والمدرّسين كلّهم، ولا مع الطَّلَبَة كلّهم، لكنْ، كان ثمّة شيء عامّ وواضح من ذلك.

أخيراً فإنه كان ثمّة فروق بيننا وبين الطَّلَبَة الذين كان ذووهم من كِبار الموظّفين وأعضاء المؤسّسات الأمنية. كانت لُكْنَاتهم وهيئاتهم مُختلفة عنّا، لكن مزيجاً من تحذيرات الأهل لنا من الاعتداء عليهم أو سوء معاملتهم، مع مُعاملة تميّزيّة واضحة من قِبَل المُدرّسين والإدارة معهم كانت تُشكّل ذلك الشقاق النفسي والوجداني لنا معهم.

أتذكّر اللحظات التي حدثت في عمليات الاستثناء الأولى في حياتنا، وكيف أن تمييز هؤلاء الطَّلَبَة خلق بالنسبة إلينا تجارب الحنق الأولى.

فخلال مُسابقات "روّاد الطلائع" التي تختار الطَّلَبَة الأكثر تميّزاً في عدد من المجالات، اختيرت صديقتنا "سِهام" لتشارك في مُسابقة الغناء، بالرغم من صوتها الأقلّ من عادي، بينما استُبعد صديقنا عيسى، لأن والده لم يحادث مُدير المدرسة قبل أيّام من بدء المُسابقة.

كذلك حينما جرت قُرعة اختيار اللغة الثانية في الصفّ الخامس، حيث كانت اللغة الفرنسية مرفوضة من أغلب الطَّلَبَة، بعكس الإنكليزية التي كان يودّ معظمنا دراستها. وبعد ساعات قليلة من إجراء القرعة، فإنه تمّ تبديل قلب أسماء "أبناء الذوات" كلّهم، لتغدو لُغتهم الثانية الإنكليزية، بينما بقيت والدتي تُراجِع مُدير المدرسة لأكثر من أسبوع وهو يرفض قلب اسمي من طَلَبَة الفرنسية إلى الإنكليزية، وكلّما كانت والدتي تترجّاه بأني طالبٌ متفوّق، وقد يؤثّر ذلك على مُستقبلي، فإن المُدير كان يزداد ذِكْراً لأهمّيّة القانون، ودوره في الحياة المدرسية، لم يُحوّل اسمي إلا حينما هاتف "أبو حسين" جار عمّي والعنصر العادي في فرع أمن الدولة مُدير المدرسة. وآخرون كثيرون مثلي بقيت لُغتهم الثانية فرنسية طَوالَ الحياة المدرسية، وتحوّلت إلى "عُقدة" في كامل تحصيلهم المعرفي، فقط لأنهم لم يكونوا "أولاد ذوات".

***

في المرحلَتَيْن الإعدادية والثانوية ثلاثة أشكال من الاكتشافات، أُضيفت لـ "عالم الهوية" الخاصّة بـ "تجربتنا الوجودية"، بالنسبة إليّ، على أقلّ تصوّر.

كانت التجربة الدِّينية أولى تلك الاكتشافات التي غيّرت كثيراً في شخصيّتي وخياري الروحي فيما بعد. فككلّ اليافعين مرقتُ بتجربة دِينية في السنة الأخيرة من الابتدائية، حيث كان مُدرّسنا للعربية أحمد في تلك السنة يُواظِب على تعليم الطَّلَبَة تفاصيل الالتزامات والفروض الدِّينية،

وكثيراً في أثناء الحصص العادية، وبحضور الكثير من الطَّلَبَة المسيحيّيْن، ودون أيّ إحساس أو اهتمام بوجودهم. لكن تلك الحالة تعمّقت وتأزّمت في صيف ذلك العام، وذلك بتأثير شخص في الحارة كان يدّعي بأنه يُعلِّم اليافعين اللغة العربية خارج أوقات الدوام المدرسي، لكنهُ فعلياً كان يزرع بهم القِيَم الدِّينية الأصولية، مع تطعيم واضح بالخطابات المُستبطَنة لحركة الإخوان المُسلمين.

صُدفتان "أنقذتاني" في ذلك الصيف من المزيد من الانجراف تجاه "الأصولية" التي كانت قد عكّرت حتّى من علاقتي بوالدتي وخالتي وأختي التي لم تكن قد تجاوزت العاشرة بعد. فجَدِّي قدم من القرية، ونهاني تماماً عن زيارة ذلك الشخص. حتّى إنه هدّد الشخص نفسه فيما لو استمرّ بسلوكه تجاه الطَّلَبَة. الأمر الآخر كان يتعلّق بقراءتي صُدفة في ذلك الصيف لأحد كُتب المُفكّر الليبي الصادق النيهوم، التي وإن لم أكن أعي تفاصيلها كلّها وقتئذ، لكنها حقيقة أثارت بداخلي الكثير من الأسئلة التي لم يكن لي أنا أطرحها وأفكّر فيها، فيما لو لم أقرأ ذلك الكِتاب صُدفة، والذي دفعني بالتقادم للاطّلاع على الكثير من الكُتُب النقدية تجاه التجارب الدِّينية الأصولية.

أقول ذلك لأني شهدتُ أولى الأشكال القاسية للظاهرة الدِّينية في المرحلة الإعدادية الثانوية، وفيما لو أكن قد تخطّيتُ الجانب الحسّاس من تلك التجربة قبل بدء الدراسة الإعدادية، فأغلب الظّنّ فإن مخاطرة الانزلاق كانت أكثر خطورة.

أوّلاً كان الطَّلَبَة الذين مثلي، القادمون من خلفيات عائلية غير مُلتزمة دِينياً إلا بشكل تقليدي واجتماعي، في مواجهة نوعَيْن من الطَّلَبَة المُتديّنين بطريقة غير تقليدية في سنوات دراستنا الإعدادية.

فهناك الطَّلَبَة الذين يعملُ أهلهم في الخليج العربي، ودون أيّ تطرّف أستطيع أن أقول إن هؤلاء الطَّلَبَة كانوا من العرب الذين ترك ذووهم البداوة من زمن غير بعيد. كان نمط التّديّن والخطابات التي كانوا يتداولونها أقرب للإسلام الوهّابي الذي اكتشفناه فيما بعد، تديّن ذو بُعد فصامي في وعي الهوية، التي تتحدّد بالمزاحمة الدائمة لل "الآخر" الذين كانوا على الدوام الطَّلَبَة المسيحيّيْن في المدرسة.

على النقيض منهم، كان الطَّلَبَة المسيحيون الذين يراودون الحلقات الكَنَسية، المُحمّلون بوعي دِيني أقرب لأن يكون "عصوبياً" تجاه المُحيط، ومُغلَقاً في شكل العلاقات الاجتماعية، حتّى مع الأصدقاء من طَلَبَة الصّفّ الواحد. مع شيء غير قليل من الإيحاء بالتمايز الاجتماعي والطبقي عن باقي الطَّلَبَة، حيث كانت المؤسّسة الكَنَسية تُساعدهم على تنمية مواهبهم الذاتية.

كان السير بين هاتَيْن الحافَّتَيْن صعباً للغاية. لكنْ، هل يعني هذا أن الطَّلَبَة الكُرد كانوا بشكل نسبي الأقلّ اهتماماً ووعياً بالتجربة والهوية الدِّينية؟

دون رهبة أستطيع أن أقول نعم، والفضل في ذلك لا يعود لتمايز جوهري لليافعين الكُرد عن غيرهم من المُحيط الاجتماعي، بل فقط لأن الهوية القومية والوعي بالحالة السياسية كان سباقاً بالنسبة إلى باقي الهويات والتجارب، وكان ثمّة "تطرّفٌ" سياسي/قومي كُرديٌّ ما يوازي حافّتَي "التّطرّف" الدِّينية التي كانت تُغري بعض الطَّلَبَة العرب والمسيحيّيْن في المرحلة الإعدادية.

على أنه لا يُمكن القفز على دور القانون والمُدرّسين والمناهج التربوية في تمتين أواصر التّعصّب الدِّيني، بالنسبة إلى جيلنا. فما الذي يعنيه

فَصْمُ الطَّلَبَة في أثناء الحصص الدِّينية، وفوق ذلك ما الذي يعنيه أن يُغادرَ الطَّلَبَة المسيحيون الغرفة الصّفّيّة الرئيسة لغيرها من الغُرف حتّى لو كانوا أغلبية سُكّان طُلاب الصّفّ!!، أوليس هذا بمعنى ما شكلاً من أشكال الازدراء والحطّ من المكانة، وتشكيلٌ أوّلي لفكرة الجماعة المركزية ونظيرتها الثانوية في البلاد.

مقابل ذلك، فإن مناهجنا التربوية كانت قاسية وأصولية بكلّ معنى الكلمة، فإذا لم يكن لنا أن نُدرك تفاصيل ذلك في أثناء يفاعتنا، فإن الحياة سمحت لي أن أكون باحثاً في "منظّمة الأسكوا - لجنة الأمم المتّحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا - في الحقل التعليمي، وأن أُجري بحوثاً عن المناهج التربوية السورية، وأُصدَم بكَمّ القِيَم الأصولية المُتطرّفة التي تلقّيناها في أثناء المرحلَتَيْن الإعدادية والثانوية. القِيَم التي تُفضّل المُسلمين على غيرهم من البشر والأديان، أيّاً كانوا وأيّاً كانت سلوكياتهم. المناهج المُتخَمة بالذكورة، والتحريض على العُنف والكراهية، والشحيحة بالقِيَم الروحية والتعايش والقبول بالآخر. مناهج تحتكر الإسلام بالقراءة السُّنِّيَّة له فحسب، ولا تأتي حتّى على ذكْر أو التعريف بباقي المذاهب المكوّنة للطيف السوري، علويّيْن ودروز وإسماعليّيْن ويزيديّيْن .. إلخ. ولا أعرف إن كانت المنهاج الخاصّ بالتربية المسيحية فيها أشياء من ذلك، وهي في أغلب الظّنّ كذلك، وفي أغلب الظّنّ أرثوذوكسية فحسب.

فضلاً عن ذلك كلّه، فإن مُدرّسي التربية الدِّينية كانوا بغالبيّتهم أشخاصاً غير روحانيّيْن، كانوا يسعون لبناء "قبيلة المُسلمين"، عبر تلقين الطَّلَبَة كمّاً وافراً من التعاليم والفروض. أتذكّر أن مُدرِّس الصّفّ الثامن سلمان كان يُحرِّم التلفزيون، ويُحرِّض الطَّلَبَة، بشكل ما، على كراهية المسيحيّيْن، ويُعنِّف كلّ مَنْ يسعى لمُناقشته في بعض "الثوابت". وتكفير الآخرين كان من أسهل الأمور، بالنسبة إليه، وطبعاً لم يكن ينقصه الغَمْز واللَّمْز على

هيئات المُدرّسات ولباسهنّ، خصوصاً المسيحيّات، ومثل الأستاذ سلمان كان الأستاذ زُهير الذي درّسنا في العام التالي، وهو الذي كان يُظهر أشكال ولائه كلّها للمذهب الحنبلي، بأكثر قراءاته تشدّداً، خصوصاً تجاه القضايا الاجتماعية والثقافية والشخصية.

كان مُدرّسون آخرون يساهمون بدورهم على تمتين القِيَم الأصولية الدِّينية للطَّلَبَة، وأغلبهم كانوا مُدرِّسي اللغة العربية. ولسوء حظّ تجربتنا الذاتية، فإن مُدرِّس التربية الفنِّيَّة كان أصولياً مُحافظاً، وأتذكّر أن أغلب حصص التربية الفنِّيَّة في التاسع كانت تنقلب إلى نقاشات دِينية بالغة القسوة، فأنا كنتُ من الطَّلَبَة الذين تمّ طَرْدُهم لأكثر من مرَّة في أثناء حصص ذلك المُدرِّس، لما كان يعدّه تطاولاً على ثوابت الأمّة وأصول الدِّين. هكذا كان يقول مُدرِّس التربية الفنِّيَّة الذي لم يُدرِّسنا ولم يُعلِّمنا أيّ تفصيل في منهاج الفنون الذي كان من المُفترَض أنه يحصل على راتبه مُقابل ذلك العمل.

أقول ذلك بمعنى أني نجوتُ، أي بقيتُ مُحافظاً على نفسي كطالب مَدَني طَوالَ مراحل الدراسة، وأفكّر بالمقابل بملايين الطَّلَبَة السوريّيْن، الذين لم تُتح لهم الظروف العائلية والاجتماعية نفسها التي توفّرت لي "صُدفة"، إذ كيف أثّرت المدرسة على تجربتهم الروحية/الدِّينية، وما دور ذلك في كلّ ما جرى في سوريا، فيما بعد بسنوات قليلة للغاية.

في عالم السياسة وآلامها

كانت المدرسة هي المفتاح الأوّل للوعي السياسي، الذي لِبُؤس مكين كانت مُرتبطة بالهويّة، والتي كانت مُرتبطة بالتكوين العصبوي الأوّلي، الدِّيني والقومي والمناطقي، وأحياناً غير قليلة بالعشيرة والعائلة، وكانت

المدرسة هي المكان الفظيع الذي جمع البؤس الأوّل بالتراجيديا الثانية، كانت مكاناً مثالياً لتكريس تلك العُصبويات.

أتذكّر أنه في الأعياد مثلاً كان يُسمح لأهالي مدينتنا "القامشلي" برؤية ذويهم في الطرف الآخر من السِّلْك الحدودي، حيث تقع مدينة نصيبين التُّركية، وبالضبط هناك بين العَلَمَيْن، وعلى طَرَفيَ السِّلْك، كان الناس من المدينَتَيْن يلتقون. ذلك اليوم كانوا يُسمّونه بال "كورشمى"، أي يوم اللقاء في اللغة التركية.

مدرستنا الابتدائية كانت قريبة من ذلك المكان، وحين كان الأطفال العرب يسألوننا عن هؤلاء الناس الذين في الطرف الآخر من السِّلْك، كنّا نجاوبهم كما كان أهلنا يخبروننا: "هُم أهلنا الذين في تركيا". فيعودون للسؤال مرَّة أخرى: إن كانوا أهلكم، فلم لا تزورنهم أو يزورونكم؟ وقتها كنّا نرفع أكتافنا، ونقلب شفاهنا السُّفلى في حركة طفولية، تُبرهن الجهل بالسبب. لكنْ، وقتها لم نكن نعرف أيضاً أن الأطفال العرب لا يستطيعون زيارة ذويهم في العراق القريب.

كانت تلك الصورة في باحة المدرسة الابتدائية، المرجعية الأقدم في ذاكرتي عن ال "نحن" وال "هُم"، عن الحدود والجماعات والمنع المكين. هذه العبارات التي شكّل مصائر حياتي الشخصية فيما بعد، ومثلها حياة ملايين السوريّيْن الذين من جيلي، حينما تحطّمت البلاد "بلادنا" على مسرح هذه المُفردات.

في أعوام الابتدائية، كنّا قد لمسنا شعورنا الأوّل بعوالم الهويّة والمعنى والآخر. كانت أزمة حرب الخليج الثانية بداية التسعينيّات البوّابة الكُبرى لذلك. في تلك الأوقات، كان "عِمادو الأعرج" يهمس بأذني: "هاني قال

لسهام إنهم يحبّون صدّام حسين"، فنقوم بمقاطعته، وعدم اللعب معه. نتحدّث فيما بيننا عن أهلنا الذين كانوا يُجهِّزون الأبواب، لتُغلق بإحكام، مخافة الكيماوي الذي قد يُطلِقُهُ صدّام على مدينتنا القريبة من الحدود العراقية. ورولا الشقرا تقول لتُغيظنا: "بابا بيقول إنّو صدام لو إجا لهون راح يضرب الأكراد بس". جرت الحرب بعد شهور قليلة، تقاسم الأولاد كلّهم الألم حينما استضافت بيوتهم ذويهم العراقيّينْ الفارّين من هول الحرب التي جرت، لكن أحداً من أولاد المدرسة لم يقصّ حكاية ألمه على ولد آخر. كلّ كان يحسّ بأنه وحده يتألّم.

بالنسبة إليّ، تكرّس وعي الهوية والذات والجماعة من خِلال العلاقة المُركّبة والمُعقّدة مع باقي الطَّلَبَة في المدرسة. ففي المدرسة الإعدادية، كان ثمّة ٢٥ طالباً لا يختلطون مع أيٍّ من الطلاب الآخرين. كانوا يصلون مُجتمعين إلى باب المدرسة، ثمّ يجلسون بالقرب من بعضهم البعض، في الصفوف التي يتوزّعون عليها. في حصص اللعب، وفي أثناء الفسحات، كانوا يلعبون معاً، يشتركون في الأطعمة والوشوشات والدراسة والأحاديث والنُّكات و"مؤامرات" اليفاعة. هكذا حتّى نهاية الدوام، حيث كانوا يغادرون معاً. كلّ ما كنّا نعرفه عنهم هو اسمهم، أنهم طلاب من "عرب الغمر".

أردنا معرفة المزيد عنهم، فأخبرونا: "حين أرادت "الحركة التصحيحية" الانقلابية بقيادة الأسد الأبد في أوائل عهدها، بداية السبعينيّات من القرن المنصرم، حين أرادت تثبيت ولائها لقِيَم ونزعات البعث الإيديولوجية العروبية، فإن قائدها "المظفّر" أصرّ على إعادة توطين عشرات الآلاف من العرب السوريّينْ، من محافظَتَي حلب والرّقّة، الذين غُمرت أراضيهم بمياه سَدّ الفرات، في أكثر إقليم البلاد حساسية، في الشمال الشرقي، لكسر حالة الغالبية الديموغرافية للإثنية الكردية هناك، وليُشكّلوا فاصلاً

سكّانياً بين الكُرد السوريّيْن وذويهم من أكراد تركيا. لذا استَملكت أراضي آلاف الفلاحين الكُرد من سكّان تلك المنطقة، وكَوِّنت فيها عشرات القُرى لهؤلاء الذين غُمرَت قُراهم، على شكل شريط من القُرى المتتالية، محاذ للحدود التركية تماماً، وملّكتهم هذه الأراضي التي صُودرَت من الفلاحين الكُرد، وبات اسمهم "عرب الغمر".

لكنْ، طَوالَ أربعة عقود، كان ثمّة شكل من العلاقة المعقّدة بين سكّان هذا الشريط من القُرى - قُرى عرب الغمر - وأكراد مئات القُرى المحيطة بهم. كان شيئاً شبيهاً بعلاقة طَلَبَة الإعدادية مع مجموع طلاب المدرسة الذي كانوا من تلك القُرى.

لأربعين عاماً وأكثر، وبالرغم من عدم وجود أيّ مانع قانوني أو حاجز ماديّ أو فصام ثقافي أو تحريم دِيني، بينهم وبين غيرهم في محيطهم الجغرافي، فإن هؤلاء "العرب الغمر" كانوا يحيون عُزلة مُحكَمة، مُتوافق عليها بينهم وبين جيرانهم القريبين. لم يدخلوا في أيّة معاملة تجارية في ما بينهم، رغم تداخل مزارعهم ومصالحهم. لم يجرِ أن حدثت حالات قرابة اجتماعية بين أجيالهم المتعاقبة، مع أن ذلك كان يحدث، وما يزال، بين أكراد وعرب آخرين في ذلك الإقليم. لم يزوروا الآخرين في أعيادهم وأفراحهم ومناسباتهم، ولم يزرْهم أحد. حتّى في أتراح الموت، حيث تُعدّ زيارة ذوي المتوفّى سُنّة دِينية واجبة، فإنها كانت نادرة الحدوث بينهم وبين غيرهم. لم يغدو شبابهم رفقة شباب الآخرين، لا العاملين منهم رفقة العاملين الآخرين، لم يحدث أن اشتركوا في شيء أيديولوجي أو سياسي أو ثقافي جامع مع غيرهم، كانوا فقط اسماً لكتلة صمّاء مُجرّدة ومجهولة.

ترسّخت مسألتان في اجتماع المنطقة هناك، أساسا "صخرة المُكارَهة". لم يرَ الأكراد في جيرانهم هؤلاء، سوى صورة الذين استولوا على أراضيهم، والذين يريدون أن يكونوا فاصلاً بينهم وبين ذويهم في كلّ من تركيا والعراق،

حجبت عنهم الهويّات والمستويات والأبعاد الأخرى كافّة. وكان هؤلاء "الغمر" أيضاً يرون في الكرد الآخر الذي يستبطن الدسائس لهم، ولأجل ذلك يخاصمونهم، ويرفضون مخالطتهم.

لأكثر من عشرين عاماً، كنتُ أزور قرية جَدِّي بشكل شهري تقريباً، كان الطريق الملتوي المؤدّي إلى قريتهم يُسمّى "تلّ موزان" حيث على يمين الطريق مباشرة هناك، كانت قرية كردية، تُكنّى بهذا الاسم، وعلى يسارها، كانت قرية لـ "عرب الغمر" لا أعرف اسمها. كلّ مرَّة كنتُ أصعد سيَّارة أحد العابرين من أهل المنطقة، وأطلب منه الوقوف في مفرق "تلّ موزان" ذاك ... في إحدى المرَّات، كان هذا العابر واحداً من "عرب الغمر" هؤلاء، وحين طلبتُ منه الوقوف بالقرب من مفرق "تلّ موزان"، أخبرني عدم معرفته بذلك المفرق، من جهتي، لم أستطع تذكّر اسم القرية المقابلة، وحين وصلْنا، أخبرَني بأن هذه المفرق يُسمّى بـ "أمّ الربيعين"، اسم قرية "عرب الغمر" المقابلة لـ "تلّ موزان". لم أكن أعرف اسم القرية التي أمرّ منها لأكثر من عشرين عاماً، ولم يكن عابر السبيل يعرف اسم القرية الأخرى التي كان يمرّ منها، ربّما منذ أكثر من عشرين عاماً!!.

لأن سوريا كانت دولة بنظام وشكل بذاته، فإن "عرب الغمر" كانوا بالنسبة إلينا "الآخر تماماً". كانوا العرب السلطويّيْن الذين أخذوا "أرضنا" وحالوا بيننا وبين "ذوينا" الذين في تُركيا. وهُم دون شكّ ما كانوا ليحتلّوا تلك المكانة الخِصامية لو لم تكن الدولة السورية بتلك النزعة الإيدلوجية وهذا النظام السياسي. ربّما كان غيرهم سيحتلّ ذلك المكان. لكن الأكيد أن سوريا لو كانت كياناً بالحدّ المعقول من روح الدولة الموفِّرة للعدالة السياسية والاجتماعية، لما كانت لجماعة قطّ أن تحتلّ تلك المكانة، ما كان لأحد أن يكون للآخر خصماً لدوداً.

***

مع استلامنا كُتُب التاريخ والجغرافيا في الصّفّ الخامس، كانت الأسئلة الكبرى قد بدأت تتغلغل في مداركنا. لا أعرف بالضبط إن كان هذا الأمر عامّاً، لكنه بالضبط ما كان يختلج في ذاتي. كُتُبُ التاريخ كانت تبدأ بسَرْد سيرة القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية حين انهار سدّ مأرب، وكيف انتشرت هذه القبائل في مناطق "الوطن العربي" كافّة، حيث تعود الأصول العِرْقِية واللغوية كافّة في المناطق المختلفة من "الوطن العربي" إلى تلك القبائل المهاجرة من الجزيرة.

كان الأستاذ أحمد يشرح لنا ذلك والعَرَق يتصبّب من جبينه. يمسح نظّارته بين اللحظة والأخرى. كان يقول على مَضَض: "يعيش الشعب العربي على امتداد الوطن العربي، من أقصى المغرب العربي إلى أقصى الشرق في سوريا والعراق، وتحتلّ تركيا الكثير من المناطق العربية، من لواء إسكندرون إلى تخوم ولاية ديار بكر العربية". كنتُ أستمع باستغراب لشرحه هذا، فالأستاذ أحمد كان صديقاً لخالي ومواليًا لحزب العمّال الكردستاني. أتذكّر أنه في الكثير من السهرات العائلية، في أثناء النقاشات الكُردية السياسية العامرة، كان يقول "ديار بكر عاصمة كردستان الكبرى" وحينما نُحرّر أرضنا التي يحتلّها العراق وتركيا وإيران وسوريا، سوف نُعيد ديار بكر كعاصمة شاملة لدولة كردستان الكبرى: "الأتراك والعرب احتلّوا أرضنا، ولا بُدّ من استعادتها".

مضت سنوات، ولم أملك (نملك) الجرأة لسؤال المُعلّم: أي الكذبَتَيْن حقيقة، وأيّهما كذبة؟ فيما بعد، أيضاً، اكتشفْنا إمكانية أن تكون كلتاهما كذبة، وأن تكون كلتاهما حقيقة.

كُتُبُ التاريخ التي كانت مدخلاً لوعينا السياسي الأوّليّ، كانت تراكماً لتلك السَّرْدِيّات الواحدية – الذاتية - السلطوية، فسيرة وشخصية سوريا

الاستعمارية، كانت فقط السَّرْدِيّة النضالية التي سطّرها رجال الاستقلال فيما بعد. كانت كُتُبُ التاريخ نموذجاً معرفياً موضوعيا للـ "الفرض العامّ". فكما كانت كُتُبُ التربية الدِّينية تصنع قسوتنا الروحية الوجدانية، من خلال علاقتنا مع ذواتها ونظرائنا الآخرين. فإن كُتُبُ التاريخ كانت صكوكاً لفرض رؤية وسياق مُصطنَع عن الذات الجمعية، عن الجماعة والسَّرْدِيّة الكُلِّيّة.

في المراحل الأكثر تقدّماً، كان يجب أن نتلقّى الأكاذيب والسِّيَر المُصطنعة كلّها دون أيّ نقاش. لم يكن لأحدنا أن يقول إن "ثورة صالح العلي" كانت مُجرّد صراع محليّ مع أبناء الطائفة الإسماعيلية، وإن "ثورة الجزيرة" كانت مُجرّد صراع عشائر!! وشخصية سوريا الخمسينيّات "الديموقراطية" في ذاكرة الأجيال التي تلت، كانت فقط حكاية بعض العائلات البرجوازية المستولية على الحقلَيْن العامَّيْن الماديّ والرمزي. وفقط كذلك. سوريا الوحدة، فقط هي سوريا "المناضلين" القوميّيْن وخُرافاتهم. أمّا سوريا عقود البعث الطويلة، هي صورة سوريا التي سردها الأسدان، "الخالد" و"القائد". وسيرة سوريا في أحداثها الراهنة، ستكون فقط حكاية المنتصر بها. كما كانت لقرابة قرن من الزمن، صورة واحدة وحيدة لهوية البلاد وتشكّلها وظروفها و"رجالاتها" وسيميائها وخيارتها ومعناها. لا كسر لها، ولا تباين معها في أيّ مساحة معرفية أو فنِّيَّة أو مؤسّساتية.

الفظاعة المتأتّية من مثل هذا التّكوّن الواحدي للسَّرْدِيّة الوطنية، هي في احتكار جماعة أو شخص واحد لسلطة وقيمة الرأسمال الرمزي المتأتّي من تحديد معنى وهوية "الوطنية"، وهو رأسمال وسلطة غير قليلة، وذات فاعلية بالغة، يمكن استخدامها بنشاط ضدّ الآخرين المتباينين سياسياً أو مُجتمعياً أو أهلياً مع هذه الجماعة المحتكرة لهذه السلطة.

الجوهري الدائم في رؤية تلك السَّرْدِيَّات التاريخية في كُتُبنا المدرسية كان تثبيت التّراصّ والتشابه والاجتماع الذاتي البَيني الداخلي، الابتعاد عن التفاصيل وتعويم المجريات، تجريد الأحداث ونبذ التعيين .. الخ. فهذه الشروط تُشكِّل مَنبت حفْظ الكيانية "الوطنية" وأُسّ وجودها. وكل ما هو غيرها يبتغي التفتيت والبعثرة.

بتلك الشروط المؤسّسة، ولرهبة تلك "الوحدة الكيانية" المبطّنة، تبلور هذا النمط الخادع من السَّرْدِيَّات "الوطنية"، والتي تغاضت عن كثير من القواعد البسيطة في علم الاجتماع السياسي لمنطقتنا، تلك التي يمكن البناء عليها ببساطة في كُتُب "التربية الوطنية" في مستقبل بلادنا: "نحن نحيا في كيانات اصطناعية، مثل الأغلبية المُطلقة من كيانات العالم، حيث لا تنطبق حدود الهويات الإثنية والدِّينية والمذهبية واللغوية فيها، مع حدودها الجغرافية السياسية؛ لكنْ، لا داعي لبعثرة هذه الكيانات، فالكيانات والدول اصطناعية كلّها، وإن بدرجات متفاوتة. فالحدود الجغرافية السياسية لا تعني وتبتغي سلب حقّ أحد من أبناء هذه الهويات المتنوّعة الواقعة ضمن حدود هذه الجغرافية، فهذه الحدود شكل من الإدارة والتنظيم فحسب، تبتغي تشكيل التآلف الوطني، الذي يجب أن يسلك طريق الاعتراف المتبادل، لا الصهر والمغالبة، بالضبط كما حدث مع كثير من الكيانات في عالمنا المعاصر.

من جهة أخرى، فإن تاريخ هذه الجماعات التي تؤلّف مُجتمعنا الوطني هذا، لم يكن تاريخ وئام وتراصّ وتطابق، بل كان فيه الكثير من الحساسية والتنابذ والصراع والتصادم، عبر مراحل مختلفة. لكن هذا لا يعني ديمومة أشكال تلك العلاقات بين جماعاتنا الوطنية. لأن جوهر ذلك الصدام، كان غياب قِيَم التساوي الفردي والجمعي في ما بينها وقتئذ، وغياب قِيَم القانون

والمجال العامّ المُجرّد ومتساوي المسافة من أفراد هذه الجماعة الذين يُشكِّلون مجتمعين أمّة المواطنين الحديثة، وتُحدّد القِيَم الديموقراطية أشكال علاقة بعضهم ببعض، وبالكيان الجامع بينهم ... الدولة.

كانت كُتُبُ التاريخ مُكملة لفظاعة ما فعلتْهُ كُتُبُ الدِّين بنا. وبمعنى أدقّ، كانت كُتُبُ التاريخ الآلية التي تُكمل أفعال كُتُبِ التربية الدِّينية. الأولى تصطنع عالماً حربياً فصامياً للأطفال عن غيرهم من الآدميّيْن، فيما تأتي الأخرى لتحجيم رؤيتهم ووعيهم عن الذات والجماعة والحاضر والماضي وحركة وديناميكية التاريخ والحياة. وكانت تانكَ الآليّتان الأداتَيْن الأكثر مواءمة لأن تقسو بلادٌ مثل سوريا على ذويها، وأن تغرق في بحر من القسوة، وإن بعد وقت قصير.

***

كنّا وقتها في الصّفّ التاسع، دخلتْ إحدى المُوجِّهات، وسألت "إن كان مِن أحد يكتب الشِّعْر أو القصص القصيرة". في اليوم الثاني، سلّمتُها قصَّة قصيرة من ثلاث صفحات. فكتابة القصص كانت تستهويني. كنتُ معجباً بقصص يوسف إدريس. طلبت منّي المُوجِّهة أن أكتب اسمي الكامل وعنواني على الورقة، ففعلتُ. في العطلة الصيفية من العام التالي، علمتُ أن قصَّتي فازت بمرتبة متقدّمة على مستوى البلاد، في المسابقة التي يُنظِّمها "اتّحاد شبيبة الثورة"، المنظّمة الرديفة والتابعة لحزب البعث، وأنه يمكنني أن أشارك في مسابقة ثقافية على مستوى البلاد، في مدينة حلب.

كيافع يعتقد نفسه موهوباً، لم أهتمّ، ولم أكن مُلماً بالتفاصيل "الخطيرة" المحيطة بمثل هكذا انتظام. فالمؤسّسة التي تُنظِّم هذه المسابقة، كانت

تابعة لحزب البعث، أي أنها مؤسّسة أيديولوجية، وظيفتها الأولى ضبط اليافعين، وشرعنة السلطة الحاكمة. شاركتُ في المسابقة من دون انتباه لذلك كلّه، ربمّا لأن حيّز تلك المنظّمة الظاهر كان فضاء "مناسباً" لمراهق مثلي. كان فيها اهتمام بالمواهب وفرص لإثبات الذات، ومجال للتواصل مع صبايا من أعمارنا من مختلف مناطق البلاد، وإمكانية سَفَر وتعارف وتبادل للصداقات.

شاركتُ في ذلك العام في عدد من اجتماعات الشبيبة البعثية في المدرسة. وفي المعسكر الصيفي للصّفّ العاشر، طُلب منّي عرض كتاب عن حرب تشرين. كان كتاباً مليئاً بمديح حافظ الأسد و"منجزاته". في العام الذي تلاه، شاركتُ في مسابقة ثقافية أخرى، وتمّ تنسيبنا تلقائياً كطلاب في حزب البعث. ولا أتذكّر سوى طالب واحد من صفّنا المدرسي، رفض تنسيبه إلى "البعث" وقتئذ. لم أنتبه حينها لتلك "الفظاعات" التي ارتكبتُها.

حين أُعيد التفكير في ذلك الانجراف، الذي طال ملايين اليافعين السوريّيْن مثلي، أسترجع عدداً من الأسباب المركّبة: مناخ المدرسة مثلاً. فمدرستي الأولى كانت تُسمّى "العروبة"، وكانت خليطاً ملوّناً من سكّان مدينة القامشلي، لا يُشكِّل الكرد نسبة عالية من طلابها، وجميعهم ينتمون لأبناء عائلات الطبقة الوسطى فما فوق، أبناء موظّفين وتجّار ومزارعين، من شتّى أطياف سكّان تلك المدينة الملوّنة. لكن المدرسة الأخرى التي انتقلتُ إليها، فيما بعد "مدرسة تشرين"، كان طلابها جميعهم كرداً تقريباً، متحدّرين من بيئات أكثر تعرّضاً للتعنيف، والتهميش السلطوي، الاقتصادي والاجتماعي وحتّى السياسي. كان ذلك واضحا حتّى في شكل بناء المدرَسَتَيْن. كانت مدرسة "العروبة" مُشجَّرة ومُعتنى بها، أشبه ما

تكون بفيلا وسيعة، بينما كان مُجسّم بناء مدرسة تشرين، أشبه ما يكون بسجن سوفياتي.

في المدرسة الجديدة، تعرّفتُ على عالم آخر تماماً، فضاء آخر من عالم المُثُل والأفكار، متمركز على وعي قومي كردي مضادّ للوعي الذي كانت تنشره السلطة عادة في المدارس. كان جوّ المدرسة الجديدة يعدّ الانتظام في حزب البعث أو منظّمة الشبيبة أشبه بالعار الذي يجب عدم الاقتراب منه. هناك في تلك المدرسة، تعرّفت على أصدقاء أكثر حدّة وتناقضاً، بالهضم اليسير الذي كنّا نخضع له في مدرستنا الأولى. هؤلاء بالضبط هم الذين دفعوني مباشرة، لترك تلك الممارسات البعثية كلّها التي انجرفتُ إليها سابقاً.

الأمر الآخر، "الجذّاب"، في مثل تلك التنظيمات البعثية وقتئذ، تمثّل بامتيازات المنتسبين إليها، ففي حين حُجِر على المُجتمع بأكمله أيّ شكل من أشكال تنظيم الحياة العامّة ونشاطاتها، ولو بأُمسيّة شِعْريّة، فإن المنظّمات التي كانت رديفة للبعث، كان يتوفّر لها الإمكانات كافّة، مبان وموظّفين متفرّغين ووسائل نقل وتغطيات إعلامية. كان يتمّ تصحير الحياة العامّة للعوامّ، مقابل حصر أشكال الانتظام كلّها بمؤسّسات بعينها، كانت تقدّم لمراهقين مثلي "يظنّون أنهم موهوبون" إغراءً غير قليل، ينجرفون إليه بكلّ بساطة و"طفولة".

أمر آخر كان يتعلّق بي شخصياً. فقد كنتُ البكر في العائلة، ولم يكن لي من شقيق أكبر منّي، يُنبّهني إلى خطيئة هذا الانجراف. كان أبي غير متعلّم، ولا يبالي بتفاصيل ما نفعل. أمّا أُمّي، فقد كانت مشغولة بعشرة أخوة أصغر منّي.

بالنسبة إليّ، بدأ كلّ شيء في أواسط الصّفّ التاسع، وانتهى في

بدايات الصّفّ الحادي عشر. مقابل ذلك، كان ثمّة ثلاث عَتَبات للخلاص والتعويض النفسي والوجداني عن ذات "العار" الدفين والأليم.

أصدقاء الثانوية في المدرسة الأخرى، التي انتقلتُ إليها، كان لهم أثر وجداني عميق. فالنزعة القومية الكردية التي كانت راسخة في نفوسهم شكّلت "صدمة" بالنسبة إليّ. كان ذلك أقوى دافع للتّفكّر بوجود سَرْدِيّة أخرى لهويّتنا. والتفكير بالمظلومية الجمعية التي تسكننا كجماعة إثنية قومية، وبالتالي أدّت هذه الصدمة إلى تعميق الحسّ بفداحة الاندراج في عالم من البهجة، المتوفّرة في التنظيمات الرديفة لحزب البعث، تلك التي لها دور بالغ في تأسيس واستمرار أوجاع جماعة أخرى. لا أخفي أن مزيجاً من النبذ والودّ، من قِبَل أصدقاء البيئة المدرسية الثانوية الجديدة، هو ما دفعني لتحسّس ما كنتُ فيه من "فداحات". كان لشورش ميرو. صديق العمر. الأثر الوجداني الأعمق فعلاً في ذلك الاتّجاه.

عَتَبَة "الخلاص" الثانية كانت في أثناء شهور وسنوات "ربيع دمشق" في بداية الألفية الجديدة. كان لحسن طالع جيلي، أن تترافق بداية حياتهم الجامعية مع تحوّلات كُبرى في الحياة العامّة السورية، بعد عقود طويلة من السُّكُون التّامّ. ففي فترة قصيرة، انتشرت عشرات المنتديات السياسية في عموم البلاد، ومنها منتدى الأتاسي، الذي كنتُ ناشطاً فيه لفترة طويلة. ولحسن حظّي، أنه بقي المنتدى الأطول عمراً. في شهور انبعاث "ربيع دمشق"، وعبر الحيوية النادرة التي أصابت المُجتمع السوري، تعرّفتُ وتفاعلتُ مع أصدقاء وعوالم جديدة، مليئة بالرحابة ناضحة بالحياة.

مثلما أعادت أجواء وأسئلة "ربيع دمشق" الثقة النفسية بالذات، وحرّضتني بقُوّة للتّخلّص من ذاكرة تلك الشهور من النشاط في تنظيم رديف لحزب البعث الفاشي، إلا أنها خلقت مسافة وحيّزاً بيني وبين طيف

واسع من الشبان القوميّيْن الأكراد، وبالذات منهم المنتمون للتنظيمات الشبابية للأحزاب الكردية في دمشق. كانوا ـ بالنسبة إليّ ـ يعيشون شبه عزلة بعصبيّتهم المناطقية، ليس في حيّزهم الجغرافي والاجتماعي ونمط صداقاتهم وحسب، بل كذلك في الأسئلة والرموز والنقاشات التي كانوا يتداولونها في أوساطهم، كانت متمركزة محصورة بالشأن الكردي السوري، ومضادّة للآخر على صُعُد عدّة.

آخر مراحل "الشفاء" من شقاء "اللوثة البعثية"، كانت مع بدء الكتابة في الصحافة العربية، وبالذات منها "ملحق النهار" الثقافي، والتّعرّف على الشهيد سمير قصير، حين أخذتُ بذلك المزيج الساحر من المعرفة والحسّ العالي بالعدالة والواجب .. ومن ثمّ الكتابة في ملحق "نوافذ" المستقبل الثقافي، حين كانت الكتابة المتواصلة لسنوات عن تفاصيل ما فعله البعث بالقاع السوري، الذي أتيتُ منه، بمثابة ردّ للاعتبار الوجداني. ولا يخفى طبعاً بأن المشاركة في الثورة منذ لحظاتها الأولى، كانت التتويج الأعلى لنيل الاعتراف بالبراءة، من الذات أوّلاً. لم يدم تفاعلي في مؤسّسة رديفة لحزب البعث سوى سَنَتَيْن في عمر اليفاعة الأولى، احتجتُ بعدها لسنوات لالتئام ذلك الجرح. فيما بعد، وطَوالَ سنوات، كان ثمّة في أوقات متقطّعة ابتزازات واتّهامات لا تستحقّ الردّ والاهتمام، لأنها بجوهرها كانت جزءاً من ثقافة التخوين والعَمَالة و"التشبيح الرمزي" التي عصفت كلّها بالمُجتمع السوري، خلال سنوات الاستبداد الطويلة. الكل كان يستخدمها بحقّ الكل.

هل أخطأتُ، طبعاً ـ بالرغم من القليل الذي أظنّني ارتكبتُهُ ـ والعدالة تستوجب الاعتذار؟ أعتذر لأني كنتُ بعثياً ولو ليوم واحد. البعث وتنظيماته تكوينات فاشية. وما استهلكتُهُ في المسابقات التي كانت تُنظّمها منظّمة الشبيبة، كان يجب أن يُصرَف على عموم يافعي سوريا.

***

بالنسبة إليّ، كانت المدرسة الفضاء الأوّل لتجاوز الطفولة، لكني بالتقادم اكتشفتُ مدى ما كانت عليه هذه "المدرسة" السورية تأسيسية لكلّ سوريا التي اكتشفتُها فيما بعد. ساعدني تكوين تلك العلاقة المُركّبة والمُعقّدة بين المدرسة وشكل ومصير سوريا فيما بعد، على عملي كباحث في شؤون التعليم في سوريا.

عملتُ باحثاً مُشرفاً في البرنامج المعرفي لغرب آسيا في مُنظّمة هيفوس الهولندية لسنوات. ومن المُعطيات التي علقت في ذهني من خلال أحد البحوث أنه خلال عام ١٩٨٣، كان مجموع طلاب الصّفّ الأوّل للمرحلة الابتدائية في ذلك العام ٣٢٩٠٠٠ طالباً، لكن طلاب الثاني الثانوي بعد عقد من ذلك التاريخ عام ١٩٩٣ (من المفترَض أن يغدو طلاب الصّفّ الأوّل الابتدائي، طلاباً في الصّفّ الثاني للمرحلة الثانوية بعد عقد) بلغ ٥٤٥٠٠ طالباً فقط. أي أن التّسرّب طاول ٨٢٪ من مجموع الطلاب الداخلين للسِّلْك التعليمي في ذلك العقد. وأرقام العقد الذي يليه تذهب للتوضيح (مجموع طلاب الصّفّ الأوّل من المرحلة الابتدائية ١٩٩٢ ما مجموعه ٥٠٠٠٠٠ طالباً، لكن طلاب الثاني الثانوي بعد عقد من ذلك التاريخ عام ٢٠٠٢ (من المفترَض أن يغدو طلاب الصّفّ الأوّل الابتدائي، طلاباً في الصّفّ الثاني للمرحلة الثانوية بعد عقد) بلغ عام ٢٠٠٢ فقط ٧٥٠٠٠ طالبا فقط، أي أن مؤشّر نسبة التّسرّب من المدارس خلال هذا العقد قد بلغ أيضاً قرابة ٨٣ في المئة من مجموع الطلاب). ما الذي يمكن أن يُنتجه هذا الإيغال في تجهيل المُجتمع السوري لعقود وعقود، سوى المزيد من النكوص المُجتمعي؟!

توضح معطيات أخرى بأن سوريا تحتلّ مركزاً متأخّراً في شأن انتشار الأُمّيّة (تحتلّ سوريا المركز ١١٩ من أصل ١٧٧ دولة من حيث انتشار الأُمّيّة،

حسب برنامج الأمم المتّحدة التنموي لعام ٢٠٠٧)، لكن الخاصّيّة السورية تكمن في الفروق الشاسعة لانتشار الأُمّيّة في أوساط الذكور والإناث، حيث تقارب نسبة الأُمّيّات ثلاثة أضعاف نسبة الأُميّيْن. وإذ لا يذكر التقرير أرقام الأُمّيّات السوريات، لكنه يشير إلى نسبة النساء السوريات اللواتي لم ينهينَ المرحلة التعليمية الابتدائية عام ١٩٩٤ كان ٣٠,٢٪ منهن، لترتفع تلك النسبة وتغدو ٣١,٨٪ عام ٢٠٠٠، ثمّ لترتفع من جديد عام ٢٠٠٣ لتغدو ٣٢,٣٪ ولو أخذنا بالحسبان المستوى المتواضع للتعليم في مراحله الأولى في سوريا، يمكن الاعتقاد وقتها أن الأُمّيّة بمعاييرها الدولية الرصينة، تطال نصف النساء السوريات تقريباً. خصوصاً في عهد الإصلاح والتحديث مع الأسد الابن!.

لكن الأرقام الأكثر فجاجة وتعبيراً عن الخراب الذي أصاب حضور المرأة السورية، هي التي تمسّ حالتهن في العقد الأخير من تاريخ سوريا المعاصر. فخلال عقد كامل (٢٠٠١-٢٠١١)، ومع الإصلاحات الاقتصادية الموعودة كلّها، وبينما زاد حجم الذكور في الحقل الاقتصادي قرابة نصف مليون مشتغل، فإن أعداد النساء المشتغلات قد انخفض قرابة الربع، لتُشكّل نسبة ١٢٪ فحسب من مجموع المشتغلين السوريّيْن. فعام ٢٠٠١ كان عدد المشتغلات السوريات هو ٨٠٣٠٠٠ عاملة، ليهبط بعد عقد كامل، ليغدو فقط ٤١٥٠٠٠ عاملة، حدث ذلك مع الزيادة السّكّانية كلّها التي طالت أعداد السوريات الطالبات للعمل. كان هذا العدد البسيط هو من قرابة خمسة ملايين سوري، كانوا ينشطون في سوق العمل السورية.

على المنوال نفسه، تشير أرقام التقرير إلى أنه عام ٢٠٠٠ كانت نسبة العاطلات عن العمل ٣١ في المئة من مجموع الطالبات لعمل دائم، لكن ذلك الرَّقْم ارتفع عام ٢٠١١ ليغدو ٧١ في المئة. وأنهنّ كنّ يُشكّلن ٥٥

في المئة من العاملين بالقطاع الزراعي عام ٢٠٠١، لينخفضنَ بعد عقد من السياسات الليبرالية العدوانية تجاه الريف السوري، ويصبحنَ فقط ١٢ في المئة من العاملات في الحيّز الزراعي.

***

في مباني المدارس، اكتشفْنا الأسئلة والمعاني والهويّات والانتظام وروح المؤسّسة والتنافس. في تلك المباني، اكتشفْنا غنى العالم الاجتماعي لبيئتنا المحيطة. وعلى الخطّ نفسه ذقْنا طعم القهر الأوّل. قهر يبتغي الترويض أوّلاً، حيث كانت المسيرات الطويلة التي نخرج بها كَطَلَبَة أولى أعمال الترويض تلك. كلّ عام نخرج في عشرات المسيرات التي تجوب المدينة كلّها، لكثير من المناسبات "الوطنية" و"القومية". في واحدة من تلك المسيرات التي خرجْنا بها، والتي من الصعب أن ننساها، كانت مُعلّمة الصّفّ الثالث تُجهّزنا للمسير حين سألت الطَّلَبَة إن كان أحدهم يملك صورة كبيرة في البيت، ليحملَها في المسيرة. فرفع محمّد علي يده قائلاً: "نحنا بالبيت عنّا صورة كبيرة"، فطلبت المُعلّمة منه أن يأتيَ بها مسرعاً. قفز محمّد علي مُهرولاً. دقائق قليلة، وعاد مُمسكاً بصورة رجل ستّينيّ بشاربَيْن كرديَّيْن كَثَّيْن، قائلاً: "هاي صورة جَدّي تبع الصالون، وفي صورة لأبوي وأُمّي بغرفة النوم كمان". انفجرت المُعلّمة في وجهه قائلة: "ولك أنا عم قول صورة للسَّيِّد الرئيس، وأنت رايح جايبلي صورة جدّك"! أقسمت المُعلّمة أن ترفعه "فَلَقَة" حين نعود من المسيرة. ثمّ كانت حكاياتنا الطويلة مع الصور التي ملأت حياتنا رغماً عنّا.

كانت مدارسنا بمراحلها كلّها صورة كبيرة عن "سوريا الأسد" التي غرقت في أوحال الأبدية والواحدية، وحين انتفضت على "أسدها" يوماً فيما بعد، حطّمها ريفاً ومُدُناً وقصبات، بالضبط كما كان يفعل مُديرو مدارسنا معنا من قبل، وما زالوا يفعلون ذلك جيلاً بعد جيل.

فهرس المحتويات

تقديم / أحمد بيضون ٥

مُقدّمة الرُّواة/ رستم محمود ١٧

أيّام المدرسة / فاروق مردم بك.. ٢٥

سنواتُ الترحال / ممدوح عزّام ٥١

ذاكرةُ المكان / صالح الحاجّ صالح ١٠٩

ورد وشوك / كوليت بهنا..١٦٧

في معهد الأخوّة الخاصّ جدّاً .... / سلام كواكبي ٢٠٣

حياة موازية كانت هناك / روزا ياسين حسن............٢٢١

مدرسة الأسد / رستم محمود ٢٧٣

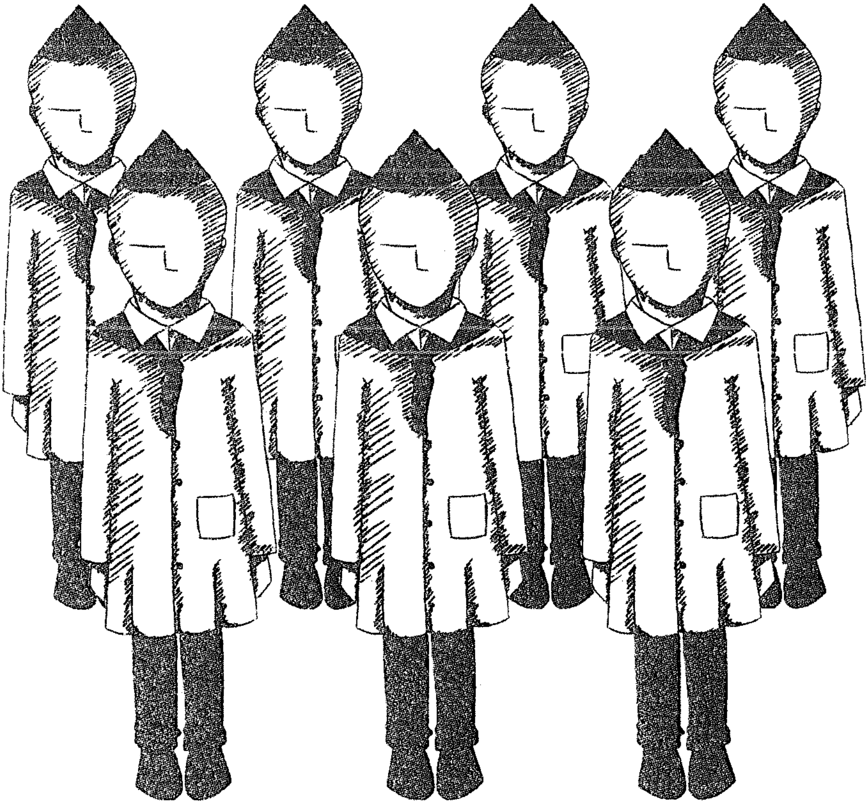

من الكتاب:

فيما كانت الطالبة سيّئة الحظّ ماتزال ترتجف، كعنزة وقعت في ساقية، وشفتاها زرقاوان، راحت الآنسة „جهينة" تدور بين صفوفنا المرتّبة كجيش ذاهب للتوّ إلى المعركة. ليست صفوفنا وحدها التي كان عليها أن تكون كصفوف الجند، ولكنْ، أشكالنا أيضاً، أيّ مَلمح أنثوي قد يبدو على إحدانا سيكون كفيلاً بجعلها تدفع الثمن غالياً. أيّ مَلمح، وأقصد بالفعل أيّ مَلمح: ظفر خرج قليلاً عن الأصبع ستحفّه الآنسة „جهينة" بالحائط حتّى ينزل الدم من السلاميات! بقايا لامرئية لحُمرة شفاه من ليلة البارحة ستُكلّف صاحبتها صفعتَينْ مهولتَينْ على الفم، تجعله يتورّم لأيّام، فيبدو كمنقار البطّة! جوارب ملوّنة مخفيّة تحت البنطال العسكري الطويل ستُجبر مرتديتها على أن تقطع الساحة المكشوفة أربع مرّات زحفاً على أكواعها وركبها!

روزا ياسين حسن

المتوسط

يحاول هذا الكِتاب تقديم قراءة ما عن أحد أوجه تاريخ سوريا، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ومعرفياً، من خِلال سرد حكايات ورؤى ومشاهدات للحياة المدرسيّة، لعدد من الكُتاب السوريين، المُنتمين لحساسيات ومناطق وأزمنة سورية مُختلفة.

الحياة المدرسيّة في سوريا، كما كُل المؤسسات والحيوات العامة الأخرى، لم تكن معزولة عن كامل الديناميكيات والأحوال السوريّة الأخرى، الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وأولاً السياسيّة، السوريّة الأخرى. وحينما يسعى الكِتاب نحو تقديم سرديّة وتحليل وتفكيك لتلك الحياة المدرسيّة السوريّة، فأنه في وعيه المستبطن يسعى لأن يُقدم فهماً ورؤية وصورة ما عن سوريا. كانت هذه الصورة، لأسباب عديدة ومركبة، مُهمشة ومقصيّة ومكبوتة، لصالح رؤى سُلطويّة ومركزيّة أخرى.

ليس في الكِتاب خُلاصات أو نتائج. لكنه في المقابل يحبو نحو القول بأن الخطوط الحمراء، السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، الطائفيّة والمذهبيّة والقوميّة والجماعاتيّة، العامة والذاتية منها على حدٍ سواء، أنما منعت وكبتت الكثير من المساعي لقول الكثير من الأشياء عن سوريا، باعتبارها جُغرافيا ومُجتمع وحياة مُتراكمة ومتراكبة من عديد الأجيال والحساسيات والرؤى. سوريا التي صارت بؤرة لأفظع ما في العالم المعاصر، والأكثر ألماً فيه، لذا تستحق أن يُسرد عنها أعمق واسهل ما يُمكن قوله.

ISBN 978-88-85771-69-7

المتوسط